سلسلة المعتمد بن عباد للتاريخ الأندلسي ومصادره

5

كتاب التبيان

للأمير عبد الله بن بلقين

آخر امراء بني زيري بغرناطة

حقق المخطوط وقدم له وعلق عليه

الدكتور أمين توفيق الطيبي

منشورات عكاظ

سلسلة المعتمد بن عباد للتاريخ الأندلسي ومصادره

5

كتاب التبيان للأمير عبد الله بن بلقين
آخر امراء بني زيري بغرناطة

حقق المخطوط وقدم له وعلق عليه
الدكتور أمين توفيق الطيبي



الاهداء

الى والديَّ

ترحماً وعرفاناً بالفضل والجميل

سلسلة المعتمد بن عباد
للتاريخ الأندلسي ومصادره

تعتبر سلسلة المعتمد بن عباد للتاريخ الأندلسي ومصادره أول سلسلة تعنى بالتاريخ الأندلسي يصدرها ناشر مغربي . تشمل أساسا مجموعة من الدراسات الجامعية المتخصصة والجادة حول التاريخ الأندلسي ومصادره ، وضعها متخصصون في التاريخ الأندلسي في الجامعات المغربية وفي دول إسلامية وأوربية كليبيا والعراق وإسبانيا . والهدف الرئيسي لهذه السلسلة يتجلى في التعريف بالتاريخ الأندلسي ومصادره من جهة ، وربطهما بتاريخ العالم الاسلامي وأوروبا من جهة أخرى . كما تركز على جوانب معينة من التاريخ الأندلسي محددة من حيث الزمان والمكان والمحتوى والمنهج ومعتمدة مناهج متعددة الأبعاد مركزة على التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي للأندلس بهدف إعادة تركيب جزء من الواقع التاريخي الأندلسي والاسهام في تكوين تصور شمولي له . ويعتبر التوثيق الدقيق من الشروط الضرورية في الدراسات التي تشملها هذه السلسلة . كما تتميز هذه الدراسات بالتنوع ، علاوة على جديتها ، لأنها تعالج قضايا حاسمة وتطرح إشكاليات تاريخية أندلسية مختلفة ذات أهمية كبرى ، ليس في إطار التاريخ الأندلسي فحسب ، نظرا لارتباطها بالتاريخ المغربي والاسلامي والأوربي وانعكاساتها عليها .

نرجو أن تساهم سلسلة المعتمد بن عباد في تقريب التاريخ الأندلسي من المؤرخين وطلبة التاريخ في المغرب على وجه الخصوص ، إلا أننا متأكدون من الاهتمام الذي سوف تحظى به إن شاء الله خارج حدود المغرب – في إسبانيا وفي العالم العربي – وذلك لسببين أساسيين : أولهما تفتحها الذي يبدو واضحا في مشاركة متخصصين جامعيين بارزين من دول مختلفة وهذا يعني إغناء السلسلة بتقاليد ثقافية متنوعة ، وثانيهما اعتبار هذه السلسلة منبرا للمؤرخين الجامعيين المغاربة المتخصصين

في التاريخ الأندلسي محققين بذلك أول نواة للمدرسة التاريخية المغربية – الأندلسية . وتجدر الاشارة إلى وجود اهتمام كبير بالتاريخ الأندلسي في الجامعات الاسبانية والعربية نظرا لاعتقاد شعوب متعددة أن التاريخ الأندلسي يشكل جزءاً من تاريخها ومن تراثها الثقافي . وفعلا لا يمكننا أن نرفض علاقة التاريخ الأندلسي بالتاريخ الاسباني والتاريخ العربي والتاريخ الاسلامي وبتاريخ الجالية اليهودية في إسبانيا وفي شمال إفريقيا . هناك ارتباط روحي وثقافي تاريخي بالأندلس في أقطار تمتد من المغرب الأقصى إلى مصر وفلسطين وتركيا وباكستان .

إننا نحاول جميعا أن نفهم التاريخ الأندلسي فهما أعمق ، وهو ليس بالأمر السهل . ولقد أدى هذا التيار إلى بروز عدد من المتخصصين في الجامعات الاسبانية والمصرية والعراقية وغيرها . كل هؤلاء حاولوا فهم التاريخ الأندلسي فهما أعمق لفهم تاريخهم وأنفسهم فهما أدق . ونحن في المغرب أيضا نحاول أن نفهم التاريخ الأندلسي لنفهم أنفسنا فهما أعمق . وسوف تساهم سلسلة المعتمد بن عباد في تحقيق هذا الهدف العلمي السامي بحول الله .

الدكتور امحمد بن عبود
أستاذ التعليم العالي
كلية الآداب بتطوان

المحتويات

الاهداء

كتاب (التبيان)

مقدمة المحقق

1 - الخلفية التاريخية

شهدت بلادُ الأندلس عصرها الذهبي في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي في فترة خلافتيْ عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله) وابنه الحكم الثاني (المستنصر بالله) . فعلى يد الناصر توحدت الأندلس وقُمعت الثورات الداخلية ، وأقيم جيش قوي ، وهُزمت الممالك النصرانية في شمال اسبانيا وأُجبرت على اعلان ولائها للناصر . وفي شمال افريقيا تمكن الناصر من إحراز موطئ قدم ثابت عبر بحر الزقاق ، وبذلك وضع حداً لتوسع الدولة الفاطمية الناشئة في افريقية في اتجاه المغرب . وحذا الحكم المستنصر حذو والده ، فاحتفظ بقوة الخلافة الأموية في قرطبة وتماسكها . الا ان المستنصر قبيْل وفاته جانبَ الصوابَ في تسمية ابنه الوحيد - وكان صبيا - وليا للعهد ، متجاوزا الكثيرين من إخوته وأبناء عمومته ممن كانوا اكفأ وأقدر من ابنه . وكما كان متوقعا ، فانه على اثر وفاة المسنتصر (366هـ / 976م) قام صراع على السلطة بين العناصر الأندلسية في البلاط - وعلى رأسها جعفر المصحفي حاجب المستنصر وموضع ثقته - وبين رجال البلاط من الصقالبة ، ادى الى فوز الأندلسيين الذين أرادوا تولية هشام بن الحكم بدلا من عمه المغيرة ، مؤمِّلين بذلك الاحتفاظ بالسلطة في أيديهم . ومع ذلك ، فقد استمر الصراع على السلطة ، ونجح آخرَ الأمر اندلسي من اصل عربي - محمد بن ابي عامر - في التخلص من كافة منافسيه ، بمن فيهم المصحفي ، وحل محله حاجبا للخليفة هشام بن الحكم .

اشتهر ابن ابي عامر بلقبه المنصور الذي تلقب به بفضل انتصاراته المتواصلة على النصارى في شمال اسبانيا ، وحقق للأندلس فترة طويلة من الأمن والرخاء (368 - 392هـ / 978 - 1002م) . وقد قام المنصور - للاحتفاظ بالسلطة وبولاء الجيش - بانشاء جيش نظامي ثابت ضم في معظمه عناصر من البربر استقدمهم من شمال

افريقيا ، بدلا من جيش كان الى عهده يقوم على جماعات قبلية تحارب تحت ألوية زعمائها(1) .

وبعد وفاة المنصور ، خلفه في منصب الحجابة ابنه الأكبر عبد الملك ، الذي انتهج بنجاح سياسة ابيه النشطة تجاه النصارى في شمال اسبانيا ، واستدعى المزيد من البربر من شمال افريقيا للالتحاق بجيشه لما عُرف عنهم من جرأة وكفاءة في ميدان القتال . وكان من بين هذه العناصر الجديدة نفر من صنهاجة من المغرب الأوسط ، بقيادة زعيمهم المحنك والداهية زاوي بن زيري ، الذي كان المنصور قد أحجم عن السماح له بدخول الأندلس(2) .

وهكذا فإن الأندلس نعمتْ بفترة طويلة تقرب من قرن من الوحدة والاستقرار والرخاء ، ابتداء من عهد الناصر الى وفاة عبد الملك بن ابي عامر (399هـ / 1008م) بفضل وجود سلطة مركزية قوية في قرطبة . الا أن هذا الوضع الحميد انتهى تماما بعيْد وفاة عبد الملك . فقد خلفه حاجبا للخليفة هشام اخوه لأبيه عبد الرحمن الذي بان عجزه ، كما انه لم يَحْظَ بشعبية لكون والدته نصرانية ، اذ كانت ابنة شانجه الثاني ملك نبارة (ولذلك لُقِب عبد الرحمن بشنجول Sanchuelo وهي تصغير اسم جده شانجه) . ومما زاد الأمر سوءاً ان عبد الرحمن حمل الخليفة هشام – وكان دون خَلَف – على تسميته خليفة له ، مما اغاظ افراد البيت الأموي ، وقوبل باستنكار شديد من جانب أهل قرطبة المعروفين بتعلقهم الشديد بالبيت الأموي . وفي هذه الظروف ، انتهز أموي – محمد بن هشام بن عبد الجبار – فرصة خروج عبد الرحمن من العاصمة ، وقاد ثورة ناجحة ، وأرغم هشاما على التنازل له عن منصب الخلافة . وقد اتخذ ابن عبد الجبار لنفسه لقب المهدي ولم يُخْفِ كراهيته للبربر الذين كان العامريون قد استقدموهم الى الاندلس ، وكانوا من وراء استئثارهم بالسلطة . وقامت العامة في قرطبة – بتدبير وتحريض من المهدي – بنهب منازل البربر ، بل وتطاولت ايديها على شيخهم وزعيمهم زاوي بن زيري . ان سياسة المهدي هذه كانت السبب للفتنة الطويلة والمفجعة التي تلتْ ذلك ، والتي كثيرا ما يشير اليها المؤرخون الاندلسيون بالفتنة البربرية(3) . ونتيجة لذلك ، انحاز البربر الى أموي آخر – سليمان بن الحكم – فنصَّبوه خليفة تَلَقَّب بالمستعين ، واستولوا على قرطبة ونهبوا دورها وأوقعوا بسكانها (400هـ / 1010م) . ومع أن المهدي استرد المدينة لفترة قصيرة ، فان البربر اثبتوا مرارا تفوقهم القتالي على

(1) ابن عذاري ، 2 / ص 293 .
(2) الدخيرة ، 4 / 1 ، ص 81 . ابن عداري ، 3 / ص 263 .
(3) الدخيرة ، 1 / 2 ، ص 576 .

الأندلسيين ، ونجحوا آخر الأمر في استرداد قرطبة (شوال 403هـ / مايو 1013 م) . اما الخليفة الجديد سليمان ، فلم يكن له سوى سلطة اسمية ، واضطر الى تقسيم جنوب الأندلس بين مؤيديه من البربر : فكانت إلبيرة من نصيب صنهاجة بزعامة زاوي بن زيري ، وكان الجنوب من نصيب مغراوة ، وكانت جيان وما جاورها من نصيب بني برزال وبني يفرن الزناتيين ، وكانت شذونة ومورور من نصيب بني دُمّر وأزداجة[4] . ولما خلف – بعد أربع سنوات – علي بن حمود من خارج البيت الاموي سليمان المستعين في منصب الخلافة ، أيّد البربر علياً ، كما أيّدوا فيما بعد حمُّودياً ضد آخر من المطالبين بالخلافة ، مما يدل على أنهم كانوا يستهدفون توطيد أقدامهم في الاماكن التي ظفروا بها . وفي هذه الاثناء ، نُصِّب ثلاثة أمويين خلفاء في قرطبة خلال ثماني سنوات (414 – 422 هـ / 1023 – 1031 م) ، الا ان سلطتهم لم تتجاوز مدينة قرطبة وأحوازها . اما بقية اجزاء الاندلس فكانت تحت السيطرة الفعلية لعناصرَ من البربر او الصقالبة او الاندلسيين ، لم تكن على استعداد للتخلي عن السلطة او للخضوع لأية سلطة مركزية[5] .

ولوضع حد للفوضى السائدة في قرطبة ، ولحماية المدينة من هجمات جديدة من جانب البربر ، دعا ابو الحزم بن جهور من اعيان المدينة اهل قرطبة الى طرد جميع أفراد البيت الأموي من المدينة ، والى ان يعهدوا بادارة مدينتهم الى مجلس من الأعيان (422 هـ / 1031 م) ، محتذيا في ذلك حذو القاضي ابي القاسم محمد ابن عباد في اشبيلية قبله بثماني سنوات (414 هـ / 1023 م) .

ان سقوط الخلافة الأموية في قرطبة كان ايذانا ببدء فترة من تاريخ الأندلس تُعرف بفترة ملوك الطوائف ، وفيها ظهرت الى حيِّز الوجود في الاندلس اكثرُ من عشرين وحدة سياسية مستقلة . ومع ان معظم هذه الوحدات كانت دوَيْلات مدن صغيرة لم تعمِّرْ طويلا ، فان بعضها كان قويا وضم أراضي واسعة كاشبيلية وقرطبة وغرناطة وسرقسطة وطليطلة وبطليوس .

2 – مصادر تاريخ فترة مالك الطوائف

قبل العثور على مخطوط كتاب (التِبيان) في الثلاثينات من هذا القرن ، كان مصدرنا الرئيسي لتاريخ الأندلس على عهد ملوك الطوائف الى منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي المؤرخَ القرطبيَّ المعاصرَ للأحداث ابا

(4) ابن عذاري ، 3 ص 113 وما بعدها . أعمال ، 121 . HEM ، 2 / ص 322 وما بعدها .
(5) الذخيرة ، 4 1 ، ص143 وما بعدها . اعمال ، 144 .

مروان بن حيان (ت 469 ه / 1076 م) ، وعليه كان اعتماد كافة المؤرخين الأندلسيين من بعده في تأريخهم لتلك الفترة . ولسوء الحظ ، فان تاريخ ابن حيان الكبير – وهو كتاب (المتين) في ستين مجلدا – لم يصلنا الا في مقطوعات وشذرات احتفظ بمعظمها ابنُ بسام الشنتريني في كتاب (الذخيرة) . ان ابن بسام – وهو اساسا مؤرخ للأدب – يورد رواية ابن حيان بالنسبة للفترة الى عام 456 ه / 1064 م ، ثم يزودنا بروايته هو بالنسبة لما تبقّى من فترة ملوك الطوائف[6] .

ومن بين المؤلفين الأندلسيين المعاصرين الآخرين الذين تُلقي كتاباتُهم بعضَ الضوء على جوانب من التاريخ الأندلسي في فترة ملوك الطوائف الفقيهُ والمؤرخُ والأديبُ القرطبيُّ الشهيرُ ابن حزم (ت 456 ه / 1064 م) الذي تشتمل مصنفاته – وبخاصة رسائله وكتاباه (طوق الحمامة) و (نقط العروس) – على معلومات تاريخية مهمة عن الأحداث التي عاصرها وعن وجهات نظره بشأنها ، وصاعد ابن احمد الطليطليُ (ت 462 ه / 1071 م) صاحب كتاب (طبقات الأمم) الذي ينتهي بعام 460 ه / 7 – 1068 م . وللحُميْدي (ت 487 ه / 1094 م) من تلاميذ ابن حزم (جذوة المقتبس) ، وهو معجم تراجم وبه مقدمة عن أحداث النصف الأول من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي . ومن بين الجغرافيين البارزين احمد بن عمر بن أَنَس العُذري (ت 478 ه / 1085 م) ، الا ان روايته عن احداث عصره رواية مقتضبة ، ولا تكاد تتعدى دولة بني صمادح في مسقط رأسه المرية . اما الجغرافي الشهير ابو عُبيْد البكري (ت 487 ه / 1094 م) صاحب (المسالك والممالك) فانه يتناول الأحداث الى سنة 460 ه / 7 – 1068 م ، الا إنه لم تَبْقَ من الكتاب – لسوء الحظ – سوى قطعة قصيرة عن الأندلس .

يتضح مما تقدم ان كتاب (التبيان) يكتسب أهمية خاصة لدارسي تاريخ الأندلس في الفترة من سقوط الدولة العامرية الى خلع ملوك الطوائف (399 – 487 هـ / 1009 – 1094 م) . فالكتاب اولا يغطي تاريخ الثلاثين سنة التي تلت نهاية تاريخ ابن حيان ، وهي فترة كنا نستمدّ معلوماتنا عنها الى الآن من مؤرخين متأخرين لم يعاصروا احداثها . وثانيا ، فان الكتاب يتناول الأحداث والتطورات في النصف الأول من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، مما يساعد على التثبت مما ورد في رواية ابن حيان او هو يزوِّدنا بمادة جديدة . وثالثا ، فان كتاب (التبيان) لا يزوِّدنا بوجهة نظر احد ملوك الطوائف وحسب ، بل انه كذلك رواية ملك من اصل بربري ، بينما كانت المعلومات المتوفرة لدينا الى الآن عن الفترة تمثل وجهة

(6) الذخيرة ، 1 / 2 ، ص 608 .

نظر جانب واحد مشايع للأمويين ، ويمثل هذا الجانب كتاب اندلسيون – كابن حيان وابن حزم – عُرفوا بعدائهم الشديد لملوك الطوائف عامة ، وللبربر على وجه الخصوص .

وفي القرون الثلاثة التي تلت القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي تناول عدد من المؤلفين الأندلسيين والمغاربة فترة ملوك الطوائف مستمدين معلوماتهم من ابن حيان وبعض المصادر المتأخرة التي لم تصلنا . فكما تقدم ، صنَّف ابن بسام الشنتريني (ت 542 هـ / 1147 م) كتاب (الذخيرة) ، وهو ديوان أرخ فيه للأدب الأندلسي في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، وفيه يقتبس كثيرا من تاريخ ابن حيان ، ويضيف رواياتٍ قصيرةً من تأليفه – في نثر مسجوع تكثر فيه المحسِّنات اللفظية – عن النصف الثاني من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي . وترك لنا الفتح بن خاقان (ت 529 هـ / 1134 م) كتابيْ (قلائد العقيان) و (مَطْمح الأنفس) ، وهما يشتملان على تراجمَ للشخصيات الأدبية البارزَة في الأندلس في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، الا ان نثره المسجوع يصعب فهمه ، ومن الواضح ان ابن خاقان معنيٌّ بالمبنى اكثر من المحتوى . وترك لنا ابن عبدون الاشبيلي رسالة في القضاء والحسبة تلقي ضوءاً على الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في الأندلس ، وبخاصة في اشبيلية ، في عهد المرابطين في مطلع القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي .

وصنَّف ابن الصيرفي الغرناطي المولد (ت حوالي 557 هـ / 1162 م) تاريخا للمرابطين هو كتاب (الأنوار الجلية في اخبار الدولة المرابطية) ، وفيه تناول تاريخ الأندلس عامة وتاريخ مسقط رأسه غرناطة على وجه الخصوص . وقد ضاع هذا الكتاب لسوء الحظ ، الا ان ابن الخطيب احتفظ لنا بفقرات منه .

وأرَّخ ابن علقمة (ت 509 هـ / 1115 م) لمدينة بلنسية مسقط رأسه ، وبقيت لنا من تاريخه قطعة طويلة نسبيا عن محنة بلنسية وسقوطها في يد السيد الكنبيطور .

وثمة كُتَّابٌ من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي تغطي أعمالُهم جوانبَ من تاريخ الاندلس على عهد ملوك الطوائف من بينهم الشريف الادريسي صاحب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ، وابن بشكوال (ت 578 هـ / 1183 م) صاحب معجم تراجم هو كتاب (الصلة) ، وابن الكردبوس (ت في حدود 570 هـ / 1175 م) صاحب (كتاب الاكتفاء في تاريخ الخلفاء) .

وَمن أشهر كتَّاب القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ابو القاسم الملاَّحي الغافقي (ت 619 هـ / 1222 م) صاحب (تاريخ علماء إلبيرة) الذي لم

يصلنا كاملا ، وكثيرا ما يقتبس منه ابن الخطيب في تأريخه لمدينة غرناطة . كما أن من بين مؤرخي القرن السابع الهجري ابنَ الأبار البلنسي (ت 658 هـ / 1260 م) صاحب كتابيْ (الحلة السيراء) و (تكملة الصلة) ، وابن القطان صاحب (نظم الجُمان) وكثيرا ما يقتبس منه ابن الخطيب ، وعبد الواحد المراكشي وابن سعيد صاحبيْ (المُعجِب) و (المُغرِب) على التوالي ، ولو انه يطغى عليهما التأريخ للأدب .

إن الكثير من معلوماتنا عن الأندلس في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي مستمد من كتَّاب عاشوا في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي احتفظوا لنا بمقطوعات من مصادرَ سابقةٍ لم تصلنا . وفي مقدمة هؤلاء الكتاب ابنُ عِذارى المراكشي (صنَّف في حدود سنة 712 هـ / 2 - 1313 م) صاحب (البيان المغرب) وفيه - لسوء الحظ - فراغ بالنسبة لتاريخ الأندلس من عام 467 الى عام 495 هـ (1075 - 1102 م) ، باستثناء قطعة عن بلنسية ، وقطعة قصيرة جدا عن صاحب (التِبيان) نفسه . ومن بين المصنَّفات من القرن الثامن الهجري كتاب (روض القرطاس) لابن ابي زرع الفاسي ، ومعجم الحميري الجغرافي (الروض المعطار) ، ومُصنَّفان نجهل اسميْ مؤلفيْهما وهما (مفاخر البربر) و (الحلل الموشية) .

ان من بين مصادرنا الرئيسية عن تاريخ الأندلس - وبخاصة غرناطة - في عهد ملوك الطوائف الوزيرَ والمؤرخَ والأديبَ الغرناطيَّ الشهيرَ لسان الدين بن الخطيب (ت 776 هـ / 1374 م) ، ونخص بالذكر كتاب (الإحاطة في اخبار غرناطة) وكتاب (اعمال الأعلام) . ان مما يزيد من أهمية كتب ابن الخطيب أنها تشتمل على اقتباسات ومقطوعات من مصنَّفات مؤرخين كابن حيان وابن الصيرفي والغافقي وابن القطان ، وهي مصنفات إما انها لم تصلنا ، وإما انها وصلتنا جزئيا عن طريق الاقتباسات عنها .

وأخيرا تنبغي الاشارة الى كتاب (العِبَر) لابن خلدون (ت 808 هـ / 1406 م) ، وكتاب المقرِّي (ت 1041 هـ / 1632 م) (نفح الطيب) ، وهو كتاب موسوعيٌّ عن تاريخ الأندلس وأدبها يشتمل على مادة مقتبسة من مؤلفات تاريخية وجغرافية وأدبية سابقة ضاع الكثير منها .

3 – كتاب (التِبيان)

ا – اهمية الكتاب

ان كتاب (التِبيان) – كما تقدَّم – هو المصدر الرئيسي لمعلوماتنا عن احداث العشرين سنة الأخيرة من فترة ملوك الطوائف ، ففيها كانت حرب «الاسترداد» في أوجها ، وسقطت طليطلة في يد ملك قشتالة الفونس السادس ، وقدم المرابطون من المغرب عَوْنا لأهل الأندلس واستجابة لاستصراخهم ، وفيها تم خلع ملوك الطوائف . والى جانب (المتين) لابن حيان ، فان كتاب (التِبيان) هو كذلك مصدر مهم لتاريخ الأندلس في النصف الأول من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي . ومما يزيد من أهمية الكتاب انه ليس روايةَ شاهدِ عيانٍ معاصر للأحداث وحسب ، بل ان صاحبه أمير بربري ، وَلذلك فانه يعطينا وجهة نظر غيره من ملوك الطوائف فضلا عن رايه الخاص بشأن الأحداث التي وصفها وفسرها لنا مؤرخون اندلسيون معادون لملوك الطوائف عامة وللبربر على وجه الخصوص .

ومن بين النقاط المهمة التي يؤكدها الكتاب انقسامُ سكان الأندلس في القرن الخامس الهجري الى جماعتين عرقيتين – الاندلسيين والبربر(7) – والعُرْف الخاص بتقسيم الممتلكات عن طريق القرعة بين رؤساء البربر في الاندلس(8) ، والاسبابُ التي حدتْ ببادیس الى ان يتخذ كتابه ووزراءه من اليهود ، دون الاندلسيين أو البربر(9) ، ودَوْرُ النساء في مجتمع البربر ، وكان دَوْراً نشطا ، وكثيرا ما كان مهما(10) .

ويبين المؤلف بإسهاب – ومن خلال تجاربه الشخصية – سياسةَ الفونس السادس تجاه ملوك الطوائف ، من فرض الضرائب عليهم والايقاع فيما بينهم الى اخذ المعاقل وضم الأراضي الى ان تم له الاستيلاء على مدينة طليطلة . كما يصف المؤلف وصفا مؤثرا درجة التفسخ الاجتماعي والسياسي في الاندلس على عهده ، وضعف ملوك الطوائف وانقسام صفوفهم ومداخلاتهم لألفونس السادس ودسائسهم ضد بعضهم البعض .

وأخيرا فان المؤلف يصف الظروف التي جعلتْ ملوكَ الطوائف يستغيثون بالمرابطين وحماس الجماهير الأندلسية عامة وترحيبها بالمرابطين . ان روايتيْ المؤلف

(7) التبيان ، 61 .
(8) نفسه ، 59 – 60 .
(9) نفسه ، 68 .
(10) نفسه ، 75 ، 80

عن وقعة الزلاقة وحصار حصن ليبط تكتسبان اهمية خاصة اذ إنهما الروايتان الوحيدتان الباقيتان لرجل شارك بنفسه في الحملتين ، ولذلك فلعل قوله اكثر مدعاة للتصديق من الروايات التي تتَّسم بشيء من المبالغة لبعض المؤرخين المسلمين من بعده ، كروايات أصحاب (روض القرطاس) و (الروض المعطار) و (الحلل المَوْشيَّة)[11] .

ويؤكد المؤلف البياناتِ الصادرةَ عن المتأخرين والتي تقول إن يوسف بن تاشفين لم يكن يقوم باجراء ضد اي من ملوك الطوائف قبل استفتاء الفقهاء وقبل توفر مبرر مشروع كالتواطؤ مع النصارى[12] ، وان المرابطين استأنفوا الجهاد ضد النصارى بشمال اسبانيا فَوْرَ خلعهم لملوك الطوائف[13] .

ويشتمل الكتاب على بعض المعلومات الفريدة عن الأسباب التي جعلت زاوي ابن زيري يطلب الى اهل إلبيرة الانتقال الى جبل غرناطة الاكثر مناعة من موقع إلبيرة ، وبذلك هُجرت إلبيرة وآلت الى الخراب ، في حين ان غرناطة نمت وأصبحت حاضرة الاقليم وعاصمة دولة بني زيري .

ان ورود اسم عاصمة المرابطين الجديدة على صورة «مِروكش» مرتين في كتاب (التِبيان)[14] يؤكد بأن اسم المدينة التي اختطها المرابطون عام 462 هـ / 1070 م كان يُرسم ويُلفظ على هذا النحو من قِبَل مختطيها ، وعن طريق هذا الرسم لاسم المدينة المرابطية انتقل الاسم الى الاسبانية – Marruecos – والى غيرها من اللغات الأوروبية[15] .

ويمُدُّنا كتاب (التِبيان) بفكرة عن المستوى الرفيع من الثقافة والأدب الذي بلغه افراد الأسر الحاكمة والطبقات العليا في الأندلس في ذلك العهد ، ومما يترك مزيدا من الوقع في نفس القارئ ان الكتاب من تصنيف امير بربري الأصل والنشأة كانت اسرته حديثة العهد بثقافة الأندلس وحضارتها .

وأخيرا ، فان الكتاب تتخلله كلمات وعبارات وتعابير وأمثال عامية اندلسية تعطي فكرة عن العربية الدارجة السائدة في غرناطة في عهد المؤلف .

(11) القرطاس ، 95 وما بعدها . الروض ، 87 وما بعدها . الحلل ، 43 وما بعدها .
(12) التبيان ، 172 – 173 .
(13) نفسه ، 175 المعجب ، 170 .
(14) التبيان ، 140 ، 173 .
(15) انظر .
"Mémoires", *Al-Andalus*, 4 (1936), 107 n. 10.

ب – اشارة المؤرخين المتأخرين الى كتاب (التِبيان)

ان مخطوط (التِبيان) الذي عثر عليه إ . ليفي بروفنسال في اوائل الثلاثينات من هذا القرن لا يشتمل على عنوان الكتاب ، ولذلك فانه اشار اليه بادئ الأمر باسم «مذكرات» عبد الله آخر ملوك بني زيري في غرناطة[16] . وقد اشار ثلاثة من مؤرخي القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي – ابن الخطيب ومؤلف (الحلل الموشية) وابن الحسن النباهي – بالتحديد الى كتاب الأمير عبد الله ، الا ان العنوان الكامل للكتاب لم يورده غير النباهي .

يقول ابن الخطيب إنه لما زار أغمات في سنة 761 هـ / 1360 م أطلعه خطيبُ المسجد بها على تاريخ صدر عن أمير غرناطة ابي محمد عبد الله بن بلقين ايام اعتقاله في اغمات يشرح فيه «الحادثة على ملكه في اسلوب بليغ ختَمه بمقطوعات من شعره تشهد بفضله»[17] . وفي عمل آخر صنَّفه ابن الخطيب بعد ذلك يقول : «وقفتُ على ديوان بخطه الَّفه بعد خلعه بمدينة أغمات ، وقرر فيه احواله والحادثة عليه مما يُستظرف من مثله . اتحفني به خطيبُ المسجد بأغمات»[18] .

وعند كلام صاحب (الحلل المَوْشيَّة) عن خلع ملوك الطوائف على يد يوسف ابن تاشفين يذكر أن الأمير عبد الله بن بلقين استوفى الكلام في ذلك في الكتاب الذي الَّفه في دولة قومه[19] .

وفي أواخر القرن الثامن الهجري ، اقتبس قاضي الجماعة بغرناطة ابن الحسن النباهي بعض العبارات من كتاب (التِبيان) وأورد العنوان الكامل للكتاب وهو : التِبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة[20] .

جـ – تاريخ التأليف

لا شك في أن الأمير عبد الله قد فرغ من تأليف كتابه بعد أربع سنوات من تاريخ خلعه ، أي في الفترة ما بين منتصف سنة 487 هـ / 1094 م ونهاية سنة 488 هـ / 1095 م . فهو يختتم القسمَ التاريخيَّ من الكتاب بالحديث عن خلع المتوكل بن الأفطس أمير بطليوس (أوائل 487 هـ / أوائل 1094 م)[21] ،

(16) Al-Andalus, 6(1941), 55f
(17) نفاضة الجراب ، 56 .
(18) اعمال ، 235 .
(19) الحلل الموشية ، 58 .
(20) المرقبة ، 93 ، 97 .
(21) الحلة ، 2 / ص 102 .

وبالحديث عن الجهود التي بذلها المرابطون لتخليص بلنسية التي كان قد استولى عليها الكنبيطور في 30جمادى الأولى سنة 487 هـ / 17يونيو 1094 م[22] . أضف إلى ذلك أنه لو كان الأمير الزيري قد فرغ من تأليف كتابه بعد سنة 488 هـ / 1095 م ، فإن من المستبعد أن يُغفل ذكر وفاة أخيه تميم ووفاة المعتمد بن عباد أو حتى حرق قاضي بلنسية ابن جحّاف على يد الكنبيطور – وكلها أحداث وقعت خلال تلك السنة . لذلك فإنه يمكننا القول بأن كتاب (التِبيان) قد أُنجز مابين جمادي الأولى سنة 487 هـ / يونيو 1094 م ونهاية السنة التالية (488 / 1095) على الأكثر[23] .

د – المخطوط

لا توجد – على حد علمنا – غير نسخة واحدة من مخطوط كتاب (التِبيان) ، وهي النسخة التي عثر عليها إ . ليفي بروفانسال في مكتبة جامع القرويين بفاس . ويشتمل المخطوط على 80 ورقة من الورق السميك (23 × 31 سم) ، وفي الصفحة الواحدة ما متوسطه 20 سطرا . ويحمل المخطوط رقم 1886 في فهرس مكتبة جامع القرويين ، وهو مكتوب بخط جميل واضح اجمالا من الخط المبسوط الأندلسي . والمخطوط إجمالا في حالة جيدة باستثناء ورقتين متآكلتين في البداية والنهاية . وبالاضافة إلى فجوات قصيرة تبلغ في مجموعها ورقة واحدة[24] ، وعدد قليل من الفجوات التي أتت عليها الأَرضة[25] ، فإن في وسط المخطوط – لسوء الحظ – فراغاً مهما يغطي الأحداث والتطورات في السنوات الخمس الأخيرة من حكم باديس بن حبوس ، والظروف التي اكتنفت ارتقاء عبد الله عرش غرناطة خلَفاً لجده (460 – 465 هـ / 1068 – 1073 م) .

وليس في المخطوط ما يدل على تاريخ أو مكان نسخه ، كما أننا لا نعلم اسم الناسخ . ولا يستبعد ليفي بروفانسال أن يكون المخطوط هوالنسخة ذاتها التي اطلع عليها ابن الخطيب في اغمات ، أو نسخة أُخذت عنها وقورنت بها كما يستدل من تكرر ملاحظات الناسخ في الهامش – ''صح'' ، ''اصل''[26] .

(22) نفسه ، 2 / ص 126 .
(23) انظر الهامش رقم523 .
(24) التبيان ، 133 – 134 .
(25) نفسه ، 58، 60 ، 188 ، 193
(26) مذكرات الأمير عبد الله ، القاهرة 1955 ، المقدمة ، 6 – 7 .

وقد نشر ليفي بروفنسال قطعا من المخطوط في مجلة (الأندلس) – التي تصدر عن جامعتي مدريد وغرناطة – مع ترجمة فرنسية وبعض الهوامش[27] . وفي عام 1955 ، نشر ليفي بروفنسال في القاهرة النصَّ العربيَّ – بما في ذلك مقطوعات أخرى من المخطوط عثر عليها فيما بعد – وذكر في المقدمة بأنه يعتزم أن ينشر – بالتعاون مع ي . غارسيا غومس – ترجمةً إسبانيةً للكتاب مع مقدمة وافية وهوامش توضح وتشرح النقاط التاريخية والجغرافية الواردة في النص[28] . الا أن وفاة ليفي بروفنسال في عام 1956 حالت دون تحقيق هذا العمل[29] . وبناء على اقتراح من استاذي السابق بجامعة اكسفورد – الدكتور س . م . ستيرن – اضطلعتُ بمهمة اعادة تحقيق المخطوط ونقل نصه إلى اللغة الانجليزية وتزويده بمقدمة وشروح وتعليقات وافية .

فقمتُ في مطلع عام 1970 بزيارة مكتبة جامع القرويين بفاس ، وبعد التأكد من أنه لم يُعثر على نسخ أو قطع أخرى من المخطوط ، تفحَّصتُ المخطوط وقابلت كل كلمة فيه بما ورد في النص الذي طُبع من (التِبيان) . وفي ضوء ذلك ، ادخلتُ التصويبات اللازمة على النص المطبوع قبل القيام بترجمته إلى اللغة الانجليزية .

هـ – الأسلوب واللغة

صيغ كتاب (التِبيان) اجمالا بأسلوب نثري مرسل سلس غير مسجوع اشبه ما يكون بأسلوب نثر الجاحظ ، دون تنسيق أو زخرفة . فأسلوب الكتاب من هذه الناحية يختلف تمام الاختلاف عن ذلك الضرب من النثر الذي شاع في الأندلس بُعيد عهد الأمير عبد الله ، وهو نثر تميَّز بالسجع المزخرف ، واتسم بالتكلُّف والصنعة ، كما هو الحال في كتابيْ (قلائد العقيان) و (مَطْمح الأنفس) للفتح ابن خاقان ، وبشكل أقل في كتاب (الذخيرة) لابن بسام الشنتريني .

وفي الفصل الأول من الكتاب ، يذكر المؤلف نفسه أن المؤلف ''إن كان غرضه نظم الكلام وسجع اللفظ كان ذلك ضارا بالمعنى .. وإذا تمَّ المعنى نقص بعضُ اللفظ''[30] . لذلك فإن صاحب (التِبيان) اختار أن ينهج اسلوب الحديث

(27) Ibid, 6(1941), 6-54 . Al-Andalus, 3(1935), 265-344. Ibid , 4 (1936 - 9), 29 - 123 .

(28) مذكرات الأمير عبد الله ، نشر وتحقيق إ . ليفي بروفنسال ، القاهرة 1955 ، المقدمة ، 5 .

(29) وقد ظهرت الترجمة الاسبانية آخر الأمر عام 1980 :

«Memorias» de Abd Allàh último rey Ziri de Granada, destronado por los Almoràvides (1090), traducidas por E. Lévi-Provençal (ob. 1956)y Emilio Garcià Gómez, Madrid 1980 .

(30) التبيان ، 48

المتصل .

ان أسلوب الكتاب وأثره على القارىء يعززهما ويثريهما العددُ الوافرُ من الاقتباسات من – والاشارات إلى – القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية ، والأشعار ، والأمثال ، والأعمال الأدبية ، مما يشهد باتساع مجال قراءات مؤلفه وبتنوعها . وبالرغم من أن الكتاب يشتمل على عدد لا يُستهان به من الكلمات والعبارات الدارجة – وكثير منها مازال مستعملا في لغة التخاطب بأقطار المغرب – فإن أسلوبه ، كما يصفه الملاّحي الغافقي وابن الخطيب ، اسلوب سلس وبليغ[31] .

ان بعض الأمثال التي يستشهد بها المؤلف امثال تصويرية بديعة ، من بينها : ومن ثور حي لا يُلبس هراكيس ، فلا الحمار سقط ولا الزق انخرق ، والخباء لا يقف دون اوتاد .

ومن المظاهر الاملائية في المخطوط – كما هو الحال في كثير من النصوص العربية من القرون الوسطى – اسقاط الهمزة – ورانا ، توخذ ، بدلا من : وراءنا ، تؤخذ – أو الاستعاضة عنها بحرف الياء – خايف ، قايل بدلا من : خائف ، قائل – أو بحرف الواو في أول الكلمة – وخَّر ، ودَّب بدلا من : اخَّر ، ادَّب – ولعل ذلك كان بتأثير لهجة التخاطب في غرناطة حيث تسقط الهمزة تبسيطا ، كما هو الحال في معظم اللهجات العربية اليوم . كما يلاحظ بأن حرف الظاء يستبدل ، بتأثير لغة التخاطب العربية ، بحرف الضاد في كلمة ''حضا'' التي ترد ''حظا'' .

وثمة مظهر املائي غريب آخر في المخطوط – وهو تمش كما يبدو ، مع الاملاء الشائع آنذاك – فكلمتا ''الليل'' و ''لكنّ'' تردان على الصور ''اليل'' و ''لاكنّ'' .

وخلافا لما تقتضيه قواعد النحو والصرف العربيين – وكما هو الحال كذلك في بعض النصوص الأندلسية – فإن كلمات مثل : عسى ، افاء ، اطّبي ، يتحرَّى ، ترسم في المخطوط على صورة : عسا ، افى ، اطَّبا ، يتحرَّا[32] . كما أن تأثير لغة التخاطب يظهر في بعض صيغ الجموع – المطاحين ، الخواتيم ، بدلا من المطاحن والخواتم . ومن المظاهر الاملائية الأخرى للمخطوط – مع أن ذلك قد يكون خطأ من الناسخ – إضافة حرف الألف في آخر افعال المضارع الناقصة التي تنتهي بحرف الواو – كما في : نرجوا ، يبدوا ، بدلا من : نرجو ، يبدو .

(31) الاحاطة ، 3 / ص 379 . اعمال ، 235 .

(32) انظر افتتاح الأندلس ، 63 ، 79 ، 84 ، 92 ، 108 .

كما يبدو بأن المؤلف متأثر بلهجة غرناطة الدارجة في عدد من الحالات التي لا يلتزم فيها بمتطلبات قواعد الصرف العربي . وكما هو الحال في اللهجات العربية الدارجة اليوم ، نجده يستعمل صيغة الجمع حيث يقتضي الأمر استعمال صيغة المثنى – أعرض عليهم ، بدلا من : أعرض عليهما – أو صيغة جمع المذكر السالم حيث يقتضي الأمر استعمال صيغة جمع المؤنث السالم – قل لهم بدلاً من : قل لهن . وعلى نحو ذلك نجده يرتكب الخطأ المعروف ب ''لغة أكلوني البراغيث'' ، كما في : أغلوا اهل الهند ، بدلا من ''اغلى'' . وفي بعض الجمل الاسمية نجده يُغفل اتفاق الفعل مع المبتدأ – ان كبارهم يفسد صغارهم ، بدلا من ''يفسدون'' – ونلاحظ في إحدى الحالات أن اسم الاشارة لا يتفق من حيث التذكير والتأنيث مع الاسم الذي هو خبر له – هذا نار موقدة ، بدلا من هذه نار موقدة .

ومن الأمثلة الأخرى على الاستعمالات الدارجة في المخطوط : اتريد تقتلني ؟ بدلا من : اتريد أن تقتلني ؟ ، استعدت ، فألحت ، بدلا من : استعددت ، فألححت . وكما هو شائع في اللهجات العربية بالمغرب اليوم ، فان المؤلف – ولعله الناسخ – ينزع إلى استعمال ضمير المتكلم للجمع بدلا من ضمير المتكلم للمفرد ، ويضيف أحيانا واوا في آخر الكلمة ، كقوله : نأمنوه ، نتركوا ، بدلا من : آأمنه ، أترك . ونجد أحيانا أنه يستعمل ضمير المتكلم المفرد وضمير المتكلم للجمع في نفس الجملة ، كقوله : لو أني نقصد ، لن أجد فرصة نحظى بها .

ومن الواضح أن بعض الأخطاء النحوية ترجع إلى تأثير العربية الدارجة في غرناطة ، وهي ما زالت شائعة في اللهجات العربية اليوم ، ومثال ذلك :

كيف يريدوا ، جيش يكلّفوه ، أن ينقلون ، الا يلقونه ، امتلأت خديه ، انهم زحليين .

ومن بين الاستعمالات الغريبة استعمالُ ''عسى'' قبل فعل في صيغة المضارع دون أن تسبقه ''أن'' ، وكذلك استعمال ''ألا'' بدلا من ''لئلا'' : عسى يضعها في يديه ، ثقّفتُ العسكر ألا يطيش منه أحد .

ويشتمل (التبيان) على عدد من المفردات ذات الأصول العامية – ''متاعي'' بمعنى لي أو ملكي – أو من أصل بربري – ''هراكيس'' بمعنى النعل أو السبّاط – فضلا عن جملة من الكلمات والعبارات ذات المدلول الخاص ، وكثير منها ما زال متداولا في أقطار المغرب . مثال ذلك : حصل ، علامات ، شتوة ، فشل ، نعاس ، البُريح ، الكانون ، الملعب ، البراني ، تنشب ، في حال ، البادية ، التغريب ، مغلق ، تقلّع ، تلوّم ، تخدّم ، الرقاصة ، خادم ، احصر ، انبسط .

ومن الطريف أن نلاحظ اشتقاقَ المؤلف للفعل ''تبرمك'' من ''برمكي'' ، بمعنى استبد وتكبَّر .

الا أن قارئ (التِبيان) ممَّنْ له إلمام باللهجات العربية السائدة اليوم في اقطار المغرب لن يجد عناء في فهم الكثير من المفردات والعبارات والاصطلاحات الأندلسية الواردة في الكتاب ، وهي مفردات وعبارات قد تبدو غريبةً بعض الشيء وقد يتعذر فهمها على القارئ الذي لا يعرف غير العربية الفصحى . وبالرغم من هذه الاصطلاحات الأندلسية والغموض في بعض اجزاء النص والأخطاء الاملائية والنحوية القليلة ، فان قارئ (التِبيان) سيُعجب دون شك بأسلوبه المُرسَلِ ، وبالمعلومات والثقافة العامة لدى مؤلفه ، خصوصا إذا اخذنا بعين الاعتبار بأن المؤلف لم يحترف الكتابة ، وبأنه صنَّف كتابه على عجل ، وفي ظروف صعبة .

4 – دولة بني زيري في غرناطة : تحليل نقدي لرواية المؤلف

ا – زاوي بن زيري (حَكَم 403 – 410 هـ / 1013 – 1019 م)

كان زاوي بن زيري وابنا أخيه ماكسن من بين زعماء البربر البارزين الذين كان المنصور محمد بن أبي عامر وابنه عبد الملك قد استدعياهم من شمال إفريقيا للمشاركة في الجهاد في الأندلس . وبعد سقوط الدولة العامرية ونشوب الفتنة في الأندلس ، اعتزم زاوي العودة إلى شمال إفريقيا ، إلا أنه – كما يقول الأمير عبد الله – بدَّل رأيه حينما طلب إليه أهل إلبيرة حمايتهم . واتباعاً لعُرفٍ بربري قديم بشأن قسمة الميراث عن طريق القرعة ، كان من نصيب زاوي إلبيرة ، وكانت جيان وحصن آشر من نصيب ابن أخيه حبوس . وقد أخذ زاوي وحبوس على نفسيهما عهداً بالتناصر في وجه أي تهديد خارجي لأي منهما .

ولما كان زاوي يُدرك عداء الأندلسيين تجاه البربر ، فإنه اقترح على أهل إلبيرة الانتقال إلى الجبل الذي يقوم عليه حصن غرناطة ، فتمَّ ذلك وهُجرت إلبيرة وخربتْ . وكما كان متوقعا ، لم يلبث الأندلسيون – وعلى رأسهم الخليفة الأموي المرتضى – أن شنوا هجوما انتهى بهزيمتهم في ظاهر غرناطة .

ومن الغريب أن زاوي قرر العودة إلى القيروان بُعيْد انتصاره على الأندلسيين لأنه كان يشعر دائما بعداء الأندلسيين وتفوقهم العددي ، ولأنه – كما يبدو – كان يصبو إلى أن يظفر بعرش القيروان ، وكان يشغله آنذاك صبي من بني زيري ، وهو ابن لحفيد بلقين شقيق زاوي . الا أنه ما إن بارح زاوي غرناطة في طريقه

إلى افريقية حتى استدعى اعيان غرناطة حبوس بن ماكسن – ابن أخي زاوي – ليكون أميراً عليهم .

ويلاحظ أن الأمير عبد الله يغُفل في روايته بعض الأحداث المهمة التي وقعت آنذاك في شمال افريقيا والأندلس ، فهو لايشير مثلا إلى العداء الشديد الذي كان قائما آنذاك بين صنهاجة وزناتة مما أدى إلى لجوء عدد كبير من زناتة إلى الأندلس في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي(33) . كما أنه لايشير إلى المنازعات الداخلية بين ابناء زيري بن مناد ، مما حفز زاوي على استئذان العامريين للجواز إلى الاندلس بعد مصرع أخيه ماكسن في معركة مع أمير إفريقية الزيري باديس بن المنصور(34) . ان ذلك يحمل على الافتراض بان الأمير عبد الله لم يرغب في لفت الانتباه إلى هذه الانقسامات في صفوف البربر عامة ، وبين بني زيري على وجه الخصوص .

وفضلا عن ذلك ، وخلافا لما جاء في رواية الأمير عبد الله ، فإن ابن حيان يذكر أن المنصور بن أبي عامر كان شديد التردد في السماح لزاوي وأتباعه بالقدوم إلى الأندلس لما عُرف عن زاوي من الدهاء والمكر . الا أن ابن المنصور وخَلَفه عبد الملك تغاضى عن ذلك وأذن لزاوي بالجواز إلى الأندلس مع رجاله(35) . ولعلَّ ما حدا بالأمير عبد الله إلى الاكتفاء بما أورده رغبته في أن لا يسيء إلى سمعة زاوي ، ورغبته في الوقت ذاته في استغلال هيبة المنصور وصيته .

ومن الغريب كذلك ان المؤلف يمر بسرعة بالفتنة التي نشبت في الأندلس بعد سقوط الدولة العامرية ، في حين ان الكتَّاب الأندلسيين المعاصرين يؤكدون على دَوْر البربر الكبير – بل والحاسم – في تلك الفتنة التي يذهب ابن حيان إلى نعتها بالفتنة البربرية(36) . ان البربر هم الذي نَادَوْا بسليمان المستعين خليفة ضد المهدي ، وهم الذين عاثوا بقرطبة ومدينة الزهراء ، وأوقعوا دمارا كبيرا وخسائر في الأرواح وتخريباً للممتلكات في الأجزاء الجنوبية من الأندلس ، بما في ذلك كورة إلبيرة(37) . ولما دخل البربر مدينة قرطبة للمرة الثانية فرضوا على الخليفة سليمان الذي نصَّبوه قسمة كُوَر جنوب الأندلس بين مؤيديه من البربر ، فكانت كورة

(33) المقتبس ، 7 / 32 وما بعدها . ابن عذاري ، 2 / 293 وما بعدها . الاحاطة ، 1 / 432 .

(34) ابن عذارى ، 3 / 263 . الاحاطة ، 1 / 432 . اعمال ، 227 .

(35) الذخيرة ، 4 / 1 ، ص 81 . ابن عذارى ، 3 / 263 .

(36) الذخيرة ، 1 / 2 ، ص 576 . أعمال ، 227 .

(37) جذوة ، 19 . الحلة ، 2 / 5 وما بعدها . ابن عذارى ، 3 / 102 ، 104 . اعمال ، 227وما بعدها . الاحاطة ، 1 / 514 .

إلبيرة بالتالي من نصيب زَاوي وأقربائه[38] . وعلى ذلك فإن من المستبعد جدا ان يكون قدوم زاوي إلى إلبيرة قد حدث – كما يزعم الأمير عبد الله – تلبية لدعوة من أهلها ، اذا اخذنا بعين الاعتبار ما عانَوْه على يديه .

ولا يقل عن ذلك مدعاة للدهشة ان نجد المؤلف يُغفل ذكر وفاة الخليفة الشرعي هشام المؤيد الذي يُحتمل أن يكون قد لقي مصرعه بُعيْد استرداد سليمان وأنصاره من البربر مدينة قرطبة في 27 شوال 403 هـ / 11مايو 1013 م[39] . كما أن الأمير عبد الله لا يذكر شيئا عن تخلي صنهاجة عن سليمان الأموى ونقل ولائهم الى علي ابن حمود ، ثم مساندتهم لفريق من بني حمود ضد فريق آخر ، الأمر الذي يدل على أنهم لم يكونوا مخلصين في مساندتهم للحموديين ، وأن مصلحتهم كانت تكمن فقط في توطيد اقدامهم في الأراضي التي استحوذوا عليها .

ان هزيمة المرتضى – كما يقول ابن حيان – نتجتْ عن غدر مؤيِّديْه الرئيسيَّيْن خيران الصقلبي ومنذر بن يحيى . ويضيف ابن حيان بأنه عند انتهاء المعركة قال زاوي صراحة لرجاله بأن انهزام المرتضى ''لم يكن عن قوة منا . انما جرَّه – مع القضاء – غدر ملوكهم لسلطانهم ليُهلكوه كما فعلوا ، فإني عرفتُ ذلك من يوم نزولهم''[40] . وسواء اصحَّت رواية ابن حيان ام لم تصح ، فإن القارىء ينتظر من الأمير عبد الله نفيها أو تأكيدها ، وعلى ذلك فإن احجامه عن النفي أو التأكيد يجعلنا نعتقد بأن رواية ابن حيان هي الرواية الصحيحة .

ويُذكر أن حلالي – ابن زاوي – بقي في غرناطة بعد رحيل والده إلى إفريقية آملا في ان يسيطر على غرناطة بمساندة أهلها[41] . الا أن المؤلف لا يذكر شيئا عن ابن زاوي هذا ، ولعلَّ ذلك يرجع أولا الى أنه لم يُردْ أن يجعل إمارة حبوس موضع الريبة – وبالتالي ذريته من بعده بمن فيهم عبد الله نفسه – وثانيا إلى أنه لم يرغب في أن يلفت الانتباه إلى حدوث شقاق وقيام منازعات بين أبناء زاوي وبين ابن أخيه .

ب – حبوس بن ماكسن (حَكَم 410 – 429 هـ / 1019 – 1038 م)

لا يذكر المؤلف الكثير عن فترة إمارة حبوس بن ماكسن التي دامت نحو عشرين

(38) ابن عذارى ، 3 / 113 . اعمال ، 119 .
(39) جذوة ، 17 . ابن عذارى ، 3 / 113 . اعمال ، 120 .
(40) الذخيرة ، 1 / 1 ، ص 458 .
(41) نفسه ، 1 / 1 ، ص 459 . العبر ، 6 / 180 .

عاما ، وهي فترة حاسمة ومليئة بالفتن في كافة أنحاء الاندلس ، اذ شهدت انتهاء الخلافة الأموية في قرطبة وظهور ممالك الطوائف . ولما كانت الفترة فترة فتن وصراعات مستمرة ، فإن من الطبيعي وغير المستغرب أن نجد حبوسا يسعى جاهدا إلى مرضاة أقربائه ، والى تأكيده لهم على الحاجة إلى الاحتفاظ بقوات متأهبة للقتال إذ إنه – كعمه زاوي من قبله – كان يدرك تماما عداء الأندلسيين وتفوقهم العددي على صنهاجة .

إلا أن من الجدير بالذكر أن الأمير عبد الله يغضُّ الطرف عن بعض الأحداث المهمة التي وقعت في هذه الفترة . فهو يتغاضى تماما – على سبيل المثال – عن إلغاء الخلافة الأموية في قرطبة (422 هـ / 1031 م) ، ولعلَّه فعل ذلك لأن حبوسا لم يعترف بأي من الخلفاء الأمويين الثلاثة الذين استُخلفوا في قرطبة في الفترة 414 – 422 هـ / 1023 – 1031 م ، إذ إنه كان قد اعترف بخلافة يحي بن حمود في مالقة . ولعلَّ المؤلفَ كذلك لم يُرد أن يذكِّر قرَّاءه بموقف اسرته المعادي للأمويين ولأهل قرطبة .

وبعد إلغاء خلافة قرطبة ، ولاضعاف مركز يحيى بن حمود المستخلَف في مالقة ، اعلن قاضي إشبيلية ابو القاسم محمد بن عباد في سنة 426 هـ / 1035 م بان هشام المؤيد قد عاد إلى الخلافة في إشبيلية ، وقام معظم امراء الاندلس بإعلان ولائهم لهذا الخليفة المزعوم المنصَّب في إشبيلية بسبب عدائهم للبربر ، ومرضاة لابن عباد[42] . الا أن عبد الله لا يذكر شيئا عن كل ذلك ، بل وإنه لا يذكر حتى مصرع يحيى بن حمود – الخليفة الذي كان يعترف به حبوس – في معركة جرت خارج قرمونة بينه وبين اسماعيل بن عباد (محرم 427 هـ / نوفمبر 1035 م)[43] .

جـ – باديس بن حبوس (حَكَم 429 – 465 هـ / 1038 – 1073 م)

يستعرض المؤلف الصعوباتِ التي واجهها جدُّه باديس في بداية توليه الحكم ، إذ نافسه ابن عمه يدير على العرش ، وطمع جيرانه في ملكه ، مما جعل باديساً طوال فترة إمارته يرتاب في العناصر من اصل أندلسي أو بربري .

وقد تمكن باديس من التخلص من يدير ، وتغلب على زهير الصقلبي أمير ألمرية الذي ما إن علم بنبأ وفاة حبوس حتى زحف على غرناطة أملا في الاستيلاء عليها . وفي هذه الأثناء تعزَّزت مكانة باديس واصبح زعيما للمعارضين للسياسة العدوانية

(42) ابن حزم : نقط العروس ، 83 .جذوة ، 28 . ابن عذارى ، 3 / 197وما بعدها . اعمال ، 153وما بعدها . الذخيرة ، 2 / 1 ، ص 16 وما بعدها .

(43) الذخيرة ، 1 / 1 ، ص 316 وما بعدها . ابن عذارى ، 3 / 188 وما بعدها . اعمال ، 137 .

والتوسعية التي انتهجها صاحب اشبيلية المعتضد بن عباد . وفي ألمرية ، أيّد باديس ابنَ صمادح الذي كان قد اغتصب السلطة من عبد العزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية . واستولى باديس على مالقة من ايدي الحموديين وأنهى ولاءه الاسمي لهم . وفي قرطبة ، قام ابن السقّاء ، وزيرُ بني جهور ، بالتحالف مع باديس لكي يتّقيَ بذلك خطر المعتضد بن عباد . الا أنه في السنوات الأخيرة من حكم باديس ، عمَّت الفوضى غرناطة على إثر الوفاة المفاجئة لابن باديس وولي عهده بلقين (456 هـ / 1065 م) ، وبعد مصرع وزير باديس اليهودي — يوسف بن النغريلة (459 / 1066) . ان متاعب باديس الداخلية اثارت اطماع جيرانه : فالمعتضد ابن عباد نجح عن طريق المداخلة في التخلص من الوزير القرطبي ابن السقاء ، وحاول انتزاع مالقة من يد باديس ، واستولى المعتصم بن صمادح من جانبه على وادي آش وعلى عدد من معاقل باديس . وبالرغم من تقدم باديس في السن ومتاعبه الداخلية ، فإنه تمكن من صد هجوم ابن عباد على مالقة ، واسترد وادي آش من المعتصم بن صمادح ، كما استرد جيَّان من يد ابنه الثائر عليه ماكسن وأنصاره من صنهاجة .

ولسوء الحظ ، فان خرما في المخطوط عند هذه النقطة (460 هـ / 1068 م) يُنهي رواية المؤلف فجأة ويحرمنا بذلك من رواية المؤلف للأحداث التي وقعت في السنوات الخمس الأخيرة من حكم باديس ، وللظروف التي اكتنفت ارتقاء المؤلف عرش غرناطة .

ويقول ابن حيان عند حديثه عن النزاع بين باديس وبين زهير العامري صاحب المرية إن النزاع نشب بسبب صداقة زهير مع الزعيم الزناتي محمد بن عبد الله البرزالي صاحب قرمونة عدو باديس(44) . وكما يلتزم عبد الله جانب الصمت بالنسبة للخصومة بين حبوس وابن البرزالي(45) . فإنه لا يقول شيئا كذلك عن عداء الأخير لباديس ، ولعل سكوته يعود إلى رغبته في أن لا يحيي من جديد العداوات القديمة بين زناتة وصنهاجة .

ومن بين الأحداث المهمة التي وقعت في بداية إمارة باديس والتي يُغفل المؤلف ذكرها وفاة اسماعيل بن عباد في معركة مع باديس وحلفائه في استجة في المحرم سنة 431 هـ / سبتمبر — اكتوبر 1039 م(46) . وفي تلك الوقعة استسلم لباديس

(44) الذخيرة ، 1 / 2 ، ص 656 . ابن عذارى ، 3 / 169 .

(45) الذخيرة ، 1 / 1 ، ص 461 وما بعدها .

(46) جذوة ، 29 وما بعدها . ابن عذارى ، 3 / 199 ، 202 وما بعدها .

الأديب البارز ابو الفتوح الجرجاني الذي كان قد فر من غرناطة بعد اكتشاف مؤامرة يدير ضد أخيه ، وبُعيْد استسلام الجرجاني قام باديس شخصيا بإعدامه بمنتهى القسوة (28المحرم 431 هـ / 25 اكتوبر 1039 م)[47] . وكان ابو الفتوح الضحية الثانية لباديس من بين كبار ادباء العصر ، أما الضحية الأولى فكان احمد ابن عباس وزير وكاتب زهير العامري امير المرية[48] . ويتجنب المؤلف في كتابه – ما أمكنه ذلك – ان يعيد إلى الأذهان العداوات القديمة بين جده وبين والد المعتمد وجده . وبالنسبة لقسوة باديس المفرطة المعروفة فإن المؤلف يكتفي بالاشارة إليها اشارةً عابرةً عازياً اياها إلى جو الدسائس والفتن الذي كان يسود الأندلس في تلك الفترة .

يتحدث ابن حزم القرطبي بمرارة عن الغاء الخلافة الأموية الشرعية في قرطبة ويعلّق ساخرا – بانه كان ثمة بُعيْد نهاية الخلافة اربعة خلفاء في آن واحد في الأندلس – ثلاثة من بني حمود في مالقة والجزيرة الخضراء وبُبَشْترُ ، فضلا عن الخليفة المزعوم الذي نصبه في اشبيلية القاضي محمد بن عباد [49] . الا أن عبد الله لا يشير إلى الموضوع اطلاقا ، ولا يذكر قيام المعتضد بن عباد فيما بعد باعلان وفاة الخليفة المزعوم في اشبيلية (451 هـ / 1059 م)[50] . بل يبدو ان عبد الله يرى أن الخلافة انتهت بسقوط الدولة العامرية حينما يقول : ''فلما تمّت الدولة العامرية ، وبقي الناس لا إمام لهم''[51] . الا أن ابن خلدون يذكر ان باديس ظل لسنوات عديدة يواصل سياسة ابيه الخاصة بالاعتراف بالخليفة الحمودي في مالقة ، وأنه تزعّم البربر بجنوب الأندلس ضد ابن عباد وضد الخليفة الذي نصبه في إشبيلية[52] .

ولا يذكر الأمير عبد الله شيئا عن قضاء المعتضد على عدد من صغار أمراء البربر في جنوب الأندلس ، ولا عن استيلائه على إماراتهم ونزوح عدد كبير من زناتة الى غرناطة وبر العُدوة فراراً من قسوة المعتضد وبطشه [53] . ويُذكر أن سكان رندة من العرب قاموا على اميرهم الزناتي وسلموا المدينة للمعتضد (445 هـ / 1053 م) . وقد غضب باديس لما حدث غضبا شديدا ، وفكر في الفتك

(47) الذخيرة ، 4 / 1 ، ص 125 .الاحاطة ، 1 / 456 وما بعدها .
(48) الذخيرة ، 1 / 2 ، ص 664 .
(49) ابن حزم : نقط العروس ، 83 وما بعدها . جذوة ، 33 . اعمال ، 142 وما بعدها .
(50) الذخيرة ، 2 / 1 ، ص 37 . ابن عذارى ، 3 / 249 .
(51) التبيان ، 58
(52) العبر ، 6 / 180 . اعمال ، 142 .
(53) ابن عذارى ، 3 / 272 وما بعدها . اعمال ، 239 وما بعدها .

بعرب غرناطة انتقاما ، ومن المؤكد انه كان سيفتك بهم لولا أن وزيره اليهودي ثناه عن ذلك(54) . الا أن صاحب (التبيان) لا يشير إلى هذه الحادثة ، ولعله لم يرد إثارة مشاعر الأندلسيين ضد اسرته ، ولعلّه كذلك آثر بأن يلتزم جانب الصمت تجاه موضوع النفوذ الذي كان يحظى به الوزير اليهودي في دولة جده ، خصوصا بعد أن سبق ان ذكر بأن اليهودي ''لم يكن له تسلط على مسلم في حق ولا باطل''(55) .

ويشير الأمير إشارة عابرة الى غدر إسماعيل بن المعتضد بوالده دون أن يذكر بان المعتضد قتل ابنه لتآمره على حياته . ان الخلاف بين الابن وأبيه بدأ حينما رفض اسماعيل تنفيذ اوامر والده بمهاجمة قرطبة . ان رفض اسماعيل الامتثال لأوامر ابيه كان – كما يقول ابن حيان – يعود جزئيا إلى أن إسماعيل كان يتوقع قدوم باديس لنجدة حليفه ابن السقاء وزير أمير قرطبة ابي الوليد بن جهور(56) . ويقول ابن بسام إن مقتل ابن السقاء (455 هـ / 1063 م) كان بتحريض من المعتضد الذي كان يتطلع الى الاستيلاء على قرطبة(57) . ويُذكر بان عبد الملك بن جهور قام – عقب مقتل ابن السقاء – بزيارة إشبيلية ، وعقد تحالفا مع المعتضد(58) . أما الأمير عبد الله فإنه لا يذكر مقتل ابن السقاء ، ولا التقارب الذي حدث بين اميري قرطبة وإشبيلية على اثره ، ولعلّ السبب في ذلك هو أن الأمير لم يُرِدْ التأكيد على وجود عداء مستحكم بين أسرته وبين أسرة المعتمد بن عباد .

وفي عام 456 هـ / 1064 م ، جرى حدثان كان لهما وقع كبير في كافة أنحاء الأندلس ، الا أن مما يدعو إلى الدهشة ان عبد الله لا يذكر أيا منهما . وهذان الحدثان هما استيلاء النورمان على مدينة بَرْبَشْترُ Barbarstro بالثغر الأعلى(59) وسقوط قلمرية في يد ملك قشتالة وليون فيرديناند الأول(60) الذي كان قد كرس السنوات العشر الأخيرة من حياته لحرب ''الاسترداد'' . ولعل عدم ذكر المؤلف لأي من الحدثين يمكن تفسيره بانه لم يُرد أن يلفت الانتباه الى الانقسامات في صفوف ملوك الطوائف ، والى ضعفهم وتقاعسهم عن غوث اخوانهم المسلمين

(54) الاحاطة ، 1 / 437 . HME, 643 f.
(55) التبيان ، 68
(56) ابن عذارى 3 / 248 .
(57) الذخيرة ، 4 / 1 ، ص 244 .
(58) ابن عذارى ، 3 / 258 . اعمال ، 149 .
(59) ابن عذارى ، 3 / 225 وما بعدها . الروض ، 40 . المقّري ، 4 / 449 وما بعدها .
(60) ابن عذارى ، 3 / 258 وما بعدها . أعمال ، 184 .

في وجه الخطر النصراني المتزايد من الشمال . الا أنه يبدو بأن باديس - بخلاف ملوك إشبيلية وبطليوس وطليطلة وسرقسطة - لم يكن يؤدي ضريبة لفرديناند او لأي من ابنائه من بعده ، إذ إن عبد الله يفيدنا بان الفونس السادس طالبه بالضريبة لأول مرة بعد ارتقاء عبد الله عرش غرناطة(61) .

ان المؤرخين المسلمين يُكثرون من الحديث عن الأثر الحماسي للقصيدة التي نظمها الفقيه ابو اسحاق الإلبيري ، والتي دعا فيها باديس وصنهاجة إلى التخلص من اليهود وسيطرتهم في غرناطة . ويقال إنه كان من اثر تلك القصيدة أن ثارت صنهاجة والعامة على اليهود ، وقتلوا يوسف بن النغريلة ، وذبحوا عددا كبيرا من اليهود في غرناطة (459 هـ / 1066 م)(62) . ومع ذلك ، ومع أن عبد الله يتحدث بإسهاب عن وصول ابن النغريلة إلى السلطة ، وعن الظروف التي اكتنفت سقوطه ، فانه لايذكر إطلاقا القصيدة أو صاحبها . ومن المحتمل ان الدافع لصمته هو تجنب القول بأن الفقهاء لم يكونوا راضين عن سياسة جده الخاصة باتخاذه اليهود - دون المسلمين - وزراء وكتابا في دولته .

د - عبد الله بن بلقين (حكم 465 - 483 هـ / 1073 - 1090 م)

كان عبد الله يناهز الثامنة عشرة من العمر حينما خلف جده على عرش غرناطة ، فانتهز جيرانه من ملوك الطوائف الفرصة لمهاجمة اراضيه ، وكان في مقدمتهم المعتمد ابن عباد الذي قام - متحالفا مع الفونس السادس - بالاعتداء على أراضي مملكة غرناطة . الا أنه كان من حسن حظ عبد الله أن المعتمد لم يلبث أن شُغل بقرطبة . ولكي لا يتعرض عبد الله من جديد لهجوم مشترك من جانب المعتمد وحليفه القشتالي ، فانه بادر إلى عقد اتفاقية مع الفونس تعهَّد بمقتضاها بان يؤدي له ضريبة سنوية مقدارها عشرة آلاف دينار ، كما اضطر إلى التنازل عن عدد من المعاقل للمعتمد(63) .

وفي أعقاب عقد هذه الاتفاقية ، تطورت الأحداث بسرعة لصالح الأمير الزيري ، فنشبت اضطرابات في طليطُلة ، وشُغل المعتمد بقضية مرسية وابن عمار ، وصرف الفونس السادس اهتمامه الى التوسع صوب بطليوس وطليطُلة . فانتهز عبد الله الفرصة وتخلص من كبير وزرائه سِماجة الصنهاجي ، واستبد هو بالسلطة .

(61) التبيان ، 98
(62) اعمال ، 231 وما بعدها . المُغرب ، 2 / 132 . المقَّري ، 3 / 322 .
(63) التبيان ، 103

وحالفه النصر في الحملات التأديبية التي جهّزها ضد صاحبيْ المرية ومالقة اللذيْن كانا قد اعتديا على أراضيه اثناء انشغاله بابن عباد وصاحب قشتالة .

ان رواية المؤلف عن الأساليب التي اتبعها الفونس السادس لاضعاف طليطُلة والتحرش بها تمهيدا لاستيلائه عليها رواية يعزز أهميتها كونها روايةَ شاهدِ عِيانٍ لملكٍ من ملوك الطوائف حسن الاطلاع ومعاصر للأحداث . وقد انتهج الفونس السادس الأسلوب ذاته مع المعتمد بن عباد فألجأه إلى الاستعانة بالمرابطين . وكتاب (التِبيان) هو المصدر المعاصر الوحيد للاتفاقية التي تم التوصُّلُ إليها بين يوسف بن تاشفين ووفد اندلسي يمثل المعتمد والأمير الزيري ، وهي تنص على القيام بعمل مشترك ضد الفونس ، كما تنص على عدم تدخل المرابطين في الشؤون الداخلية لممالك الطوائف(64) . وفضلا عن ذلك ، فان التفاصيل عن احتلال المرابطين المفاجيء للجزيرة الخضراء ، بعد مماطلة المعتمد في تسليم المدينة لهم ، هي تفاصيل فريدة ، ويبدو أنها أدعى للتصديق من روايات المؤرخين المتأخرين .

ان رواية المؤلف عن وقعة الزلاقة ذاتُ طابع واقعي ، وهي – خلافا للروايات الاسلامية المتأخرة(65) – لا تتّسم بالمبالغة والتهويل . فهو لايتحدث عن الوقعة – وقد شارك فيها – بانها وقعة حاسمة ، بل يكتفي بالقول بان أمير المسلمين انصرف ''على حال سلامة ونصر'' ، وبان خسائر الجانبين كانت كبيرة(66) . وعند الحديث عن الفونس يؤكد الأمير بأنه كان متلهفا للقتال واثقا من النصر ، في حين ان يوسف بن تاشفين أبدى حذرا شديدا وشيئا من التردد في ملاقاة العدو(67) ..

وما إن عاد المرابطون الى المغرب من حملة لييط حتى طالب الفونس الأمير عبد الله بأداء ما استحق عليه من الضريبة ، فاضطر عبد الله إلى دفعها لأنه – كما يقول – لم يكن باستطاعته مقاومته ، ولأن المرابطين لم يتركوا جيشا في الأندلس . وقد دفع المبلغ من ماله الخاص دون أن يكلف مسلما درهما(68) . ولعل ثورة يهود اليُسّانة آنذاك كانت نتيجة للضرائب الاضافية التي افترضها عليهم عبد الله لتمكينه من الوفاء بالتزاماته الجديدة لالفونس السادس .

(64) نفسه ، 124
Hespen's, 40(1953), 27 f.

(65) انظر القرطاس ، 95 وما بعدها . الحلل ، 46 وما بعدها . الروض ، 88 وما بعدها .
Hespen's, 40 (1953),35.

(66) التبيان ، 126 .

(67) نفسه ، 125 .

(68) نفسه ، 141 .

ويؤكد المؤلف مرارا بان تشويه سمعته في أعين المرابطين كان من عمل الفقيه ابن القُلَيْعي وغيره من الفقهاء ورجال الدولة الذين كانوا قد تخلَّوْا عنه وانحازوا الى المرابطين واتهموه كذبا – على حد قوله – بمداخلة النصارى ضد المرابطين(69) .

ان الجواز الثالث ليوسف بن تاشفين الى الأندلس لم يستهدف سوى خلع الأمير الزيري ، الذي يبدو أنه مبدئيا كان يعتزم المقاومة ، ولكنه لم يلبث ان قرر الاستسلام بعد أن رأى معاقله تتهاوى معقلا بعد آخر في ايدي المرابطين دون أية مقاومة ، وبعد أن شهد جنده من البربر الذين كان يثق بهم يتخلَّوْن عنه الى المرابطين بسبب ''الجنسية'' ، وبعد أن تبيَّن له بأن كافة الطبقات في غرناطة كانت تعطف على المرابطين ''طمعا منها في الحرية ، وأنها لا يلزمها غير الزكاة والعشر''(70) .

وبعد أن أُعطي الأمير عبد الله الأمان نُفي إلى المغرب ، ثم جاء دَوْر أصحاب إشبيلية وألمرية وبطليوس الذين تم خلعهم وإلحاق ممالكهم بدولة المرابطين .

ويُنهي المؤلف روايته بإشارة عابرة إلى الجهود التي بذلها المرابطون لانقاذ بلنسية التي كانت قد سقطت في يد الكنبيطور في 30 جمادى الأولى سنة 487 هـ / 16 يونيو 1094 م . وقد ترك المؤلف فراغا في المخطوط – كما يقول – أملاً في ان يملأه بعد أن يتم للمسلمين استرداد بلنسية .

وكما هو متوقع ، فان رواية الأمير عبد الله عن الأحداث التي وقعت أثناء فترة حكمه رواية وافية بحيث لم يُغفل ذكراي حدث ذي بال وقع خلال تلك الفترة من تاريخ الأندلس . ومن الطبيعي ان نجد بعض رواياته تختلف عن روايات المؤرخين الذين جاءوا بعده ، وهو أمر لعل من الممكن تفسيره برغبته في الدفاع عن تدابيره أو وجهات نظره .

ويبدو أن الأميرَ متحيِّزٌ في ما يقوله عن الوزير سِماجة الذي يصفه ابن الخطيب بالشجاعة والكفاءة ، وإليه يرجع الفضل الأكبر في احتفاظ مملكة غرناطة باستقلالها وسلامة أراضيها حينما تكالبت عليها اطماع ملوك الطوائف المجاورين لها بعد وفاة باديس(71) . الا أن عبد الله يتهم سِماجة بالاستبداد ، وبمحاولة إلهاء الأمير الشاب وإبعاده عن أية سلطة حقيقية في غرناطة . إن الأمير عبد الله في تحامله على وزيره

(69) نفسه ، 141 .
(70) نفسه ، 158 .
(71) اعمال ، 234 .

السابق وغضّه من شأنه انما يسعى لتبرير القرار الذى اتخذه بعزله وبتوليه وحده تصريف شؤون غرناطة .

يقول ابن الأبار إن يوسف بن تاشفين - بصرف النظر عما إذا كان قد استُدعي إلى الأندلس أم لا - كان يخطط للقدوم لمحاربة النصارى ، وأن المعتمد بن عباد - وقد أدرك نية الأمير المرابطي هذه - قرر أن يأخذ بزمام المبادرة وأن يستدعيه[72] . أما الأمير عبد الله فإنه يقول إن رسله ورسل المعتمد قاموا بزيارة يوسف بن تاشفين وعقدوا معه اتفاقية تقضي بالعمل معا ضد النصارى . ويبدو أن رواية الأمير الزيري هذه أقرب إلى الصحة من رواية ابن الأبار .

ويورد المؤلف سببا واحداً لاستصراخ المعتمد يوسف بن تاشفين لانقاذ الأندلس ، ألا وهو خطر الفونس السادس الداهم والمتنامي ، وإلحاحه على امراء الطوائف بالتنازل له عن المعاقل . إلا أن الحميري يذكر سببين آخرين : مماطلة المعتمد في أداء الضريبة لألفونس بسبب حروب المعتمد مع ابن صمادح ، ومطالبة الفونس بالسماح لزوجته الحامل بالإقامة في مدينة الزهراء وزيارة جامع قرطبة قبل الوضع[73] . أما الأمير عبد الله فإنه لا يذكر شيئا من ذلك ، ولا الحكاية التي ترددها المصادر الأندلسية وهي أن المعتمد قتل اليهودي ابن شاليب رسول الفونس ، وكان قد قدم الى اشبلية لتسلم الضريبة السنوية ، ولكنه رفض تسلم المال المدفوع بحجة انه عُمْلة مموَّهة ، وان مقتل ابن شاليب عجَّل في هجوم الفونس على اشبيلية (475 هـ / 1082 م)[74] .

وكما تقدَّم ، فان حجم جيش الفونس في وقعة الزلاقة وخسائر النصارى في تلك الوقعة قد بالغ فيهما كثيرا المؤرخون المسلمون المتأخرون[75] . ولعل رواية عبد الله اقرب الى الواقع ، اذ فضلا عن مشاركة الأمير الزيري شخصيا في المعركة ، فان من المستبعد جدا ان يقوم - وهو أسير المرابطين في اغمات - بالتقليل من شان النصر او بتشويه الحقائق لو انها كانت في صالح المرابطين أكثر مما ذكر ، او لو انها كانت كما صوَّرها المؤرخون المتأخرون .

ويقول الحميري إنه بعد انتصار الزلاقة مباشرة حثَّ المعتمدُ يوسفَ بن تاشفين على مطاردة فلول الجيش القشتالي بعد هزيمته ، الا أن امير المسلمين لم يأخذ بهذا

(72) الحلة ، 2 / 98 وما بعدها .
(73) الروض 84 .
(74) نفسه ، 85اعمال ، 344 وما بعدها . المقرى ، 4 / 246 .
(75) القرطاس ، 96 . الحلل ، 44 . الروض ، 88 ، 93

الرأي(76) . اما عبد الله فليس لديه ما يقوله عن هذا الموضوع ، كما أنه لايردِّد روايات المؤرخين بأن الأمير المرابطيَّ اضطر إلى العودة الى المغرب على عجل بعد أن علم بوفاة ابنه الأكبر وولي عهده ابي بكر ، او لسبب طارىء آخر(77) . الا أن المؤلف يورد سببا آخر فريدا ، وهو ان أمير المسلمين ''لم يتربص في البلاد ألا يوحش سلاطينها مما يتوقعونه من انحياش رعيتهم اليه'' بعد انتصار الزلاقة(78) .

وكثيرا ما يشير صاحب (التِبيان) في كتابه إلى يوسف بن تاشفين بلقب ''امير المسلمين'' ، ولكنه لايقول – كما يفعل بن ابي زرع – بان يوسف مُنح اللقب بعد انتصار الزلاقة(79) . ومن الواضح أن رواية بن أبي زرع ليست صحيحة ، إذ إن عبد الله – وقد حضر المعركة – ما كان ليُغفل ذكر ذلك . وقد دلَّت الأبحاث الحديثة على ان يوسف بنِ تاشفين كان يحمل اللقب منذ سنوات قبل جوازه الأول الى الأندلس ، ولعله حَمَلَ اللقبَ منذ عام 466 هـ / 1074 م بعد استيلائه على فاس(80) .

ويُذكر ان عبد الله افرج عن الفقيه ابن القُلَيْعي استجابة لتوسلات والدته التي كانت تخشى ان يحل السوء بابنها لسوء معاملته للفقيه الورع(81) . اما الأمير فانه يقول إنه اخلى سبيل ابن القليعي بعد ان تعهد الفقيه بالتزام الروابط(82) . كما ان المؤلف لا يقول – كما يفعل ابن الصيرفي – بان مؤملا قد أخلي سبيله بأمر من الأمير المرابطي(83) .

يشيد ابن الصيرفي ببسالة وفروسية مقاتل بن عطية البرزالي الذي كان قد ابلى في وقعة النيبل Nivar ضد النصارى سنة 478 هـ / 1085 م ، كما أن مقاتلا احبط فيما بعد نوايا المعتمد العدوانية ضد مدينة أليُسَّانة ، وكان جزاؤه مع ذلك أن صرفه عبد الله عن ولايةِ أليُسَّانة مما ادى إلى انحيازه الى المرابطين(84) . الا ان مما يدعو الى الدهشة ان المؤلف لا يذكر شيئا عن مقاتل ، ولا يمتدح شجاعته في وقعة النيبل

(76) الروض ، 93 .
(77) الاكتفاء ، 95 . الحلل ، 53 . الروض ، 94 .
(78) التبيان ، 127 .
(79) القرطاس ، 96 .
(80) صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد ، 14 / ص 55 . ابن عذارى ، 4 / 27 وما بعدها . الحلل ، 18 .
(81) الاحاطة ، 1 / 149 .
(82) التبيان ، 136 .
(83) الاحاطة ، 3 / 333 .
(84) نفسه ، 299 – 300 .

التي يرد ذكرها في (التِبيان) ، ولعل السبب في ذلك هو ان الأمير كان يرتاب في مقاتل لميوله الى المرابطين ، ثم لأنه تخلى عنه وانضم اليهم آخر الأمر .

وأخيرا ، فان عبد الله يفيد بان المعتمد بن عباد لما هاجمه المرابطون استغاث بألفونس السادس ، الا أنه لم يتلقّ عونا منه ذلك لأن الفونس كان يخشى التغرير به[85] . بَيْدَ أن المصادر الاسلامية المتأخرة تذكر بأن الفونس ارسل في الواقع جيشاً لمساعدة المعتمد ، وبان القشتاليين مُنُوا بهزيمة على أيدي المرابطين في جيان وبلمة – قرب اشبيلية – وبان المرابطين تكبدوا خسائر كبيرة في الارواح مما جعلهم يطالبون بدم المعتمد فيما بعد[86] . ويقول ابن ابي زرع إن المرابطين اوقعوا بالقشتاليين على مقربة من حصن المدور Almodovâr del Rio[87] . كما أن ابن خلدون يذكر بان الفونس حاول عبثا إغاثة المعتمد[88] .

5 – المؤلف

ا – سيرته وسياسته العامة

باستثناء ما يحدّثنا صاحبُ (التِبْيان) عن نفسه في كتابه ، فان كلَّ ما لدينا عنه ترجماتٌ قصيرة أوردها ابن الخطيب في كتابيْ (الاحاطة) و (اعمال الأعلام)[89] استمد مادتها من مؤرخين سابقين له كابن الصيرفي والغافقي اللذيْن لم يصلنا تاريخهما ، ونبذة قصيرة اوردها ابن عِذاري المراكشي في (البيان المُغرب)[90] .

وُلد المظفر ابو محمد عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس بن ماكس ابن زيري بن مناد – وهذا هو اسمه بالكامل – في عام 447 هـ / 5 – 1056 م . وبعد وفاة بلقين والد عبد الله (456 هـ / 1064 م) ، سمَّى باديس حفيده عبد الله وليا لعهده ، فأعطاه بذلك الأولوية على ابنٍ آخر لباديس – ماكسن – وعلى تميم الأخ الأكبر لعبد الله .

وبسبب خُرمٍ في المخطوط يتناول السنوات الخمس الأخيرةَ من سنوات حكم باديس ، فانه لم تصلنا رواية المؤلف نفسه عن الظروف التي اكتنفت ارتقاءه العرش

(85) التبيان ، 171 .
(86) اعمال ، 163 .
(87) القرطاس ، 100وما بعدها .
(88) العبر ، 6 / 187 .
(89) الاحاطة ، 3 / 279 – 281 .
(90) انظر مذكرات الامير عبد الله (طبعة دار المعارف بمصر ، 1955) ، الملحق الأول ، ص 205وما بعدها .

بعد وفاة جده في شهر شوال سنة 465 هـ / 10يونيو – 8يوليو1073 م . الا أن لسان الدين بن الخطيب الذي اطّلع على النص الكامل للكتاب في اغمات ، وعلى تاريخ ابن الصيرفي عن الدولة المرابطية ، يقول إن أشياخ صنهاجة قدّموا عبد الله على عمه ماكسن ''لما رأوا به من سوء سجيته [ماكسن] وانهماكه واجترائه على سفك الدماء''(91) .

وكان من حسن حظ عبد الله – ولما يتجاوز الثامنةَ عشرةَ من عمره حين ارتقائه العرش – ان ولي تصريفَ شؤون الدولة الوزيرُ الكفءُ المحنَّكُ سِماجة ، وهو من كبار شيوخ صنهاجة ، واليه يعود الفضل في الاحتفاظ بسلامة مملكة غرناطة ووحدة أراضيها(92) .

وبعد ان توصَّل عبد الله الى اتفاقية مع الفونس السادس ومع المعتمد ، صرف اهتمامه الى اعادة تنظيم شؤون مملكته الداخلية . ولكي ينفرد بالسلطة ، عَزل سِماجة وأشياعه من مناصبهم ، وقاد بنفسه حملاتٍ موفقةً ضد صاحب ألمرية وأمير مالقة . وعلى حد قوله ، فان الفترة من سنوات حكمه التي سبقت سقوطَ طليطلة في يد الفونس السادس (478 هـ / 1085 م) كانت فترة هنيئة لا يكدِّرها غيرُ خطر الفونس على الأندلس(93) .

وقد انضم عبد الله الى المعتمد في الاستغاثة بالمرابطين ، وشارك في وقعة الزلاقة وفي حصار حصن لييط Aledo . الا ان الشكوك والمخاوف تملَّكتْه واستبد به التشاؤم بعد حملة لييط ،بسبب الدسائس التي حاكها ضده ابنُ القُلَيْعي ، وبسبب العداء الذي ابداه تجاهه اخوه تميم صاحب مالقة ، فأخد عبد الله في تعزيز تحصيناته ، وفي شحن معاقله بالمؤن تحوطاً ، ولعلَّه تلقَّن درسا من صمود حصن لييط في وجه المرابطين .

ومن الجدير بالملاحظة ان عبد الله حاول خلال هذه الفترة العصيبة من حياته استمالة صنهاجة في غرناطة بتجنيد المزيد من افرادها في جيشه ، وبذلك تمكن – كما يقول – من ان يُنصف صنهاجة التي كانت قد تميَّزت عليها زناتة(94) ، ولعله أقدم على ذلك تقرباً الى المرابطين ، وهم ينتمون إلى صنهاجة .

وانه لَممَّا يستوقف النظر ما يُبديه المؤلف من تعلقٍ شديدٍ بوالدته طيلة فترة

(91) اعمال ، 233وما بعدها .
(92) نفسه ، 234 .
(93) التبيان ، 107 .
(94) نفسه ، 146 .

حكمه : فقد اصطحبها معه – دون غيرها – حينما بارح غرناطة نهائيا مستسلما للسلطان المرابطي ، كما أنه ارضاءً لها كان قد افرج عن الفقيه ابن القليعي ، وأوقف حربه ضد أخيه تميم(95) . وفي فترة نفيه في المغرب ، رُزق عبد الله بولدين وابنة . وفي المنفى عبَّر عن اِمتنانه لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين لما لقيه منه من رفق واِحسان . يقول ابن الصيرفي إن عبد الله ''احسن أداء الطاعة ، مع لين الكلمة ، فقضيت مآربه'' ، وأجري له مرتب من قِبَل السلطان المرابطي . ولا يُعرف تاريخ وفاته ، ولكنه ذُكر بانه ترك لأبنائه مالاً جماً(96) .

ويصف ابنُ الصيرفي الأمير عبد الله بالجبن وبالاخلاد الى الراحة ، وبانه ''لا أرب له في النساء'' . كما يأخذ عليه أنه كان يستوزر الأغمار ممن لاخبرة لديهم(97) .

اما بالنسبة لاتهامه بالجبن ، فان عبد الله نفسه يُقرُّ بأن التشاؤم والسوداء في طبعه(98) ، ولكننا في الواقع لا نجد في سيرته ما يدل على ان الجبن صفة ملتصقة به . فقد حارب النصارى في وقعة النبيل في وقت تقاعس فيه عن ذلك غيرُه من ملوك الطوائف . وفي بداية حكمه ، قاوم بشدة الهجمات التي شنها على اراضيه المعتمد بن عباد وحلفاؤه النصارى . وقد حارب المعتصمَ بن صمادح وأخاه تميما وانتصر عليهما ، وشارك بنفسه في وقعة الزلاقة ، وفي حصار حصن لييط . كما أنه فكر جديا في فترة ما في مقاومة المرابطين بالقوة ، ولم يَعْدِلْ عن رأيه في ذلك الا بعد ان تخلَّى عنه جنده ورعاياه . الا أن الأمير عبد الله كان مع ذلك شديد الحذر وشديد التردد في الاقدام على المجازفات(99) . وما من شك في ان كلَّ ما كان يتمناه عبد الله – شأنه في ذلك شأن بقية ملوك الطوائف – ان يُترك وحده آمنا في مملكته .

وينفي عبد الله بشدة أنه كان يخلد الى الراحات ، وفي الواقع فانه – بخلاف بقية ملوك الطوائف – لم يُعرف عنه أنه كان من مُحبيِّ اللهو واللذات ، او أنه احتفظ ببطانة كبيرة من شعراء البلاط والمدَّاح(100) . لقد حاول الوزير سِماجة في بداية حكم الأمير إشغاله بالجواري ، الا أنه – كما يبدو – اخفق في ذلك .

(95) نفسه ، 117 ، 162 .
(96) الاحاطة ، 3 / 381 .
(97) نفسه ، 380 .
(98) التبيان ، 132 .
(99) نفسه ، 120 .
(100) نفسه ، 195 .

وينفي الأمير صراحة تعاطيه الخمر ، ويذكر بان الغلمان الروقة في بلاطه انما كانوا للتزين والخدمة ، اذ إن الصغير السن – كما يقول – يتصرف فيما لا ينبغي للمسن ان يتولاه(101) . ويعبِّر الأمير عن اعتزازه بأنه – طيلة سنوات حكمه – كان متعففا عن الدماء والأموال والحرم(102) .

أما بالنسبة لوزرائه ، فان عبد الله يذكر بأنه بعد أن تخلص من سِماجة لم يستوزر احدا(103) . الا أن ابن الصيرفي ذا الميول المرابطية يقول إنه لم يكنِ ''في وزراء مملكته ... اصيل الرأي ، جزيل الكلمة ، الا ابن ابي خيثمة من كَتَبَتهِ ، ومؤمل من عبيد جده ، وجعفر من فتيانه''(104) . ان كل هؤلاء ظلّوا في خدمة الأمير الزيري حتى أيامه الأخيرة في غرناطة ، بل ان ابن ابي خيثمة يبدو انه ظل في خدمة الأمير حتى النهاية ، إذ إن الأمير يقول إن والدته كانت قد تركت بعض المال عند ''خادم ابن ابي خيثمة كاتبنا''(105) . اما مؤمل وجعفر فانهما تخلّيا عن عبد الله وانحازا الى المرابطين قُبيل سقوط غرناطة .

ومن الطبيعي ان يبذل المؤلفُ قصارى جهده لدحض الاتهامات التي وُجِّهت إليه بالتواطؤ مع الفونس السادس . فلو انه أراد الاستعانة بالفونس – كما يقول – لكانت غرناطة مملوءة بجند النصارى قبل وصول المرابطين الى سبتة(106) . غير أنه يبادر الى القول بأن من المستحيل أن يفعل ذلك ، اولا لأسباب دينية ، وثانيا لأنه لو استعان بالنصارى ثم هُزموا ، لكان من المؤكد ان يلقى حتفه على أيدي المرابطين ، ولو أن النصارى غَلَبوا'' لم يطبْ لنا مُلك ، ولاستحينا من الله والناس أن يكون ذلك ببوار المسلمين وهلاكهم''(107) . وبعد ان أمن عبد الله من هجوم الفونس ، وبعد أن شيَّد الحصون وعزَّزَ حامياتها ، ثم بذل كل ما في وسعه لاكتساب ولاء جنده(108) ، اطمأن بأنه أصبح في مأمن من هجمات المرابطين ، خصوصا بعد فشلهم في اخذ حصن لييط .

ويبدو مما ذكره عبد الله والمؤرخون المتأخرون بان الأمير كان قد جمع ثروة طائلة . وهو يردُّ على لائميه بقوله إنه لم يغتصب مالا لمسلم ، وإن امواله استُخدمت لتأمين المملكة والرفع من شأنها وهيبتها ، وأنه لم يُؤْثَرْ عنه تبذير المال والاغداق على الشعراء والندماء(109) . ومما يسترعي الانتباه اشارة الأمير إشارة عابرة – بعد استسلامه وزوال ثروته – الى اختلاط ماله وكثرة شبهاته(110) . ولعله يشير بذلك

(101) نفسه ، 196 .
(102) نفسه ، 195 .
(103) نفسه ، 112 ، 151 .
(104) الاحاطة ، 3 / 332 .
(105) التبيان ، 164 .
(106) نفسه ، 142 .
(107) نفسه ، 160 .
(108) نفسه ، 136 .
(109) نفسه ، 195 .
(110) نفسه ، 161

الى ما ورثه عن جده باديس ، والى الأموال التي كانت تصل بيتَ ماله من الولاة والعمال .

ب - ثقافته

بعد وفاة بلقين والد الأمير عبد الله ، أمر باديس بإخراج حفيده من المكتب قائلا له : ''معك من الكتابة وتلاوة القرآن ما يكفيك''(111) . وان المرءَ ليعجب لذلك اذ يجد المؤلف - بالرغم من أنه ترك المدرسة الأولية في سن مبكرة - واسعَ الثقافة متمكناً من اللُّغة العربية وآدابها . ومع ان المؤلف متأثر احيانا بالعامية الغرناطية في عهده ، فان اسلوبه اسلوب سلس مُرسَل . ويبدو أن الأمير عبد الله - بخلاف افراد اسرته الآخرين - كان يحظى بموهبة ادبية ، وهو واسع الاطلاع كما يتبيَّن من تمكنه من العربية وآدابها ، ومن اقتباسه لعدد كبير من الآيات والأحاديث النبوية والأمثال والأشعار والحِكَم في العديد من المجالات . ولعل الأمير كان يشير إلى نفسه حينما يروي انه قيل لرجل : «من اين لك هذا العلم ؟ فقال : قلباً عقولاً ، ولسانا سؤولاً»(112) .

ومع أن المؤلف لا يذكر بالاسم غيرَ (كتاب الحيوان) للجاحظ و كتاب (كليلة ودمنة) لابن المقفع(113) ، فان العدد الوافر من الأشعار والأمثال والحِكَم التي يقتبسها مستمد دون شك من عيون الأعمال الأدبية ودواوين الشعر المتوفرة في الأندلس آنذاك والتي كان المؤلف ملماً بها . ان بعضَ هذه المصنَّفات كان قد وصل الى الأندلس من المشرق حديثا(114) ، كالأغاني ، وعيون الأخبار ، ويتيمة الدهر ، ورسائل اخوان الصفا ، فضلا عن دواوين بعض كبار الشعراء كالنابغة الذبياني والمتنبي . ولا بد أن عبد الله كان يحفظ عن ظهر قلب الكثير من الأشعار والأمثال والحِكَم ، اذ يُستبعد ان يكون قد اصطحب معه الى أغمات كتبا أو دواوين شعر ، فهو يصرِّح في الفصل الختامي من الكتاب بانه سيقتبس فيه ''لُمَعاً من آدابٍ وسِيَرٍ تحضرني''(115) .

ولا تقتصر معلومات المؤلف على الفقه والأدب ، بل تتجاوزها الى المعارف الطبية والفلكية ، مما يعطي فكرة عن تنوع المعارف ، والمستوى الثقافي الذي بلغه

(111) نفسه ، 54 انظر مقدمة ابن خلدون ، 538 .
(112) التبيان ، 178 .
(113) نفسه ، 173 ، 193 .
(114) ابن الفرضي ، 61 .
(115) التبيان ، 178

بعض أفراد الطبقات الخاصة والأسر المالكة في عصره . ومما يُدهِش حقاً انه بالرغم من نشأة الأمير في بيت ملكي من البربر لم يُعرف عن افراده – بخلاف معاصريهم من الأسر الأندلسية الحاكمة – اهتمام يُذكر في مجال الشعر والأدب ، فان عبد الله كان قد بلغ مستوى ثقافيا عاليا نسبيا . والكتاب يشهد بتمكّن مؤلفه من اللغة العربية ، وهو في ذلك يختلف تماما عن جده وأقربائه الذين يذكر ابنُ حيان انهم كانوا يتخاطبون بالبربرية في بيوتهم ، وفيما بينهم(116) .

و يَعِدُ المؤلف في الفصل الأخير من الكتاب بان يورد بعضَ اشعاره(118) ، الا ان مما يؤسف له اننا لا نجد شيئا من ذلك في المخطوط . بَيْدَ ان ابن الخطيب الذي اطّلع على نسخة من الكتاب اثناء زيارته اغمات عام 761 هـ / 1360 م يلاحظ بأن الأمير الزيري ختم كتابه ''بمقطوعات من شعره تشهد بفضله''(118) . ويصف الغافقي الأمير بأنه شاعر «جيد الشعر مطبوعه»(120) غير أن المؤلف فيما يبدو لا يشاطر الغافقيَّ رأيه ، اذ إنه يُقرّ بأنه كان يعاني في نظم بيت أو بيتين ''كالشيء المستغرب من غير معدنه''(120) .

و يذكر الغافقي شيئا آخر حذِقه عبد الله ، ألا وهو حسن الخط ، وكان ذلك انجازاً يرفع من مكانة صاحبه ويُغبط عليه آنذاك . ويضيف الغافقي انه كانت بغرناطة ''رَبْعة مصحفٍ بخطه في نهاية الصنعة والاتقان''(121) .

و يتخذ عبد الله موقف المسلم المتمسك بدينه في دفاعه عن الأديان السماوية عامة والدين الاسلامي على وجه الخصوص ، ويبذل قصارى جهده لدحض اقوال المُلحدين وأهل الكتاب الذين لا يؤمنون برسالة النبي محمد عليه السلام . وهو في محاجّته لا يقل صلابةً وحماسا عن ابن حزم وابي الوليد الباجي وغيرهما من كبار الفقهاء الأندلسيين المعاصرين في الرد على الملاَحدة وأتباع الملل والنِحَل الأخرى .

ومن الجدير بالذكر انه بالرغم من دفاع الأمير عن الدين الاسلامي ، وبالرغم كذلك من قيام دولة المرابطين في المغرب والأندلس ، فان الأمير لا يتردد في بحث مواضيع دقيقة وحساسة كالتنجيم وتعاطي الشراب ، ولعل في ذلك ما يدلّ على روح التسامح لدى المرابطين . فهو يشرح بشيء من الاسهاب موقفَ المنجّمين

(116) الذخيرة ، 1 / 2 ، ص 664 .
(117) التبيان ، 178 .
(118) نفاضة الجراب ، 56 .
(119) انظر الاحاطة ، 3 / 379 – 380 .
(120) نفسه ، 178
(121) الاحاطة ، 3 / 380 .

ويقتبس عن احدهم قوله بانهم لا يزعمون ان الكواكب فاعلة ، بل يقولون بانها مصرّفة للأحداث دون التأكيد على أن شيئا ما سيحدث ، أو لا يحدث ، ولذلك فانهم يرفضون التهمة الموجهة اليهم بالزندقة والالحاد . وبعد ان يؤكد المؤلف على ان الغيب لا يعلمه الا الله ، يضيف بان ما يدّعيه المنجّم لا يختلف عما يقوله اهل السُنَّة(122) . وفي سياق الكتاب ، يُكثر المؤلف من اقتباس تكهنات المنجمين بشأن طالعه وطوالع غيره من ملوك الطوائف(123) .

اما شرب الخمر ، فكان امرًا مألوفا في الأندلس ، وبخاصة في عهد ملوك الطوائف ، بل ان المؤلف كثيرا ما يشير الى تعاطي والده وجده للشراب(124) . ومع أن الدين الاسلاميَّ يحرِّم شرب الخمر ، وكان المرابطون والفقهاء يستنكرون شرب الخمر ، فان من المدهش ان عبد الله لا يتردد في بحث الموضوع بشيء من الاسهاب والصراحة ، ويورد عن الموضوع بعض الحكايات والأمثال ، ويستشهد ببعض أشعار ابي نواس ، لكنه يبادر الى القول بانه لا خير فيما لا تبيحه الشريعة ، وبان الله قد تاب عليه من تعاطيه(125) .

ويلاحَظُ بأن الأمير الزيري – بعد خلعه وتغريبه – يُكثر من التعبير عن شعوره بالاستكانة والزهد ، بعد كل ما ناله من ثروة وسلطة ، وهو يَخلُص الى أن ذلك لا بد ان ينتهي عاجلا او آجلا ، وأن العاقل من يكرِّس حياته للأعمال الصالحة ، ويقنع لنفسه وأسرته بالحد الأدنى من المسكن والكساء والطعام(126) .

(122) التبيان ، 187 .
(123) نفسه ، 56 ، 105 ، 179
(124) نفسه ، 74 ، 85 .
(125) نفسه ، 183 ، 195
(126) نفسه ، 191

منهجنا في التحقيق والتعليق

ا – التحقيق

قمنا باعادة تحقيق المخطوط الذي سبق ان نشره الأستاذ ليفي بروفنسال في القاهرة سنة 1955 ، فعدّلنا ما ينبغي تعديله في النص المطبوع في ضوء المخطوط ، واحتفظنا بتقسيمه للفصول ، مع ادخال بعض التعديلات في عناوينها وعناوين الفقرات المندرجة تحتها(1) . وحرصنا على اثبات الهمزات التي اعتاد المصنّفون والناسخون اغفالها ، دون ان نشير الى ذلك في الهوامش . كما ضبطنا الآيات الكريمة مع ذكر مواقعها في السور التي وردت فيها .

ب – التعليق

فضلا عن شرح بعض المفردات شرحا مختصرا في متن الكتاب ، اضطلعنا بالشرح والتعليق الوافيْين لكل ما ورد في (التِبيان) مِن أعلام ، وأسماء اماكِن ، واشارات تاريخية وأدبية ولغوية ، فبلغت الهوامش 586 هامشا وردت في آخر الكتاب . وفي نهاية كل تعليق أو شرح ، ذكرنا المصادرَ والمراجعَ التي رجعنا إليها ، واكتفينا بإيراد لقب المؤلف – وأحيانا بموجز لعنوان المصدر او المرجع – ويمكن للقارىء الرجوع الى ثبت المصادر والمراجع في نهاية الكتاب حيث اوردنا – بالكامل – اسماء المؤلفين وعناوين بعض المصادر مرتبةً حسب حروف المعجم .

وقد أعددْنا – بعد الشروح والتعليقات مباشرة – شجرةَ نسبٍ لأسرة بني زيري ، وخريطتيْن ، إحداهما للأندلس ، والأخرى لغرناطة وأحوازها .

وفي نهاية الكتاب يجد القارىء فهرساً عاماً لأسماء الأشخاص والأماكن والقبائل والجماعات والمصطلحات التي وردت في (التِبيان) .

نرجو ان نكون قد وُفّقنا في نشر وتقديم هذا الكتاب القيِّم بصورة علمية لفائدة الباحثين في تاريخ الأندلس وأدبها على عهد ملوك الطوائف ، والله ولي التوفيق .

امين توفيق الطيبي

(1) نشير هنا الى اننا قمنا بترجمة (التبيان) الى اللغة الانجليزية ، وبتزويده بمقدمة وتعليقات وشروح وافية ، وتمَّ نشره من قِبَل دار بريل Brill للطباعة بليدن (هولندا) سنة1986 ، ضمن سلسلة (نصوص ودراسات عن شبه جزيرة ايبرية في القرون الوسطى) .

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الفصل الأول

نظرات عامَّة

قواعد التأليف

.....(1) واستنباط للغريب الذي لا يعقله كثيرٌ من الناس ؛ فإن ذلك يولد خشونة اللفظ ، الذي تمجُّه الأسماع . والكلام إذا خرج من القلب ، وقع في القلب 1 ولا خير في رامٍ رَعِش ، ولا متكلم هائب ؛ فإن الهيبة فرعٌ للمخافة ، والمخافة فرعٌ [من] الحذر ؛ ومَنْ حذر ، فقد عقله ، ومن خاف ، تكدَّر عيشه ، ولا تصحُّ مع هذا قريحةٌ ينطق عنها اللسان ، ويذكى بها الجَنَان ؛ فالنفسُ ، إذا منعت ما تشتهي ، تُرَى مختلطة ، وتصير كأنها بطوارق الخَبْل مختبطة .

ولا يجب على الناطق والكاتب أن يتَّبع هواهُ في أمره كلّه : فكلُّ مفتون ملقَّنٌ حجته 2 ، ولا عليه أن يرفض ذلك ؛ فيكون بانيا على غير أصل وعاملا لغير نهاية . وعسى بذلك يسعى فيما يصلح غيره ويفسد حال نفسه ، وهو لا يشعر ، بل يصرف نفسه على فرقين : يسعى في بلوغ أمله وإدراك مُراده دون أن يكون مخلاً بذكره ولا غرضا لعدوه . وكلُّ بيان ما لم يكن صوابا ، فهذَرٌ . وليس يُحْمَدُ لواضع كتاب أو ناظمِ خَبَرٍ أكثر من جودة التأليف فقط ، لأنه إنما وضع ما قد سبقه إليه غيره ؛ وكل أحد ينفق ممَّا عنده . وإن الأول لم يدع للآخر شيئا .

(1) هنا يبتدىء نص المخطوط الذي تلفت منه الورقة الأولى .

فلو كان نطق الناس إحالة بعضهم على بعض ، ما سُمع أحد يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر ، ولا يتبرَّع في [شيء] . ولكنِ الأولى أن يؤخذ بما حضَّ الله عليه في قوله(2) : ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ .

وليست الفائدة فيما قصدنا إليه ذكر خبر يوصف ويأتي عليه نادرة مستطرفة ، أو حكاية مستغربة ، أو معنًى يؤدِّي إلى تأدُّب وانتفاع . فلعلَّك - أيها المتأمل كتابنا - أن يكون عندك أو طرأ إليك خبر من أحوال الدولة المشهور لا تجده منصوصا هنا ، فتُعجز واضعه : فليس إلاّ كما قدمناه . اللّهم إلا أن يكون حديثا يؤدِّى إلى القيام بحجة صاحبه 1 (ب) والاعتذار عنه من امر قد التبس على الجاهل أو أشكل على السامع لم يهجم على حقيقة ، فنطق هذرا ، وساعد عليه أقواما لم يخسروا(3) في عرض غيرهم شيئا ، وطعنوا على غائب أو ميِّتٍ لم يحر الجواب عن نفسه ، أو دليلا لم ينتصر لعرضه . أو أبان المؤلف عن نفسه حذقا ومعرفةً تذكر عنه وتنشر بعده : فإن ذلك من آكد ما يجب له السعي فيه وإعمال ذهنه وحواسه في تخليصه ، إن أعانه على ذلك اغتباط(4) بجميل الثناء ، وأنفة لسوء المقال ، ونشاط(5) على ترفيع الذكر ، مع فتو الهمة وصبوة القريحة . وإلا ، فالأمر ناقص منه ، واللسان عِيِّ عنه .

ولا سبيل إلى اجتماع أمرين مختلفين في الانسان معا ، ولا في غيره من جميع المخلوقات . فإنه ، متى ارتفع أمر ، نزل ضدُّه : كالحياة ، إذا ارتفعت ، وجب الموت ؛ وإذا ارتفعت الصحَّة ، وجب السقم ؛ وإذا ارتفع الكرب ، وجب الفرج ، هكذا نسق كل أمر : كالعامل للآخرة محضاً ، لا بُدَّ له من نقصان دنياه .

ألا ترى أن مؤلِّفَ الكتاب ، إن كانَ غرضه نظم الكلام وسجع اللفظ ، كان ذلك ضارا بالمعنى 3 ؛ وإن أتى به ، فإنما يسوقه بعد تحليق عليه ، وربما وضعه من غير شكله . وإذا تمَّ المعنى ، نقص بعضُ اللفظ ؛ كما قيل : «إذا تمَّ العقل ، نقص الكلام» 4 .

وأرى أن مساق الحديث في التواليف بعضه لبعض أحسن خرطاً وأفضل نظما من تقطيعه . ولهذا نريد إيراده كالحديث «[فالحديث] ذو شجون» 5 ، ونضرب المثل لبعضه : فيتفق إيراده دفعة واحدة ، ونصه على أكمل ما يمكن .

(2) الزمر : 18 .
(3) م : يخسرون .
(4) م : اغتباطاً .
(5) م : ونشاطاً .

ومن كان لا يعرف دنياه التي نشأ فيها ، وأدركها ببصره وجميع حواسه ، فهو لآخرته أجهل ، [آخرته] التي لا تُعرف إلا بالتفكّر والاعتبار ، بعد ما حضّ عليه الكتاب وأتى به الرسول – عليه السلام – وقال تعالى(6) : ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ . وما* 2 (ا) يصلح لنفسه لا يصلح لغيره . وأصل العلم كله معرفة الانسان بدينه ، فعرف معاده ، وأنّه لم يخلق عبثاً . فإذا صحّت معرفته بذلك ، كان أحرى أن ينتفع به لدنياه التي يشاهدها معاينةً.

والرجال ثلاثة(7) : رجل عَلِمَ فَعَمِل : فذاك الذي يُدْعَى في الملكوت(8) ؛ ورجلٌ عَلِمَ ولم يعمل : فذاك الذي يُضاعَف له العذاب ؛ ورجل لم يعلم ولا عمل : فذاك ، إن مات ، يموت ميتةً جاهليةً ، ولا تصح له معرفة دينه إلا بأن لا يكدح فيه قول كافرٍ ولا معطّلٍ . فإذا حسن تمييزه عن الصنف الملحد ، عرف فضل ما هو عليه ، فاتّبع على يقين وجودة نَظَرٍ ، لا باستهزاءٍ ولا تقليدٍ ، فيعجز ويشكُّ .

وأما من كان من الأصناف الملحدة ، غير أهل الكِتابين من المشركين ومن سواهم ، فالضلال منهم بيّنٌ ، لا يحتاج معه إلى قياس ولا تفتيش . وأما ما يزعم أهل الكتاب من أنهم على الحق ، ولهم الدين القويم(9) ، وأنَّ قولهم أخل [بغيره] ، فالرد عليهم في ذلك أن يقال لهم : «إن كنتم تزعمون أنه ليس بعد نبيكم نبيٌّ ولا سُنَّةٌ ، فلا يكون هذا القياس إلا بأن تكفروا بمن كان قبل نبيكم من الأنبياء ! ألم تكن قبل موسى شرائع وكتبٌ مُنزلة ؟ وأنبياء عدة فلو كان على مذهبكم ، لاينسخ دينٌ ديناً ، لم يجب لكم أنتم شيءٌ 6 !» .

وإنَّ الله تعالى لا يترك الخلق سُدًى مهملين(10) ، وهو قوله تعالى(11) : ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ ، وقد كانت الضلالة بيِّنة في الفترات من عبادة الأوثان وتعبُّدهم بعضهم لبعض ، مالم يكن في حكمة الله ومشيئته أن يترك المرء ودينه ، ولا يمهل لمن يعبد سواه حتى بعث محمَّداً – ﷺ – بالحق بشيراً ونذيرا ؛ فصدع

(6) الرعد : 19 .
(7) م : ثلاث .
(8) الملكوت : مَحَلُ القديسين في السماء .
(9) م : القديم .
(10) انظر سورة القيامة : 36 .
(11) فاطر : 22 .

بالقرآن ، وجاهد في الرحمن ، وسنَّ السنن ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر . وكان في ذلك الزمان قد ضلَّ أهل الكتاب ، واختلفوا ، وردَّ بعضهم [على بعض بما لا] يمكن أن تصح لفرقة منهم شريعة مع أخرى ؛ وكانوا كـ (12)....2 (ب)الله تعالى ؛ فختم الله الرسول بنبيِّنا – عليه السلام – ليبين له ما فرضه عليهم ، ويُظهره على الدين كله(13) ! إن يقولوا : «ما جاءَنا من بشير ولا نذير !» وقال تعالى(14) : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً ومِنْهاجًا﴾ ، فالحجَّة عليهم ظاهرة على ما بَيَّنّاه فيما يعطي العقل والقياس . وأمَّا تبيان نبوَّته – عليه السلام – في الآيات التي جرت على يديه ، فأكثر من أن توصف7 .

وإذا قتلتَ أحدهم ببعض هذه الحجج ؛ فمن ينتحل منهم فقهاً في علمه وسداداً ، يرجع إلى أن يقول : «إنما كان رسولا إلى العرب !» فتأمَّلْ تناقضه ، وكيف أثبت له الرسالة ؛ ومتى وجب إثبات الرسالة ، فقد أوجب على نفسه التصديق في كلِّ مقالة وما أتى به . والله يقول(15) : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ . وقال – عليه السلام – : «بُعِثْتُ إلى الأَسْوَد وَالأَبْيَضِ والحُرِّ والعَبْد»8 ؛ فهم لا يصح لهم الانكار جملة ولا الايمان بأمر دون أمرٍ .

قصور القياس دون عون من الوحي

وقد كانت معرفة الباريء تعالى اضطراراً لقوله(16) : ﴿ولئن سألتَهم من خلَقهم ليقولُنَّ الله﴾ . ولو تُرك الناس في ذلك على قياسهم وما تدركه عقولهم ، لكان خوضهم (17) في هذا المعنى قليلا ، مستضعَفين ، لا يطيقون نصر ما عهد إليهم مما يريدون من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولغلب جهَّالَهم وعامتَهم التظلم ، ولم يلتفت إلى أحد قوله وما يقيس عليه . فكانت النعمة في ما أراد الله من صلاح العالم أن بعث فيهم الرُّسل ، ليكون ما أتوا به دواءً لما في الصدور وهُدًى ورحمة ؛ فمن عرف الله قبلُ بالعقل ، أتمَّ عليه نعمتة ؛ فقد عرَّفه نفسه باليقين ، وبشَّره بالثواب ، وأنذره العقاب ، ليرتفع الشك ويوقن بالمعاد قاد إليه عامة الناس طوعا أو كرها 9 .

(12) خرم نحو سطر في الأصل .
(13) انظر سورة الفتح : 28 . سورة الصف : 9 .
(14) المائدة : 48 .
(15) سبأ : 28 .
(16) الزخرف : 87 .
(17) م : حواضهم .

ألا ترى أن كل شيء من أمور الدنيا يصح بالظن دون اليقين ؟ فكيف الآخرة التي لا يوقن ....[18]* 3 (ا) الذين أبانوا عنها ؛ والظنُّ أكذب الحديث والشرع ، ومن تقلده بطل [رأيه] . وليس حكم الباريء تعالى مما يجرى على قياس : كيف وهو خالق القياس ، وهو واهب العقل الذي به أدركنا جميع الأشياء ؟ ألا ترى أن النفس لم يقف أحد منها على حقيقة ماهي ، إلاَّ اختلاف بين العلماء الشرعيين وأهل الطبيعة والدهرية[19] . والحقُّ إنما يكون في طرف واحد ؛ فهم يخبطون خبط عشواء[20] 10 وإذا قستَ على الحق ، إنما تجده عند اهل السنة لما بأيديهم من القرآن وحديث الرسول – عليه السلام – ؛ فهم يتكلمون على اصل ، وغيرهم على قياس : ﴿إن يتَّبعون إلا الظنَّ وإن هُمْ إلا يخرُصون﴾[21] .

وترى من الملحدين كثيرا لا يؤمن بالغيب ويقول : «إنما أعلم[22] ما تدركه حواسي من حار وبارد ورطب ويابس ، وما أدركته بعقلي مما كان ؛ ولا أعلم ما يكون ، وإنما أنا آنُ الآن[23]» . فالرد عليه أن يقال له : «أتدري بم عرفتَ هذا كلَّه ؟ » سيقول : «بالنفس . وعلمتُ النفس بالعقل الذي هو أرفع الدرجات» . فنقول له : «إذا عرفتَ بالعقل ما أنت فيه ، لم يكن لك شيء متقدِّم تعرف به العقل ، ولا استطعت لنفسك ، ولا علمتها قبل ؛ فتركب فيها عقلا أو تدبيرًا . وواهبُ العقل الذي خلقك ودبرك كيف يشاء ، قادرٌ على أن يعيدك ولا يجعلك هملاً 11 ، ولم يخلقك عبثاً[24] ولو أنك تعلم – أيها الشقي – أن العقل ، إذا جحدتَ به آيات ربك ، كَلٌّ عليك وحملٌ يوم القيامة ؛ وهو قوله تعالى[25] : ﴿فما أغنى عنهم سمعُهم ولا أبصارهم ولا أفئدتُهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله﴾ . وقال[26] : ﴿وضرب لنا مثلا ونسي خلقه﴾ . وقد اتت الرسل بالآيات التي هي خارجة عن حكم الطبيعة ليكون ذلك في العالم أشد استغراباً ومعجزاً يؤمن به أكثرالبشر . وقد أمر الله تعالى بالايمان بما قد غاب عن العقل والقياس ؛ ولا يُعجز الله في قدرته على ما يشاء * 3 (ب) جاحدٌ كفور .

(18) خرم نحو نصف سطر في الأصل .
(19) الدهري : من لا يؤمن بالآخرة .
(20) م : عشوى .
(21) الأنعام : 116 .
(22) م : نعلم .
(23) لعلّها : ابن الآن ، كما ترد في الفصل الأخير ص ، 176 .
(24) انظر سورة (المؤمنون) : 115 .
(25) الأحقاف : 26 .
(26) يس : 78 .

كقول أهل الطبيعة : إنها هي تدبِّر كلَّ شيء ، وإنها أعلم [من] كلِّ عليم وأحكم [من] كل حكيم ؛ فنجع من فعلها في الأبدان ما لا تدركه الأطباء باجتهادها . وقال غيرهم : «الطبيعة اسم واقع على غير شيء لا يُدرى ماهو .» فالحجة عليهم : أهي طبيعة واحدة ، أم طبائع كثيرة ؟ بل ، سيقولون : «لكلِّ شيء طبيعةٌ فأرى أضدادا لا تصحُّ لأحدها إلاهيَّةٌ ، وغيرها مناقض لها . وهي كانت حجة ابراهيم على قومه ورده على من قال إن الشمس هي حياة العالم دون غيرها ؛ فقال عليه السلام : أرى الظل يفعل ضد ما تفعله الشمس ! والخالق لا يضادُّ !» فأثبت الوحدانيَّةَ بالحجة القاطعة الواضحة .

وقد ذُكر عن سقراط ، وكان في زمن جاهلية ؛ أنّه قال ، بما أوتي من الحكمة ، مخاطبا الباريء عز وجلَّ : «ياأزل الأزل ! ويا أول الأوائل ! ويا قديما ! لم يزل مني نارُك لعلمي أن هذه المخلوقات من آثارك ؟» ولم تكن معه فئة يتَّبعونه على قوله ، ولا يعقلون ماقال ، حتى أمروا بقتله .

ولهذا يرجع ما قدمنا ذكره أن شرعا لا يتم بقياس العلماء وخواصِّ الناس دون الرسالة ، على أنه لا يَشك ذو عقل أن المخلوقات قد جعلها الله عللاً بعضها لبعض ، ولم يخلقها عبثا ؛ ولكل علة علة إلى أن ينتهي ذلك إلى الباريء عزَّ وجلَّ ؛ فهو الذي لا فوقه شيء 12 . وهو قول افلاطون لموسى – عليه السلام – إذ قال له : «يأأخي ، رسول من أنت ؟» أراد استخباره ، فقال له موسى : «أنا رسول العلَّة» . فقال له أفلاطون : «ما العلَّة ؟» قال : «لا أدري ! ولو كنت أدري ، لكنت أنا العلَّة ! إنما أنا متبع !» فقال له أفلاطون : «إذهَبْ وبلِّغْ ما شِئْتَ ! فالآن صحَّ عندي أنَّك رسولٌ حقاً !»

وكذلك الجزء لا يحيط بالكلِّ ، والكلُّ محيط بجميع الأشياء ؛ وهو قوله تعالى(27) : ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ .

وكذلك * 4 (1) أهل الهندسة والمعرفة بالنجوم قد علموا أنها مخلوقةٌ مصرَّفة لما ...العباد ؛ والعاقل منهم يُقرُّ بذلك ، غير أنه نهي عن النظر فيها وواجبه عما نهي عنه ، إذ ليس عقول أكثر الناس تهتدي إلى الحقيقة ؛ والفسادُ أسرع من البنيان ، وأقرب إلى عقول الناس من الاهتداء 13 . « وَدَعْ ما يُريبك إلى ما لايريبك» 14 .

(27) البقرة : 225 .

وهم يقولون إن فيها سعودا ونحوسا ، وإنما في الفلك سعدان ونحسان(28) ، يعنون بها المشتري والزُهرة وزُحَل والمريخ ، ونيِّران(29) ، وهما الشمس والقمر ؛ ولا يصح لعالِمٍ أن يتكلم عليها إلا بمزج بعضهابيعض ، فكيف يكون لها الحكمُ ؛ وهي أضدادٌ ، والحاكم لايضادُّ ، وخالق الخير والشرِّ إليه يرجع الأمر كله ؟ وهو مصرِّف الدهور بما يشاء ! (لا إله إلاّ هو ، العزيز الحكيم)(30) .

وليس في العالم أمر يثبت 15 ، وعلى هذا بُنيتْ الدنيا ، وكذلك الدول والملل : كلٌّ يأتي في أوانه ، ولا يتعدى وقته ؛ والدين صلاح العالم ، ولا عدلَ إلا به ، والمُلْكُ يعضده ويحميه ، وهو قوام العالم على ما رتب الباريُ عزَّ وجلَّ .

ضرورة التعلُّم والتجربة

واعلمْ أن العقل محتاج إلى التعلم ، ولا يستحكمُ تعلُّمٌ إلا بتجربة 16 ، ولا تتحكَّم تجربةٌ إلاَّ ما كان فيها بعض النكد والاشعاف ؛ فالانسان على ما ضري عليه وعلى أن السعيد من اتَّعظ بغيره 17 ؛ لكن من شأن الانسان التسويف ولعل و عسى ؛ فإذا أُحتيج في ذاته ، أعقبه ذلك يقظة وحنكة . وكذلك من أحوج إلى نفسه كأنما لا يتّكل على غيره . فينبغي للعاقل أن يعمل نفسه في رياضة ذلك ، والتمرُّن فيه ، إن لم يُحْوجْه الدهر ؛ وإلا : فليُتعبْ ذهنه ، ويُشغلْ باله بالفكرة فيه ، خوفا أن يُضطرَّ إليه ، وإن الدعة غير دائمة . فإن احتاج إلى نفسه ، وجدها ؛ وإن استغنى عنها ، عرف فضل ما هو فيه ؛ وكانت لذته به أشدَّ تمكنا : فإنه * 4 (ب) لا يعرف قدر الخير من لايعرف الشر . وإعمال الفكرة في هذه المعاني كالتجرُّب بها : فإن الاهتمام بما لم يكن بلاء في النفس كائن ؛ وذلك البلاء مؤدِّبٌ ، واعظ ، نافعٌ ، مضمحلٌ ، خير من بلاءٍ موجع حال .

وقيل : ليس العلم بكثرة الرواية ؛ إنما هو نور يضعه الله في القلوب . ولا عذر للانسان في أن يجهل علما يليق به ، لقول الله تعالى(31) : ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ . ومن حُسْنِ إسلام المرء تركه ما لا يعنيه 18 وقد يكون طالب علم لا ينفعه ذلك العلم فليس بمحمود وهو كطالب ما لا يعنيه .
وليس كل ما حضَّ عليه أو نهى عنه على العموم ، بل لذلك كله حكم يُحسنه العاقل ؛ والجاهل لا يحسنه ، وإن جهد جَهْدَه .

(28) م : سعدين ونحسين .
والسعدان : المشتري والزهرة . والنحسان : زحل والمريخ .
(29) م : ونيرّين . (30) آل عمران : 18 . (31) النحل : 43 .

التكوين السياسي للمؤلف

وقد كنّا – معشرَ اهل بيت المملكة 19 – نرى من آكَدِ ما نتأدَّب به إعمال السياسة في طلب الرياسة ، والسَّعْيَ لها بكل الوجوه ، وإحضارَ الأذهان ، ما لو أن المُفرط في بعض ذلك منّا يكون أفقهَ الناس في سائرها من العلوم ، لكان عندنا نا قصاً ، لا يصلح لهذا الشأن ، حتي وقع التنافس على ذلك . وقتلناها نحن علما لرياضة أنفسنا ، وما أجرانا(32) عليه آباؤنا ،وبصّرونا فيه من أوّل نشأتنا . وتلك صناعةٌ وجب تعلمها لضرورة الحال ، كسائر الصنائع التي منها معايش الناس ، ولا بد لهم من إتيانها . ولعمري إن الوالى أكثرُ علما وأحسنُ عقلا : فإن جميع عقول الناس تعرض لديه 20 ، ويجرب في موضعه مالا يجرب غيره في تقلبه في البلاد ، وإليه تُهدى الأخبار ، ويتخاصم الناس ، وعنده يقع الطلب ، وتُرفع الحاجات ، وتقع العنايات ؛ فيرى ويسمع كل يومٍ جديدا لم يرهُ أمس . وقال عمر ابن عبد العزيز – رضي الله عنه : «لست كخَبٍّ ، ولا الخَبُّ يخدعني !» 21 وقيل : «فلان لايعرف الشرّ» . قال : «ذلك أجدرُ أن يقع فيه !» 22 .

*5 (ا) ولمّا كان المظفَّر 23 جدُّنا – رضي الله عنه – قد أوتي من الدهاء والتمييز لأحوال الزمان ما لاخفاء به ، وأنه من آكد ما يجب له النظر فيه ترشيح أحد بنيه للولاية بعده ، وأن ذلك لا يتم إلا بتمرينه وإعماله في جميع خدمته ، كي يتدرب ولا يخفي عليه من أمور الدولة ما يحتاج إليه فيه نفسه ، كنت ممّن وفقه الله لبرّه والانطياع لوصيته . أمر بإخراجي من المكتب(33) إلى التصرف بين يديه ، وقال لي – نضّر الله وجهَه – : «معك من الكتابة وتلاوة القرآن ما يكفيك ! 24 وهذا أولى ما تتعلم ! فعليك بإحضار ذهنك لجميع ما يكون مني وما ينقضي في دولتي أيّام الفتن ؛ فإن الزمان أشرُّ ، والأيام أقصر من أن تدرك تعلم كل شيء يعنى به الملوك لأبنائهم !» فامتثلت حدَّه ، وأخذت نفسي أولا بالتواضع له واختصار كل شيء يقع منه في نفسه أني أشره به إلى تعجيل الولاية أو الحرص على الرياسة ؛ بل كنت أتأبّى(34)له عن ذلك ، ولا أحكم بين اثنين إلا عن مشورته ومشاركة أهل السن والعمل من وزرائه ، وأُنزل نفسي لهم بمنزلة الابن ، حتى وقع ذلك من أنفسهم موقعا ارتضَوْني به للخلافة من بعده . واتفق في ذلك رأيهم مع رأي الجد – رحمه الله .

(32) م : أجرونا .
(33) المكتب : المدرسة .
(34) م : أتأبا .

ولم يكن منها نهار إلا وأستفيد فيه من تجربة وحنكة .

وما كنت أجهله من الأشياء ، أجد له أعوانا من الوزراء ، يعلمونني بالصواب فيه لقلة خلافي عليهم وبِرّي بهم .

كل ذلك [من] الأسباب التي أذن الله من أجلها ولايتى من بعده . وقد كان من أهل بيت المملكة من يصلح لها قبلى ، ومعي من أخ كبير وعم وقرابة أتوقّع استهدافهم إليّ وتَغَلُّبهُم عليّ 25 ، ما لو أنفقت ملءَ الأرض على كفاية شره ، ما استطعت له . فكفاني الله تعالى ماكنت * 5 (ب) أتوقع ، وأراني الخِيْرة في عاقبة كل أمرٍ كنت فيه أكرهه . فنحن جدراء بتعداد نعم الله والانصاف في شكره ، كما حضَّ الله عليه في قوله(35) لنبيه – عليه السلام – : ﴿وأمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ .

وقد كان أبونا سيفُ الدولة – رحمه الله – مُرَشَّحا للمملكة ، كثيراً حبُّ أبيه له ، وجمعه الأموال من أجله ، وتدريبه عليه بكل وجه .وكان – رضي الله عنه – من العقل والكرم وحسن الخلق والحِلْم ما شُهر به في البلاد ، واجتمع عليه محبة العباد . ولم يكن للمظفر جدنا غيرُه ؛ فتوفّي – رحمه الله – ابن خمسة وعشرين عاما (26) . وسنذكر من أحواله مع سائر أمور الدولة ما يرد بعد هذا إن شاء الله .

حول الانصاف التاريخي

وأول ما ينبغي تقديمه ذكر دخولنا الأندلس ، وكيفية ولايتنا إياها ، إلى هلمَّ جَرًّا . فإنه ، متى أتينا على خبر يطيب ذكره في هذا التأليف ، للمعترض أن يقول : « هذا أحسن لو كان على أصل يُحمد ، وعن ولاية تُرْتَضَى !» فينطق هذراً دون اختبار ولا إنصاف ، على أن الثناء الحسن لا يقع على الدولة إلا في مدتها وأيام سعادتها ، ولو كانت ظالمة ؛ ولا يقع فيها الذمّ إلاّ بعد توليها ، ولو كانت عادلة . والناس مع من سبق إلاّ من نظر بعين العدل لا بعين الهوى ؛ وقليلٌ ما هم !

ولترى أن لا شيء في العالم يسعد وينحس إلاّ وكان أحد الأمرين لا يشوبه غيره . ولا يتعلق بالسعادة إلاّ كلُّ مستحسن من غير تكدير ، كما أنه لا تشوب المنحسة ما فيه أدنى سرور . وليس مع الاقبال إدبارٌ 27 إلاّ تمام المدة . ولا يتفق الناس أجمع على مدح أحد ولا على ذمّه : فإنّ رضى العامة أمر لا يُدرَك 28 ، ولا بدَّ للوالي أن يقضي عند حكمه لأحد الخصمين على الآخر ضرورة ؛ فالمقضيُّ

(35) الضحى : 11 .

عليه انقلب ساخطا ، والمقضيُّ له انقلب راضياً ، وكلاهما يتكلم على شهوة نفسه . فكيف يتَّفق إجماع العامة على خير واحدٍ* 6 (ا) أو مدحه ؟ وإن الله تعالى كان قادرا على أن يُسوِّي بين خلقه ، و جديراً ، وإن كيَّفت ، أن يرفع بعضَهم فوق بعض درجاتٍ(36) .

أثر المصادفة في التاريخ

وإذا اعتبرتَ أحوال هذا العالم على شيء من أمر الدنيا ، إنما تجده كائناً بأرق سبب : فمن بين جاهلٍ مسعودٍ أو حاذقٍ مُمَخرَقٍ(37) . وإذا بعثرتَ على ماهو فيه أعن استحقاق تصيَّر إليه ، لم تختبر من فعاله ومقاله شيئاً يشذ عن العالم ، ولا يشف(38) على رأي من تزدريه عينك ، لأن الجهل في العامة أغلب ، والباطل إلى عقولها أسرع : استعظمتْ ماهو عند اللبيب حقير ، وتكلَّمَتْ على ما ظهر إليها ، ولم تقسْ عليه بعقولها ؛ ولله ما بَطَن ، وللناس ما ظَهَرَ . ولهذا تَرىَ صاحب الناموس(39) أرفع ذكراً وأطيَبَ ثناء ، وإن كان يُرائي .

وقد كان المنصور بن أبي عامر ، على دقَّة شأنه قبلُ ، ولأنه لم يكن من أهل بيت المملكة ، فيستحقها عن الآباء 29 ، ولا كانت به قدرة علي الدنيا ، قد حصَّل على عظائم بدهائه ومخرقته(40) على العامة 30 ، مع ما هيأت السعادة له وكان أقوى الأسباب في سلطانه . وقد ذكر بعض أهل العلم بالتنجيم أنه مَنْ كان طالعه من البروج الحوت والقوس كان أعظم الأسباب في سلطانه أو عقاره 31 . ولولا قيامه بدعوة الخليفة 32 ، وإظهاره الانخضاع له [في جميع] ما يأتي ويذر إلى طاعته وإقامة أوده ، وتوليه الحجابة والوزارة 33 ، وإخماله لأهل الدولة الحَكَميَّة(41) ، وتقصّيهم بالقتل 34 ، متأولا في ذلك أن به تصفى دولته ويقوى سلطانه ، وأن في بقائهم كثرة الخلاف وإثار الفتن وهلاك المسلمين ، حتى اتسق له ما أمَّل ، وبلغ من ذلك كله الغاية القصوى – ولو أن أحداً اشتهر ببعض ما أتى هو به دون تعلُّق بسبب أو إظهارطاعة ، [لكان قُتِلَ] من ساعته ، ولو كان من أهل بيت الخلافة – إلى أن ورث الأمرَ ابنُه 35 من [بعده ، فسار المنصور]* 6 (ب) بأحسن سيرة وأحمد طريقة ؛ وكانت له في بلاد العدوّ فتكات ، وكان للاسلام في أيامه عزّ ما كان بالأندلس ، وأذلَّ ما كان النصارى 36 .

(36) انظر سورة الأنعام : 165 .
(37) ممخرق : كاذب ، مشعوذ ، مدلّس .
(38) يشف : يزيد ، يربو .
(39) االناموس : الهيبة .
(40) مخرقته : كذبه وتدليسه .
(41) م : الحاكمية .

الفصل الثاني

قيام دولة بني زيري في غرناطة
إمارتا زاوي بن زيري
وحبوس بن ماكسن

اصلاح المنصور العسكري وقدوم بني زيري إلى الأندلس

وتوقع [المنصور] من أجناده الاتفاق على بعض ما يخل بدولته ، إذ كانوا صنفاً واحداً ، وتألّبهم على معصية أمره ، متى أمر بما أحبوا أو كرهوا ؛ فنظر في ذلك بعين اليقظة ، وسوّل له رأيه أن تكون أجنادُه قبائل مختلفةً وأشتاتاً متفرقةً : إن همَّ أحدُ الطوائف بخروج عن الطاعة ، غلبها بسائر الفئات 37 ، مع احتياجه إلى تقوية عسكره ، والزيادة فيه بمن يستطيع على تخلّل بلاد العدو وتدويخها متى شاء . فاستجلب من رؤساء البربر وحماتها وأنجادها من بلغه فروسيته وشدته 38 . وتسامع الناس بالجهاد ؛ فبادر إليه من شَرْق العُدوة 39 مَنْ كان لهم من الآثار والمكارم والبأس على النصارى ما لا خفاءَ به . وبهم كان يصول ابن أبي عامر على العدوّ ؛ وهُمْ كانوا العدة في الجيش والموثوق بهم عند اللقاء ومعترك الوغاء 40 . وكان من أدهاهم رأيا وأبعدِهم همَّةً زاوي بن زيري عمُّنا ، وبعده حبوس ابن ماكسن ابن أخيه – رضي الله عنهما – ؛ فإليهما كان الرأي والمشورة في الأمر ، والحكم على من دونهم من الأجناد 41 .

فرتب ابن أبي عامر الرتَب ، وأظهر هيبة الخلافة ، وقَمَع الشِرْك ، وحضَّ المسلمين عامة على الغزو ، فعجز عن ذلك رعية الأندلس ، وشكَوْا إليه ضعفهم عن الملاقاة وشغلهم بالغزوات عن عمارة أرضهم 42 ، ولم يكن القوم أهلَ حرب 43 . فقاطعهم على أن يشتغلوا بعمارة أرضهم ، ويُعطوا من أموالهم كل عام ما يقيم به من أجناد من يكفيهم ذلك ، على اتفاق ورضى منهم . فضرب عليهم الاقطاع ، وحصَّل في الدواوين جميع أموال الناس ، وكسرها * 7 (ا) عليهم [وفرض] بينهم مالاً [يرتزق] منه الجيش . فبقيت تلك الأقطاع عليهم إلى [أن عمَّت الأندلس] عدّة الثوّار و [اتبعوا] هم على تلك الآثار . 44 . [ودأْبه] في ذلك إنما كان على ما وصفناه .

وكان الناس مؤتمنين على ما يعطونه من زكاة أموالهم في الناضّ(1) والطعام(2) والمواشي ، يقسمون ذلك على المساكين بكل بلدة ؛ ولم يكن الوالي يقرب من ذلك إلاّ ما يقيم به الجيشَ والدولةَ التي هي قيام العالم ؛ ولولا حماية السلاطين للرّعية ، وعزُّ دولهم ، وذبُّهم عنه ، ما طاب لهم عيش ولا عزَّ بهم قرارٌ . فكان ذلك كله عن سداد وصلاح وتأول الخير . ولم تزل الأندلس قديماوحديثاً [عامرة] بالعلماء والفقهاء وأهل الدين ، وإليهم كانت الأمور مصروفة ، إلا ما يلزم الملك من خاصّته وعبيده وأجناده من الأخذ من واحد ودفعه لآخر ، لينخّل(3) بذلك عسكره ويتخير أفْضَلَه....فيه للمسلمين كفاية ، إذ كانت الأموال التي يعطونها من غير أُصولهم ، ولا اكتسابهم ؛ إنما كان ذلك من وجه النظر للمسلمين . وأما ما كان بينهم من مظلمة أو قضيّة وكلّ حكم يرجع للسُّنَّة ، فإنما كان لقاضي البلدة 45 .

فلما تمت الدولة العامرية ، وبقي الناس لا إمامَ لهم ، ثار كل قائد بمدينته ، وتحصَّن في حصنه بعد تَقْدِمة النظر لنفسه ، واتخاده العساكر ، وادخاره الأموال ؛ فتنافسوا على الدُّنيا ، وطمع كل واحد في الآخر 46 . وكذلك لا يصحُّ أمر بين نفسين ؛ فكيف سلاطين كثيرة وأهواء مختلفة ؟ .... إلاّ الله ....من كان ظالماً منهم يتعدى....للقدر * 7 (ب) الذي شاء ربنا لا شريك له .

(1) الناض : النقد .
(2) الطعام : الحبوب .
(3) ينخّل : يُنقّي .

استقرار بني زيري في إلْبيرة

فلما رأى سلاطينُ صنهاجة وبنو زيري اقتطاع كلِّ أمير في بلد لنفسه ، وذهابَ ما كانوا عليه من عز وأثر ، عزموا بالرحيل عن الأندلس والجواز إلى العُدوة ، ليرجعوا إلى مستقرهم 47 . فانعقدوا على ذلك بعد أمور يطول ذكرها ، وظهور فساد كثير أضربْنا عن إيراده كلّه ، إذ كان مقصدُنا وصفَ دولتنا خاصة . ولا بد من ذكر لُمع من غيرها عند الاحتياج إليه .

وكان أهل إلبيرة في بسيط من الأرض 48 ، وكان بهم من الغش بعضهم لبعض ما إنَّ الرجل منهم ليتَّخذ بإزاء داره مسجدا وحماما فرارا من جاره 49 ، ولا يرجعون إلى طاعة ولا حكم وال . وكانوا مع هذا من أجبن الناس وأخوفهم على مدينتهم ، لا يستطيعون على قتال أحد ، ولو كان الذباب ، إلاَّ بمن يحميهم ويذبُّ عنهم . فلما بصروا باختلاف سلاطين الأندلس ، وأنها أضرمت نارا ، وتوقعوا أن يتخطَّفهم الناس ، وجَّهوا إلى زاوي المذكور ، شاكين مما هم فيه 50 ، ويقولون : «إن كُنْتُمْ جاهدتم قبل اليوم ، فهذا الجهاد آكدُ عليكم : أنفسٌ تُحيونها(4) ، وديارٌ تحمونها(5) ، وعزَّة تأوون(6) إليها ! ونحن شاركوكم بأموالنا وأنفسنا : لكم منا الأموال والسكنى ، ولنا منكم الحمايةُ والذبُّ عنَّا !» .

فقبل القوم قولهم . واغتبطوا بمكانهم ، واستبشروا باستفتاح البلدة لغيرها ، و[بذلك حموا] أنفسهم من الغدر لتشتُّتهم ورجوع أمرهم كلّه إليهم دون فئة [تحميهم] ، ولا جماعة يُتوقع عصبتُها . فأتوهم محتشدين متألفين ، قد انقطع إليهم كل من انتمى من البربر وتعلَّق بهم 51 . ونزلوا ساحتهم ، وحَيُّوهم بالتحف والأموال ، وشاركوهم أحسن مشاركة ، راضين بهم لا ساخطين . واستجابت لهم عند ذلك معاقل كثيرة ، منها جيَّان وأنظارها ، وحصن آشر* 8 (أ) من الغرب 52 .

فلما طاعت لهم البلاد ، اجتمع رأيهم على أن يتقارعوا عليها ؛ وكانت عادةً

(4) م : تحيوها .
(5) م : تحموها .
(6) م : تأووا .

في البربر ، كي لا يأنف أحدهم عما يصير إلى أخيه 53 . فرجعت إلبيرة في قرعة زاوي ، وحصن آشر مع جيّان في قرعة حبوس ابن أخيه جدّنا - رحمة الله عليهم . وتعاقد جميعهم على أنه ، إن طرق العدوُّ جهة صاحبه ، يكون الآخر يحميها بنفسه ورجاله 54 .

ردّ الفعل الذي أحدثه في الأندلس قيام دولة بني زيري
اختطاط غرناطة

فلما بصر بفعلهم ثوارُ الأندلس ، جزعوا منهم ، وحذروا أن تقوى شوكتُهم ، فيطرقوهم ويحصلوا على بلدهم ، لما اختبروا من شدتهم ورأيهم . فاجتمعوا على منازلتهم وقصدهم إليهم بأحشادهم ، كراهية توطيدهم بذلك المكان وبغضِهم لجنسهم . وقدّموا على أنفسهم إنساناً سمّوه بالمرتَضَى ، زعموا أنه قرشيٌّ ، كي يستجلبوا بخلافته عامَّةَ الناس ، وليرجع أمرهم إليه . ونزل الجمع على مقربة منهم 55 .

وكان قبل ذلك ، لما بلغهم احتشادهم وتألُّبهم ، جمعوا أهل إلبيرة المذكورة وقالوا : «نحن لم نأتِ لفساد دياركم ، ولا قهرناكم على استيطانها ؛ وإنما كان ذلك على اختياركم لنا . وهذه الفئات مُقبلةٌ لطلبنا : فإن استوثقنا منكم ؛ دافعنا عنكم ؛ وإن كانت الأخرى ، فأعلمونا : نَمضي عنكم على أجمل وجهٍ ، فلن نعدم الخير بسيوفنا !» فأجابهم القوم : «اثبتوا في قتال عدوِّكم والدفاع عنَّا وعن أنفسكم ! فنحنُ رعيَّتكم الطائعة وأسيافكم القاطعة !» فقال لهم زاوي بن زيري : «إذا كان هذا رأيكم ، فأرى من الصواب أن نرتحلَ عن هذه المدينة ، ونختارَ لأنفسنا فيما يقرب منها معقلا نأوي إليه بأهالينا وأموالنا 56 ونجعله وراء ظهورنا ونسند إليه ظهورنا 58* 8 (ب) 57....(7) فإن الحرب سجال يصيب عندها ولا يصاب ؛ فقد يُظنُّ عجزاً ! وقد أمر النبي - عليه السلام - عند احتشاد المشركين على المدينة أن يُخَندقَ حواليها ، وسنَّ الحزم ، مع إمداد الوحي له ؛ فكيف نَحْنُ ؟» 58 .

وقالوا لأهل إلبيرة : «لسنا نكلفكم(8) من الأموال ما تسرَّعتم به ، إلاّ أن تنفقوها فيما يخصكم من تقوية مدينتكم بحشود رجَّالةٍ منكم ، تنفقون عليهم ليكونوا بها لكم أعوانا : تصرِّفونهم حَرسا وجواسيس وما أشبه ذلك ، وتحملون من تعرفون أنّه يستطيع على الجندية ، أو تبنون لأنفسكم سورا يُتوقع بتركه ثلمةٌ تدخل بها

(7) خرم في الاصل .
(8) م : نكلفوكم .

الداخلة عليكم . وأما سوى ذلك ممَّا يخصنا نحن ، فاعلموا أنه لم نأتِ الأندلس إلاَّ وأجلبنا مع أنفسنا من الأموال ما لانحتاج فيه إلى أحد ، بانين على الاقامة ان اضطررنا إليها ؛ ولم نأتها عن فاقة ولا سعاية 59 ؛ إنما جئناها رغبةً في الجهاد 60 ، وأن تكون كفايتنا التي شُهرنا بها على العدوِّ دون سائرهم ، وأن نُفنيَ باقي أعمارنا في طاعة الله ، إلى أن دفعتْنا الأقدار إلى ما تَرَوْن . ونحن لم نطلب أحداً ، ولا تعدَّينا على بشر ! وهؤلاء باغون متطاولون . وَمَنْ ﴿بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّه اللهُ﴾[9] ؛ ومن قتل دون ماله وأهله ، فهو شهيدٌ !»

فرضى القومِ من قولهم ، وزاد ذلك فيهم رغبةً . واتَّفق رأي الجميع أن يتخيَّروا لأنفسهم جبلاً مُنيفًا ومعقلاً شامخاً ، يبنون فيه ديارهم ، ويرحلون إليه بقلَّتهم وكثرتهم ، ويجعلونه القاعدة ، ويخرِّبون[10] له إلبيرة المذكورة .....[11] * 9 (ا) فوقعت أعينهم على بسيطٍ جميل ، قد جمع الأنهار والأشجار ؛ وجميع ما يليه من البلد كلَّه ينسقي من وادي[12] شنيلي 61 المنحدِر من جَبَل شُلَيْر 62 . وبصروا بالجبل الذى فيه الآن مدينةُ غرناطة 63 موسطة للبلد كله : الفحص 64 أمامه ، وجهتيْ الزاوية 65 والسطح بجنبتيْه 66 ، ونظر الجبل 67 وراءه . فأفتنهم المكان ، وعملوا عليه كلَّ حساب ، ورأوْا أنه في وسط النَّعَم وجمهور الرعايا ، وأنَّ العدو ، متى نازله ، لم يُطِقْ له إحصاراً ، ولا منعه داخلاً ولا خارجاً البتَّة ، في كل ما يحتاج إليه الناس من المرافق . فشرعوا في بُنيانه . وتولَّى كلُّ امرىءٍ منهم إقامة داره من أندلسٍ وبربرٍ 68 . وخربتْ عند ذلك إلبيرَة 69 .

خروج المرتضى الأموي لحرب بنى زيري وهزيمته

فلم يكن إلا مدةٌ يسيرةٌ قبل أن يستكمل البنيان 70 ، فإذا بالطوائف الباغية قد أقبلت طامعةً متألفةً ، يظنون أنهم ، عند وصولهم ، لا ترتفد[13] لهم ساعة . وقدَّموا كتاباً إلى زاوي المذكور ، يأمرونهم – بزعمهم – بالخروج أمامهم على الأمان ، وأن لا سبيل إلى البقاء ، ولا يتركونهم بذلك الموضع : يُبلون بذلك العذر عندهم[14] ، إذا ظفروا بعد هذا ، أن لا يقيلوا لهم عثرة 71 .

(9) الحج : 60 . (10) م : ويخربوا .
(11) خرم نحو سطرين في الأصل .
(12) م : واد شنلي .
(13) لا ترتفد : لا تصمد .
(14) يبلون العذر عندهم : يبيِّنون لهم وجه العذر ليزيل عنهم اللوم .

فلما قريء على زاوي كتابُ المرتضى المقام لهذا الناموس[15] ، جَمعَ رجاله ، وخاطَبَ ابن أخيه حبوساً ، يأمره بالقدوم عليه ؛ فأتى في جميع عسكره ، ودخل المدينة على أعينهم ، غير مُجانب لهم ، ولا متكامن منهم . واجتمع بغرناطة من صنهاجة دون الألف من خيرة الخيرة ؛ وكانت الطوائف الباغية في نحو من أربعة ألف فارس 72 .

فأمر زاوى المذكور [بكتب الجواب من] إملائه ، وقال للكاتب : «لا تزدْ شيئا على ما أملي عليك !»9 (ب) اكتُبْ : ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَى زُرْتُمُ المَقَابِرَ . كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[16] .

فلما ورد الجوابُ عليهم ، عجبوا من دهائه 73 ، وقالوا : «إنَّ هذا الرجلَ لم يأْبَ الطاعة لنا ، إلاَّ أنه واثق بنجدته وبمن معه ، أو موطَّنٌ على الموت ، أو معجبٌ محيَّن !» فزحفوا إليه .

وهشَّ القوم[17] إلى ملاقاتهم . فأمرهم زاوي بالثبوت وترك الطيش ، حتى يبدو اليه ما هم فيه 74 . فقالوا بأجمعهم :«لاَ خيرَ لنا في غير ملاقاتهم ، إذ قد أيقنَّا بأنهم لا ينفعنا معهم شيءٌ إلاَّ الظفر بهم أو الموت على أيديهم . ولا مَهْرَبَ لنا في الأرض دون قتالهم ! إن بقينا ، لم يبارحونا ، وأحصرونا مع رعايانا إن لم يَروْا مناَّ دفاعا عنهم ! فإماَّ هُلْكٌ وإمَّا مُلْك ! 75 وإنَّ موتنا في ملاقاتهم ، بعد إبلاءالعذر ، أحبُّ إلينا من تغلبهم على مدينتنا !»

فخرجوا إليهم بأنفس جريئة وعلى الموت مُوطَّنة ، وقلوب حنقة وللموت طالبة . فلم يكن إلاَّ كصفقةٍ بالكف على الكف حتى ولَّوْهم الأدبار ، وانهزموا أمامهم مذعورين ، يطلبون النجاة بحشاشة أنفسهم ، لا يلوي منهم أحد علي صاحبه . واتَّبعتْهم صنهاجة ، وانبسطتْ عليهم أيدي البربر ، يقتلون منهم نهمةَ أنفسهم ، ويأخدون أموالهم وما تركوه من أسلحتهم ، حتى امتلأت من ذلك أيديهم 76 .

وكانت تلك الوقيعة أوَّل ظفر ثبتوا به في أوطانهم 77 . وهَابهم الناسُ ، وانقادت لهم الرعايا . وتوطَّد ملكهم بغرناطة ، وطاعت لهم أكثر بلاد أعدائهم المهزومين .

(15) الناموس : المنصب ، المقام .
(16) التكاثر : 1-4 .
(17) هشَّ القوم : ارتاحوا ، تاقوا .

رحيل زاوي بن زيري إلى إفريقية

وإنَّ زاوي بن زيري ، لما بصر بهذه الحال ، ورأى تألبَ أهلِ الأندلس عليهم وبغضَهم لهم ، عمل بذلك فكرته وقال : «قد علمتُ وأيقنتُ أنَّ هذا يكون * 10 (ا) دأبهم أبداً ، وإن كنا قد مُنحنا الظفر في أوّل صفقة ، لم نأمنهم على أنفسنا وديارنا كلَّ حين ! وهُمْ ، إن قتل منهم واحدٌ خَلفَهُ ألفٌ ، مع ميل جنسيتهم من الرعايا إليهم ؛ فتكون الزيادة فيهم والنقصانُ منَّا ! ولا يموت لنا نحن أحد ونخلفه أبداً !» فنظر من المكان بعين الحقيقة ، وزهد فيه مع ما علمه من وفاة باديس ابن المنصور 78 ، والِدِ المعزّ ، ملك القيروان ، وأن ابنه ولي طفلاً صغيراً 79 ؛ فشرهت نفسه إلى تلك الولاية ، وعزم على النهوض إليها ، للقدر الذي قدَّره الله من إزالته عنها وولاية ابن أخيه مكانه 80 .

وكان لزاوي بنون ، يعدل كلٌّ واحد منهم ببدنه مائةَ فارس في نجدته وقوةِ بأسه ورأيه : منهم بُلُقّين بن زاوي . فأعاب هذا الرأيَ على أبيه ، وقال له «بَنَيْتَ لِغَيرِكَ فتكون له بمنزلة الخادم أو الأجير ! لا تتركْ حاضرا لغائب ! واثبتْ بمكانك الذي لم تحصِّلْ عليه إلا بعد مشقةٍ وإشرافٍ من نفسك على الهلاك !» فقال زاوي : نستخلف على المدينة من شيوخ تلكاتة 81 الموثوق بهم في المهمات من يثقفها ، وينوب منابي فيها ، حتى أُباشرَ بنفسي حال القيروان وكيفية دولتها . فإما أن يتهيَّأ غرضنا ، وإلاَّ انصرفنا إلى مركزنا» .

فتهيَّأ للمسير على سبيل المشاركة للمُعِزّ ، وأن يكون له بالأندلسِ عُدَّةً وعبداً ، وما أشبه ذلك مما يُستعمل في المشاركات واتصال الأيدي على المهمات . واستحلف من استحلفه من الشيوخ ألا يُدخلوا(18) عليه داخلة ولا يسلموا(19) من أحواله شيئاً لابن أخيه ولا لأحد من خلق الله ، * 10 (ب) يريهم في مسيره(20) النظر لهم والسعي فيما هو خير من موطنهم ذلك .

ثم خرج عن البلدة كأنه يُقاد قودًا 82 ؛ فلم يخرج منها بمرحلة إلاَّ وكُتُبُ مستخلفيه سائرة إلى حَبُوسِ بن ماكسن ، يسفهون رأي زاوي ويقولون له أن يعجِّلَ بالقدوم إلى البلد ، وأنه أحق بولايته من غيره ، قبل أن يطمع فيه من لايرضَوْنه ، أو يشره إليه من فغر فاه إليه بزوال زاوى عنه . فلم يتأخر عنه إقبال حَبُوس . وتلقّته(21) صنهاجة بالطاعة والانقياد لملكه 83 . وسمع بخبره زاوي ،

(18) م : يدخلون .
(19) م : يسلمون .
(20) م : مسيرهم .
(21) م : وتلقوه .

وهو في طريقه على مقربة من غرناطة ؛ وندم على ماكان منه . ولامَهُ ولدُه على ذلك .

ويُذكر أنه ، لما وصل القيروان ، وأحسَّ بمذهبه بعضُ وزراء المعزّ نكروه وخافوا دواخله وتحكمه عليهم ، وأن يكدِّر ماصفا[22] . ورأوا أنَّ ولاية المعزّ – على طفوليَّته ، وعيشَهم معه ، وتحكُّمهم عليه – أخفُّ عليهم من تولية داهيةٍ مثل زاوي ، لا يملكون معه من قِطْمير[23] فدسَّ إليه من سقاه السُّمَّ . ومات بتلك البلاد 84 .

إمارة حبُوس بن ماكسن

وصفا[24] الأمر لحبُوس بن ماكسن ، وسار بأجمل سيرة وأعدل طريقة . وصرف أحكامه أجمع إلى قضاة البلاد ، وتعفَّفَ عن كل شيء ؛ وجَمُدَتْ يده عن الحرام والأموال . فأحبه الناس ، وأمنتْ معه السُّبُل ، وقلَّ الفساد ، وارتفع الجور 85 .

وكان الرجلُ محبًّا في أقاربه وبني عمِّه ، لم يستأثر عليهم بشيء . وقسم عليهم البلاد . وأمر كلَّ قائد أن ينتخب من الرجال عدداً يليق به وما يكون على قدر ما أعطاه من الجهات ، وأنهى إليهم : «ألاَّ فائدة تفيدونى بها تُنَفِّق عندي من مال أو تحفة غير الاستكثار من الأجناد ؛ فمتى دعوت * 11 (ا) أحدكم لمهمَّةٍ ، وبصرتُ عسكره أكثر عدداً وأجودخبرةً ، فذاك الأثير عندنا ، الحظيُّ لدينا !» فسارع الأجناد إلى اللحقة ، وزاد الجيش في أيَّامه ؛ وقامت همم الرجال على ساق ، وتنافسوا على خصال الحروب ومقاطع الشجعان 86 .

وكان بنو عمِّه كلُّ انسان منهم سلطانا في ناحيته ، قد حاز جهته 87 وانفرد بعسكره . وكان حبوس – رحمه الله – لا ينفرد برأي دونهم ، ولا يقطع مقطعاً إلا بمشورتهم ، حتَّى إنهم ليجتمعون معه للحكم في موضعٍ خارجَ قصره دون السير إليه ؛ وذلك استحساناً منه ، كي لا يحصلِ عليهم ما يقع في أنفسهم منه ذلَّةٌ ولا ما ينقمون عليه . وكان رفيقا بهم ، محسناً إليهم ، مؤَلِّفاً لكلمتهم . وكان من قوله : «إن صنهاجة عندي مثل الأسنان في الفم : إن عدمتُ منهم واحداً ،

(22) م : صفى .
(23) انظر سورة فاطر : 13 .
(24) م : وصفى .

لا نخلفه أبداً !» فكانت له بهم الصولة على الناس والاستطالة على العدوّ . وما كان كل أحد يرى تركه غنيمة وسلامة منه من أعظم الفائدة ، فضلاً أن يطمع في شيء من جهته ، أو تحدثه نفسه بغزو بعض بلاده .

وكان لحبوس بن ماكسن – رحمه الله – ابنُ أخٍ يُعرف يدَّير بن حباسة 88 . وكان عنده آثر من ولَده ، لِلَّذي كان يرى من نباهته . وإقباله على قراءة الكتب ومجالسة الفقهاء ؛ وهو الذي كان يلقى به الرُّسل ، ويصرفه في المهمات . وكان بارًّا بحبوس وبجميع أهل المملكة . وكان من أحب الناس فيه كاتب حبوس المعروف بأبي العباس 89 ، لما يرى من تواضعه وحسن مشاركته له فيما عنَّ له من سببٍ . وطار له بذلك ناموس(25) كبير عند * 11 (ب) صنهاجة حتى آثروه على غيره .

وكان باديس بن حبوس جدُّنا – رحمه الله – كبيرَ النفس ، عاليَ الهمة ، حادَّ المزاج ، لا يستطيع أحدٌ [أن] يُمخرق عليه في أمر من الأمور ، ولا ينكسر لأحد من بني عمه ، ثقة منه بسعادته ؛ وإن الانخضاع والتمريض(26) في القول لا يعنيه ذلك ولا يزيد في أيامه . وكان ذلك كلُّه منه في حزمٍ ورويَّة ، لا يُفسد جانبا حتى يُصلِحَ آخر ، ويضرب بعضهم ببعض . فوجستْ أنفسُ البعض منه ، وأُشربوا هيبته ومخافته ، وتوقعوا ، إن صار الأمر إليه ، أن يجربهم على خلاف ما عهدوه من أبيه . فأضمر أكثرهم له الغوائل ، وآثرُوا عليه يدَّيْر المذكور ، وتمنَّوْا بولايته ، كلُّ ذلك لشقائهم وتمام أيام سعادتهم ! وسمعتُ المظَفَّر باديس – رحمه الله – يصف بعضَ ذلك في مجلسه ويقول : «كنتُ واقفا بين يديْ حبوس أبي – رحمه الله – حتى انتُدب إليه(27) من شيوخ صنهاجة من قال له : «إنَّ من آكَدِ ما تنظر فيه أن تولِّيَ على أمرك من يخلفك ممن تُرجى بَرَكَتُهُ للمسلمين ولبني عمك ! فإن الموت يغدو ويروح !» فقال أبو العباس كاتبه : ليس يصلح لهذا الأمر إلاَّ يدَّير ، لطهارته ، وعفافه ، ومحبته في الناس !» وكان في الجملة من شيوخهم صديق لى اسمه فرقان 90 ، قد اصطنعتُه واستملتُه ؛ فسمعتُ رده على أبي العباس ، وهو يقول له : « ما ينبغي لك أن تتكلم بهذا ! كيف يقدَّم للأمر غيرَ ابنه ، وهو مستطلع بجميع الأمور ؛ وقولك أنت وقول غيرك باطل ! كأني ، والله ، أرى موت حبوس وولاية باديس من بعده ، وإنَّ يَدَّيَر سيتحامق على باديس ، ويظفر به ، ويقتله ! ».قال باديس : «فسرَّني كلامه فأعطيته ألف دينار* 12 (ا)» .

(25) ناموس : صيت ، اسم .
(26) التمريض : اللين في القول ، الموافقة ظاهراً .
(27) انتدب اليه : تقدّم طوعاً .

وكان الأمر بعد ذلك على ما وصف فِرقان . ثمَّ إنه اطَّبى[28] من وجوه صنهاجة أقواماً ، ووعدهم بالاحسان ، وسعى بجهده على حلّ تلك الصفقة ، إلى أن كلموا أباه في توليته . فرضي ذلك ، وأمر الناس بانطياعهم له . وزجر يَدَّير في ملأٍ من الناس ، وقال له : «لا تَشْرَهْ إلى ما ليس لك ، يا ابن حباسة !» يخاطبه بهذا اللفظ .

فوقع من ذلك في نفس يَدَّير عداوةٌ مجدَّدة لباديس ؛ وعمل من ذلك الوقت على خلافه ومكابرته وإجماع الجماعات 91 عليه ، وشتَّت أقواما من صنهاجة ، حتى صاروا معه . ووالى بلُقيِّن شقيق باديس – رحمه الله – ؛ وكان من أهل البأس والنجدة ، غير أنه لم يكن له معرفة بسياسة المُلكْ . ولما رأى بعض أصحابه موالاته لبُلُقيِّن وسعيه له في ظاهر الأمر ، لامه على ذلك ، وقال له : «إن كنتَ لا تسعى لنفسك ، ويكون من سعيك لغيرك ما نرى[29] ؛ فباديس أحق بذلك ، الذي هو الأكبر والأسعد ، وله الرياسة !» فكان جوابه لقائل ذلك : « ليس سعيي لبُلُقِّين إيثارًا منِّى له على نفسي ، غير أنه صحيح النية ، غير حاذق بمكائد المملكة ؛ وهو شقيق الذي أطلبُ ، ولن أجد لطلبه أقدر على ضرِّه من أخيه ! فإنما أنا أصيد به ! فلو اتسقتْ لي الأمور ، وتهيَّأ قتلُ باديس على يدَيْ أخيه ، كان أمرُ بُلُقِّين من بعده هيِّناً ، وخلعه ممكنا !»

فكان أبداً يحضُّه على قتل أخيه ، ويُريه السعيَ له . وكان الأخُ في ذلك متشبثا في أمره مشفقا على أخيه ، إلى أن توفيٍّ حبوس بن ماكسن 92 – رحمه الله .

(28) م : اطّبا .

(29) م : نروا .

الفصل الثالث

إمارة باديس بن حبوس إلى مصرع يوسف بن النغريلة
(1065 / 459)

أوَّليَّة إمارة باديس بن حبوس وتعاظم شأن الوزير اليهوديّ أبي إبراهيم اسماعيل بن النغريلة

وولي الأمَر من بعده جدُّنا باديس 93 – نضَّر الله وجهه – فحاول أموراً كباراً ، وشَقِيَ * 12 (ب) مع كل أمَّةٍ : صنهاجة يطلبون مكانه مع يَدَّيْر 94 ، وسلاطين الأندلس يرومون[1] بلاده ؛ وهو في ذلك كله حسن السياسة ، صَبورٌ على الأذيَّة[2] 95 .

وكان أبو ابراهيم اليهوديُّ كاتباً بين يدي أبي العباس كاتب حَبوُس 96 . ولما توفي أبو العباس المذكور ، وترك بنينَ ، أقام حبُوس – رحمه الله – أكبرهم عوضا من أبيه ، واستعمله مكانه . وكان في الابن صَبْوةٌ لا يرتبط معها إلى خدمة الرياسة ؛ فمكر به أبو إبراهيم اليهوديُّ ، ولزَم خدمة الرَّئيس 97 ، وصار ، متى غاب ولد أبي العباس ، يحضر أبو إبراهيم ؛ فيسأل عنه حبوس ؛ فيقول معتذراً في الظاهر ومطالبا له في لحن القول[3] : «وَلَدُ أبي العباس ، كما ترى ، صبيٌّ يُؤْثر

(1) م : يرمون .
(2) م : الادابة .
(3) انظر سورة محمد : 30 .

الراحة ؛ وأنت جدير بالإغضاء عليه وإقامة عذره . وأنا عبدُه ، أنوبُ منابَه ؛ فمُرْني بما شئْتَ : يتهيأُذلك !» فلم يزل على هذا أبداً حتى تمكَّن ، وظهرت خدمته وسعيُه في ضم الأموال . وكان مع هذا قد ميَّز عن باديس سعادته ودهاءه ؛ فافترص السعي له والتخدم لارادته ما دام أمكنه ذلك ، في وقت المناوئين له والقائمين عليه ، للذي قدَّر من أيامه معه .

فلمَّا اتفق اعداؤه مع يدَّير عليه ، وشاركوا في ذلك أبا إبراهيم ، واجتمعوا في منزله ، يرومون[4] قَتْلَ باديس وإقامة يَدَّير ، وعدهم على الاجتماع عنده . وتقدَّم إلى باديس ، وأخبره الخبر ، وأتى معه إلى المنزل ، وقال له : «ليس الخبر كالعِيان 98 ! اسمَعْ بأُذْنِك وَعِ بقلبك !» وهو بموضع مرتفع على البيت الذي يرومون[5] فيه عملهم ؛ وأبو إبراهيم في ذلك يقول عند محاورتهم كالمخاطب للبارىء : «يامَنْ يَرَى وَلاَ يُرَى !» وهو يَعْني بذلك باديس جدَّنا الذي يراهم ولا يَرَوْنَه 99 . فشكر ذلك باديس * 13 (ا) لأبي إبراهيم ، وأيقن بثقته وأمانته . وصار له خادماً من ذلك النهار ؛ وشاوَرَه في أكثر رأيه مع بني عمِّه .

وكان في اليهودي من الكَيْس والمداراة للناس ما طابق الزمانَ الذي كانوا فيه والقومَ الذين يرمونهم . فاستعمله لذلك استيحاشاً من غيره ، ولما كان يرى من طلبِ بني عمه له ، ولأن هذا يهوديٌّ ذمِّيٌّ ، لا تشرهُ نفسه إلى ولاية ، ولا هو أندلسيٌّ ، فيتَّقي منه إدخالَ داخلةٍ مع غير جنسه من السلاطين ، ولاحتياجه الأموال التي يطبي[6] بها بني عمه ، ويحاول بها أمر المُلْك ، لم يكن له بدٌّ من مثله أن يجمع له من الأموال ما يدرك معها الآمال . ولم يكن له تسلُّطٌ على مسلمٍ في حقّ ولا باطِلٍ 100 ، ولأنَّ الرعايا أكثَرُهم بتلك البلدة ، والعمال[7] إنما كانوا يهوداً 101 ؛ فكان يجبي منهم الأموال ويعطيه ؛ فيلقي ظالمًا منهم إلى ظَلَمةٍ 102 ، يأخذ منهم ما [يملأ به] بيت المال ؛ وإقامة أود المملكة أوْلَىَ به منهم 103 .

فشل مؤامرة يَدَّير بن حُباسَة ضدَّ باديس

فلما ولي باديس ، كَثُرَ عليه الخلافُ والهَرجُ ، واتفق رأيهم على ما قدَّمْنا على قتله وتولية يَدَّير . وأعطى على ذلك أقواماً المثاقيل والصكوك بالانزالات القويَّة 104 .

(4) م : يرمون .
(5) م : يرمون .
(6) يطبي : يستميل .
(7) العمال : جباة المال .

وكانت عادة السلطان أن يخرج إلى موضعٍ يُعرف بالرملة ، وبإزائها مُنيةٌ 105 كان يحكم بها حبوس أبوه ؛ وكان لها بابان ، [فاتفقوا] على أن يقيموا الملعبَ 106 ، ويقتلوه عند خروجه من تلك المُنية ، وهم قد تسلحوا بالدروع من تحت الثياب ، عازمين على الشر .

وكان ممن ارتشي على ذلك شيخ من صنهاجة يعرف بفِرقان ، أُعطي خمس مائة مثقال وصكًا بقرية قولجَر 107 من عمل السَّطْح . فقال في نفسه : «لم أجد فرصةً نحظى بها عند باديس أمكَنَ* 13 (ب) من هذه !» فجعل أن الفرس زاد به في جريه ، كأنه جمح ، حتى دخل المُنْية ، وألفى باديس على الخروج من ذلك الباب ؛ فقال له مختلسًا : «انجُ بنفسك واخرجْ من الباب الآخر ! فإن الملأَ يأتمرون بك ليقتلوك[8] ! 108 » وأراه الدنانيرَ التي اعطي على ذلك . فخرج باديس من الباب الآخر ، يجدُّ في السير إلى قَصَبَتِهِ ؛ وهم لا يشعرون ، ينتظرونه .

فبينما هم على ذلك ، إذا بعلي بن القرويِّ 109 وأصحابه من وزراء باديس وثِقاتِهِ قد أقبلوا إليهم ؛ فقالوا لهم : «إن السلطان ورد عليه من بعض أنظاره[9] خبرٌ مقلق وجب الانصراف له ؛ فاعذروه في تخلفه عنكم ! ومع هذا ، فإنه لم يَخْفَ عليه شيءٌ !» فلما سمع القوم بذلك ، فكل من كان في نفسه خبر هرب على المقام ، وهرب يَدَّيْرُ بنُ حباسة ، لا يلتفتون على شيءٍ ، يطلبون النجاة بمُهَجِهم .

ثم افتضحت القضايا كلُّها لباديس من بعد هروبه ؛ ومشى إليه بالنصائح كثيرٌ ممَّن بغاهُ قبل ذلك . وطلع إليه أخوه بلقيِّن ، وبكى بين يديه ، وسأله العفو عما أدخله فيه الفاسق ابنُ عمه ، وأنَّه لم يزل به أبدًا يروم ذلك منه لولا تثبُّته وشفقته عليه . وإن يدَّيْر خرج عن البلدة ، وصار في حيِّز الأعداء ؛ وكل رئيس قد انتُدب إلى فتنة جدِّنا – رحمه الله – ينحاز هو إليه ، ويصير من أعوانه وعلى أجناده ، يدُلُّ بهم البلد ، ويريهم المخادع ، ويكشف لهم من عورات الجهة ما خفي عنهم ، لا يفتر بالضرب عليه وتهتيك بلاده ؛ وجدُّنا في هذا لا يأوي معه إلى راحة ، ولا يقرُّ به قرارٌ .

وصنهاجة مع هذا يخاطبونه ، حتى إنه وقعت بين السلطان باديس – رحمه الله – كُتُبٌ كثيرةٌ من عند صنهاجة إليه تضمَّنتْ أزيدَ من مائتي رجلٍ * 14 (ا) من الأكابر فغضب لذلك ، وهمَّ بقتلهم . وشاور أبا إبراهيم في الأمر ؛ فقال له : «أرى من الرأي ألاَّ تؤنِّبَ أحداً على هذه الكُتُب ، ولا تُعلمهم أنها صارت إليك ، وأن

(8) انظر سورة القصص : 20 .

(9) انظاره : أعماله .

تأمُرَ الآن بنارٍ تحرقها بها(10) وتطفي أثَرَهَا ؛ ورأسُ العقل مداراةُ الناس 110 . فإن عاقَبْتَ ، كَم عسى [أن] تعاقب ، وهم أجنادُك وأجنحتُك ! فاحتلْ للأمر بغير هذا الوجه !» فقبل نصيحته ، واستعان ببعضهم على بعض ، وأفشى(11) فيهم العطايا ؛ وضرب الابن بأبيه والأخَ بأخيه .

فكان دأبُ يدبِّر هكذا أبداً ، لا يقرُّ عن الضرب على بلاده ومعاودة ذلك بلا سآمة ولا فترة ، إلى أن أظفره الله به وصار في ثقافه(12) 111 . وذكر أنَّه مات مقروعاً حَتْفَ أنفه 112 . وتأتَّت الأمور لباديس من بعده ، وصفا له الجوُّ .

انتصار باديس على زهير العامري صاحب المريَّة

وأول فتح أفاء(13) الله عليه هزيمته لزهير الخصيِّ والى المريَّة 113 . وكان له كاتب ، يعرف بولد عبَّاس 114 ، من أشد الناس حماقةً واستخفافاً ، مثيراً للشرِّ ، مؤرِّشاً(14) بين الملوك ؛ وكان الغالبَ على أمر زُهَيْر ، إذ لم يكن زهير يصلح لشيء لغباوته وجهله . وكان قد جمع كل خصيٍّ بالأندلس واحتفل ؛ فبالغ ، وأدركه الطمع في غرناطة ، لما بلغه من موت حبوس بن ماكسن . فأتى حتى نزل على مقربة منها ، بموضع يعرف بالفونت ، محتقرا لمن ولي غرناطة ، يزعم أنهم أصاغرُ وأمرُهم مختلٌّ بعد حبوس ، لما أراد الله من هلاكه وهلاك جنسيِّه الخصيان 115 .

وكان جدُّنا باديس – رحمه الله – قد رأى عند ذلك رُؤْياً أنَّ الحَوْرَ بغرناطة قد سقط إلى الأرض جميعه ؛ فهاله ذلك ، وخشي أن تكون الوقيعة عليه ؛ فأرسل في المعبِّر(15) وقصَّ عليه . فقال له المعبِّر : «أبشرْ بهذه الرُّؤْيا ! إنَّ الحَوْر شبيهٌ بالخصيان ، الذي* 14 (ب) لا طَعْمَ له ، ولا أصل يتورَّك(16) عليه ؛ وهُمْ بهذه المرتبة.. ولا شك في سقوطهم وبوارهم على يديك !» فكان ذلك .

وقدَّم على العساكر أخاه بُلُقِّين ؛ وكان من أشجع الناس ؛ وكان باديس ، عند موت أبيه ، قد اختصه بكلِّ ما شاء وفضَّله في الميراث على نفسه إلاَّ الناضَّ الذي

(10) م : به .
(11) م : وأفشا .
(12) ثقافه : اعتقاله وحَبْسه .
(13) م : أفي .
(14) مورشاً : موقعاً ، مغرياً .
(15) انظر سورة يوسف : 43 ، والمعبِّر : مفسِّر الأحلام .
(16) يتورَّك : يستند .

تحتاجه المملكة . فلقي العسكر المرذول ؛ فلم تكن إلاَّ ساعة من النهار حتى انهزم وقُتل جميع من كان فيه من الخصيان ، وخفي زهير عن العسكر ؛ فلم يوجد حيًّا ولا ميّتًا 116 . وكانت تلك أول سعادة باديس ، كما كانت هزيمة المرتضى أول سعادة أبيه 117 ، ثم استفتح البلاد ، وصارت إليه الأنظار التي تلي المريَّة . وظفر بعدوه كاتب زهير ، وأمر بقتله متأوِّلاً لإثارته الفتنة ، ونقم عليه أشياء كثيرةً قبْل ذلك ، من أقاويلَ خشنةٍ ومعاملات قبيحة عرَّفه بها 118 .

وقَرَّ مُلكُ باديس جدِّنا قرارهُ ، وطار له الذكرُ . وكانت له الهَيبَة في الناس أن لم يجترئْ[17] عليه أحدٌ بعد تلك القضيَّة 119 .

ثمَّ إنَّ بُلُقِّين أخاه لم يلبث بعد تلك الوقيعة إلاَّ يسيراً حتى مات – رحمه الله.

وكبرت سنُّ سيف الدولة في حال الحداثة ، وهو أبونا . وترك عمُّه بلقِّين ابنا كان يناوئه ويخشى منه ضرًّا كثيرًا ، وتوقع على نفسه من المطالبات بتلك الأخبار ؛ فخرج عن البلد بجميع ماله وتركة أبيه ، لم يعترض له شيئاً...120

شخصية الأمير بُلُقِّين والد المؤلِّف

ولم يكن للمظفَّر 121 جدِّنا غيرُ بُلُقِّين أبينا 122 – رحمهم الله – . وكان رفيقاً به ، مشفقا عليه ، حذراً من أعدائه وبني عمِّه أن يلغوه من بعده بما بولغ هو به بعد وفاة أبيه ؛ فكان لا يحسُّ من أحدٍ داخلةً ولا نفاقاً[18] إلاَّ ونظر فيه بما يوافق أمره من إخمالٍ أو نفيٍ أو أخذِ مالٍ ، لئلاَّ يبقى لابنه من يناوئه ويذِلُّه .

وكان سيف الدولة حليماً * 15 (ا) رفيقاً ، ضدَّ أبيه في كلِّ حال ؛ فإنه لم يجرِّبْ من الأمر ، ولا ابتُلي بما ابتلي هو به 123 . وكان يَعِدُ الناسَ بالجميل ، ويقول لهم : «أنا أُنسيكم[19] طريقة أبي !» ومن استوجب من أبيه القتل أو أدنَى ضررٍ ، كان هو الذي يُعنى بأمره ، ويتشفع فيه عند الأب ، حتى يتخلَّصَه . فأجمع الناس على محبَّته خاصة وعامةً وللذي يرون من مكارمه ، مع تمكين أبيه له وبسط يده على الأموال .

(17) م : يجتر .
(18) الداخلة : المكيدة . النفاق : العصيان .
(19) م : نسيكم .

وكان في زمانه للمظفر أبيه وَزيرانِ ابنا القرويّ 124 : أحدهما عليٌّ ، والآخر عبد الله ، ممَّن نشأ معه ؛ وكانا حضيريْه في المكتب ؛ وكانا قائديْ العسكر ؛ وإليهما كان يرجع الرأي في أمور الفتن[20] . وكان أبو إبراهيم الشيخُ مُؤْذِناً[21] لهما ، مستعينا بهما .فلما توفي أبو إبراهيم ، وترك ابنه وزيرَ جدِّنا ، ورث لأبيه أموالا كثيرة ، ووصَّاه بأن يسعى في طلب الوزراءِ عند استقامة الدولة للرئيس 125 ، وعرض عليه الأبواب التي منها يكون حَتْفُ كلِّ واحد منهم ، لما كان بأيديهم من البلاد واستئثارهم بالجبايات .

فجعل الخنزير 126 نفسه لذلك . وكان المظَفَّر – رحمه الله – لا يقبل منه مطالبةً لمسلمٍ ، ولا عرَّضه لذلك 127 ، غير أنه كان يتلطف بالأموال ، ويعطي لثقاته وعبيدِهِ ما يجعلهم في المطالبة على هواهُ ، وهو ساكتٌ ، لا يتكلم بشيء مثل أن يدسَّ في طلب أحدٍ على يديْ مُوفَّق الخصيِّ صاحب المدينة 128 من ثقات باديس ؛ وكان منتصباً لهذه المشابه ؛ فيأتي مُوَفَّق المذكور بنصيحة إلى السلطان ممن يزعم أنه من أهلِ الشرِّ ؛ فيُرسَل في اليهوديِّ ويقال له : «بلغني أمر كذا وكذا .» فيُريه اليهوديُّ التبرُّؤَ[22] من ذلك بأن يقول له : «كلُّ ما نقل إليك * 15 (ب) كذبٌ : فتثبَّتْ !» فيقول له الرئيس : «أخبَرَني من لا شكَّ عندي في نصيحته !» فكان آخرُ ما يقول له : «ما قَطْعُ الشرِّ إلاَّ سياسة !» وكان لمباهاته ومخرقتِهِ ، يُرِى الناسَ أنه يقدر ؛ ولم يكن ذلك منه ، إلاَّ عن تحيُّلٍ ومكرٍ .

فلما توفي أبو إبراهيم الشيخ ، وكان ابنه في سنِّ الصبا ، كره توليتَه جدُّنا ، وقال لعليّ المذكور : «التزمْ خدمة المملكة ؛ فأنت أحقُّ بها !» فأبى ذلك عليٌّ . واطَّباه[23] ولد أبي إبراهيم بالأموال الجسيمة ، وقال : «ليس أرغبُ إلاَّ أن أكون عبدَك وتَربيتك ، ولك الأمر ؛ وأنا كاتب بين يديك ، وأقوم بنفقتك كلها ، ولو كان أهلُك عددَ الحصى !» فطمع عليٌّ في قوله ، وكلَّم السلطانَ في ذلك ، وقال له : « إن أبقيتَ عليٍ وَلَد أبي إبراهيم ناصِحِك ، فأنا أرجو[24] ذلك لولدي من بعدي ، وأنا المُشْرِف عليه 129 .» ففعل السلطان ماقال له ، وقدَّمه على العمال

(20) م : الفتون .
(21) م : مواريا ؟
(22) م : التبريء .
(23) اطبَّاه : استماله .
(24) م : أرجوا .

والجبايات . وكان يعطي لعليّ صدراً من دولته إلى أن كبرتْ سنُّه .

وأظهر [ولد أبي إبراهيم] للسلطان نصائحَ كثيرةً حظي بها عنده ؛ وتبرمك130 على عليٍّ وغيره ، واستوثق من جانب الرئيس مالم يسأل به عن علي ولا عن أحد من خلق الله . وكان فيما قال له : «إنَّ الذي يأخذ عليٌّ أنت أوْلى به ؛ والرجل كثير الأولاد والضَّفَف[25] ، ويذهب مَالُكَ إن لم تَحْمِنِي وتعضدْني . وهومتى تملَّأ ، طَمِع في ملكك ! وأنا رجل ذمّيٌّ لا همَّة لي إلاَّ خدمتك وجمع الدراهم لبيت مالك 131 !» فوثق الرئيس بقوله ، وقاس عليه بعقله ، ومنع منه عليًّا وجميع الناس . ولما رأى عليٌّ تأخُّرَه وتقدُّمَ اليهودي ، ندم على ما كان منه أولا ، وفاته من الأمر ما لم يقدر معه على حيلة عند السلطان ؛ وغاظه ذلك وأكربهُ .

وكانت مدينه وادي آش * 16 (ا) بيده ، قدَّ قدم عليها أخاه عبد الله ؛ وكان يأكلها طعمةً ، لا يعطي منها فوق خمسة عشر ألف دينار دراهم ، وهي تساوي أزيد من مائة ألف دينار ثُلُثية 132 . فدخل عليه اليهوديُّ بهذه المطالبة وقال للسلطان : «اقبض وادي آش من عنده ، ولك مني فيها أزيد من مائة ألف !» فقال له : «لستُ أقدر على أخذها منه بهذا الوجه ؛ فتكون مفاسدة ، وهم متصرفون في خدمتها» . فوجد اليهوديُّ السبيل[26] إلى حيلة في نزعها باسم سيف الدولة أبينا ، وقال : « لآخُذَنَّ البلدة من يد عدوٍّ ، فأضعها في يد سلطان يشكرني عليها ، ويرى لى ذلك عن تخدُّم ونصيحة !» فقال لأبي : «إنه يلزمني طاعتك ونصيحتك لأكون لك كالذي أنا لأبيك ؛ وأراك كثير الذرية ، تلزمك نفقات وتجمُّل الرياسة ؛ ومن الغبن أن يكون وزراء والدك أغنى منك ! وهذه وادى آش ، بنتُ غرناطة 133 ، لا تجمل إلاَّ لك ، وأنا أثمِّرُها وأجعلك تأخذ فيها مائة ألف ! » ففرح لقوله والدي – رحمه الله – وتشكَّر له رأيه ، ووعده بالزيادة في مرتبته إن صار الأمر إليه .

ثم مضى إلى الوالد ؛ فأخبره الخبر ، وقصَّ عليه أمرَ ابنه ؛ فقال له المظفر : «الآن وجب أخذها من أولاد القروي .» فأرسل على المقام في علي وقال له : «إنَّ ابني محتاج إلى المال ، وطَلبَ مني وادى آش . ولو كنتُ آخذَها منك ومعطيها لِقرْنك ، لَعَزَّ عليك ! ولكن يجب لك أن تتسرع بها لابني . » فلم يكن جواب علي إلاَّ أن قال له : « ما صلُح للمولى على العبد حرامٌ !» فضمَّها اليهودي خادما لأبي فيها 134 ، وشرط عليه أن يعطيه رسمها في أنجم العام[27] ؛ واتفقا على ذلك

(25) الضفف : قلة المال وكثرة العيال .

(26) فوجد السبيل اليهودي .

(27) أنجم العام : اوقات معينَّة منه .

* 16 (ب) . وصارت المودة متمكنةً بين الابن والوزير مُدة طويلة .

موت الأمير بُلُقّين مسموماً

فلما رأى وزراء الدولة وعليّ وأخوه تمكُّنَ اليهودي عند السلطان وعند الابن ، اغاظهم ذلك وأقلقهم ، وبلغهم [منه] كلَّ مبلغ ، وأجمع رأيهم على الدخول بينه وبين أبينا . وكان أولاد علي وعبد الله وزراء لسيف الدولة وندماء ، لا يفارقونه . فعملوا عليه من كل وجه بأنفسهم ومع بنيهم ، وقالوا لسيف الدولة : «إن الأموال التي يغنم اليهودي ويستأثر بها ، أنت أحقُّ بها وأولى . وقد أخملك وأخمل الدولة أجمع ، ولو أنك قتلتَه ، لم يقُلْ لك أبوك في ذلك شيئاً ! وما عسى أن يصنع بابنه ؟» أرادوا — الفسقة — قتلَ عدوِّهم على يدي ابن الرئيس ، ليخرجوا أيديهم عن المسئلة : فإن عاقَبَ ، عاقب ابنه ، إن شاء ، وحصلوا على الدولة دون ملامة من السلطان . فلم يزالوا به أبداً ، وينمُّون باليهودي ، ويكذبون عليه ، ويمضون(28) إلى اليهوديِّ بالكذب على لسانه ، حتى تغيَّر أبونا عليه وتغيَّرت له نفسُ اليهودي ، مع قلة تجارب سيف الدولة لمكايد الناس . فعمل على قتله ؛ وكان يتحدث بذلك ، ويُفشي سرَّه إلى الوزراء الرافعين عليه ؛ فلا هو يعزم على قتله ، ولا هو يتكتَّم الأمر ، إلى أن صح ذلك عند اليهودي ، واعتزم رأيه على أن يسبقه بالأمر ، ورأى عِياناً تغيُّره عليه . وكان أبونا ، متى همَّ بقتله ، وأعدَّ لذلك عبيده ، فكَّر في سطوة أبيه ؛ فكفَّ .

وكان لسيف الدولة أخٌ صغيرٌ اسمه ما كسن ، عمُّنا الشهيدُ في وَقيعة بطليوس 135 . فعمل الخنزير رأيه مع مشيخة اليهود 136 ، * 17 (ا) وأخبرهم بتغير سيف الدولة عليه ؛ فقال له أحدُهُم وأدهاهم رأياً : «لا تطمعْ في الفلاح بعد الشيخ ، ولا في سيف الدولة ! ولكن انظرْ لنفسك فيمن تقيم إن مات رئيسك : أوجَدتَه ؟ وتحيَّلْ في سقي سيف الدولة . وهذا ماكسن أخوه مخمولٌ ؛ فإن قتلتَ أنت هذا ، ووليتَ هذا ، قدَّمتَ عنده يداً لا ينساك عليها !»

فسوَّلَتْ له نفسه سَقيَه . وكان متمكِّنا بذلك ، لأن أبانا كان كثيرَ الشرب معه والتكرار عليه في منزله 137 . فشرب يوما على عادته ؛ فلم يخرج عنه حتى قذف ما كان في جوفه ، واستلقى على الأرض ؛ فلم يَسْتطِع المشيَ إلى منزله إلا عن مشقّة ؛ ولبث يومين يجود بنفسه ، حتى مات 138 — رحمة الله عليه .

(28) م : ويمضوا .

ولقد سمعتُ كبيراً من خصيان باديس يقول : «أرسل فيَّ سيفُ الدولة يوماً وقال لي : «انهض إلى أمهاتي وقل لهنَّ(29) إنّي اعتزمتُ على قتل اليهودي .» يقول الخصيُّ : «فقلت له : «أنا لاأمضي بهذه الرسالة ! فإن الخبر لا محالة عنده ! لو أنك تريد قتله ، ما كان ينبغي لك أن تُسمعَني ذلك ولا أحداً من خلق الله !» فعلمتُ أن حاله تؤول إلى مثل ذلك .»

ومما أعان على الفساد قبل ذلك أنَّ أبانا كان مع أمهاته ، الَّلائى ربّين ولده المعزَّ أخانا 139 ، على ضد من الأمن ، لإفراغهن المال على ابنه طفلا صغيرا ومنعه هو منه . فاحتاج إلى اليهودي عن المال . وكان أُمَّهاتهُ يطالبنه ويمنعنه عن صحبة اليهودي ، حتى شعرا بذلك ؛ واتفق رأْيُهما(30) على مطالبة النساء عند الرئيس ، وتجريحهن بسرقة المال وإرساله إلى البلاد . فلما وقف جدُّنا على المقالة ، وقد وقعت المفاسدة بينهن وبين ابنهنَّ ، صار ملوماً * 17 (ب) من الأب والنساء . وتحيَّل النساء على أن برَّأْنَ(31) أنفسهن ممَّا قُذِفنَ به ؛ ودعت الضرورة لسيف الدولة أن يتصالح مع النساء لرجوع أبيه معهنَّ ؛ ورُدَّت القصة في رأس اليهوديِّ . فكان ذلك ممَّا زاده غائلةً ونفوراً ، وجرى على يديه ما قدَّر الله به لتمام المدَّة .

وكان في أول المفاسدة قد احتبس له بكثير من جباية وادى آش ؛ وشكا به سيف الدولة لأبيه . فتحيَّل الخنزير على أن دعا أبانا إلى منزله لشراب ، حتىَّ سكر ؛ وأمر بخروج بنيه وعياله في ثياب الحزن . فهال ذلك أبانا لما رأى من حالهم وبكائهم ، إلى أن قال له : «هل مات عندك أحدٌ ؟» فقال له : «مات عندي مال كبيرٌ لا يمتسك عنك إلا بمطْلِ(32) الرعيَّة ! وهذا يوم طيبٌ : فأْنِّسْ أهْلى بكَتْب براءةٍ تُبرئني بها إلى أن يَرِدَك مالك ؛ فإنهم قد وجستْ نفوسهم وفزعوا . فأتمَّ إحسانك بكَتبِ البراءة !» فافترصه(33) فيها ، وكتبها ؛ ثمَّ ذهب بها إلى أبيه وقال له : «إنَّما يُنفق ماله على الوزراء والشراب المدمن ! وهذا إبراؤه لى : فأين شكواه ؟» فرجع ملوما من الأب زائداً ، وصار في خسارة مع الوزير والنساء ، لما أراد الله من تمام المدة . والله ينفعه بجميل نيته وصفاء مذهبه للخاصة والعامة !

فلما توفي أبونا ، وكانت من أكبر الرزايا للناس ، لما كانوا يرجونه من العدل على يديه ، هاج الناس بأمره ، وهمُّوا بقتل اليهودي . وكانت تلك مقدماتٍ

(29) م : لهم .
(30) م : رأيهم .
(31) م : برين .
(32) مطل الرعية : مماطلتها في الوفاء بالتزاماتها .
(33) افترص : انتهز الفرصة .

لهلاكه ، غير أنهم كانوا يتوقعون معاقبة الرئيس . وزاد في طلبه لأولاد القرويّ ، وصوَّر عند المظفر أن بنيه زيَّنوا لابنه الادمان على الخمر حتى هلك . وأدركتْ لذلك أولادَ القرويِّ منحسةٌ عظيمةٌ من نفيهم عن أوطانهم ، وأخْذِ أموالهم ، وقتل بعض الوزراء * 18 (أ) الذين كانوا حواليْ ابينا لما اتّهموا به ؛ وجاني القضية لا يؤبه له . وتَبَرْمَكَ اليهوديُّ بعد سيف الدولة ، وسعى في إقامة ماكسن عمنا .

وكبرتْ عند ذلك سنُّ جدّنا ، وأخلد إلى الراحة ، وزهد في طلب البلاد لكبر سنه وموت ابنه ، وألقى بمقاليده إلى اليهودي في الخدمة عنه ؛ فتمكّن بما شاء من الأمر والنهي .

استيلاء باديس على مالقَة

وإنما كان طلبُ جدنا أكثره وسعيه على أخد مالقة ؛ فإنه ، متى كان يأخد شيئا من معاقل الأندلس ، يبلغه من المعزِّ بن باديس أنه يقول : «يخاطِبني صاحب غرناطة بأخذ الكُور والقرى ! أما أنه لو أخذ مثل قرطبة ومالقة وما أشبههما من القواعد ، كُنا نبايع له في ذلك !» فجعله كلامه يجدُّ في خبر مالقة ، وللّذي كان يرى من اندبار سلاطينها ، وتوقعه على أن يأخذ البلدة من يُدخل عليه الداخلة منها . فلم يزل يعاودها سنين(34) بلا سآمة ولا فترة ، حتى حصل عليها 140 .

وبنى قصبتها بنياناً لم يقدر على مثله أحد في زمانه ، وأعدَّهَا عدَّةً للمهمات ، وجعل فيها جميع ماورث لابنه ، وزاد عليه ؛ وكان الذي يتوقع من كَلَب سلاطين الأندلس واتفاقهم عليه لذلك أن يحتصن فيها ما استطاع 141 ، وإلاَّ ، فيجوز منها إلى عُدوة بني عمه بأهله وذخائره . ومُذْ أخَذَها ، حلَّ عن نفسه .

ونازعه عليها ابنُ عبَّاد 142 ، وأطاعه أهلها دون القصبة ؛ فوجَّه إليها عساكره ، وهزمه عليها . ورجعتْ إليه بعد اليأس منها 143 . ولم يلاق سلطان على مدينة مالاقى من طول الفتن ونفقة الأموال . فلما بلغ منها الغاية من آماله ، حلّ عن نفسه ، وتمتع بملكه . ومن ذلك دخلت عليه الدواخل باستنامته إلى الوزراء وولاة البلاد ، على حسب ما نقصُّه بعد هذا .

ولولا ما كان غرضُنا وصفَ دولتنا خاصةً ، لذكرنا لُمعًا من دُول بني حمُّود في مالقة ، واختلال أمرهم *18 (ب) واحداً بعد واحد ، حتى تصيرَّ الأمر إلى جدنا 144 — رحمه الله — ؛ لكن نقتصر على ذكر ما نحتاج إلى ايراده إن شاء الله .

(34) م : سنيناً .

فتهدَّنت الحال ، وتآتَّت السعادات ، وامتلأتْ بيوت الأموال سنين(35) لا يسمع فيها بفتنة ، ولا يُرى معها تشغيب ، إلى أن اختلَّت الأحوال بعد ذلك بما كان من نفاق اليهودي - لعنه الله - ، وتصيير وادي آش وجميع أنظارها(36) لابن صُمادِح 145 ، واستئساد الرؤساء على البلاد ، حتى إنه لم يبقَ لنا أكثر من غرناطة والمنكَّب وباغه وقبرة . ولما شاع عند الرعايا من موت الرئيس الأجلّ 146 - فإنه كان محتجبا أبداً - فخلت المعاقل من الرجال ، وافترصتْها الرعايا بأسباب نحن نذكرها(37) إن شاء الله بعد هذا .

علاقات باديس ببني صمادح أصحاب المريَّة

والأَوْلَى أن نقدِّم وصفَ ولاية ابن صُمادح للمريَّة 147 ، وعضدَ جدِّنا - رحمه الله - لرياسته ، وإثباتَه له في ملكه عند قيام ابن ابى عامر عليه ، 148 طالبا له لخلافه عليه ، وأيادي كريمة سلفتٍ من المظفر قبله ، لم يسبقه إليها أحد من جنسه ، ولم تكن مكافاته على ذلك إلاَّ أن افترص بلاده وقبل دواخل إلى الافرنج ، يعدهم بالمال الكثير . وأجابه مجاهدٌ 149 لما أشار به عليه ؛ وعملت الكلمة في نفسه ؛ فلما همَّ ابن أبي عامر بالرجوع عن لرقة يريد المريَّة ، تأخر عنه مجاهدٌ ، وتبيَّن للمنصور قعوده عنه وخذلانه إياه ؛ وسأله عن ذلك . فقال مجاهد مخاطباً له ولأعلام قوَّاده : «ياقوم ، إن كنتم لا تعرفون البربر ، ولا جرَّبتم حروبهم ، فأنا ، والله ، عليمٌ بها ! فإياكم أن يكون بواركم على أيديهم . وأنتم [ستعلمون] أن فتنة عشرين سنة خير من ملاقاة ساعةٍ واحدةٍ ؛ فإن فيها تتلف الدُّول ، وينتقل المُلْك ، ويُستأصل الجمع . فعليكم بالتأنِّي 150 !» فقال له ابن أبي عامر : «جَبُنتَ ! ارجعْ إلى دانية ولا تُفسدْ عليَّ الجيش !» فأقلع على المقام مغضباً من قذفه ، ودخل الخرم في عسكره .

وجزع الناس بزوال مجاهدٍ عنهم ؛ وأدرك *19 (ا) الافرنجَ الطمعُ ، وطلبوا منه ما لاقدرة له به . وانصرف خاسئا .

وجمع(38) المظفَّر رجاله وقال لهم : « كيف تَرَوْنَ هزيمة هذا العسكر من غير قتال ؟ » فأجابوه أن : « قد وُفِّقتَ ! وأنتم معشرَ الملوك ، لم تُعطَوْا الولاية على

(35) م : سنياً .
(36) أنظارها : أعمالها ، الجهات التابعة لها .
(37) داكرها .
(38) م : واجمع .

الناس حتى اختاركم الله لها ، وجعلَ عقولكم أجلَّ وأنفسَ من عقول الناس ؛ وبذلك فضلتم من دونكم 151 !» ورجع المظفر غالبا منصوراً . وصار له أبو الأحوص طاعة ؛ لا يروم شيئا من كل ما بالمرية إلاَّ وصار إليه ، ولا يأمر فيها بأمرٍ إلا وكان مِلْكَ يديه . وبقي الأمر على ذلك سنين .

وكانت أيضا قرطبة في ذلك الزمان بمنزلة المرية ، إذ كان فيها ابن السقَّاء ، 152لا يمتنع على المظفَّرِ من رغباته فيها شيء ؛ إلى أن توفي أبو الأحوص ، وترك ابنه هذا المتوفَّى بالمرية – رحمه الله – عند ظهور المرابطين عليها ، وهو إذ ذاك صغير السنِّ 153 . فأرسل إلى المظفَّر يرغب إليه أن يكون له في العضد والحماية بالمنزلة التي كان عليها لأبيه ، وأنه أحسنُ طاعةً وأشدُّ انقياداً من أبيه ؛ وسأله تجديد العهد معه والاجتماع به .فأجابه المظَفَّر إلى كلِّ ما سأل ، ووعده بالذبِّ عنه على اتمِّ ما كان عليه لأبيه ، واجتمع به . وجدَّد معه عقدا . وثبتَت رياسته ، وقرَّ حاله قراره ، وداما على ذلك دهرا طويلاً ، لا يُسمع فيها بفتنة ، ولا يكابد معها تشغيبٌ .

وكان في ذلك [الوقت] خدَّام دولتنا مُتَّفقين مع اليهودي ، إذ كان وزيرَ السلطان 154 وصاحبَ سرِّه : فمنهم له صنيعة قد استغنى معه ، ومنهم عدو له ، مؤازر في الظاهر استدفاعاً لشرِّه . فاتَّسقت الأمورُ بذلك وأعانَ بعضهم بعضا على خدمة السلطان ، وأنسوا إلى ثقته بهم وعضد بعضهم لبعض . ولما تهيأت له الأمور ، و توطدت الدولة ، بعد كل ما ذكرنا من تلك الفتن(39) وغيرها وحصل على مدينة مالقة بعد المكابدة واليأس * 19 (ب) منها ، حلَّ عن نفسه ، ومال إلى الراحات التي يستريح إليها الملوك ، وفوَّض أمره إلى الوزير والخدَمة .

وصول الناية إلى غرناطة
حظوته ومنافسته لليهوديّ

وفي أمكن ما كانت الدولة وأبهجها ، قصده الناية ، 155 عبدٌ كان للمعتضد ابن عباد – رحمه الله – ؛ وكان من جملة من اتفق على غدْره مع ابنه المشهور خبره ؛ 156 فأتى للقدَر الذي لم يكن عنه محيص . واعتني به جماعةٌ من كبار العبيد ، وطلبوا له من السلطان العطايا ؛ فأجابهم إلى ذلك تَقَمُّناً(40)

(39) م : الفتون .
(40) تقمناً : زيادة .

لسرورهم(41) ، كي يزيدوا في خدمته ونصيحته ؛ وقالوا له : «قَصْدك هذا الانسانُ عن مفاسدة لغيرك وتعويلٍ عليك ؛ وقد أمَّلك ؛ فما تصنع فيه إنما تسديه إلينا .» ودخل غرناطة في أسعد وقت له ، وأشغبه على الدولة . وسار في أول أمره مع الخَدَمة بأجمل سيرة وتواضعٍ لهم ، حتى حمدوا طريقته ، ونفعوه عند السلطان ، إلى أن استعمله في بعض خدمته وصرَّفه في ولاية بعض عسكره . وكان لطلبه الثار من بني عباد ، قد اكتفى في فتنة مالقة واستمال أقواما من الجند ؛ وكان فيها متصرفا بين يديْ مقاتل بن يحي قائدها 157 . ولم يزل مقاتل المذكور ، متى خرجت مُغيرةٌ إلى بلد ابن عباد ، يُعلم المظَفَّر بكفاية النابة المذكور فيها ، حتى كاد يجعل له الحسَّ كله ، إلى أن ورده كتابُ السلطان مشتركا بينهما ، وصار قائدا معه في البلدة . وزاد جدُّه ، ونما(42) خبره ، وتضاعَف إحسان المظَفَّر إليه . وكان ، متى ما أتى مالقة ، نزل السلطان في داره ، وشرب معه ، مع تنويهه به والتَّزيُد له من ذلك مع الأيام .

وكان ، مع تقريب السلطان له متى انفرد به أو افترصه على الخمر ، يجرِّح عنده اليهودي ، ويقول له : «قد أكل مالَك وتملَّك بأعظم من مالك ، وبنى خيرا من قصرك ! فالله الله في إزاحته والتحبب إلى المسلمين بفقده !» . والمظفَر في هذا كله يعده ويقول له : «لا بد لي من ذلك ؛ وأوكلك * 20 (ا) على قتله !» . فربما لفظ بذلك بمسمع من لا يُؤبَه له من عبيده والمتصرفين بين يديه ؛ فينقلون ذلك على المقام إلى اليهوديٍّ ليصلهم عليها . فلا تزداد نفس الخنزير إلاَّ حماقةً ومنافرةً ، ويكاد أن يموت همًّا وحنقاً ، مع حسده له على المنزلة التي خصَّ بها دونه ؛ ورام مطالبته عند السلطان بكل مرام ؛ فلم يقبل منه . فلما رأى أن منزلته لا تزداد إلاَّ ترفيعاً ، وخاف على نفسه أن يحمل السلطان على هلكته ، انقطع رجاؤه من كل وجه وقال : «إنما استهزأونا بالناس من أجل عز السلطان ! وأمِنَّاهم على أنفسنا بحمايته وعنايته . وأمَّا الآن ، فقد انقطع الرجاء : لا سلطان نأمنه(43) ، وقرين سوْءٍ يطلبنا عنده ، وعامَّةٌ تريد هلاكنا ، ونحن قليلٌ مستضعَفون في الأرض(44) !»

(41) م : لسارّهم .

(42) م : ونمى .

(43) م : نأمنوه .

(44) انظر سورة الأنفال : 26 .

وكان [اليهودي] قد ألقى يدَه في عمِّنا ماكسن ، رجاءً منه أن يسند إليه ؛ فكان من أشد الناس عليه ، ولم يكن حواليه رجل رشيدٌ يسدده ويأمره بالمداراة ، إلى أن قال له مواجهة : «أتريد [أن] تقتلني كما قتلتَ أخي ؟» فعملتْ في نفس اليهودي . وكان ماكسن مع هذا كلّه سيِّء الطريقة ، قليل البرِّ ، خشن الكلام ، يعد الناس بالشر ، حتى كرهه أهل دولة أبيه وأبغضوه . وكثر عليه الطلب عند أبيه .

وكانت أمه تترك معاملة الوزير الذي ألقى يده فيه ، وتميل إلى خاله : يهوديٌّ يُعرف بأبي الربيع بن الماطوني ، وكان قابضَ الوجيبة 158 ؛ فتخاطبه أبداً ، وتطلب منه مالاً باسم السلف . فغار الوزير لذلك ، وعمل على طلبه وطلب أمه وحاشيته ، وافترى عليهم عند السلطان . وشهد له على ذلك جماعة من أهل الدولة ، ممَّن نقموا على ماكسن قبل ذلك ما قدَّمنا ذكره . وأغري بهم حتى جعلته الأنفة من مكروه ما نقل إليه أن يأمر بقتل أمه وداياته[45] وبعض من انتمى . وقتل الوزير خاله غدراً * 20 (ب) في منزله على الشراب لخلافه عليه في هذا وغيره ؛ واتقى منه نصيحة السلطان ، وأعطاه على ذلك مالا جسيما ، لئلاَّ يثرب[46] عليه قتله فقبل السلطان ذلك منه ، ووَدَّ أن لو قتل كل يوم يهوديا ، فيغرم عليه مالاً . ثم أمر بعد ذلك بنفي ولده . وكان من آكد الأسباب في نفيه أن خرج السلطان يوما لعرض الأجناد ، وقت الفتنة مع ابن صمادح 159 ؛ فانتدب إليه من شيوخهم من قال له : «ما ينبغي لك أن تقدِّم علينا العبيد وغيرهم ، وتترك مثل هذا الابن ! أرسلْه معنا ، ونتبعه في كل مُلمَّةٍ !» يعني ماكسن . فعز ذلك على أبيه ، مع سخطه عليه لما كان يرى منه ونقل إليه عنه ، وخاف أن يكون وراء هذا الكلام فعل بأن يُخملوه ويقدِّموا ابْنَه . وجزع اليهودي لذلك جزعاً شديدا وقال : «ما حسبتُ نفسي في ذلك اليوم إلا مقتولا !» فأُعلم السلطانُ بهذه الوجوه ؛ وأمر على المقام بنفيه من البلد ، ووجَّه معه من عبيده من يُخرجه عن نظره كله 160 . ووصَّى اليهودي – لعنه الله – ذلك[47] العبدَ أن يصل معه إلى موضع سمَّاه بحيث يخفى أمره ، فيضرب فيه عنقه .

(45) الداية : المربية ، المرضعة .
(46) يثرب : يقبِّح .
(47) م : لذلك .

وكان أخونا المعز قد ربَّاه جدُّه ، ونال معه الكرائم ، وأحبوه في حرمة أبيه . واتفق رأي الجميع مع اليهودي على قتل ماكسن وتولية المعز ، حذراً على أنفسهم من ماكسن أن يثور عليهم ويعاقبهم بمحبتهم في [ابن] أخيه وتربيتهم له . فكان من ذلك ما أمَّلوه .

وخرج عمنا على أسوأ حالٍ ، مذعوراً خائفا ، بعضهم يشير بقتله ، وبعضهم يأبى إلاَّ إزاحته عن النظر كلِّه ، حتى صار ببعض الطريق . وانحلَّ عن غمومه بهلاك اليهوديِّ ، على ما نذكره بعد هذا .

الفصل الرابع

إمارة باديس بن حبوس بعد مصرع يوسف بن النغريلة

مؤامرة الوزير اليهوديّ يوسف بن النغريلة
ثورة صنهاجة عليه وقتله

وإن الخنزير – لعنه الله – لما رأى طغيان النساء ، وكل فرقة منهن تريد ولاية من تربِّيه من أبناء السلطان ، ورأى تغير مولاه * 21 (ا) عليه وإمعان النابة في مطالبته والازدياد في جاهه ، لم يجد في الأرض مهربا ، ولا وجد إلى التخلص سبيلا ، وشاور في ذلك مشيخته من ذوي الرَّأي 161 ؛ فقال بعضهم : «أنجُ بنفسك ، وقدِّم جلَّ مالك إلى أي البلاد أحببتَ ، تستوطنها غنيا آمناً !» فقال : «ذلك ممكن لولا أن الرئيس الأجلَّ ، إن أرسل فيَّ إلى صاحب تلك البلدة ، يقول : «ذهب وزيري بأموالى : إما أن تصرفه عليَّ ، وإما أن أفاتنك !» أترى أنه يبيع الرئيسَ عنى ؟ هذا مالا يجوز إلاَّ أن أصيِّر إليه من البلاد بحيث تقع الفتنة بينهما ، ونأمن على نفسي عند الذي نصير إليه ولا يمكنه إسلامي ، وأنا قد وضعتُ في يده بلادًا ومجدًا كبيرًا !» . فاتفق رأيهم على مخاطبة ابن صمادح ، وأنه الأَوْلى لجيرته وقربه من كل أمر يُحتاج إليه فيه 162 .

وأخبرني رسول ابن صمادح ابن أرقم 163 ، وكان قد تخيَّروه للرسالة(1) حينئذ ، قال : حضرتُ يوما مع المظفَّر – رحمه الله – وقد خرج إلى بعض متنزهاته والنابة معه ، واليهوديُّ وراءه ، حتى بصر النابة بحكيم كان للوزير ، يهوديٍّ ؛ فأمر

(1) م : للرياسة .

بإهانته وإرجاله عن دابته بحضرة الرئيس ، وتوقَّح في ذلك ، وأبلغ في شتم اليهوديّ ؛ فاستعظم اليهوديُّ ذلك وقال لابن أرقم : «حسبك هذه الاهانة ، ولا صبر عليها ! فإن كنتم تستطيعون لي على شيءٍ ، وإلاَّ فلابدَّ من الترامي على غيركم !» . فقال ابن أرقم : «أنت جديرٌ بالتثبُّت في هذا الأمر ! وأيُّ ضرورة دفعتْك إلينا وبيدك الرعايا ، وإليك تُجبى الأموال ؟ والسلطانُ لم يغيِّر عليك شيئا أكثر من همزات هذا المطالب ! فاحتلْ بأن تصابر الأمور إلى أن يموت الشيخُ ، لا سيما أنه قد أسنَّ ؛ وتلقي يدك في حفيده المعزِّ ، وتبقي[2] حالك معه حسب ما كانت مع جده ؛ وهو أقرب إلى السلامة !» . فقال له اليهودي : «كنت أفعل ذلك لولا أن المعزَّ صغير السن 164 * 21 (ب) ، وله أمهات وطبقات جمّةٌ من النساء والحاشية . فكيف نرجو[3] معهم الفلاح ؟ والحال إذ ذاك تكون عليَّ أشدَّ لاختلاف أهوائهم . وقد صحَّ عندي أن الصبيَّ يحقد عليَّ ما قاله الناس من سقي أبيه . وقد أدَرتُ هذه الوجوه ؛ فلم يتجه لي منها أمثل من الترامي على المعتصم !» . فقال ابن أرقم : « دخلتُ على المظفَّر ، وألقيتُ له من الكلام رموزاً ، وقلت له : «أيَّدكَ الله ! تَيَقَّظْ ! فإنك لم تطعن في السنِّ ، ولا بلغتَ فيه مبلغا يولد عليك الغفلة عن دولتك !» رجاءً مني أن يستفهمني عن الكلام وأقصَّ عليه بعضه . فدعا اليهودي وقال له : «انهضْ إلى ابن أرقم وقلْ له : « لأي وجه قال لي الآن : تيقَّظْ !» واستفْهمه عن ذلك !» . قال : فجاءني اليهودي وأخبرني بالقضيَّة . فدُهشت لها ومتُّ ، ولم أجد جوابا . فاتهمني الخنزيرُ ، وخاطب بأمري المعتصم وأشار عليه أن يقعدني عن الرسالة ويوجِّهَ فيها من يثقه ؛ فسفر فيها رضيعه وأمره بنسج الأمر معه ، وكيف الحيلة في تصيير الدولة إليه ، وغرناطة معدن الجيش[4] ، وفيها من صنهاجة من لا يجوز هذا الأمر عليهم 165 ؟ وقال له : «لا تدخل نفسك والمعتصم فيما لا يتمُّ وتفتضح فيه مع المظفَّر ، وهو صاحب الأموال والقدرة على الفتنة ! وتخزى[5] معه ، وتكون سببا إلى هلاك نفسك والفساد عليه !» . فرأى الخنزير من رأيه أن يُخرج من البلد كلَّ من يتوقع قيامه .

وتخيَّر من كبار صنهاجة وغيرهم من العبيد ، الذين يخشى معرَّتهم[6] ، أقواما ، وأشار على السلطان بإرسالهم إلى المعاقل المهمة ، وصكك لهم بها ، وقال لهم في

(2) م : وبيقى .
(3) م : نرجوا .
(4) معدن الجيش : مصدره .
(5) م : ونخزى .
(6) معرتهم : اذاهم .

سرِّ الأمر : «أنتم إخوتي ، وقد أُخملتم معي ، ورأيتموني ! وأرى من دولة هذا السلطان ما ينبغي لكم إنكاره بأن يقدِّم عليكم من ليس منكم ولا شأنه شأنكم ، وتبقى ولايته عارا عليكم وشناراً مابقي الدَّهر ؛ وقد * 22 (ا) نصحتُ السلطان في أمره ؛ فلم يقبل مني ، ولا يقدر على مضادَّته ؛ والآن أتوقع على هذه البلاد الشريفة والمعاقل الفارهة أن يليها من قِبل النابة من يشقى به الجميع ، ولا نقدر معهم على إمساك الدولة ، وتكون لهم الصولة علينا ، ثمَّ لامهرب إلاّ إلى يديه ، فإذا أمسكنا معاقلنا وكان بنو عمكم بالحضرة ، لم يتجسَّرْ على تبديدكم ، وكان أمره بعد ذلك هيِّنًا ، متى أراد التغيير قتلناه ، ومتى ما سخط السلطانُ على أحدنا وأمر بنفيه على يديه ، لجأ إلى معقل صاحبه .»

فقبل القوم قوله ، مع شرههم إلى ولاية البلاد ، وبادروا إلى ذلك . فأخرج يحي بن يفران إلى مدينة المُنَكَّب ، ومسكن بن حبوس المغرلي إلى جيان ، ومن سواهم إلى غيرها من القواعد . وزيِّن للسلطان أن ذلك من وجه النظر له ، وأنه لا يحمي القواعد إلا كبار الرجال ، وأن المعزولين قد صح عنده غفلتهم وتضييعهم ، إذ كان لا يسمع من أحد إلا قوله في هذه المشابِه ، لثقته به .

وكتب [اليهودي] إلى ابن صمادح يخبره بخروج القوم الغوغاء(7) من المدينة ، وأنه لم يبق فيها إلا من لا يؤبه له ، ويحصدهم سيفه إذا دخلها ، وأنه متهيءٌ لفتح أبوابها متى جسر وطرقها ؛ وضيَّع النَّظر في سائر الحصون غير القواعد ، وأهمل ما يرتفقون(8) به من الرجال والعدد على وجه الغفلة ، حتى خلت .

والمظفر في هذا كله ، لا خبر عنده إلا الاقبال على الشرب والدعة 166 . فلما خلت المعاقل ، وصح عند أهلها ، بإهمالهم واحتجاب السلطان عنهم ، أنه قدمات لا محالة ، تصايحت بعضها لبعض ، وخلت بأقطارها ؛ وافترصها رجال ابن صمادح ، وصاروا فيها حتى لم يبق منها إلا حصن قبريرة ، على مقربة من غرناطة في طريق وادي آش .

وأرسل اليهودي على المقام لابن صُمادح ، يُلحُّ * 22 (ب) عليه في الاقبال إلى المدينة ، وأن لا مانع يمنعه . فالتوى عن ذلك [ابن صمادح] وجزع من الجسر على مثل غرناطة ، إلى أن اتسع الخرق وتمادى النفاق ، وصار اليهوديُّ متنقلا من داره إلى القصبة حِذْرًا من العامة ، حتى يتم ما أمَّل ؛ فأنكر ذلك الناسُ ، مع بنيانه

(7) م : الغوغين .

(8) يرتفقون به : ينتفعون به .

لحصن الحمراء 167 على أنه ، إذا دخل ابن صمادح البلد ، صار هو بأهله إليها ، إلى أن تتوطد الحال . فأنفت العامّة والخاصة لمكر اليهود وما(9) اشتهروا به من تغيير الأحوال ، ورأوا من الرُتب خلاف ما عهدوه . وللّذي أراده الله من هلاكهم في يوم السبت لعشر خلون من صفر [من سنة 459] 168 ، استعمل اليهودي الشراب تلك الليلة مع أقوامٍ من عبيد المظفّر ، كانوا قد عاقدوه واتفقوا معه ، وبعضهم في السر يشنأه(10) ؛ فأعلمهم بأمر ابن صمادح ، وأنه وارد عليهم ومُسوِّغ(11) لهم من القرى فلانة وفلانة من فحص غرناطة ؛ فانتدب إليه أحدهم ممّن كان يُكمنُ بغضَه وقال له : «قد علمْنا هذا ! فأخْبرْنا عن تسويغك هذه الانزالات ، أهو مولانا حيٌّ أو ميّتٌ ؟» فرد عليه بعض حاشية اليهوديّ ، ووبّخه على قوله ؛ فأنِفَ ذلك العبد وخرج فارًا على وجهه [وهو] سكران(12) ، يصيح بالناس ويقول : «يا معشر ، من سمع بالمظفّر قد غدره اليهودي ! وهذا ابن صمادح داخل في البلدة !» . فتسامع لذلك الناس أجمع خاصتهم وعامتهم ، وأتوا عازمين على قتل اليهوديّ . فتحيَّل على المظفّر حتى أخرجه إليهم ، وقال : « هذا سلطانكم حيٌّ !» . ورام الرئيس تسكينَهم ؛ فلم يقدر ؛ واتسع الخَرْق على الراقع 169 . وهرب اليهوديُّ بنفسه إلى داخل القصر ، واتَّبَعَتْهُ العامّة حتى ظفروا به وقتلوه . وأحالوا السيف على كلّ يهوديٍّ بالبلدة ، وحصلوا على عظائم من أموالهم 170 .

واستأسد إذ ذاك صنهاجة ، وطغوا بما صنعوه على الرئيس ، مع الفتنة المصطكّة(13) • 23 (ا) عليه من كلّ قطرٍ . وكانوا هم الوزراء ومدبّري(14) الدولة ؛ والمظفر من هذا كلّه تحت خوف وذلّ ، قد حقد عليهم ما صنعوه بوزيره ، من غير أن يعلم بشيء من دواخله ، ولا صدَّق قولهم عليه ، وسائر أمره معهم بالمداراة والصبر ، إلى أن تفتحت له البلاد ، ورجعت طاعته إليه بما نحن ذاكروه بعد هذا إن شاء الله .

ولما مضى مسكّن إلى جيّان ، على ماقدّمنا ذكره ، ألفى في طريقه عمّنا ماكسن يحمله الصقلبي(15) ؛ فاستنقذه ، ومشى به إلى جيان ، وقال : «لا فائدة أكبر من

(9) م : ما .
(10) يشنأه : يمقته و يبغضه .
(11) سوّغ : أقطع ، خصصَ .
(12) م : سكرانا .
(13) المصطكة : المشتعلة .
(14) م : مدبرين .
(15) م : الصقلى .

هذا : ابن الرئيس يكون معي حُجّةً على ماأريده من ملك جيان أو غيرها ؟ وسينقاد إليه الناس ، ونحصل على عظائم !»كالذي كان . فَوليَ جيان باسمه ، وصار حاكمَها مع بني عمه . وحصَّل إذ ذاك من أموال اليهود فيها على مالا يُتحصَّل 171 . وبقي ثائرا على أفضل حال .

باديس يسترد وادي آش من يد ابن صمادح

وإن المُظَفَّر ، لما رأى ما نزل به من كَلَبِ العدوّ وطَمَعِ الناس فيه ، وما حلَّ به من كل وجهٍ ، جمع الناس وقال لهم : «ما ترون في أمرِ وادي آش ، وتصيُّرِها إلى ابن صمادح ، واستحواذه على أنظارنا ؟» . فأجابه قواده وجملة رجاله أن : «لا دواء لهذا ، إلاَّ أنَّ تبذل الأموال ، وتترك الدعة ، وتباشر الأمر بنفسك !» . فقال لهم : «مَثَلي ومَثَلُ ابن صمادح كمثل القُبعَة(16) التي كان بإزائها عِشٌّ إوزّة ؛ فأعجبها بيضُها ، فقالت : «لأحضننَّ هذا البيض ، يكون خيراً من متاعي 172 !» ، فلما رامت ذلك ، عجزت وقصرت جناحاها عن التحضين ؛ فلما رجعت إلى متاعها ، وَجَدتها قد انفسدتْ . وكذلك ابن صمادح : تعدَّى على بلدي ، وسيخرج عنه وعن كثير مما كان قديما بيده !» . فقويت نفوسُ الناس ، وادَّرع الحزم والعزم ؛ وتأهب للمسير ، واجتمعت إليه الأجناد ، [وفرق] فيهم العطايا . ونازل وادي آش حتى أحصرها .

وكان في أول الفتنة ، للذى * 23 (ب) رأى من قيام رعيَّته وخشي خلاف الجميع ، قد وجَّه لابن ذي النون ، صاحب طُليطُلة 173 ، يُعلمه بما دهمه من الأمر ، ويسأله صلة يده به ، وأنه ما انصرف إليه من البلاد أعطاه منها ما أحبَّ واختار ؛ فسارع ابن ذي النون إلى ذلك ، ولحق به ، وهو على وادي آش قد حاصرها وقرب مرامها ؛ واجتمع معه على أجمل هيئة وأتمِّ رتبة ، وفي قصبة وادي آش ذلك الوقت وزراء صاحب المرية وأكابر رجاله . فاشتد عليها الحرب ، وكثر الإنفاق ، حتى إنه انتهت النفقة عليها ، على ما رأيته مكتوبا بخط يد جدِّي – رحمه الله – ستَّةَ بيوت من المال دراهم ثُلُثيَّة ، البيت منها ألفُ ألفِ دينارِ ثُلُثيةٍ . وصار ذلك مثلا في الناس لصبره وكثرة إنفاقه .

فلما رأى مَنْ بالقصبة من أكابر أهل المريَّة ما دهمهم ، وأنه لا ملْجأَلهم إلاَّ الهرب أو السَّيف ، ولم يجدوا إلى ذلك سبيلاً ، تحيَّلوا وأرسلوا إلى ابن ذي النون ،

(16) القبعة : القُبَّرة .

وهم على الملكة ، يُعلمونه بما هم فيه وقَطْعُ رجائهم[17] عن إمداد صاحبهم ، ويسألونه أن يتوسَّط أمرَهم مع المظفر ، ويأخذ لهم العفو ، ويخرجون على سلامة ؛ ووعدوه على ذلك ، إن هو استنقذهم ، أن يُصيِّروا المريَّة مُلكَه . وكان ابن ذي النون من الطمع في غاية لم ينته إليها ملكٌ 174 ؛ فطمع في قولهم ذلك ، وترامى على جدّنا ، ورغب إليه ؛ فأسعفهُ ، حتى خرجوا وأخلوْا له القصَبة . وثقَّفها بحماة رجاله .

واستنجز ابن ذي النون وَعْدَه ، وقال : «إنَّ الذى أريد من هذه البلاد بَسْطَة .» فلم يكن بُدٌّ للمظفَّر من انجاز وعده ، وأمر بإخلائها له . وتفتَّحت للحاجب بلادٌ كثيرة أربتْ على التي انصرفت إليه .

وأرسل إليه ابن صمادح بعد ذلك ، يسأله العفو والإغضاء على ما كان منه ، وأنه لم يتعرَّض من ذلك شيءٌ لولا اليهوديُّ ، وخوفاً ، إن * 24 (ا) أهمل البلد أن يتعدَّى عليه من يخشى داخلته . وترامى على جدنا وأتاه بنفسه ليجتمع معه على ذلك ، ويجدد له عقدًا 175 . ففعل وقبل اعتذاره . ويحكى أنه ، عند اجتماعه به ، كان أوَّلُ ما خاطبه به : ﴿يا أبانا ! استغفرْ لنا ذُنوُبَنا إنَّا كنَّا خاطئين !﴾[18] فأجابه المظفر على البديه : ﴿لا تثريبَ عليكم اليوم ! يغفرُ الله لكمْ[19]﴾ .

باديس ينتزع مالقة من يد ابن عبَّاد

ولما صار إلى المظفَّر جميعُ بلاده وتوطدت له الدولة ، وكان قبل أخذه لوادي آش قد أخذ مالقة ، وقدَّمها قبل شغله كله ؛ وكان قائد عسكره إليها تلك السفرة يحي بن يفران 176 ؛ وكان الرجل من أكابر تلكاته وكان مُطاعا في قومه ، قد شقي جدُّنا به طول مدَّة الفتنة . ولمَّا استأسد صنهاجة ، على ما قدَّمنا ذكرَه بعد قتل اليهوديِّ ، ترأس فيهم يحي المذكور ، ونال من الرئيس كثيرًا في ماله وعرضه ؛ فحقد ذلك عليه ؛ وكان عازما على أنه ، إذا انصرف من فتح مالقة ، أن ينظر ، في خلعه ، ويثور عليه مع بني عمه . وكان الخبر قد طرأ إلى جدُّنا . فقضى الله تعالي أن مات يحيى المذكور في تلك السفرة مقتولاً في الوقيعة . فقال عند ذلك المظفَّر : «أتَتْنا في يوم واحد فرحتان : أوَّلهما موتُ يحيى ، والأخرى فتح مالقة !» ثمَّ نهض على المقام إلى وادى آش ؛ ففعل عليها ما وصفناهُ .

(17) م : رجاهم .
(18) يوسف : 97 .
(19) يوسف : 92 .

وكان ابن عباد قد دخل مدينة مالقة المذكورة قبل هذا الفتح ، وامتنعت له القصَبة لما كان فيها من كفاة المغاربة ، وقائدها ذلك الوقت مخلوف بن ملُول ، شيخ كبير من ثقاته 177 ؛ وانتظروا قوة الرئيس صبرا منهم ، وكثرة بقيا ، وأنفة من كشفٍ لحرمة الذين كانوا بالقصبة المذكورة ، إلى أن ورد العسكرُ . وخرج إلى ملاقاتهم من فيها من عسكر ابن عبَّاد ؛ فمُنحوا عليهم الظفر ، ودخلوها عَنوة .

وكان حصول ابن عبَّاد عليها لداخلةِ[20] · 24 (ب) أهلها وميلهم إليه ، اختياراً له علينا ، على إحسان المظفَّر – رحمه الله – إليهم ، وأنه وجدهم على أسوأ حالة ؛ فأصلح من أحوالهم كثيرا ، وحمل فُقهاءها ومُقرئيها على المطايا ، وأنزلهم على أفضل المراتب ، ما كان مشهوراً عنه في الأقطار ، إذ كانوا قبلُ في حال قلَّةٍ وعلى غير رتبة . ثمَّ كافأوه[21] بما فعلوا . وبعد ظفره بهم ، عفا[22] عن ذلك كله ، وزاد في مراتبهم . ولقد اختُطب لابن عبَّاد مدة كونه فيها 178 ؛ وحُكي أنَّه قيل في الخطبة : «اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الاسْلاَمَ دِينًا !»[23] فلم تُعطِ السياسة معاقبة أحد منهم ، إذ كانوا فيه سواءً ، ولا يصح إمساك بلدةٍ إلاّ بأهلها 179 .

فقرَّ ملكُ جدنا قراره ، وجبر الأموالَ ، وزادت الجبايات .

الكشف عن أمر فِنْيَانة وفِتْنَتِها

ولما انصرف من فنيانة[24] ، غزوته تلك الوادى آشيَّة[25] ، دعا بقائديه [الناية وعبد الله بن القروي] ، وكانا على العسكر مُدَّة فتنة وادى آش ؛ وامتحن على أموالهم أين أنفقت : أكانت في واجب أم زيفت ، لما استعظم من النفقة ؛ وجمع القائدين والكَتبة ، وكشف على ذلك غاية الكشف 180 . وكان الناية من أهل التجربة والفكرة في العاقبة ، قد عمل هذا الحساب ، وأخرج منه نفسه : فمتى وردت أموال من غرناطة للعطاء ، يتحرى[26] عنها ، ولا يقبض منها شيئاً ، ويقول للذي يأتي بها : «احملْها إلى خباء الشيخ عبد الله بن القرويِّ ؛ فهو أعلم

(20) داخلة اهلها : تواطؤهم .
(21) م : كافوه .
(22) م : عفى .
(23) المائدة : 4 .
(24) م : فتيانه .
(25) م : الوادشية .
(26) م : يتحرا .

بما يصنع ، وهو أسنُّ وأدربُ !» . فاحتج النايةُ بهذا الفعل عند المظَفَّر ، وأتى على ذلك بالبرهان ، وتبرَّأ[27] منها . وغضب الحاجب على عبد الله ساعتئذٍ[28] ، وأمر بنفيه .

وكان أكثرُ الجند يشنأ النابة على ما وصفناه ، ويؤْثر عبد الله لتربيته[29] معهم ؛ فشقَّ ذلك عليهم ، وأدركهم من الأنفة أن خرجوا كلُّهم حرمة في عبد الله ، وأخلوْا * 25 (ا) عليه المحلة[30] وزال عنهم أكابر صنهاجة أجمع 181 ؛ فلم يصبح الحاجب بفنيانة ومنهم معه أحدٌ ؛ ورجَوْا أن يكون يرغب إليهم ، ويفزعونه بتلك الفعلة . فأتى إليه النابة يرعد فَرَقا ، وأخبره بالقصَّة . فقال المظفَّر في نفسه : «لا خيرَ لي في رد هؤلاء ! فإن ذلك مما يزيدهم طغياناً وتجرُّهم العادة ، متى أحبوا الخلاف ، على أن يمتثلوا هذه الطريقة . ولا حاجة بي إلى إمساكهم ، وفي مضيِّهم الغنيمة والراحة 182 !» . فسكتَ عنهم وتركهم على أهوائهم[31] فصاروا فرقا وأشتاتا ، منهم من مضى إلى جيَّان يريد مُسكَّنًا ابن عمهم[32] ، ومنهم من انقطع إلى شرق الأندلس ، ومنهمْ من رجع إلى غرناطة على خفاء ، يُري أنه لم يكن في الجملة .

وأقلع المظفَّر عن فنيانة وأتى غرناطة ، لم ينقصه من ذلك شيء ، ولا عدم جندًا . واستوزر النابة ، وبقي على الدعة والتمكين دهراً طويلاً .

استيلاء باديس على مدينة جيَّان

ولماَّ تمكن ماكسن من جيَّان ، وثار معه مسكن مع بني عمه ، أقلق ذلك جدَّنا ؛ وخاف النابة على نفسه منهم ، وجزع من أن يتفق من هنالك من بني عمِّهم وسائر البربر الذين بغرناطة ، ويقتلوه ، ويسعوا[33] في ولاية ماكسن 183 . ولم ير المظفر – رحمه الله – لمفاتنته وجهاً ، وإن مسايرته ومداراته أولى ، وإنَّ فتنته من العار وسوء القالةَ أن يقال : «رجع المظفر يكابد فتنة ابنه ، وإن أعياه أمر عجز» ، فتركه على حاله ، ورأى أن السعي عليه بالمداخلة أولى . والنابة ، في ذلك كله ، يجدُّ ويجتهدُ ، خوفاً على نفسه ، ويبذل الأموال للمغاربة ، ويرسل منهم إلى قصبة جيَّان مُتَخيِّسين[34] من يداخلهم .

(27) م : وتبرى .
(28) م : ساعة اذ .
(29) م : لترتيبه .
(30) المحلة : المعسكر .
(31) م : هواهم .
(32) م : مسكن بن .
(33) م : ويقتلونه ويسعون .
(34) متخيِّسين : خفية ، متنكرين .

وكان مسكّن قد اخمل عمّنا ماكسن ، واستبد بالرأي ، وجمع الأموال دونه ؛ وصار له ماكسن بمنزلة * 25 (ب) البازي الذي يُصيَّد به ، وماكسن لا يقدر على أكثر من الصبر ، إذ لا فئة غيرهم ، وقنع بتلك الحال لاستنقاذه له من الموت ، ورأى إقرار روحه في جسده غنيمةً ، فضلا عن طلب ما سوى ذلك . فلم يزل أبدا يداخل عليه بالأموال ، حتى استمال جميع مغاربة القصبة . وكان ، مُدَّةَ كونه بجيَّان ، يخاطبه أقوامٌ من صنهاجة في محبته ، ويقولون بذلك في المحافل والمجالس سرًّا وجهرًا ، ويرون ولايته خيرًا من تولية العبيد عليهم واليهود ومن أشبههم ؛ قد سئموا من ذلك ، وأشربوا للمظفر من الشنآن والبغضاء ما لو استطاعوا ، لخلعوه . لكن السعادة والمُدّة لم يقطع عليها قاطعٌ ! والرئيس من هذا كلّه تحت أمرٍ عظيم ، والناية متوقّعٌ للقتل مساء وصباحًا ، تكثر عليه الأراجيف مع الساعات ، إلى أن نجعت تلك المداخلة 184 وقام المغاربةُ بالقصبة على ماكسن ، وخرج منها فارًّا بنفسه ، هو وجميع من معه ؛ وهرب مُسكّن ، لايلوي على شيء ، يطلبون النجاة بحشاشة أنفسهم ؛ ووقع فيهم البهت[35] ، إذ لم يدروا من حيث أُتوا لمّا سمعوا النداء بالليل : «لا طاعة إلا للمظفر !» وعجّل الحاجب بثقاف جيّان ، واستراح من تلك الفئة .

ولقد حكي عن المظَفَّر – رحمه الله – أنه لما تهيأتْ له هذه السعادة ، رأى الناية مهمومًا . فقال له في ذلك ؛ فقال : «اهتممتُ لخلاص هذه الشرذمة بأرواحهم . ولسنا نأمن شرَّهم في البلاد ! «ومن ثورٍ حيٍّ لا يُلبس هراكيس ! 185 واسمُ ولدك كبيرٌ !» فأجابه المظفَّر أن قال : «الذي حلَّ بهم أشدُّ من القتل ، لجلائهم[36] عن أوطانهم وكشفهم في انتقالهم بأهاليهم إلى من يتولىّ خدمتهم ويُركبهم ويُنزلهم . والموت دون هذا راحةٌ !»

فقصد ماكسن إلى طليطُلة ، وصار بها عند ابن ذي النون * 26 (ا) مُكرمًا ، على حال الجندية . وتقلب مسكّن في البلاد ، يخدم الجندية . وصاروا أباديد[37] .

استيلاء الناية على بيّاسة

وزاد جاه الناية بغرناطة ، وأخمَلَ صنهاجة ، وأظهر لهم البغض لنفاقهم كان بزعمه على اليهودى وعلى الحاجب في ابنه ؛ واستخصَّ بني برزال 186 وأحسن

(35) البهت : الدهشة ، الحيرة .

(36) م : لخلاهم .

(37) صاروا أباديد : تشتتوا وتفرقوا .

إليهم ، وقرَّبهم من نفسه ، وهم كانوا أولياءَه[38] وأنصاره ، وبثَّ فيهم العطايا . وأخلد السلطان إلى الراحات .

ثمَّ إنه ، لما فُوِّض [له] الأمر ، رأى أن يجعل لنفسه ذكرا وثناءً يؤْثر عنه ، في غزو البلاد ومُداخلة بعضها . فانتدب إلى مدينة بيَّاسة ، وقال للمظفَّر : «إنَّ مُداخلة بعض أهلها عندي .» وكانت إذ ذاك لولد مجاهد 187 . فقال له الحاجب : «لاتتعرَّضْ إليها ، ونحن في دَعة . وكأني والله أرى تُنفق عليها الأموال ، وتهلك الرجال ، ولا نحصل على فائد .» فألح عليه وزيَّن له الأمر ، حتى أجابه إلى ما سأل ، وأمره بالمسير وهيأ معه الجيش ، وأعطاه الأموال . فرام من بيَّاسة أمرًا عظيمًا : كلُّ ذلك يتعذَّر من أمرها ما لايرجى به أخذها ، حتى سئم السلطان النفقة ومنع منه المال .

وكان في المجلس ممَّن يطالبه بذلك رجلٌ كاتبٌ للمظفَر يعرف بابن أضحى 188 ويقول للحاجب : «لم تقم بيَّاسة وعشرةٌ أمثالها ببعض هذه النفقات التي كنتَ عنها في غنًى !» وكلُّ ذلك يتَّصِل بالناية ؛ فيُخرج المغَاير[39] ، ويغنم الأغنامَ ، ويوجِّه بها إلى مولاه ليَجْبُر منها بعض نفقاته ؛ فكان ابن أضحى يبيعها ببخس من الثمن ، ويُحضر المال بين يديه ، ويقول له : «أين هذا ممَّا أنفقتَ ؟» . فيخرج أخلاق المظفر عليه ؛ فيصبر عليها الناية ؛ واستسلف طعامًا كثيرًا من شيوخ جيَّان . وكان بانيًا على أنه ، إن لم يقدر فيها على شيء ، أن يكون ذلك طريقه فارًّا ، لا ينصرف إلى غرناطة ، إلى أن استفتحها بكثرة المواظبة والملازمة ، وكانت له الصولة على مُطالبيه بذلك . ودخل * 26 (ب) المدينة في عزَّةٍ ورفعةٍ وإكرامٍ من السلطان جسيم ، مُهَدِّداً لمن طالبه ، ومستطيلاً بذلك معلنا . وقدم إلى المُظَفَّر يقول له : «لا أدخل البلد حتى تأمر بنفي ابن أضحى أو أنصرف من مكاني هذا !» . فرأى الحاجب أنَّ نَفي ابن أضحى أولى من فساد عسكره . فأمر بنفيه ، بعد تغريمه وإهانته . وخرج من ذلك الوقت ساعيًا على الدولة ومطالبا لها إلى أزمان ولايتنا ، حتى أظفرنا الله به ، على ما يأتي ذكره بعدهذا .

مؤامرة ضد الناية ومقتله

وإن وزراء الدولة وكثرة عبيدها ، لمَّا بصروا بما فعل الناية وللزيادة في أمره ، وجاهه ، وأنه هو الحاكم دون السلطان ، حتى قالوا إنه طامع بالرياسة والقيام مع

(38) م : أولياؤه .
(39) المغاير : الجماعات للغزو .

بني برزال 189 ، وشنع ذلك عليه ، وأدركتهم منه أنفةٌ عظيمة وحسد شنيع . فاتفق رأيهم أجمع ، أعني ولاة البلاد : منهم ولدُ القاضي ، صاحب باغه ، وابن يعيش ، صاحب قبرة ، وواصلٌ ، صاحب وادي آش ، والقاضي ابن الحسن النباهي بمالقة 190 ، أنه متى قدم إحدى هذه الجهات ، قُتل فيها ، وأرسل في ماكسن - وقُدِّمَ - أراد والده أم لم يُرِدْ .

ثمَّ إنَّ النفر المذكور عملوا رأيهم ، وفكَّروا في العاقبة ، ورأوا أن يقتله واصلٌ العِلجُ 191 بوادي آش ؛ [فيكون ذلك] أستر لقتله وأبعد للظنِّ بهم : فإن عاقبَ ، عاقبَ غلامه وتبرَّأوا(40) من ذلك . فوعد واصلٌ المذكور على ذلك بالوزارة مكانه ، وضمنوا له توطيدهم للأمر عند السلطان ، حتى تهيَّأ ذلك في دماغ العِلْج ، واستعد لقتله ، إلى أن حدث بوادي آش أمرٌ لم يكن بُدٌّ للسلطان أن يرسل 27 (ا) وزيره فيه ، من تحصيل أموال والكشف على أحوال . فنهض في أنحس وقت وأشرٍّ(41) قدَر . وكان واصل هذا المذكور من أكبر صنائع النابة ، وممَّن اطَّباه بإحسانه ، وشرَّفه عند السلطان ، ورفعه من الحضيض . ففشا الأمر عند الناس قبل ذلك أنَّ واصلاً عازم على قتل النابة .

وحكى لي إنسان من البربر ، قال : «نصحتُه بذلك وحذَّرتهُ أن لا ينهض إليه ، وأن مثله لا ينزل في داره ؛ فكان من جوابه : «تريدون أن تنزعوا الريب من أنفسكم وتردُّوها على أصدق الناس إليَّ !». فلمَّا توجه إلى وادي آش ، ونزل في منزل واصل ، أظهر له إكرامًا وتبجُّلاً لم يكن عليه قبل ، حتى اطمأنَّ ، وانصرف عنه أعوانه ، ودخل الليل في جَنِّه(42) ، أتاه [واصل] برمحه ، وهو سكران ؛ فضربه ضربةً أنفده بها ، حتى أثَّرت الضربة في الحائط ؛ وقطع رأسه وطوَّفه صبيحة الليلة [بأزقة مدينة وادى آش ومناد ينادي] : «هذا جزاء من طلب ما لايعنيه !» .

فورد الخبرُ فجاةً بغرناطة ، وبُهت له الناس ؛ ولم يدرِ أحدٌ من حيث أُتي ، فمنهم من يقول : «السلطان دسَّ إليه ، إذ لا يمكن لهذا العِلْج أن يتعدَّى !» . وبلغ ذلك من السلطان مبلغًا عظيمًا ، وعلم أن هذا من اتفاق عليه ؛ ودخل منه في بحر طامس ، حتى أسهر ليله وامتنع [عن] لذَّته(43) . وأظهر للناس تجلُّدًا ، وهدَّد الجند ، وأرسل إلى واصل بالأمان ، يأمرُه بالقدوم عليه ، ويشكره فيما فعل ،

(40) م : وتبرَّأهم .
(41) م : وشر .
(42) م : جله .
وجنَّ الليل : أظلم .
(43) م : وامتنع لذته .

سياسةً وتوطيدًا إلى أن يستبري كيفية الحال ، وينظر لها على مهل . فزاد بذلك العلجُ حماقةً ، وقال معلنًا : «لم أدخل يدي في هذه القضية وحدي ، حتى ساعدني عليها من لأينال بهم عن أحدٍ !» وأتى مشترطًا للوزارة . وكلّم ولدُ القاضي المظفّر في أمره وقال له : «إنّ هذا العبد ، وإن جنى عليك في قتل وزيرك ، فإنما فعل حُبًا منه فيك ورغبةً في قُربك ؛ وهو أحقُّ من ذاك إذ هو تربيتك !» وجعل [اهل] الدولة يعتنون به ويسألون العفو له . فأحسَّ السلطان ذلك في نفسه ، وأيقن أن هذه النَصْبة(44) لم تكن إلاّ عن اتفاق عليه ، وحسِب نفسه مخلوعا لا محالة . فإنه ، ساعة ما قُتل النابة أُرسل عن ماكسن إلى طُليطلة ، ووُجِّه * 27 (ب) إليه بخاتم النابة كي يتحقق قتلَه ، وقيل له : «ليس بغرناطة عليك مختلف ولا من يَصُدُّك !» ، إلاّ أنه لم يتجاسر حتى يرى إلى ما تؤول الأحوالُ . فكظم(45) الحاجب هذا في نفسه ، واحترق له قلبه ؛ وداری جميعَهم ، وصوَّب فعلَ واصلٍ ، وقال : «هذه(46) نارٌ موقدة ليس ينقذني منها إلا إطفاؤها والنظَر لها على سَعةٍ !» ، وأمر بتقديم واصلٍ على الخيل .

استدعاء باديس ولده ماكسن من طليطلة

واتفق رأي الجميع ، مع بعض أهل قصره من النساء ، أن يُدخلَ عليه ابنه ، ويخلع من أجله على كل حال . فلما رأى المظفر اتفاقهم عليه ، وأحس بهذه المصائب ، ولم ير لنفسه مع من يستريح ، أرسل في أبي الربيع النصراني 192 ، وكان فيما مضى كاتب حَشمٍ ، 193 ، قد عرف خدمة اليهودي وتصرَّف معه ، فأرسل عنه سرا ؛ وأتت كتبه قبل ذلك ، فراجع عنها بخط يده . فكان ذلك زيادة في الشر وخبال الدولة . فلما أحس بهذا ولدُ القاضي صاحبُ باغُه ، شافه المظفَّرُ في الأمر وقال له : «إن كنتَ تعزم على أبي الربيع ، فنحن لانبقى معك ، ولا يلتوي أحد حواليك !» . فأجابه : «ألا أبقى الله منكم أحدًا !» وضيَّع الحزم في هذا ، لا سيما أنه قد علم أن بيده مدينة لا يملك منها معه شيئًا ؛ فعملتْ في نفس صاحب باغهُ ، وأهل الدولة ، وتغيرت الأنفس ، وكثر الإرجاف . واتفق مع صاحب قبرة ، وكان صديقه قديما ، إلى أن ورد أبو الربيع .

(44) النصبة : التدبير ، المكيدة .
(45) كظم غيظه : حبسه وأخفاه
(46) م : هذا .

فاستراح إليه المظفَّر على المقام ، وأعلمه بما حل به . وأتاه المذكور من دانية ، إذ كان بها من وقت قتل اليهودي . فقال له أبو الربيع : «قد أيقنتُ أنهم أرسلوا عن ابنك ، ولا مختلِفَ عليه . ولا قدرة بك على مكابرة العامة والخاصة ! فالرأي في ذلك والحيلة أن تتلافى الأمر ، وتوجِّهَ في ابنك ، وتكتبَ إليه بخط يدك بالعفو عنه وإيثارك له على كل والٍ لم يصلح لك ، وأنك مقدِّمه * 28 (ا) لولايتك ومورثه ملكك . فإنك ، إن فعلتَ ، هدَّنتَ قلوب هذا العالم وتقمَّنتَ مسرَّتهم[47] . فإذا وصل ولدك بين يديك ، كنتَ في أمره بالخيار ، وتخدَّمتَ قصته على سعة : فمكابدته ، وهو معك ، خير من مكابدة شره مع بعده ولست تأمن مكره حيث ما توجَّه !» .

فرضي المظفر ذلك من قوله ، وأرسل على المقام عنه فقيها كبيرًا من فقهائه يؤمِّنه ويوطِّده ، ويبشِّره بمذهب أبيه واستخلافه له ، وأنه ليس في الدولة من بنيه من يرجى[48] لهذا الأمر سواه ، وكتب إلى ابن ذي النون يرغب في تسريحه إليه . فسُرَّ بذلك جميع الناس ، وانصرفت نفوسهم عمَّا كانت عليه ، وطفَّف العالم في محبة ماكسن ، ورَجوْا الخير معه ، إلى أن ورد في أنحس طالع وأنكد جِدٍّ .

فأنَّسه أبوه ، وبذل له الأموال ، وجعل يوصيه بوصايا لم تنفعه ، أراد بذلك ضُرَّه وانصراف نفوس الناس عنه . فأول ما أمره به الشدة والفظاعة ، وبغَّض إليه صنهاجة 194 ، وقال له : «أنت تعلم ما شقيتُ أنا بهم بعد حبوس ! فَصُلْ عليهم ليهابوك ، وليس في الدولة غيرك إلاَّ بني أخيك : فهم أطفال صغار !» .

وكان ماكسن من السفه وعجز الرأي وقلَّة الفطنة بحيث لم يَخْفَ على أحد . فزاد على ذلك أضعافا مضاعفةً . ووافق سوء طبعه مقالة أبيه ؛ فتحكَّم الشر فيه ، ولم يقدِّم شيئا على شتم الناس والاستهزاء بهم ؛ ومن العجب أنه كان أبغضَ العالم فيمن أحبه وسعى فيه ؛ فجعل يبلغ من أعراضهم وتكليفهم مالا يطيقون ما انصرفت نفوس العالم فيه إلى البغضة ، وتبين لهم قلَّة عقله ؛ وأجمع * 28 (ب) الكلُّ على ألاَّ خير فيه يُرتجى 195 .

وكانت بنت عمه أمُّ العلوِّ طامعةً بزواجه ، وكانت مطاعةً في قومها قد استمالت أكثر نساء الجند ، فأول ما ابتدأ بتهجينها[49] وشتمها ، وأنها فيما يزعم لا تصلح

(47) م : سارهم .
تقمَّنتُ مسرتهم : ردتُ .
(48) م : يرجا .
(49) هجَّن : قبَّح ، عاب .

له . فزاد ذلك في نحسه والسعْي بكلّ وجه عليه . وكانت كريمة المظفَّر الساعية في خبره بعد سعيها في قتل أمه ، قد أغارت من أن يكون ماكسن يزوج بنتِ عمه ، حِذْرًا منها أن تجعل منها حاشية وتمنع حرمته . واتَّقى من ذلك واصل وامرأته ؛ فقالا[50] لها : «أي فائدة لك في زواج أم العلو ؟ لكن الأوْلى بك أن تعطيه صبية من تربيتك ، تكونين[51] من أجلها حاكمة على داره !» . ففعلتْ ذلك وأخرجتْها إليه بأموالٍ ، وصوَّرتْ عند السلطان أنها توفيت ، لئلاًّ[52] يطلبها في قصره ، باسم أخرى ماتت عندها .

وشقَّ على بنت عمه ذلك كلُّه ، ورجعت تسعى عليه مع نساء البربر ، وتدخل بين امرأة واصل المذكورِ ، وبين كريمة الحاجب ، وتقول لها : «إذا أردتِ الانفراد بماكسن ، فما حملَ امرأةُ العِلْجِ على السكني معه ؟» . فمُنعت الدخول إلى داره ؛ فأنفتْ لذلك . وكان مع هذا زوجها واصل يؤْثر عليها صبية كانت لها ، ويؤذيها من أجلها . فاجتمع على المرأة الغيْرةُ والأنفة لما طردت من دار ماكسن ؛ فلم تلبث أن مضت إلى أبي الربيع النصراني وقالت له : «أنا أمةُ المظفَّر : فلينظر من نفسه ! فإن الاتفاق عليه على وجه كذا وكذا !» ، وبيَّنتْ جميع ما راموا من غدره . فأتى أبو الربيع إلى الحاجب مسرورًا ، وقال له : «أنظرْ كيف تبتدىء سعادتك في تشتيت هؤلاء القوم ! أخبرتني امرأة واصل بكذا وكذا ! ألم أقل لك 196 ..... ؟»

(50) م : فقالوا .
(51) م : تكون .
(52) م : ليلا .

الفصل الخامس

إمارة عبد الله بن بُلُقِّين بن باديس
مشاكل الأندلس الخارجية

رفض مطالب ألفُونْش السادس ومداخلاته مع ابن عمار

[..... وأمَّا]* 29 (ا) ألفُونْشُ 197 ، لما تيقَّن هذه الفتن ، عَلِم أنَّ ذلك من أكبرِ سعادته وأعْظَم فُرصة في طَلَب الأموال . فأرسل إلينا رسولَه 198 أوَّلَ مداخَلَة نشأت بيننا وبينه ؛ فأتى باطرو شُولِش[2] يطلُبُ منا ضَريبتُه 199 فَأَبَيْنا عليه ، واجتمع رأيُنا على أن لا نفعل ، وأنَّ ضَرَرَ أَلْفُونْشُ لا يُخشى وغَيْرُنا أمامنا ، نعنى بذلك ابن ذي النُّون . ولم نقس أنَّ أَحَداً يُعاقدُهُ على مُسلمٍ . فانصرف عنَّا بلا عمل .

وإن ابنِ عمَّار 200 انتهز هذه الفرصة ؛ وكان منتظرا له ببَاغُه ، مُرتقباً لما يصنع معنا . فلماً رأى أنه لم يتم لع عمل ، ألقي يدَه فيه على المقام وقال له : «إن كنتم منعتم عشرين ألف دينر[1] وهي التي سأل عن ضَرِيبتِه[2] ، فنحن نعطيكم خمسين ألفاً ، على أن نُعاقدَكم على غَرْناطة : تعطوننا القاعدة ، ولكم ما فيها من الأموال !» . فعاقدوه على ذلك . واتَّفق رأيهم على أن يبنوا على غرناطة مَعقلا يُضيِّق

(1) م : دينر .
(2) م : ضربته .

عليها حتى تلقى يدها . وكان ابن أَضْحَى ، 201 المذكور قبل هذا – وهو المُخْرَجُ على يدى النابة – قد انحاش إليهم ، يدُلُّ بهم على عَوْرات البلدة ، ويريهم أشدَّ ما يكون عليها من المواضع إن بُنِيَ ، ويجعل فيها ندباً[3] للضرب والتضييق . فأراهم حصن بَلِيلُش[4] 202 .

وأكرى ابن عمار من عسكر أَلْفُونْش من قوى به على البُنيان بأعداد من الأموال جسيمة ، يسوِّفهم فيها تارات ، ويَعِدُهم ويخادعهم ، حتى تمَّ البنيان . وجعل المعتمد 203 يُحاول ذلك بنفسه ، ويبرِّز أبدًا على مقربة من غرناطة مدة كَوْنِه ، طمعا في أن يقوم معه أهل البلدة . فلما تمَّ بُنيانه ، قوَّاه بالندب ، واتخذ فيه جميع الأقوات ، وأمرهم بالتضييق . وكانت الحال شديدةً ، ونسيَ به أمرُ القَلْعة 204

وعند انصراف المعتمد عنه وعساكر الرُّوم ، عَبَّينا عسكراً كثيرا ، ونهضنا إليه ؛ فلم نقدر فيه على شيء . وانقطع رجاء الناس من دولتنا ، لاجتماع المطالبين عليها مع الرومي . ونَدمنا على التفريط أوَّلاً في معاقدته حسب ماسأل . وكان من أحسن شيءٍ* 29 (ب) على السلاطين أَخْذُ معْقِلٍ بالسيف ؛ فإنه ، متى اعترض ، لم يستطع على دخوله لمنعته وما عُدَّ فيه ، ولا على إحصاره ، حتى ينفد ما فيه لقوَّةٍ تأتيه ، فيُقلع عنه إلاَّ من كان أَقْوَى . ولم نكن نحن إلا متكافئين في ذلك : متى ما أعْطَى أحدنا لعسكرٍ مالاً ، وأراد الآخَرُ نَقْضَهُ ، أربى عليه وأراحه منه .

فكانت بليلش قد أفسدت ، وضيَّقَتْ على فحص غرناطة ؛ ولم يَكْفِ ما حل من أجلها حتى جَعَلنا ألفونش أن نُغْرِمَ ما فَاتَهُ منَّا ، تباعة وتذنيبا لرفضنا إياه ، واستدفاعاً لِمَا يُتقى من تماديه على الطلب . وابن ذى النون في هذا يتوسَّط له بالأمر[5] ، ويسعى في تصيير المال إليه ، ويرضيه بذلك وينتظر فساد مَمْلَكتنا ، فيفترصها هو أو يأْخُذَ منها حِصَّته . فكان – على ما قدمنا ذكره – عدوًّا في الباطن ، وصديقا في الظاهر . وهو مع ذلك لايزال يداخل قرطبة ، ويسعى جهده فيها ، إلى أن قدَّر الله ، وافترصها غَدْراً بمداخلة مع بعض أهلها ممَّن لا خطر له 205 . واستشهد فيها ابنه عباد 206 [بن المعتمد] وقائدُه ابن مَرْتِين 207

فلما انقضت بقرطبة هذه الدائرة ، وسمع بالخبر أهل بَلِيلُش ، أخْلَوها على المقام ؛ ودَخَلها رجالنا ، وصارت في ملكنا مشيَّدةً مَبْنِيَّةً . فنظرنا منها كالذي نصنع بقصبة غرناطة . وتروَّح مُخَنِّقُها[6] من حيث لم يُحْتَسَبْ .

(3) الندب (المفرد : ندبة) : الحاميات القوية ، التعزيزات .
(4) م : بلليش .
(5) م : الأمر .
(6) تروَّح مخنِّقها : فُرِّج عنها .

المهادنة بين عبد الله وابن صمادح صاحب المريّة

وكان قائدَ مدينة بسطة ابنِ مَلْحان 208 ، رجل معجب ، قد شَرهت نفسه إلى رتب الملوك . وكان المُظفر - رحمه الله - قد فوّض إليه أمر البلدة عِوضا من أبيه . فلما صارت لنا الدولة ، وكثر فيها آراء الوزراءجعل كل واحد منهم يطلبه بمال ، ويسأله مُتاحفات : فمن لم يعطه طالَبَهُ وأذاهُ ، مع صغر سنِّنا 209 ؛ فلم يجد سبيلا إلى الدفاع عن نفسه ، ولا شكوى لمن يذبُّ عنه ويحميه . فترامى على ابن صُمَادح وقبله ؛ وصارت البلدة إليه ؛ وعَلم أنه لا يفاتَن طول مدّة الفتنة مع ابن عَبَّاد . ثمَّ إنه غدر* 30 (ا) حِصْنَ شِلَشْ210 ؛ ونحن ، في ذلك كلّه ، لا نفتر عن مجازاته بالاضرار ببلده . وصار إلينا مع حصن شَنْت أَقْلَج 211 من معاقله ما وقعت المعاوضةُ به من شيلش . وصالَحْناهُ مهادنة وانجراراً للحال ، حتى نرى ما نصنع مع ابن عباد .

الأمير عبد الله يهادن صاحب قشتالة

وبقي ابن عمَّار مرتهنا بما جعل على نفسه للنَّصرانِيِّ من كراء بَلِيلُّش في تبعات كثيرة وجرايات جسيمة يُقطِعُها له ، ويعده بها . وأدخل سلطانه من ذلك في تشغيب ، لأنه كان لا يريد أن يجعله يَخْلُد إلى راحة لِكي يحتاج إليه في تلك الفتنة لا يقر عن إدخال ضررٍ على المسلمين . ومتى ما كان المعتمد يسعى في تهدين الأمر ، ونروم معه الصُّلح ، أو تنشأ مُهادنةٌ ، لا ينام في نقضها واشعال نار الفتنة .

فعاد ثانية إلى النصراني أَلْفُونْشُ ، وزيّن له أمرَ غرناطة ، وصوَّرنا عنده في صورة من لا يقدر على شيء من أجل الضعف وسنِّ الصبا وأنه ضامن له أموال غرناطة لِتَصير إليه بأسرها ، على أن يُعاقده إذ تمكن من البلدة ، أن يجعلها مُلكه ، وله ما ألفى من أموالنا . وألقى يَدَه في أَلْفُونْشُ ، عازماً عليه في الاقبال إليها ، وأعطى على ذلك أموالا جسيمة ، ووعده بخمسين ألف مثقال إذا تمَّت القضيَّة ، ليعطيها زائدةً على ما يجدُ ، لمُساعَدَته على السير 212 .

فأدرك الروميَّ مِن ذلك طمعٌ كثير ، وقال : «هذه نَصْبَةٌ(7) لستُ أخلو فيها مِن فائدة ، وإن لم تحصل البلدة ! وأيُّ فائدة لي في إعطاء بلدة من واحد لآخر إلاّ تقويته على نفسي ؟ وكلما كثر الثوار ووقع(8) بينهم التنافس ، كان لي أفئدَ(9) !» فأتى على نية أخذ مال الفريقين ، يكسر رؤوس بعضهم ببعض . ولا كان أيضا في أمله أن يأخذ البلاد لنفسه ؛ فإنه عمل في ذلك حسابا أن قال : «أنا من غير الملة ؛ وكلُّ الناس يشنأني ؛ فبأي وجه اطمع في أخذها ؟ إن كان من باب الطاعة ، فأمرٌ لا يمكن ؛ وإن كان من وجه القتال ، فيهلك فيها رجالي * 30 (ب) وتذهب أموالي وتكون الخسارة عليَّ أكثر ممَّا نرجوه إن صارت إليَّ . ولو صارت ، لم تمتسك إلاّ بأهلها ؛ ثمَّ لا يؤمنون ! ولا من الممكن أن نستبيح أهلها ونعمِّرها بأهل ملَّتي ! ولكن الرَّأي ، كل الرأي ، تهْديد بعضهم ببعض ، وأخذ أموالهم أبدًا ، حتى ترقَّ وتضعف 213 ؛ ثمَّ هي تُلقي بيدها إذا ضعُفت ، وتأتي عفوا ، كالذي جرى بِطُلَيطُلة ، إنما كان من فقر أهلها وتشتُّتهم ، مع اندبار سلطانها ، وصارت إليَّ بلا مشقَّة 214 !».

وكُنَّا نحن نعلم هذا من مذهبه(10) ، على ما كان يخبر به وزراؤه . ولقد قال ذلك شيشلاندُ 215 في حال هذه السفرة ، وشافهنا بذلك ، وقال : «إنما كانت الأندلس للروم في أول الأمر ، حتى غلبهم العرب ، وألحقوهم بأنحس البقع : جلِّيقيَّة(11) ؛ فهم الآن عند التمكن ، طامعين بأخذ ظلاماتهم ! ولا يصحُّ ذلك إلاَّ بضعف الحال والمطاولة ، حتى إذا لم يبق مالٌ ولا رجالٌ ، أخذناها بلا تَكَلُّف !» .

فكان الجميع يساير الأمور ، ويدافع الأيام ، ويقول : «من هنا إلى أن تتمَّ الأموال وتهلك الرعايا ، بزعمهم ، يأتي الله بالفرج وينصر المسلمين 216 !» . فورد علينا من إقبال ألْفونش مع ابن عمار هَولٌ عظيمٌ ، وصحَّ عندنا أنه لم يأت إلاَّ طالبا لملكنا : قد استوثق من الفونش على ما قدَّمْنا ذكره . ثمَّ أرسل إلينا يُنذر بإقباله ، ويأمرنا بالخروج إليه ، يُري أنه يذهب إلى تجديد العهد والاجتماع بنا ، على ما يفعله مع السلاطين . فلم نشكَّ أنَّ ذلك للتقبُّض علينا وإنجاز ما عاقد عليهم . فاجتمع إلينا أهل الرأى والمشورة ، وقالوا : «ما الذي تذهب إليه ؟ هذا عدوٌ قد جاء لطلبك ، ولا قدرة بك على مناوأته ! وسواءٌ عليك خرجَت إليه أم

(7) نصبة : قضية .
(8) م : وقع .
(9) م : أفأد .
(10) مذهبه : سياسته .
(11) م : جليقة جليقة . غليسية ، الركن الشمالي الغربي من شبه جزيرة ايبرية .

بقيت ! فإن أنت بقيتَ ، حلَّت بك الداهية العظمى ، ووقعت المفاسدة ، وأصاب مُطالبُك سبيلاً إلى العمل ؛ وتكون هذه أشدَّ من الأولى ، وقت رفضنا بَطْرُه شولش(12) وألقى(13) ابن عمار يده * 31 (ا) فيه حتى بنى علينا بَليلْش . والآن لم يتروح مُخنَّقنا حتى نعود إلى ما هو أدهى وأمرُّ ؛ فلو رأت الرعايا بعضَ خلاف من هذا الجيش ، لم تبق ولا تذر لشعفة(14) ما قد دُهوا به قبل ، وكان الرجاء ينقطع ، ويتلف الكلُّ حتى تُؤخَذَ هنا باليد على غير صُلحٍ ، فلا يرقبُ فينا إلاًّ ولا ذِمَّةً(14 - أ) ! فالخروج إليه أيسرُ لأمرين : فإن كانت سلامة ، شكرتَ رأيك ، وثبت ملكُك ؛ وإن كانت الأخرى ، كان خروجك عن أمان ، وصرتَ حيِّزا في العافية ! فاعزمْ على لقائه(15) ، وقلْ له قولاً ليِّنا(16) ؛ ولله أن يُنَفِّذ قضاءه .

فاستعددنا لذلك جهْدَنا ، وأجمعنا حوالينا من نثق به من رجالنا ، وأخذنا أهبة الحال ، ولقيناه على مقربة من المدينة 217 ، وبالغنا بالضرورة في إكرامه ؛ فأعرض علينا وجها بسيطاً وخُلُقًا حسنًا ، ووعدَنا أنه يحامي عنَّا كما يحامي عن بلده .

ثمَّ وقعت المعاملة ، ومشت الرُسلِ منَّا إليه ومنه إلينا ، يبيِّن ما عوقد عليه وأنه سيق سَوْقا ، ويقول : «إنِي قد تشبَّثتُ(17) في الأمر ، ولم نعجِّلْ حتى نسمع ما عندكم . فإن جاملتموني ورأيتم لقصدي وجهاً ، انصرفتُ عنكم على خير ، وإلاَّ ، فها أنا مع من عاقدني !» وطلب خمسين ألف مثقال . فشكونا إليه قِلَّة البلاد ، وأنَّ ذلك لايقدَرُ عليه ، وفيه من القطع لنا ما يفترصنا به ابنُ عبَّاد ؛ فإنه لو أخذ غرناطة ، قوي عنصره ، «ولم يَنْطَعْ إليك . فخذ ما نقدر عليه ، واتركْ رمقا لا نُستأصل من أجله ! وما تركتَ ، تجده عندنا متى ما طلبت !» فقبل العذر بعد جهد عظيم ، وقاطعناه لقصده بخمسة وعشرين ألفا ، نصْف العدد ؛ ثمَّ أعددنا له من الفرش والثياب والآنية كثيرًا ، استدفاعا لشرِّه ؛ وجمعْنا ذلك كلَّه في خباء كبير ، ودعوناه إليه . ولمَّا رأى الثيابَ استحقرها ؛ ووقع الاتفاق معه على زيادة خمسة الآف مثقال لتتم بها ثلاثون ألفًا ؛ فأكملناها له لئلاً ينفسد الأكثر عن *

(12) م : بطرة شولس .
(13) م : والقا .
(14) شُعفه : هَوْل
(14-1)انظر سورة التوبة : 15 .
(15) م : لقاه .
(16) انظر سورة طه : 44 .
(17) م : تشبثت ؟ اي تروَّيتُ .

31 (ب) الأقلّ . فشكر على ذلك كله ، وطابت عليه نفسه . ورجع على ابن عمار يقول له : «كذَبْتَ لي في قولك إن غرناطة في ضعف ، وان صاحبها من صغر سنّه لا يعقل ! ورأيتُ من رتبتها وأحوالها ماخالف قولك !» 218 .
فرجع ابن عمار يسأله أن يعقد بيننا عقدًا يوقَفُ عنده ، واستماله على أخذ اسطَبّة من عندنا ؛ وكانت معقلا عظيما ممّا يلي جهات إشبيلية ، قد كان أخذه قائدنا كبَّابٌ في الفتنة 219 ، وسألناه نحن خبرَ القلعة ؛ فوقع الاتفاق على أن تكون قلعة أسطلير 220 عوضًا من إسطَبّة .

وكانت قاشترُه[18] 221 ومارتُش 222 المعقلين اللذين على جيَّان . ومن اجلهما انقطع صاحبها عمُّنا [ماكسن] ولم يكن لجيَّان معنى إلاّ بهما . فترامى ابن عمارفي أمرهما على ألفونش ، ووعده على مارتش بأموال كأنه[19] يشتريها منه . فعزم علينا فيها للطمع في المال ، ووعدَنا نحن على قاشترُه بالمَطْمَر 223 ، وكان أيضا حصنا قد اشترك نظره مع نظرنا بيد ابن ذي النون ؛ فضمن خبره أنه يعطيه لنا عوضا منها ؛ فدافعْنا الأمر جُهدنا : فلم نقدر على أكثر فعلِ القويِّ مع الضعيف .

ثم إنه عُقد العقد بين يديه على ذلك ، وأن لا يتعدّى منا أحدٌ على صاحبه ، وذكر فيه ما نعطي كلَّ عام من الضريبة : فجعل علينا عشرةَ آلاف مثقال في العام ، وطيَّب لنا الكلام بأن قال : «طمع ابنُ عمار أن نغدر بك ؛ ومعَاذ الله من ذلك أن يشيع في الدنيا أنَّ مثلي كبيرا في الروم يقصدك ، وأنت كبير في جنسك ، ثم نغدر بك ! فابق على أمان ! لا أكلفك إلا الضريبة ، تُوجِّه إليَّ بها في كلِّ عام دون مطْلٍ ؛ وإن تأخرتَ بها ، أتاك رسولي عنها وتلزمك عليه نفقات ؛ فبادرْ بها !» . فقبِلنا قوله ، ورأينا إعطاء عشرة آلاف في العام ندفع بها مضرته خيرا من هلاك المسلمين وفساد البلاد ، إذ لم تكن بنا قدرة على ملاقاته ومكابرته 224 ، ولا وجدنا من سلاطين الأندلس عونًا[20] عليه إلاّ من يسوقه إلينا لهلاكنا . فبقيت الأمور على مصالحة ومهادنة * 32 (ا) ورفاهية ، ولا يُسمع فيها بفتنة .

استيلاء ألْفُونْش السادس على طليطُلة

وممّا هيَّأه الله أن فقدْنا وسائط السوء بعد ذلك بفقد ابن عمار ، وشَغْله في مُرسية 225 وبزوال سِماجة 226 عنّا وأشياعه . وتوفي قبل ذلك ابن ذي النون عند بلوغه آماله بقرطبة ، وكانت الأندلس قد ارتجَّت له ، وخافه الرؤساء ؛ فلم

(18) م : قاشره . (19) م : انه . (20) م : عوبنا .

يلبث بها إلاّ يسيراً حتى مات 227 ؛ وكذلك الأشياء إذا تمّت . وكان أهل العلم 228 يخبرون بذلك أنه إذا حصل على قرطبة ، فقد تمّتْ أيامه وإذا تمّ شيءٌ ، دنا نقصه 229 .

ثم خُلع من بعده حفيده ، وقام عليه أهلِ بلده ، ولجأ إلى ألفونش ؛ فصرفه إليها على قهرٍ وغلبة ، إلى أن جعل عليه أموالاً جسيمةً ، أشدها ما جعل على نفسه في شراء حصن من الفونش على مقربة من طليطُلة بمائة وخمسين ألف مثقال طيّبة[21] وخمسمائة[22] مُدْي[23] من طعام ضيافةً كلّ ليلة مدّة مقامه عليه ، أخذها من أهل بلده حتى ضعفوا . ولازمها ألفونش حتى صارت إليه . وعوّض صاحبَها ببلنسية 230 ؛ ولم يعترض له مالاً ولا أهلاً غير الذّهب والفضّة .

وكان حفيد ابن ذي نون ، في أقل ولايته ، لم يقدّمْ شيئًا على الغدر بوزير جدّه [ابن] الحديدي 231 لسعاية البغاة أعدائه ؛ وسوّلتْ له نفسه أنّ قتله لا يصح إلاّ على يدي قومٍ قد سجنهم جده على بصيرة ؛ فأطلقهم وسلّطهم عليه؛ ولمّا تمكنوا منه ، كان كَلَبُهم عليه أشدَّ ، وصاروا طالبين للثأر وكانوا أقوى الأسباب في فساد ملكه ، وهم بنو اللوارنكيّ 232 ، وبنومغيث 233 ، ومن انحاش إليهم . وكان قديرًا على قتله دونهم ؛ لكن العجز وضعف الرأي عمّيا[24] عليه وجه الصواب .

استلاء ابن هود على دانية
بعض أخبار بني هود

وحصل أيضا ابنُ هود على مدينة دانية بغفلة صاحبها عن الرجال 234 وحبه في الأموال ، مع مُداخلات أُوتي بها[25] من قِبَل وزيره ابن الرُّيولة 235 ، الخارج عنه إلى سَرَقُسْطَة ؛ فعمل عليه مع ابن هود حتى أتاه على غفلة ، ودخل المدينة بلا مشقّة ، وحصل منها على عظائم من الأموال بوفرها . وكان * 32 (ب) عنده ولد مجاهد صاحب دانية مكرّما حتى مات .

وإن ابنَ هود ، لمّا حصل على دانية ، انفسد طبعُه ، وأدركتْه الرَّغبةُ في البلاد ، وزال عما كان عليه من جهاد الرّوم ، وطمع في بلنسية عند ذلك ، وأعطى عليها

(21) مثقال طيب : دينار جيد غير مموّه .
(22) م : وخمس ماية .
(23) مُدي : مكيال يساوى 2 1/2 قفيز قروي .
(24) م : عمّي .
(25) م : به .

أموالاً جسيمة لألْفونش(26) ؛ وألفونش في هذا كلّه ، على ما قدمنا ذكره ، يأخذ الأموال ، ولا يحقّق لأحد أن يهاوده(27) على أخذ بلدةٍ . فتوفيَّ ابن هود في إثْر أخذه لدانية وبلوغه آماله منها . وقد كان ابن الخياط المنجّم 236 ذكر ذلك كلَّه ؛ ولقد قرأتُ في بعض كتبه قبل أن ينقضي ، حتى رأيته عِياناً .

وكانت قضيته في دانية كقضية ابن ذي النون بقرطبة : فإنَّ ابن هود اهتزَّتْ له الأندلس عند حصوله على دانية ؛ وجزع جميع الرؤساء لأخذه لها دون قتال ولازمان ، وأعدَّ كلُّ أحدٍ عُددَهُ متأهباً لشره ، إلى أن أراح الله منه ، وقبضه على فتنةٍ واقتبال أملٍ .

ثم قام من بعده ابنُه المؤتَمِنُ ؛ فلم يلبث إلاَّ يسيرًا حتى مات 237 . وشعر المؤتمن لابن الرُّيُولة وزير أبيه بأعمال فاسدة مع الفونش ، ليتخدَّم له خدمة ابن عمار ، فيرأس لذلك عنده على أهل زمانه خذلانا وطغيانا ؛ فأمر بقتله .
وتوفيَّ المؤتمن ، وورثه المستعين حفيده هذا الوالي الآن 238 .

وكان المؤتمن رجلا عالماً ، قد طالع الكتب ، مع ما كان عنده من الآثار ؛ فرأى موته قريبًا . فكان لا يُسَرُّ بالمملكة ، ويزهد في كثير من الدنيا . ولقد أخبرني بعضُ من حضر مجلسه من أعلام جنده أنه كان يُريهم ذخائره التي لم يجتمع مثلها عند مَلِكٍ ؛ فيهنّئونه عليها ؛ فيقول لهم : «ما أصنع بها ، والمدَّة يسيرة ، ولا أدخل منها قبري إلاَّ بكفَنٍ !» فكان يكدِّر قولُه ذلك عليهم ، حتى مات .
وكان مُنْذِرٌ أخوه بدانية 239 ، إلاَّ أنَّ أباه الشيخ لم يُمَكِّنْهُ من مالٍ ، حذرًا منه أن يخالف على أخيه لحدَّته وشدَّة بأسه . فلما توفي المقتدرُ ، اضطربت الفتنة بينهما . وكان مُنذِرٌ منهما * 33(ا) لا يتضعضع له ويتكافى به ، لما كان من إحسانه للأجناد ومواساته لهم ، إلى أن توفِّي بعد أخيه ؛ وقام ابن له صغيرٌ بعده ، يُدبِّر مُلكَه وزيرُه 240 .

انتزاء ابن عمار على المعتمد بمرسية

وصار ابن عمار في حيِّز الخلاف على المعتمد ؛ وجعله يطلب مُرسية ، واعتراه عليها مشقَّات ونفقات أموال . وجرى من أسر ابن المعتمد عليها ماقد شُهر 241 . وطال مكثه على مُرسية ، يُحزِّب عليها الأحزاب وينفق الأموال ، يُري سلطانه أن

(26) م : للفونش .
(27) يهاوده : يوادعه ويصالحه .

السعي له ؛ وهو في الباطن يجدُّ لنفسه ، لكيْ يتَّخذها معقلاً يرأسُ فيه ، كالذي صنع 242 . ولقد كان يقول أهل العلم بالآثار والتأثير : «إنَّ مُلك بني عبَّاد يتناهى حتى يبلغوا إلى تُدْمير 243 ، ومن ثمَّ يتمُّ هلاكهم . وكان الناس إذ ذاك يتوقَّعون عليه الفساد عند محاولة ابن عمار لأمرها ؛ فلم يكن إلاَّ بعده بحين ، عند بلوغ الكتاب أجلهُ .

وسار ابن عمَّار بمرسية بأقبح طريقة من الاستخفاف بالناس ، واستعمال المعاصي ، والإدمان على الخمر ، حتى أبغضه أهلها . وكان للمعتمد طاعةً في معصية ؛ واشتهر بأخذِ عرضه وهجوه 244 بما قد نزَّهه الله عنه ، فعلَ الأوغاد والأرذال .

وقدم إلى مُرسية ابنُ رشيق 245 ؛ فكان يطويها وينشرها(28) ؛ وشبَّك عليه المعاقلَ بقرابته ، واتخذ لنفسه صنائع مُدَّة غفلة ابن عمَّار عنه وإقباله على راحته ، إلى أن خرج عن مُرسية ، يريد التخدم لنفسه في رسالة النصراني ليخدم أمر الأنظار التي تجاوره في الشرق ، عسى [أن] يضعها في يده ، مثل شَنْت مَريَّة 246 ، ويسعى في إصلاح ما أفسد عليه ابن رشيق ؛ فإنه لم يجدْ إليه سبيلاً لِكَلَبه عليه . ولمَّا نهض إلى الفونش ، فأول ما سعى في تصيير طُليطُلةَ إليه بمداخلة لأهلها ، ليكونوا حاكمين أنفسهم ، ويؤدوا(29) الجزية للنصراني دون رئيس . وأتى طليطُلة ، وابن ذي النون فيها ، باسم * 33 (ب) الرسالة ، ووافق على ذلك ، ومحلَّة ألفونش عليها ، في حين صرف حاجبها إليها بعد خلع أهلها له ، ليفي له بوعده ، ثم يعكس عليه القصَّة ، فيُقْتل . فشعر لذلك ، وغلب حفيدُ ابن ذي النون الفئة القائمة عليه . ففرَّ منهم من خلص إلى ألفُونْش ؛ وفرَّ ابنُ عمار 247 .

ولمَّا لم تتمَّ له(30) خدمة ألفونش في ذلك ، نهض إلى صاحب سرقسطة ، وتخدَّم له خبر شَقورة ، وبها ظُفر به ، ووُجِّه به إلى المعتمد . ولما ثبت أنه استقرَّ عند ابن هود ، غدَره فيها – أعني مُرسية – ابنُ رشيق ، مع استمالته لأهل البلدة ؛ واستحسنوا ولايته . ولم تكن لابن عمَّار بعد ذلك رجعةٌ إلى مرسية ، وصار خادمًا عند ابنِ هود صاحب سرقسطة . ولمَّا احتل بذلك القطر ، أضرمه نارًا ، وأهاج فيه فتنةً ؛ وصار سفيرًاللافرنج . وآثره ابن هود ، وقرَّبه ، رجاءً منه أن ينال على يديه ما نال المعتمد 248 ، للذي قام له عنده من الطاروس(31) بسعادة صاحبه ، لا بأعماله .

(28) يطويها وينشرها : يستولي عليها بسرعة .
(29) م : ويؤدون .
(30) م : يتمّ .
(31) الطاروس : حسن الحظ ، السعادة .

وكانت العداوة الواقعة بينه وبين المعتمد على يديْ الرَّشيد 249 ابنه ؛ فإنه بفسوقه ، كان يتكبَّر على أولاده ، ويضيِّق عليهم ، ويسيء الصنعةَ مع من يجب عليه إكرامه من قرابة سلطانه ؛ والمعتمد ، في هذا كلِّه ، يصبر له ، ولأنَّه كان قد استمال النصارى ، واندخل معهم بحيلةٍ : فمتى ما دهم أمرٌ من قِبَلهم ، وجَّهه إليهم ؛ فينجلي من أمرهم ما يضيق الصدر به 250 ؛ وكلُّ ذلك بأموال رئيسه وسعادة أيامه ، وهو بجهله يعتقد أنَّ ذلك لا يتهيَّأُ إلاَّ بسببه ، ويرُدُّ الحسَّ[32] كلَّه إلى نفسه . وكانت هذه المعاني ممَّا أحنق عليه المعتمد ، حتى عقَّب عليه بما كان جديرًا به ، وأمكنه الله منه ، وجازاه بما لم يكن له منه بُدٌّ ، ولا رآه لغيره أهلاً .
وكانت شقورة قد أخلَّها المعتمد ، وبنى صاحبُها عبد من عبيد سراج الدولة أن يضَعَها في يديه ؛ فلمَّا صار * 34(ا) ابن عمار إلى سرقسطَة ، نهض إلى العبد المذكور ، عساه [أن] يرجع إلى ابن هود 251 ؛ فثقَّفه وأرسل به إلى المعتمد ، وعند ذلك قتله شرَّ قتلةٍ 252 .
وإنَّ ابنَ رشيق بعد ذلك سوَّلتْ له نفسُه الخلافَ على المعتمد ، واحتجَّ بأن قال : «لم يقدِّمْني إلى مُرسية !» وزعم أنَّ أهل البلد اختاروه ، وأنَّ مقدِّمَهُ إليها إنَّما كان ابن عمَّار حتى ذهب عنها 253 . وسنذكُرُ من أمره بعد هذا ، عند ذكر أحوال المرابطين – أعزَّهم الله – وقَصْدِهم إلى لِيِّيط 254 ، ما انقضى من خبره عليها ممَّا هو مشهورٌ .

عقد الصلح بين عبد الله وبين المعتمد بن عباد

وليس كلُّ الناس علم سرَّ الأمر كالذي نصفه نحن . والدليل على ما قدَّمناه ذِكره من ارتباط المعتمد إلى الخير وإيثاره للصُلح بزوال هذا الفاسق ابن عمار عن دولته ، لم يُر بعده فتنة فيما بيننا وبينه 255 ؛ وحقَّق معنا في كل أمرٍ ، كالّذي فعلنا نحن معه . وجدَّدنا العقد على ما ارتضيناه من معاوضات ، سوى ما كان قديما بيده ، ممَّا خرج عنَّا في أيَّام المظفَّر 256 ، وأخذت الفتنة عليه حقَّها ، ولم يوجد في طلب ذلك خير ، ولا إلى غير المصالحة سبيلٌ .
فقرَّت الأحوال قرارها ، وتهنَّى كل واحد منا بملكه إلاَّ ما كان من سيف برَّانيٍّ[33] يعترض بلادنا من الرُّوم ؛ فكان الرُّزءُ فيه واحدًا والمشاركة سواءً ؛ وإن

(32) الحس : الفضل .
(33) براني : غريب ، خارجي .

كنا لا نقدر على ذلك بالامداد بعضنا لبعض لضعف الحال ، فكُنّا نتشارك بالمداخلة وإعمال الرأي والتحذير من أمرٍ عسى أن يكون خفي عن الآخر وما أشبه ذلك .

المؤلف يتحدَّث عن منهجه في تأليفه

وإذ أتينا على ذكر جملٍ من أحوال الأندلس الحادثة فيها ، المشهور خبرها حسبما استفاض ، تركنا وصف الاختلافات ، إذ يوجد الحق في طرفٍ واحدٍ ، ولم يكن منها ما طولع بالمشاهدة ولا بالمعاينة أكثر من إشاعة خبرٍ ، ذكرنا منه ما ينقاس في العقل ، وحذفنا منه الإكثار والمشتبهات . وإنه ، متى أتينا على ذكر خبرٍ حادثٍ في دولتنا ممّا حاولناه أو شاهدناه * 34 (ب) أطنبنا في وصفه ، وقتلناه علما إلى آخره ، وأخبرنا بسرِّه من جهره ، وبأرق الأسباب فيه . والإطناب فيما يحاول الانسان أبلغُ وأنعتُ في وصف المشاهدة لغير ما يخصه ، كما أنَّ وصف المشاهدة ، وإن كان لانعنيه ، أبلغ من ذكر المستفاض الذي لم يوقف على حقيقته ؛ فإنما يُذكَرُ منه ما يقبله العقلُ ، ثم لا يجترىء واضعُهُ على أن يضع فيه من عقله دون الأغلب عليه عند العامة ؛ فيصير مكذَّبًا .

ولهذا ما(34) اختصرنا من الكائنات المشهورة بالأندلس كثيرًا من الأخبار عنها ، واقتصرْنا على الإطناب فيما يخصنا منها ، ممّا حاولناه أو رأيناه عِيَانًا . والحقيقة من الخبر عونٌ كبيرٌ على ما يروم الانسان من صفةٍ في منظوم أو منثورٍ ، كالمادح أو الذامّ ؛ فإنه إذا وجد إلى المقال سبيلاً ، أطنب وأبلغ ، وإن كانت بعض زيادة ، فإنها لا تمكن إلاّ في الأغلب والأكثر ، ويكون في ذكر الأمرين مصدَّقا لمعرفة الناس به ؛ ولأن كتابنا لم يكن مبنيًّا إلاّ على وصف مملكتنا خاصّة ، «والحديث ذو شجونٍ» ؛ فلا بُدَّ من ذكرِ جملٍ من غيرها عند الحاجة إلى وصفه أو ضرب مثلٍ به ، تزيينا للكلام وإقامةً للبُرهان ودورانًا على الحقيقة .

(34) ما الزائدة .

الفصل السادس

إمارة عبد الله بن بُلُقِّين
مشاكل غرناطة الداخلية إلى قدوم المرابطين

عزل الوزير سماجة واستبداد عبد الله بالإمارة

وإنَّه ، لمَّا تهدنت لنا الأحوال وقرَّ ملكنا قراره بمصالحة المعتمد ، ومعاقدة الروميِّ على المهادنة ، وتوطين النفس على ما نعطيه(1) في العام ، انصرف نظرنا إلى إصلاح أمر بلدنا ، والفتش على رعيتنا ، والكشف على العمال إن كانوا عادلين أو ظالمين 257 . ولمَّا شعر بذلك خدمتُنا ومن كان له مذهبٌ في نصيحتنا ، انتدب جميعهم إلى الإعلام بما عنده والتنبيه على ماخفي عنَّا أزمان تلك الفتنة ؛ فكنَّا لانقبل من أحدهم على الآخر إلاَّ بعد رويَّة وهجوم على الحقيقة ، حذرًا أن يكون مقال أحدهم حسدًا للآخر ، أو طلبا لا يتَّقي الله فيه .

وكان سِمَاجَةَ ، وزيرُ دولتنا المتقدِّم ذكره ، قد شعر بذلك وأحسَّه منَّا ؛ فاغتمَّ للأمر *35(ا) وعمل في نفسه ، وشكاه إلى إخوانه ؛ وكان فيما قال لهم : «إنَّما كنَّا نطمع بالتحكُّم على هذا الرئيس والتمكُّن من دولته مدَّةَ أيَّام صبوته ، يعني صغر سنِّه . وأمَّا الآن ، فلسنا نجد سبيلاً إلى ردِّه عن دولته ، لا بفئة تحمينا ، ولا بصغرِ سنٍّ نجد به السبيل إلى صرفه عند العامَّة وتسفيه رأيه ، لا سيما إذ كان رأيه النظر

(1) م : نعطوه .

من دولته والبحث عنها .» فقيل له : «لست[2] تجد سبيلا إلى أكثر من المداراة له ، والإتيان لمرغوبه ، وقلّة الخلاف عليه لئلا يتمكن عدوُّك منك ، ويشتفي حاسدك عليك . فهو ، إذا وجد منك الذي يرغب ، لم يلبث أن يملَّ النظَر والخدمة ويفوّض الأمر إليك ! ثم أنت بالخيار عند غفلته وإقباله على راحته ! عليك بإشغاله بالنساء ، وعجِّلْ له ابتياع الرقيق ! ولسنا نأمن أن يكون يشنَأُكَ من تحجيرك هذه الشهوات عليه ؛ فإنه نظنُّ به ما يُظَنُّ بمن كان في سنه» .

ففعل ذلك ، وكانت هذه الفترة التي دبَّرها من سعادتنا وتمكيننا من آمالنا في الذي ذهبنا إليه من الاستبداد بملكنا 258 ؛ فإنّه شبَّك علينا المعاقل ببني عمه ، وأشدُّها علينا مدينة المنكب 259 . فجعل يطلق لنا العنان في كل ما نريده ، واشترى الرقيق ، وجعلنا نخرج إلى النزاهة في البلاد ، يُري بذلك الإنصاف والتأتيَّ[3] ، إذ كان الرجل متثبتًا ، خائفا من سوء العاقبة ، مع أنه كان خائفا من قبل ذلك من أجل كتبٍ استعملها على ألسنتنا أقوامٌ من أعدائه إلى طائفة من صنهاجة يؤمَرون فيه بقتله ، ونحن براءٌ منها ؛ فظفر بالكتب ، وأنزل بنا التهمة ، وأمر بقتل أولئك المُسَمَّيْن في الكتب ، وغيرهم ممن اتُّهم من كرائم باديس – رحمه الله .

وكانت تلك المعاني مقدِّمات تغازله لعَزْلته . فلمَّا كانت وجهتنا إلى وادي آش عن اختياره ، وقد كنتُ علمتُ معتقدهِ في ذلك كلِّه بالقياس والميز مع بعض الأخبار ، قلت في نفسي : «هذا رجلٌ قد اعتاد الأمر * 35 (ب) والنهي ، ورأى[4] من يقظتنا للدولة ما لم يكن يُريده ؛ وليس فعله هذا بهواه ؛ وكلُّ فعلٍ يُضطر فيه الانسان إليه لا يؤمن خلافه ، والرجعة عنه ، والاستحالة فيه عند الأمن من مكروهه ! فنكون أبدًا نكابد منه ما لا يوافق ! وإن فاتتني هذه المرَّة ، أكنْ كمن نُبِّه على أمر وحُذِّر من نفسه ، ثمَّ أوبق نفسه[5] في المضرَّات . وإن أغضينا هذه المرَّة وعاد إلى ما كان ، ثمَّ نرى منه خلافا ، لم نقدر عليه بشيء ، إذ يكون نظره لنفسه أجود من هذا النظر ، فإنَّ هذا الأمر منَّا جاءه فجاْةً لم نحتسبه ولا ظُنَّ به ؛ والفرص تمرُّ مرَّ السحاب 260 ! فمادمنا[6] نحن بالخيار عليه ؛ لا نتربص حتى يكون هو بالخيار علينا !»

(2) م : ليس .
(3) التأتي : الملاطفة وتلبية الرغبات .
(4) م : ورا .
(5) أوبق : أهلك .
(6) م : ما دام .

فأراد إشاعة عَزلته بالحضرة[7] عند إمكان السّفر ؛ فلم نر لذلك وجها إلاّ ونحن خارجون عنها ، ليكون أشنعَ في الناس وأقطعَ ليأس الرعايا ، مع أني ، إذا حرّكت هذا بالحضرة ، دخلته الصناعة[8] ، وكتم عن الناس ، وشغبت امرأته من الدار .

فلما وصلنا وادي آش جعلتُ من يَدُسُّ[9] إلى الرَّعية أن ترفع بمظالمها ؛ وكان عاملها ابنُ أبي جوش ، صنيعةُ سِماجة المذكور ؛ فأمرتُ عند شكواها بثقافه . فأنكر الناس ذلك ، وهان عليهم أمره . وجمعت الرعايا والوزراء ، وحدَّدتُ لهم حدًّا يقفون عنده ألاّ يجعلوا بيني وبينهم واسطةً ، وأمرته هو بالتزام ما يخصه لنفسه ، وأن لا وزير لدولتي غير نفسي ؛ وحدَّدت لكلّ خادم ما تكون طريقته أن لايتعدى سواها . فسُرَّ بذلك جميع الوزراء ، إذ تساوت أقدامهم ، وانكشف حجابي لهم ، لكي تكون حوائجهم إليَّ دون من هو مثلهم أو دونهم . واغتبط الرعايا بعزلة الظَلَمة عنهم . وعزلتُ كل من يتهم بخيانة ، وقدَّمتُ عمالا إلى الجهات ، أريد تجديد الدولة . وعزلت بني عمه من الحصون ؛ ولقد كان فريق منهم ، لمَّا سمعوا بذلك ، يفرون منها ويتركونها حتى يوجِّه إليَّ جندها عن قائدٍ . ولم نلقَ في ذلك * 36 (ا) كلّه مشقَّةً . ولم يبق إلاّ ابن عمٍّ ، صاحب المنكّب ؛ فجزع ، إن تركه يوجد إليه السبيل بسببه ؛ فأخبرني بالأمر ، وسألني إرسال قائدي إليه ، فعُزل . وسأل زاوي زوال أخيه بَلْبّار عن وادي آش . فكان ذلك كله على أمكن سعادة وأجود تقدير ، للذي شاءه الله من تمام أيّام وزارته .

ثم أمَّنتُه في نفسه ، وأبقيتُ عليه جميع أمواله إلاّ الذهب والفضَّة ، وسوَّغته[10] إنزالا ينعاش فيه ، وأمرته بلزوم مجلسي ، وأنّه مكرَّمٌ طول حياتي . فقبل الرجل ذلك كلّه ، وأطاعنا في كلّ أمر أردناه دون خلاف ولا إظهارٍ لمعصية ؛ فإنه كان جزوعًا[11] ، قليل الجرأة على العظائم ولأنه لم يجد فئة تعينه . ولثقتي بذلك أمَّنته في نفسه ، ومضى عليه دهرٌ طويلٌ على لزوم المجلس دون خدمة ، فلم يترك .

وخاف منه من سعى في أمره من أهل الدولة ، وتوقَّعوا منه العودة ؛ فلم يزالوا يغرون به[12] ، وينقلون من قبيح القول ، ويخوفون من مغبّة أمره[13] ، ما لم نَرَ معه وجها لامساكه في البلدة ، احتياطًا لأنفسنا ؛ ورُبّما كدحتُ بعض تلك

(7) الحضرة : العاصمة غرناطة .
(8) دخلته الصناعة : لجأ إلى الخديعة .
(9) م : يدوس .
(10) سوَّغته : أقطعته ، خصَّصت له .
(11) جزوعاً : شديد الخوف .
(12) م : يُغروا .
(13) مغبَّة أمره : عاقبة أمره .

الأقاويل ، فهلك من أجلها . ولا استطعنا حينئذٍ على معاقبته لما ارتكب في صدر الدولة من قتل أولئك النساء ومن جرى مجراهنّ(14) ، لشركته في ذلك مع سواه من شيوخ تَلْكاته 261 ؛ فيسوء ظنُّ الجميع ، وتفسد من سببه الأحوال ؛ فلا يقوم فساد المملكة وسوء عاقبة الأمر بما يلزم من إقامة الحدّ . فرأينا من الصواب أن يرتحل عنّا دون تغيير ولا إبلاغ في عقوبةٍ ، استمالة لأنفس الناس ، وبسطا لأموالهم . وخرج بجميع أثاثه وخدمه ودوابه وجميع ثيابه وفرشه ، مشيَّعا إلى المرية . فكان المعتصم يُكرمه من أجلنا ، ولا ييأسُ أن نصرفه إلى منزلته ، فيقدّم ذلك الاكرام عنده . وخرجتْ امرأته بحليٍ كثيرٍ من الجوهر ، حاشى ماخفي عنّا من المال * 36 (ب) ؛ وإنّما صار إلينا ما أعطيناه بأيدينا من الذهب والفضّة أوّلَ ولايتنا ، وقت فتح بيت المال ؛ ولم نتحقق ماأكتسب منها مدّة خدمته لنا ، ولا بحثنا على ذلك 262 .

النزاع على الحدود مع صاحب المريّة

ثمَّ قمنا من بعده في أمور البلاد والرعايا بأحسن قيام وأتمه ، وجعلنا الأمناء على البحث والتعقب ورفع المظالم إلينا . ودام الأمر على ذلك دهرا طويلاً .

وإنَّه ، في إثر مضيِّ سماجة المذكور إلى المرية ، بَلغَنا أنَّه حقَّر الدولة لابن صمادح وطمَّعه فيها ، لما كان يرى من طمع الرجل الذي قد شُهر به – رحمه الله – ؛ فإنه كان كثير الطمع ، قليل الجَسْر ، ضعيف المنَّة . فعمل قوله في نفسه ، ورجا أن ينال على يديه فرصةً بمداخلةٍ أو إدلالٍ على موضع فائدة ، كالذي تهيَّأ له مع اليهودي 263 .

ووافق ذلك أن وقعت بين قائديْ النَّظر ما بين فنيانة والمنتوري 264 مشاجرة على الجهات ؛ ولم يتهيأ حيازة ذلك النَّظر إلاَّ ببنيان المنتوري المذكور . وقد كُنْتُ ، عند وجهتي إلى فِنيانة ، أرسلت إليه رسولاً يُعلمه بورودي عليه ، وسألته تلك القرى المصاقبة لها وأنها أوْلى بذلك المعقل لقربها ، وتطارحتُ عليه في المكارمة بها ؛ فكان من جوابه للرسول : «هيهات ! ليست(15) تُملك الأقطار إلاَّ بالبنيان والسَّيف !» فلما علمت مهمَّ ذلك الحصن على المرية ، وبلغني ما كان من تطميع سماجة ، وتذكرت مراجعته عن القرى ، أغضبنا ذلك ولم نؤخر أن عاجلنا ببنيان ذلك المعقل . فقام على المقام بالجدّ والقوة ، وجعلنا فيها حُماة الرجال ؛ وضاقت

(14) م : مجراهم .
(15) م : ليس .

المرية من أجله ؛ واحتيج إلى بنيان معاقل غيرها ، توقع ان نسبق إليها ، فيكون عوضاً عن[16] المنتوري . فقام بنيانها على ساق ، وصارت كلُّها حِرْزًا للجهات التي لنا ، وأقفالاً عليها ، وضررًا على جهات المرية . فعيل بالأمر ، وضاق به ذَرْعًا ؛ وكان لا يوجِّه * 37 (ا) عسكرًا إلى موضع إلاَّ هُزم ؛ وأسرنا كبار رجاله على طُرَّلْبَش 265 .

وكان عدةُ ما بني عليه سبعة حصون . وكنت مع هذا آمر[17] أهلها بالرفق وحِرْزِ جهاتها ألاَّ يتطرَّق إلينا طالب شرٍّ . وإني إنما بنيتُها صولةً وتهيُّبا ، حتى نصالح الرَّجل على ما يقع بموافقتنا ، ويعرف أقدارنا . وإنه ، لمَّا ظهر من كَلَب الروم على الأندلس ما ظهر 266 ، ورأيت نفسي ظافرةً متى رُمتُ مع ابن صمادح فتنةً ، وتَبَيَّن لي ضعفه عن المناظرة ، صرفتُ نفسي عن التمادي والإلحاح ، وقلت : «أنا في مثل هذا مدركٌ ! لا يفوت من الأمر متى أردناه شيءٌ . وحسبُنا ما قد ظهر إلينا ؛ فالإبقاء أوْلى ، وإصلاح الأمر مع الجار ؛ وجارٌ ضعيف يُبقى عليه خيرٌ من تهيُّئنا لِقَويٍّ لا يرام ! ولقد كان المظفَّر على بصيرة من إثباته لدولته وإبقائه عليه ؛ ولنا فيه أسوةٌ وقدوة 267 !» .

فصالحتُ الرَّجُل ، وأمرتُ بهدم تلك الحصون ؛ ونُشرتْ المرية من كَفَن . وتمكَّن بعد ذلك ، ودنا ، وصار أصدق الناس لنا .

ولا خَير في حلم إذا لم تكن له بوادرُ تحمي صفوه أن يُكدَّرا 268

فلم نزل متعاقدين متشاركين [18] في الحلو والمرِّ إلى انصرام الأجل .

محاربة تميم بن بُلُقِّين صاحب مالقة وهزيمته

ثم لم نلبث بعد ذلك إلاَّ يسيرًا حتى جاءنا من أخينا تميمٍ فحمةٌ لم نحتسبها بعد أن رأى ظهورنا ، وصُلحَنا مع سلاطين الأندلس ، وما صنعناه بجهات المريَّة ، لم يفرِّق بين هذه الحالة والحالة الأولى ، لغرارة الصبا وقت اصطكاك الفتن والشغل الشاغل . فحسب الزمان كله واحدًا . ولمَّا سُكت عنه قبلُ ، لهذه العلة على ما قدَّمنا ذكره من بدءِ أمره ، تمادى على تلك الأفعال . فأرسل قطائعه[19] إلى حرب المُنَكَّب وشاط 269 ، وخُوَيْلةً[20] في إثرها للضرب على النَّظر المصاقب لها .

(16) م : من .
(17) م : نأمر .
(18) م : متشاكين .
(19) قطائعه : مراكبه .
(20) خُوَيْلة : فرقة صغيرة من الفرسان .

وأتاني أهل تلك الجهات ساكين بالأمر ؛ فقلتُ في نفسي : « هذا إنسان لم يبصّره الدهر ، ولا حكمته التجارب : ومتى تركناه * 37 (ب) على هذا دائبا ، ولم نؤدّبه عليها ، تمادى شره ، وحسب أنَّ ذلك لهيبته ؛ فازداد ، ولا تنفع فيه موعظةٌ ولا قيلٌ !» فلم نجد بُدًّا من تأديبه وزجره ، فإن الشيء تحقره وقد ينمى 270 ! وإنما كان ذلك الاغضاء لمعان(21) تُوُقعت ، وانتظارًا به لحسن العودة ورويَّة البصيرة . فإذ قد يئسنا من هذا وأمِنَّا ما يُشغلنا عنه ، فتركُه على هذه الضلالة من العجز والخرق !» .

ووافق ذلك الزمان اشتغالُ المعتمد بأمر ألفونشُ ؛ فإنه نازل إشبيلية لتباعات تسبَّب بها ؛ وضاقت الحال من أجله 271 . فاتَّفق الأمر وتهيَّأت الأسباب على حينِ غفلة وانتهاز فرصة . فنهضنا بأنفسنا إلى ذلك القطر ؛ فوالله ! ما سمع بنا أهلُ حصونه ، ولم نتدارك بالخروجِ صبيحة ذلك اليوم ، حتى ورد علينا عن حصن القصر 272 بجهة صالحة 273 أنّه صار في ملكنا وأطاعتْنا رعيته ؛ وهو حصن أول من يطوع وآخر من يعصي لذوي الغلبة والظهورِ ؛ فاستبشرنا بذلك ، وصرنا إلى الحمَّة 274 ، نروم منها أمر ذلك النَّظر . فأُعلمتُ بصخرة دومس 275 ولا معنىً لِرَيِّه 276 إلاَّ بها ، وهي موسطة البلد ، وقد اجتمع فيها جلُّ عساكر مالقة مع قوَّاد صاحبها ؛ فلو انتُزعتْ تلك الشوكةُ ، كان أمر غيرها يسيرًا هيِّنًا . فاستعددنا لقتالها(22) ، وضاربناهم في أول النزوع عليها . فجزع من فيها من الجند ، وأرسلوا إلينا تلك اللَّيلة يطلبون الأمان ، ويخرجون بخيلهم سالمين في مُهجهم . فأجبتهم إلى ذلك ، عسى أن نكون نستميل غيرها بهذه الأيادي ؛ وأخلوا الصخرة ، وصار فيها جندنا .

وانتقلنا عنهم إلى حصنٍ كان صاحبُ مالقة قد بناه لقطع الطريق بيننا وبينه أول قيامه ، على ما رسمناه ؛ فلم يكن إلاَّ ساعة قدومنا عليه وتخاذل من فيه ، ودُخل قسرًا ، وهوحصن أشتنير . ثمَّ نهضنا إلى مريَّة بَلِّش 277 ؛ فألقت بيدها . وأردت التمادي إلى بِزليانة 278 .

وكان كبَّاب * 38 (ا) بن تميت صاحب أُرْجُذُونة 279 وأنتقيرة 280 ، قائدُنا ، قد استفلك(23) في تلك الجهة ، وزعم أنه لا يتعزَّل إلينا . فلمَّا رأى ظهورنا في هذه المعاقل خاف أن يَصْفُوَ الجوُّ ويُصرفَ البال إليه ، فرام أن لانصل إلى بِزلْيانة وحذَّر من ذلك . وكان وراءنا(24) حصنُ مُنت ماس 281 ، رأيت أنه لاتتمكَّن

(21) م : لمعاني .
(22) م : لقتالنا .
(23) استفلك : طغى ، تجبَّر .
(24) م : ورانا .

لنا مُنازلة مالقة إلاّ بالراحة منه ؛ فإنه يمنع الميرة إلى المحلاّت . فانصرفنا عن بزليانة نريد مُنت ماس المذكورة ، وأظهرنا لكبّاب الأخذ برأيه ؛ فسرَّ بذلك .

ولما نهضتُ إلى مُنت ماس ، رأيت معقلا عظيمًا ، قد اجتمعت به جميع الرعايا ؛ فعرضنا عليهم الطاعة ؛ فأبَوْا ، خيفةً منهم أن نكون غدًا نصالح أخانا ويُعاقبهمُ ؛ فأمّنّاهم من ذلك . واجتمع فيه كلِ فاسق من أهل الشرّ ، وأعرضنا عليه الحرب بأنفسنا ، وتركناهم على ذلك ، ورتّبنا عليهم الرُّتب وانصرفنا إلى غرناطة . وفي انصرافنا ، طاعت لنا غيرها من المعاقل ، مثل أيرش وصخرة حبيب 282 . وكنّا[25] في أوّل وجهتنا قد أخذنا ريِّنة 283 بالسيف قسرًا ؛ وطاعت لنا جُطرون 284 ؛ وهما قصبتا مالقة . وطارت في تلك المدّة عن يده عشرون معقلاً . وانصرفنا إلى منت ماس ثانية ؛ ويئسوا من تركهم ، وطاع أهلها ؛ وثقّفناها ؛ وهدمنا من الحصون ما نستغنى عن إمساكه بغيره ؛ وأمّنت الجهة وبحثت على فوائدها ، وصار ذلك مقيَّدًا ؛ وأوسقنا أهلها خيرًا .

ولما رأى أخونا ما دهمه من الأمر ، وقيام رعيَّته عليه ، خاف على نفسه من أهل البلد مع تبريزنا نحن على مالقة في حين أخذِ مُنت ماس . واشتغل بعض الناس بقتال انحازوا إليه دون موضعنا ، وتبعهم أكثر عسكرنا ، فانتهز أهل مالقة الفرصة ، لمّا رأوا من قلة من في الموكب معنا ، وخرجوا على باب فُنْتَنَالّة 285 ، وحملواعلى * 38 (ب) العسكر حملةً اختلط فيها الفريقان . ولمّا رأوا فرار من معنا واختلاطهم بجند مالقة ، أمسكنا على العلامات[26] ، وأمرنا بضرب الطبل بعد تولّيه ، حتى اجتمع إلينا بعض الناس لمّا رأوا ثبوت العلامات . ثمّ كانت لنا عليهم الكرة ، بعد أن أُسر بعض رجالنا ؛ فأنقذوهم ، وهزموا عسكر مالقة ؛ وكان بها من جند البربر نحو ثلاثمائة[27] فارسِ أنجاد ، إلاّ أن الحزم داخلهم ، ونزع إلينا أكثرهم .

ولمّا رأى بعض من معنا تلك الهزة ، أشار علينا بالانصراف ، وخوّفنا من تقوية ابن عبّاد أن تدخلها مالا يمكن286 ، فقلت بأن الانصراف على هذه الحالة عجزٌ ! وسيشيع في الجهة كلها أنَّ رجوعنا لم يكن إلاّ عن هزيمة ! فالأوْلى أن نكسر يومَيْن نبرّز[28] فيها كلَّ يوم على الموضع الذي التَحمت فيه الخيل ، نريهم : إن كانت بكم قدرة ، فعاوِدرا ما فعلتم !» وثقّفتُ العسكر لئلاّ[29] يطيش منه أحدٌ . فكان

(25) م : وكان .
(26) العلامات : الرايات .
(27) م : ثلاثماية .
(28) نبرز : نخرج على رأس قوة للملاقاة .   (29) م : الا .

ذلك . وأقلعنا بعزَّةٍ حتى وصلنا نظَرنا على أتمِ ما يمكن . ولو رفعنا أوّل تلك الوهلة ، خلت جميع المعاقل التي طاعت لنا ، وكأنّنا ما صنعنا شيئًا .

فبقيت الحال ضيقةً على مالقة . وأرسل إلينا أخونا يستعطف ويسأل العفو وإقالة العثرة . فدبَّرنا أمره في أنفسنا ، وعملنا فيه رأيا سديدًا ، وعلمنا ما هو عليه من الحرص والشرهِ والحدَّة ، وأنَّ صرف المعاقل إليه تَقويةٌ لشره ، وأنّه ، إن عاود بما كان عليه ، لم نقدر له على شيءٍ ، ولا تطوع لنا بعدها رعيَّته إن أردناهم بعد ، لما يرون[30] من إسلامنا لهم إليه ، وخافوا أن يعاقبهم ، مع ما كانوا ينقمون عليه من سوءِ الطريقة معهم ، يُعلنون ، بذلك ؛ وأخذوا منَّا ميثاقًا غليظًا ألاَّ نُسْلِمَهُم إليه ، وعاهدناهم على ذلك بأيْمانٍ مغلَّظة . وظهر من أقاويلهم أنَّهم ، متى رُدُّوا إليه ، لم يجيبوا * 39 (ا) ، وأدخلوا الداخلة ، وصيَّروها إلى رئيس غيرنا . فخففنا من هذه الوجوه ما يجب أن يُتوقَّع .

ثُمَّ لم نَرَ وجهًا في الالحاح عليه ؛ فربما أخرق[31] ، وصيَّرها إلى سوانا ، كالذي صنعَ ماكسن عمُّنا بجيَّان 287 ؛ فتكون مصيبة للبلدة ، وعارًا عظيمًا ، من توليج أخينا وشقيقنا إلى غيرنا ، وتغريبه[32] في البلاد ، وأمه قيد الحياة ، ولو لم تكن فأبقينا عليه ، وقد أدَّبناه[33] بما كفى ، ووسَّعنا عليه في النَّظَر ممَّا لم تبق فيه من الرعيَّة ، وكان مُهمًّا عليه ؛ وأخلينا له رُيَّينة وجطرون ؛ فإن رعيَّتها نصارى 288 ، وهم بين النَّظَرين ، لا يقدرون على نفاق معِ أحد ؛ وأعطيناه قرى يتسع فيها لمرافقه . وبقيت بيده الحصون الغربية مثل قرْطمة 289 ، وميشش 290 ، وحُمارش 291 ؛ وأعطيناه قامرة 292 ، بلد الزرعِ ، ليتسع فيها للحرث . وحرمناه غيرها ، التي يتوقع من أهلها ومنهِ : إن استأسد بها ، لم يؤْمَنْ شرُّه .

وبقيت حاله في أفضل الأحوال ، ما رضيت به الوالدة وحمدَه جميع الناس ، صِلَةً للرحم ، وعفوًا عند المقدرة ، وتأديبا لما يخشى عاقبته . وقرَّ حاله قراره ، ونفسه في هذا علينا حاقدةٌ ، تبلغُنا عنه أقاويلُ سيئةٌ ؛ ونحن لا نعرِّج عليها ونقول : «إضرَاره بالقول خير من إضراره بالفعل ، لو صرفنا إليه المعاقل ! وعلمنا أنه في عافية ونعمة طائلة ممَّا عنده من الأموال التي ترك جدُّه 293 بمالقة ، لم يُحوَجْ قطُّ إلى نفقة درهمٍ منها ، ولا نالته فِتنةٌ ، ولابلغه مكروهٌ ؛ وكنَّا نحن أمامه نقاتل

(30) م : يروا .
(31) أخرق : تمادى في نفاقه وغيّه .
(32) تغريبه : نفيه .
(33) م : ودبناه .

عنه العربَ والعجم 294 ، ونعطي عنه الجزية ، وهو في دَعَة ؛ فإذا كان بيده فوق ما يكفيه لِقِلَّةِ تَمَوُّنِه واحتياجه إلى نفسه في التَّمَوّن(34) والنفقات ، فإن هذا كثيرٌ ، وهو تحت نعَم جمَّة !» . فطابت أنفسنا على ذلك . وكفَّ هو عن كثير ممَّا كان يرتكب من القتل والظلم ، حتى إنَّه لا يَرِدُني من عنده رسولٌ من أهل بلده أو جنده* 39 (ب) إلاَّ ويوصِّي أن نشدَّ يدي عليه ، ويقول لي : «بتأديبك له فلَحنا معه وكفَّ عنَّا ، وإنَّه ، متى يأمن منك أمرًا ، طغى علينا ، وشقينا به . وما في الدنيا أشعر منك في إمساك تللك المعاقل عنه ؛ فإنك كنت بعد هذا لا تلجمه أبدًا !» فخرجت الأمور خير مخرج ، وأمَّنَّا جهته بستره في مكانه ، ولم نفجع فيه أُمَّه 295 .

ثورة كبَّاب بن تميت وبني تاقنُوت ونهايتهم

وإنَّ كبَّاب بن تميت ، قائدنا بأرجذونة وأنْتَقَيْرَة ، لمَّا رأى ظهورنا على مالقة ، أكبره ذلك وشقَّ عليه ، وعلم أن الأمر مُنْجَرٌّ إليه ، إذ كان قد أضمر نفاقًا وطاعةً في معصيةٍ ، لما تأسَّس له هناك في حين الفتنة من ضَمِّ الأطعمة ، والاستحواذ على أموال الناس بقطعه السُّبل ، وانقطاع أهل الشرِّ إليه من كل قطرٍ . وكان أمره من ذنوب سماجة عندنا ، الذي سوَّغه البلد ، وجعله ملكا في يديه ويدي بني عمِّه ، حتى شقى به . ولمَّا تمَّ صلحنا مع المعتمد بن عباد 296 ، خالَفنا فيه ، وجعل يُفسد وينقض ما أبْرَمنَاه من ذلك ، ولا يقرُّ عن الضرب . فجعلتُ أقدم إليه المرَّة بعد المرَّة ، وأُنذره عاقبة اتِّباع هواه ، وأقول له : «إنَّ للمصالحةِ وقتا ينبغي للمرءِ حفْظُها ؛ فإذا أفسَدتهَا ، فأنت من المطالبين لي !» فلا يزدجرُ مع هذا كله ، ولا ينفع فيه وعظٌ ، لإعجابه وتحامقه . وكانت كُتُبُ المعتمد أبدًا ترد بالشكوى منه ؛ فأضمر لنا من كفِّه غائلةً . وكانت من سعادتنا أنَّه لم يُجمل المعاملة مع أحد الفريقين .

فلمَّا طال الشكوى به ، قلت لرسول المعتمد : «لا أستطيع على عزل كبَّاب إلاَّ بالمجاهدة في مفاسدته ؛ فإن استوثَقْنا منكم أن يترامى عليكم ولا تقبلوه ، فنحن ضامنون لعزلته !» . فارتبط معي على أن لاتُقبل له رجعة ولا تقال له عثرة . فألححتُ(35) على كبَّاب في أن ينزل عن المعقلين ، ثقةً منِّي بما ربطته مع المعتمد ، فزاد طغيانه ، وخاطب على المقام إلى ابن عبَّاد * 40 (ا) ، يرغب في تصيير الحصون

(34) م : الفتون .
(35) م : فالحت .

إليه . فأرسل إليَّ المعتمد بكتابه ، وحضَّنى على شدِّ اليد عليه والراحة منه ؛ ففعلت ذلك . وهذا ممَّا تقدَّم ذكره من إنصاف المعتمد لنا وقلة خلافه علينا مُذ فارق ابن عمار ، كالذي أجملنا نحن معه في أمر بيَّاسة ، وقت نفاق أهلها وأرسلتُ كتابهم إليه 297 .

وإنَّ كبَّابا(36) قبل ذلك ، لمَّا رأى صنيعنا بمالقة ، على ما قدَّمناه ، نظر – في زعمه – لنفسه وقال : «هذا ما صنع بأخيه ! وطاعت له الرعايا ! فكيف بمن هو عبد من عبيده ؟» . وأحسَّ ذلك في نفسه ابن تاقْنَوْت ، صاحب مدينتنا 298 ؛ وكان امرءَ سوءٍ ، كثير الطغيان ، بعيدا من الخير ، مؤْثرًا للشرِّ ، وكان له أخ بحصن جَرِيشة 299 ، قد سوَّغه أيضا سماجة إقليم نيمَش 300 كلَّه ، وطال مكثُه في الحصن سبعة أعوام ؛ فسوَّلتْ له نفسُه مثلَ ما أضْمَر كبَّاب من النفاق ؛ فتعاقدا جميعًا وتحالفا أن لا ينعزل أحدهما إلاَّ بعزلة الآخر .

فشعرت للأمر ، فأوَّل ما ابتدأْتُ به النَّظَر في أمر ابن تاقْنَوْت ، إذ كان أهمَّ علينا من أجل مدينتنا التي كانت بيده ، وجريشة بيد أخيه . ورأيت معاقدة المعتمد عليه آكدَ ، إذ علمت من حنقه على كبَّاب أنَّه لا يقبل له معذرة . فعاملني على ذلك أيضًا بأحسن معاملة ، وتسرَّح بعسكره قُوَّةً إن احتيج إليه لحرب جريشة ، وشارك غاية المشاركة في التوسط بيننا وبينه ؛ وأرسل إليه رسوله ، يقول له : «إن كنتَ جزعتَ من رئيسك ، فاتركْ حصنه ! وأضمن لك عنه الحال الصالحة والأمان والاحسان ، وإن كنتَ لا تثق بهذا كلِّه ، فانزلْ إليَّ بعد أن أعطيك عهد الله وميثاقه ألاَّ أُسلِمَك إليه أبدًا !» . فما كان جوابه إلاَّ أن قال «وما تصنعون بالحصن ؟» . قال : «أصيِّره إلى صاحبه !» . فأبى وقال : «إنما أريد أن أجعل المعقل بيد من يذيقُه الشرَّ ويتولَّى فِتنته !» .

فأتاني ابن * 40 (ب) الأصْبَحِّي 301 رسول المعتمد ، المتوسط لخبره ؛ فقال لي : «اعزمْ على منازلة الرجل ! فليس فيه إلى الخير طريقٌ ؛ وهو متأهبٌ للشَّر ، لا يُقنعه إلاَّ الإضرار بك !» وكان في هذا كلِّه يقطع السُّبُلَ ، ويخيف الناس ، ويقتل أهل الرِفقَ(37) ، ويطلع أموالهم إلى الحصن ، ما كان اشهر في الناس من الشمس ، حتى لاَ يتجرَّأ أحدٌ أن يجتاز بشيءٍ من تلك الجهات .

فاستخرتُ الله على منازلته ، ومكثتُ عليه ستة أشهر ، لا نبالي عمَّا ننفق عليه من الأموال ، إلى أن رقَّتْ حاله ؛ وأنا في هذا كلِّه أُقدِّم إليه وأبلي العذر عنده ،

(36) م : كباب .
(37) الرِفَق : القوافل ، جماعة المسافرين .

وأخوه في ثقافي . وأمرتُ أخاه بأن : «اكتبْ إليه أنيّ متى أخذته على غير عهد ، برَّحت[38] بقتله ؛ وإن كان نزل على الأمان قبل أخذه ، ولو بساعة ، لم يتوقع مني شيئًا !» . فوالله ! ما تَرِدُ عليه هذه الكُتُب إلاَّ ويزداد طغيانًا وشتمًا وحماقة ، حتى يَسَّرَ الله أخْذَهُ ، ودُخِلَ الحصن ، وكفى الله شرَّهم ، وطهَّرهم من البلاد ، وأراح منهم العباد .

وشاورتُ كبار البلدة وفقهاءها في خبرهم ؛ فخيَّروني في الذي حضَّ الله عليه من قوله تعالى[39] : ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ الآية . فرأيتهم مستوجبين للصَّلْب ، وأنهم أدهى وأمرُّ من أن يُنفَوْا من الأرض . فإنَّ شرَّهم لا يؤْمَن . وكثيرًا مَّا كان المسلمون مرتَقِبين لما حلَّ بهم ! . وَوالله ! ما صرفتُ وجهي لأحدٍ خاصَّةً وعامَّةً من أهل بلادي إلاَّ ووصف لي من أفعالهم القبيحة ما وتروا بها جميعَ الناس . ولقد كان قتلُهم للناس عيدًا كبيرًا[40] من سرورهم وابتهاجهم بالراحة من شرهم .

وإنَّ كبَّاب بن تَميت المذكور ، لمَّا رأى ما صُنع ببني تاقْنَوْت ، زاده ذلك حماقة واستيحاشًا ، وخاطب المعتمد على ماقدمنا ذكره . فأرسلنا إليه نعرض عليه التَّخلي عن المعقلين ؛ فأبى ذلك ، وأعدَّ ، واستعدَّ بآلة الحرب ، وضمَّ الحرَّاسة وأخاف السُّبُل ، وقطع * 41(ا) الطُّرق وأتى بما هو مشهور من شرِّه . فاستخرتُ الله[41] على منازلته ، وأمرتُ بضمِّ الأجناد واجتماع الأنداب لقتاله ؛ فكان ذلك على أتمِّ ما يمكن . ولمَّا أحسَّ من نفسه بالضعف ، وأنَّه لا ملجأ له ولا مَهربَ إلى أحدٍ بقلَّة إقبال السلاطين عليه ، ترامى علينا ، وسأل العفوَ ، خوفًا أن يحلَّ به ما حل ببني تَاقْنَوَت إذ لم يقبلوا الأمان قبل الغلبة ؛ فأعطيته من العفو ما سألَ ، ليكون ذلك قدوة لمن سأل منَّا العفو بعد الاساءَة ، فلا ييأس من فعلها ، إن دفعنا إلى مثلها بعدها ؛ وكانت الأولى عِظةً وشُغْفةًلمن نفر ، ولم يقبل الأمان ، وتمادى على الطغيان .

وكنَّا لا نقدِّم شيئًا ولا نؤخره من هذه الأمور إلاَّ بعد رويَّةٍ وفكرةٍفي العاقبة ، وندع مشورة الناس ؛ فإنَّا بلونا منهم قلَّة التحقيق ، والنطقَ على الهوى : فإمَّا مَفتونٌ بأمْرٍ يُزيِّنه ويحمل عليه ، وإما كاره لخيرٍ أو مطالبٌ لأحدٍ ، فيجعلنا نحيد عن ما لا يطابق هواه ، ﴿ولو اتَّبع الحقُّ أهوآءهم ، لفسدت السموات والأرض﴾[42] .

(38) برَّحت : ناديت .
(39) المائدة : 33 .
(40) م : عيد كبير .
(41) استخرت الله : طلبت من الله ان يختار لي ما يوافقني .
(42) المؤمنون : 71 .

فلمّا بلونا من الناس هذه الشمائل ، وأنَّ كلَّ أحدٍ يحبُّ أن تجري الأحكام على اختياره ، رجَعنَا إلى إيثار اختيارنا ، إذ كان نظرنا لأنفسنا أرشد من نظر غيرنا ؛ «وما حكَّ ظهرَكَ مثلُ ظفرك 302 !».

وكنَّا مع هذا نُصغي إلى قول الناس بالأُذُن ، لا بالعقل ؛ فنقيس عليه ونختبر مراده ، ولا نريه الخلاف ، فنوحشه ، غيرَ أنّي أُوسع لهم صدري ويسع جهلَهم حلمي ، وأقضي بعد ذلك ما أريد ، إذ لم أكن على أمرٍ مجبورا ولا مقهورًا ، إلاَّ ماقهرتني عليه السياسة ، وما تحمد له العاقبة ، كمن يتجرَّع الدواء لِبُرْءِ الداء ، ولم أكن أغتبنُ لأحدٍ في الحقِّ عن جهالةولا غفلة ، إلاَّ أن تكون مسامحةً وتَغافلاً لأمرٍ يراد ، أو متابعةً للقول في حينه تلطُّفًا وقلّة خلافٍ على قائله ؛ ثمَّ أصرفه تارات . *41(ب) فالجاهل عندنا من إذا أشارَ برأيٍ ، ثمَّ رأى أنه صُنع ضدُّه ، أن يعاودَ القول فيه : فإن كان فطن فمن العيِّ التكرار ؛ وإن كان لم يعلم ، فالتذكيرُ به غفلةٌ منه أو استنقاصٌ لمخدومه ؛ اللّهُمَّ إنه لم يسمع منه الأولى ، فتحرى عن الأخرى ؛ ولعلَّ خلاف الرئيس عليه لأمرٍ قد ظهر له ، وخفي عن القائل ، ولم يُرِدْ اطلاَعه عليه ؛ فيكون في رأيه البركة والخير للفريقين ؛ وهو يلوم على ما لا يعلم أصله ويتمادى جهالةً ، وينطق هَذَرًا ، وتنحرف نيَّته على غير معنىً ؛ فيكون ظالما لنفسه .

فأوسعْنا كبَّابًا حلمًا ، وأمَّنَّاه ، وبقي في جملة الجند تحت إحسان وإجمال ، غير أني لم أستعمله بعدها في معقلٍ ، ولا مكَّنتُهُ من صَخرةٍ ، إذ «لا يلدغ مؤمن من جحر مرتين303 .

الفصل السابع
قدوم المرابطين إلى الأندلس

مقدّمات تدخل المرابطين في شؤون الأندلس

وبقيت أحوالنا على أفضل ما يمكن ، وبلغنا من آمالنا غايتها ، إلى أن حدث أمر المرابطين 304 – أعزَّهم الله – . وكنّا[1] رأينا كَلَبَ النصراني على الجزيرة 305 وأخذَه طليطُلة ، وقلَّةَ رفقه ، بعدما كان يقنع منا بالجزية وصار يروم أخذ القواعد ، وأنَّ أخذه لطليطلة للضعف المتوالي عليها عاما بعد عام ؛ وكذلك كان من شأنه في أخذ البلاد ، إذ كان مذهبه ألاّ ينازل مَعقِلاً ، ولا يفسد أجناده على مدينة ، لبعد مرامها ومن فيها من مخالفي ملَّته ، وإنما كان يأخذ منها الجزية عامًا بعد عام ، ويعنِّف عليها بما شاء من أصناف التحدِّي ، إلى أن تضعف وتلقي بيدها كما فعلت 306 .

فوقع من ذلك في الأندلس رجَّةٌ عظيمةٌ ، وأُشرب أهلها خوفا وقطع رجاء من استيطانها 307 . وجرت بين المعتمد والأُفُونْش مخالفاتٌ كثيرةٌ ، وسأله أن يتخلى له معاقل[2] كان الموت عنده أولى من إعطائها 308 . فوجست نفسه منه بالجملة ، ورام كسرَه بطوائف المرابطين ، وضربَ بعضهم ببعض 309 للقدَر الذي شاء الله :

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى ... فأكثر ما يجني عليه اجتهاده 310

(1) م : ولما .
(2) م : معاقلا .

* 42 (ا) وقد كان أخونا صاحب مالقة ، للفتنة التي كانت بيننا وبينه ، قد داخلهم قبْلُ يستغيث بهم ، ويرجو الانتقام منَّا بهم ، وأن يدركوه ما فاته من مملكة جدِّه ؛ وظنَّ أنَّه ، عند ظهورهم ، يقسم الأموال بيني وبينه . وكان هذا الخلاف كله من سعادة أمير المسلمين 311 ، ورأى من تشتُّتنا أنهُ لا مشقَّة تكون عليه في أخذ بعضنابعض متى شاء 312 ، فلم يُجبْه الأميرُ إلى شيء ، ولا كان وقتُه ، وهو يُلحُّ عليه بقلَّة الدربة .

إرسال سفارات أندلسية إلى مرَّاكُش
احتلال المرابطين الجزيرة الخضراء

وقد كان رسل المعتمد قبل هذا قد وردت عليه ، تُعلمه أن يتأهب للجهاد 313 ، وتَعِدُه بإخلاء الجزيرة الخضراء ، وأنه لا يصل إلى سبتة إلاَّ ويضعها في يده . فلمَّا وصل متأهِّبًا لذلك ، بمن احتفل به من جيشه ، قدم رُسُلَه إلى المعتمد ، منهم عبدُ الملك القاضي 314 . وابنُ الأحسن 315 ؛ أمسكهم بإشبيلية مُدةً طويلة ؛ وأميرُ المسليمن في ذلك متقلِّقٌ لورودهم ؛ فأرسل معهم من شيوخ إشبيلية من يقول له : «تَرَبَّصْ[3] من سبتة مدة ثلاثين يومًا ، إلى أن نخليَ لك الجزيرة» . فأجابهم إلى هذا ، وسألوا خطَّ يده بالتربُّص .فأُشعر الأمير بذلك ، وقيل له : «لم يجعلك ابن عبَّاد في هذا الالتواء إلا أنَّه يريد أن يرسل إلى ألفوُنش يُعلمه بقدومك ؛ ولعلَّه يتأتَّى[4] له منه ما يرغب ، ويهدِّده بك ، ويسأله أن يعاقده على أن يهبه الجزية أعوامًا . فإن فعل ، استجاش عسكَره[5] إلى الجزيرة ، ومنعك الجواز ، فاسبقْه إليها ! وإن كان النصرانيُّ لا يتأتَّى له ، أرسلَ إليك في الجواز !» .

ولمَّا انفصل الرُّسُلُ عنه بنيَّة التَّربُّص في إخلاء الجزيرة ثلاثين يومًا ،جهَّز عسكرًا مقدَّمًا من نحو خمسمائة[6] فارس ، وأرسلهم في أثرهم ؛ فلم تصل الرُّسلُ إلى الجزيرة آخر النهار إلاَّ والعسكر في أثرهم قد عَدَوْا ونزلوا بدار الصِّناعة 316 . فالتفت القوم إلى خيل قد ضربت محلَّتها[7] ، ولم يُدْرَ متى أقبلتْ ؛ ولم يُصبَحْ لهم إلاَّ وطائفة أخرى بعدها ، يزيدون ويترادفون * 42 (ب) حتى انكمل العسكر كلُّه

(3) تربصْ : أنتظِر .
(4) يتأتى : يتهيأ .
(5) استجاش عسكره : جمعه .
(6) م : خمسن ماية .
(7) ضربت محلتها : عسكرت .

على الجزيرة مع داود بن عائشة 317 ، وأحدقوا حواليها يحرسونها . ونادى داود بالراضي 318 ، وقال له : «وعَدتمونا بالجزيرة ! ونحن لم نأت لأخذ بلدةٍ ولا ضرر بسلطان ! إنّما أتينا للجهاد ! فإما أن تُخليّها من هنا إلى وقت الظُهر من يومنا هذا ، وإلاًّ ، فالذي تقدرُ عليه ، فاصنعْ !» .

وخاطب أميرُ المسلمين ابنَ(8) عباد ، يُعلمه بما صنع ، ويقول له : «كفَيْناكَ مؤنةَ القطائع وإرسالَ الأقوات لأجنادنا كما وَعَدْتَ !» . فأرسلَ المعتمد لابنه الراضي في إخلائها لهم 319 ، وحصل فيها داود . وأتى الأمير إليها ودخلها ناظراً إليها ، ثم انصرف إلى سبتة إلى وقت إقباله . وأمر داود بالتقدم إلى إشبيلية ؛ فاستوفت العساكر على إشبيلية .

وقد كان رُسُلُنا مَضَوْا مع رُسُل المُعْتَمِد إلى أمير المسلمين ، على اتّفاقٍ ضمَّ بَعْضُنا فيه بَعْضًا إلى الحقيقة 320 ، وعاقدْنا أميرَ المسلمين على أن تتّصل الأيدى على غزو الرُّوم بمعونته ، وألاَّ يعرضَ لأحدنا في بلده ، ولا يقبل عليه رعيَّته بمن يروم الفساد عليه 321 .

تجمع جيوش الأندلس برسم الجهاد

وأرسل [أميرُ المسلمين] ، عند حلوله بإشبيليَّة ، عن جميع الرؤَساءِ ؛ فأمَّا ابن صُمادح ، فأبى عليه [وبقيَ] مُتَرَبِّصًا لِيَرَى كَيْفِيَّةَ الأمْر ومَخرَجَهَ مع الرُّوم ؛ واعتذر بكبر السنّ مع الضعف ، وأرسل ابنَه مُعْتَذِرًا 322 . وبادرنا نحن إلى الخروج ، وسُرِرنا بذلك ، وأعددْنا ما استطعنا عليه للجهاد بأموالنا ورجالنا 323 ؛ وقدَّمنا الهديَّةإلى أمير المسلمين ، وأمرنا بضرب الطبل وما يُستعدُّ به للفرح ، عند مخاطبته لنا بدخول الجزيرة . وظننا أن إقباله إلى الأندلس مِنَّةٌ من الله عظمتْ لدينا ، لا سيَّما خاصة من أجل القرابة 324 ، وللذي شاع من خيرهم ، وإقبالهم على طلب الآخرة ، وحكمهم بالحقّ ، فُنعمل أنفسنا وأموالنا في الجهاد معه كلَّ عامٍ : فمن عاش منَّا كان عزيزًا ، تحت ستر وحمايةٍ ، ومن مات كان شهيدًا . والعجب في تلك السفرة من حسن النيَّات ، * 43 (ا) وإخلاصِ الضمائر ، كأنَّ القلوب إنّما جُمعتْ على ذلك .

ولقِينا أميرَ المسلمين في طريقه إلى بَطَلْيُوَسْ بجَرِيشَة 325 ، ورأينا من إكرامه لنا وتحفيه بنا ما زادنا ذلك فيه رغبة ، لو استطعنا أن نمنحه لحومَنا ، فضلاً على

(8) م : لابن .

أموالنا . ولقينا المتوكّل ابن الأفطَس 326 مُحْتفلاً بعسكره : كلٌّ يرغب في الجهاد ، قد أعمل جَهْدَهُ ، ووطَّن على الموت نفسه .

انتصار المسلمين في وقعة الزلاقة

وتَلَوَّمْنَا ببَطَلْيَوْس أيَّامًا ، حتَّى صحَّ عندنا إقبالُ أَلْفُونْش في حفله 327 ، يروم الملاقاة(9) ، ويظنُّ أنه يهزم الجيش لقلّة معرفته به قبل . وساقه القدر إلى أن توغّل في بلاد المسلمين ، وأبعد عن أنظاره ؛ ونحن بإزاء المدينة ، متربّصون(10) : إن كانت لنا ، فبها ونِعْمَتْ ، وإن لم تكن ، كانت وراءَنا(11) حِرزًا ومعقلاً نأوي إليه . وأمير المسلمين يدبر هذا الأمر بحسن رأيه ، ويلتوى ، عسى [أن] تقع الملاقاة بتلك الناحية ، دون أن يُحْوَجَ إلى التوغّل في بلادهم . وهم ، كما دخلوا الأندلس ، ولا يعرفون من لهم أو عليهم ؛ ورَجَا بأن يكون الرُّوميُّ لا يَخْرُجُ إليه أحدٌ ، فينصرفَ طريقه ، ويكفي الله المؤمنين القتال(12) ، إلى أن تُريَهُ الأمور وجوهها . فلا يُسمع إلاَّ الأمير متَرَبِّصًا لالتياث(13) طاف به ، ولولا ذلك ، لكان في أرض النصارى مُدَوِّخًا لها . والنصرانيُّ في هذا كلّه يقرب متعاطيًا(14) لا يعمل حسابَ من يغلب ، إن كانت عليه أن يكون بعيدًا من أنظاره ، فيستأصله السيفُ ؛ ولو لم يكن إلاَّ يأكُلُه الطريق وبعدُ المسافة 328 .

ثمَّ أرسَل ، على يدي بن الأفطس ، إلى أمير المسلمين ، يقول له : «ها أنا قد أقبلتُ أريد ملاقاتك ، وأنت تتربَّص وتختبىء لأصل المدينة 329 !» . فلم يكن بُدٌّ أن ينتقل إليه ، ليكونَ الجيشُ على مقربةٍ منه . وتواعدا اللّقاءَ في يومٍ سمَّيَاهُ 330 . ولم يكن بين المحلّتين إلاَّ نحو ثلاثة أميال ، فاستاغ(15) المسلمون إلى ذلك الوعْد* 43 (ب) ، وحلَّ الناس عن أنفسهم ؛ وكانت خَيْرَةً أن لو رَكِبَت الفِئَتَان ، لم تنفصل إلاَّ عن فَقد الأكثر من عسكر المسلمين ، حسبما تُوجِبُه الموافقَةُ للقتال .

ففجأهم عسكر الرُّوميِّ ، وهم على غير إعداد . وكان مختلساً : إنما له ما ألفى في تلك الساعة ، وألقَى سمَّه في الرَّحْل ؛ ومات منهم خلائقُ ممَّن لم يكن يقدر

(9) الملاقاة : اللقاء للقتال .
(10) م : متربصين .
(11) م : ورانا .
(12) انظر سورة الأحزاب : 25 .
(13) التياث : ضعف بدنّي .
(14) متعاطيا : متكبراً ، متغطرساً .
(15) استاغ : ارتاح .

على نفسه . فلم تقع الصيحة على الجيش وركبوا في طلبهم إلاَّ وهم قد كلُّوا وثقَّلهم السلاح مع بُعد المسافة . فاقتفى المسلمون آثارهم ، وركبوهم بالسَّيْف ؛ ومات من جيشهم خلائق ، وتبَدَّدوا في الطريق ، فمن بين قتيلٍ وميْتٍ مُثَقَّلٍ صريعٍ . ولو أن تلك الوقيعة تكون على إعدادٍ من وقوف الفئتين ومناطحتهما[16] في اللِّقاء ، لفُقِدَ من العسكرين الأكثَر ، كالذي توجبه الرتبة ؛ لكن[17] الله لطيف بعباده[18] ، ولم يُفقَد من المسلمين إلاَّ الأقلّ . وانصرف أمير المسلمين راجعًا إلى إشبيلية على حال سلامة ونصرٍ 331 .

يوسف بن تاشفين يوصي رؤساء الأندلُس بجمع الكلمة

ولما انقضت غزوته تلك ، جمعَنا في مجلسه ، أعني رؤساءَ الأندلس ، وأمَرنا بالاتفاق والائتلاف ، وأن تكون الكلمة واحدة ، وأنَّ النصارى لم تفترِضْنا[19] إلاَّ للذي كان من تَشَتُّتنا واستعانة البعض بهم على البعض . فأجابه الكلُّ أنَّ وصيته مقبولةٌ ، وأنَّ ظهوره ممَّا يجمع الكلَّ على الطاعة والجَرْيِ إلى الحقيقة 332 .

وانتدب إليه ذلك الوقت أخونا صاحبُ مالقَة ، وقال من غير رويَّة : «إنَّ أحوالي قد ضاقت بتعدِّي أخي على بلادي وميراث جدِّي !».يُشير بذلك أن يأخد له الأمير بحقِّه منّا333 . فلمَّا قضى كلامه ، قال له أمير المسلمين : «هَلْ لَقَيْتَ أخَاكَ فِي هَذا المَعْنَى ، وتراميتَ عليه قبل مخاطبتك لي ؟».فلما قال له : «لا !»،ردَّ عليه : «ما ينبغي لنا ذلك إلاَّ برضاه !».ولم يُمْكِّنا في ذلك الحين السكوت لما يلزم من شُكْر الأمير ، و[كانت] فرصةً لِتِبْيان الحجّة ، وإقامة عذرنا ألاَّ ينتسب إلينا بَعدُ نسبهُ * 44 (ا) . فقلتُ له : «إنَّ أميرَ المسلمين لم تكن غايته إلاَّ ما هو بسبيله من الجهاد ؛ وهو لا يرضى أن ينقض ما أحكمه آباؤنا من قسمة ما قسموه من بلادهم بين أبنائهم . وليس منَّا أحدٌ حصل على شيءٍ بقدرته ، إلاَّ بما تهيَّأ له عند الله والآباء من بعده ، مع إجماع المسلمين على الرِّضى بمن تخيَّرُوه . وقد كان الشيخُ جدُّنا – رحمه الله – قد رتَّب ذلك ، ورأى أن مالقة لا غنىً[20] بها من غرناطة ؛ فجعل أمرها مصروفاً إلينا من بعده ، كالذي كانت في حياته . فانقضت من الأمر

(16) م : ومناطحتهم .

(17) م : لاكن .

(18) انظر سورة الشورى : 19

(19) لم تفترصنا : لم تنتهز الفرصة لمهاجمتنا .

(20) م : غنا .

ما أبرم ، وقَطَعْتنا ، وأردتَ الاستبداد على غير حقيقة ولا أصلٍ . ولو رأى جدك في ذلك صلاحًا ، لأعدَّ لك في ذلك عُدَّةً تغنيك عنَّا !.ولمَّا تعدَّيتَ المرة بعد المرة ، سعينا في صرف بعض الحال إلى ما رتَّبها عليه الجدُّ ؛ ولم نبلغ في ذلك الغاية التي تجب بانحياشك ونفارك[21] . وهذا ما وقع ! فإن شاء[22] أمير المسلمين أن يبتديء من جديد ، وينقضَ ما رتَّب الشيخ ، فهو لنا بمنزلته : أَمْرُهُ نافذٌ !.وإن رأى ما فُعل من ذلك سدادًا وصلاحا ، فلأيِّ وجه تكلِّفه ما لا يليق به ؟». فلمَّا تكلَّمتُ بهذا ، وقعتْ مساكتةٌ . وأمر الأمير بانصرافنا ، ولم يُعِدْ في ذلك بَعْدَها مَجْلِسًا إلاَّ في سَفْرة لِيِّيط الملعونة .

وأخذ أمير المسلمين في الانصراف إلى بلاده ، وهو قد اطَّلع عِيانًا وسماعًا من اختلاف كلمتنا مالم يَرَ وجها لبقائنا في الجزيرة . وأنَّسَ الجميعَ ؛ ولم يتربَّصْ في البلاد ألاَّ يوحش سلاَطينها ممَّا يتوقعونه[23] من انحياش رعيَّتهم إليه ؛ فكلٌّ من شكا إليه ذلك الوقت من رعيَّةٍ ، يقول له : «لم نأْتِ لهذا ! والسلاطينُ أعْلَمُ بما يصنعون في بلادهم !» حتى ازداد بذلك مَحبَّةً إلى ما كان عليه في قلوبنا ، وإليه استنامةً وَمَيْلاً 334 . ورجع الكُلُّ إلى وَطَنه .

عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس .
حصار حِصْنِ لِيِّيط .

وبقيت الحال على ذلك : قد أُشرب الروم من تلك الوقيعة خوفًا وانكماشًا 335 . ولم تزل الحال صالحةً إلى سفرة لِيِّيط .

وإن المعتمد بن عبَّاد ، لمَّا رأى من خلاف ابن رشيق عليه ، وأنَّه أراد أن يضع ابنه الراضيَ بمرسيه عوضاً عن[24] الجزيرة ، صار بنفسه إلى أمير المسلمين ، وجاز إليه البحر ، يُريه الطمأنينة ، ويحكم معه * 44 (ب) ما شاء[25] من عملٍ في مُرسية وغيرها . وعظَّم له من شأن لِيِّيط ، وأنه في قلب البلد ، وأن لاراحة للمسلمين إلاَّ بفقده ؛ 336 ؛ وعاقده على أن يأتي إليه بنفسه ورجاله ، لِكَيْ يتهيَّأَ سلاطين الأندلس حربه بعُدَدهم وأجماعهم ؛ فيأْمنون[26] من يُقلعهم عنه .

(21) انحياشك ونفارك : جفاؤك ومعاداتك .
(22) م : شا .
(23) م : يتوقعوه .
(24) م : من .
(25) م : شا .
(26) م : فيأمنوا .

وأتتنا كتبُ الأمير ، يأمرنا عند جوازه ، بالاستعداد للقتال وما شاكل ذلك . وبادرْنا ، رغبة في الجهاد ، ومَحَبَّةً فيه ، وإيثارًا له ؛ وخرجنا إليه ، ولقيناه في حيِّز من بلدنا ، بما يطابق مثله من الهدايا والتُّحف . وأجمْعنا على المسير إلى لِيِّيط 337 .

فنازلناه على أتمِّ ما يمكن من الرجال والعُدَد338 ، كلُّ رئيسٍ يقاتِلُهُ على حسب مجهوده ، وما تبلغ استطاعته وحيلتُه ؛ وهو قد امتلأ برعيَّة الجهة ، كلُّها من النصارى(27) ، وأعدُّوا فيه ما يُحتاج من كل شيء ، فِعْلَ من نظر على سَعَة ؛ وهم في ذلك يهدُّدون بمجيء الفونش ، ويريعون الحيلة بالتنيير(28) كلَّ ليلة ؛ والقتال عليهم كل يوم لا يفتر ، مع البنيان في المواضِع المهمَّة عليهم ، ونصب المجانيق والعرَّادات 339 ، حتى لم يَبْقَ عملٌ يرام به افتراص المعاقل إلاَّ وصُنع 340 . وأتى ابنُ صُمادح بفيلٍ أقامهُ ، وخَرق فيه العادة : أصابَهُ من الحِصْنِ قَبسٌ نارٍ ، فأحْرَقَهُ . وفي كلِّ ذلك لا ينجح عملٌ ، ولا تظهر فيه للمسلمين فُرْصَةٌ ، لما شاء الله من اختلاف الكلمة .

وكانت تلك سفرةً أخرج الله فيها أضغانَ سلاطين الأنْدَلُس . ورعيَّتهم في ذلك يأتون(29) أفواجًا ، شاكين لِمَا وَجَدُوا لمن أُسندوا : فالراضي منهم يلتمس الزيادة ، والساخطُ يرجو الانتقام ؛ وجعلوا في شكاويهم فُقَهَاءَهُمْ وسائِطَ ، يقصدون نحوهم 341 منهم الفقيه ابن القليعي342 ، قد صار خباؤه بتلك المحلة مغنطيسا(30) لكل صادرٍ ووارِدٍ ، يجد بهم السبيل إلى الطلب ، للقدَر الذي قدَّره الله .

ورأى سلاطينُ الأندلس عند ذلك من تحامق رعاياهم عليهم ، وامتناعِهم من مغارم الاقطاع 343 التي كانت عليهم ، مع احتياجهم إلى الإنفاق ، ما قلق به وساء الظن من أجله : * 45 (ا) جيشٌ يكلِّفونه(31) كلَّ عامٍ ، ومُجاملاتٌ تلزم المرابطين كثيرةٌ ؛ ثم رعايا تمتنع من تأديَّة ما تقوم به الحال الموصوفة ؛ فلا حيلة إلاَّ بين صبرٍ يؤدي إلى ملامةٍ توجب عقوبة ، أو امتناع يؤدي إلى استئصالٍ ، كالذي جرى . ونسمع (32) في هذا كلِّه من أهل جهتنا تهدُّدًا وعصيانا أنكرناه ، لا تتمُّ به مملكةٌ ، ولايتهيَّأُ معه قضاء حاجةٍ . ولقد كان القُلَيْعي المذكور في تلك

(27) م : النصرى .
(28) التنيير : التنوير .
(29) م : يأتوا .
(30) م : مغنيطساً .
(31) م : يكلفوه .
(32) م : ويسمع

المحلَّة يخاطب إخوانه بحضرتنا ألاَّ يعطونا شيئًا ، ويعدُهم بما كان ؛ فلمَّا يأتيهم الحفزُ منَّا ، يقعدون(33) بنا ، ونحن أحوج ما كنَّا إليه للانفاق ، لا سيَّما في تلك المحلَّة التي عُدَّتُنا فيها الأقوات إلاَّ بالشراء كلَّ يوم . فدخل علينا من ذلك ضررٌ شنيعٌ .

وطالت تلك المحلَّةُ الملعونة ؛ فكأنَّما(34) مثلقٌ 344 أبان الطَّيبَ من الخبيث ، وكشَف العورات ؛ فلم يَزْدَدْ الرؤساءُ إلاَّ توحشًا ، ولا الرعيَّة إلاّ تسلُّطًا ، ولا الداخلون على مِثْل هذه النصبة إلاَّ طمعًا ؛ وحُقَّ لهم ، مع اختلاف كلمة الرؤَساء ، وهم في أسباب الغَرق : فمن اغترَّ منهم طالب صاحبه ، وهو المطلوب ، وشغله ذلك عما هو بسبيله ، ومن ميَّز ، انفرد ، لم يَجِد مُعينًا حتى توغل في اللجَّة وأخذته الحملة . وكانت مقدمات سوءٍ ، وزمانا على السلاطين(35) عسيرًا ، وَسعْدًا للمرابطين مُقْتَبِلاً .

النزاع بين ابن عبَّاد وبين ابن رشيق

وأتى ابنُ رشيق عند ذلك مفسدا بزعمه لما عقده ابن عباد مع الأمير ؛ وبذَلَ الأموال للمرابطين ، وسارع إلى قضاء الحاجات . واصطنع إلى الأمير سير 345 - أعزَّه الله - وعوَّل عليه ؛ فأكرَمَه الإكرام الشنيع . وألقى ابنُ عبَّاد يده في قرُور 346 ، مُعَوِّلاً عليه في القضيَّة ، وبذل له أموالاً جسيمة ؛ والمُكْثر على كلِّ حال يغلب المُقِلَّ ، وإن شفَّ(36) عليه باليسير . وأُعْطِيَ ابن رشيق الأمان ، وبُولِغَ له في التأنيس ، حتى غرَّه ذلك وانبسط له ؛ وتاه على ابن عباد ، وأظهر معصيته والانحياز منه ، قائما في ذلك بدعوة الأمير ومسندا إليه ، حتى أفضى ذلك به ، إلى أن أمر أن تكون الخطبة بمُرسية على اسم أمير المسلمين دون ابن عباد والمعتمد ، * 45 (ب)في هذا كله ، يَرَى من الأمير ما يغيظه ويُكربُه ويتقطَّع منه حسرات ؛ وحُقَّ له ؛ فلم ينم عن القضيَّة ؛ وأحكمها مع الفقهاء واحتجَّ عليه بأحكام السُّنَّة ؛ وكان ممَّن اصطنع على ذلك ابن القُلَيْعيّ ، وهو يفخر بالأمر عندنا ، ويقول : «سَيَرى ابن رشيق ما يحلّ به ! فقد شووِرْنا في أمره . وإن جُعِلَ لنا مجلسٌ لغيره ؛ فَعَلْنا به مثلَ ذلك !». وكانت هذه الكلمة ممَّا أوحشَتْنا وغيَّرت أنفسنا عليه ، مع تهدُّده تلك السفرة ، وضربه الأمثال ، وحِدَّة معانيه ، واستطالته

(33) م : يقعدوا .
(34) فكأنها ؟
(35) م : المرابطين .
(36) شف : زاد .

بلسانه ؛ وأمير المسلمين لا يشعر بشيء من ذلك ، ولا نقدر نحن نشكو به بلا بيِّنه ولا إقامة بُرهان ، فتكون له الحجة ، ونقع نحنُ في الخزي ، لا سيِّما بما كان يَنتحِل من العلم .

وإن أمير المسلمين ، لما رأى حالَ ابن عباد مع ابن رشيق ، واختلافَ ما بينهما ، أعمل في ذلك عَقْلَه ، ودبَّره برأيه ، وقال : «ما ينبغي لنا مفاسدةُ ابن عبَّاد من أجل ابن رشيق ، لاحتياجنا إليه فيما نحن بسبيله ، ونحن لم نأمن أمرَ الرومي . والأوكد علينا في هذا الوقت مداراةُ ابن عبَّاد ، حتى تُرينَا الأمورُ وجوهَها !» . فتعسَّف على ابن رشيق في الذي أظهر من الخلاف على صاحبه ، وقال له : «ما كان يَجِبُ لك أن تقوم بدعوتي للقيام على رئيسك ، فتوقع بيني وبينه الشحناء !» . وقال في نفسه : لم يفعل ذلك ابن رشيق إيثارًا لي ولا محبة لجهتي أكثر من اضطرامِ النار على صاحبه وإشغاله بي عن نفسه . ولا سيَّما أنَّ معونته للروم بلِيِّيط لم تخْفَ على أحدٍ ؛ يعتقد أن ببقائها يثبُتُ في مُرسية فكان أبدًا يُميرهم ويقوِّيهم بما يعجزون[37] عنه ، إبقَاءً لِرَمقهم ، وخوفًا من الداخلة عليه بفقدهم 347 .

وصحَّ ذلك عند الأمير ، والمُعْتَمِدُ في هذا كلِّه لا ينامُ ، ويستفتي فيه الفقهاء ، لنفاقه بعد دخوله في البيعة له أوَّلَ أخْذِهِ لِمُرْسية . فاتَّفَقَتْ عليه الأسباب ، وصُنع له مجلسٌ أفتوْا فيه بإزاحته عن المسلمين ، وإسلامه لسلطانه . فاستغاث عند ذلك * 46 (ا) بالأمير ؛ فأجابَهُ : «أنَّه لو كان لك عندي حقٌّ ، لَوَهبتُهُ لك ، غيرَ أنها أحكام السُّنَّة ، لا أستطيعُ على إزاحتها عن مراتبها !» 348 . وأمر بتثْقيفه وإسلامه إلى المعتمد . وقُيِّد في الحديد ، ورأى هوانًا عظيمًا . وأمَرَ المعتمد الراضيَ ابنه أن ينزل في محلّته على المقام ؛ وكأنَّه لم يكن بالأمس . وأرسل الأمير إلى أهل مرسية يأمُرهم بالرجوع إلى صاحبهم والطاعة له ؛ فخالف كلُّ من فيها من ابنه وقرابته ، وثقَّفوا مدينتَهم[38] وجَفَوْا كلَّ من مضى إليهم . وامتنعت الحال على ذلك ، بعد وسائط كثيرةٍ تكرَّرت بينهم ؛ فلم يقدر معهم على شيءٍ 349 .

رفع الحصار عن لِيِّيط

وشاخت المحلَّةُ ،وطال مكثُها ، وملَّ الناس إلى أن ورد الخبرُ بقدوم ألفونش إليها ؛ فساءت الظنونُ من أجل ذلك . ورأى أميرُ المسلمين أنَّ الرجوع عنها

(37) م : يعجروا .

(38) ثقفوا مدينتهم : عززوا وسائل دفاعها .

والانصراف أوْلَى ، لطول مكْثِ الناس وفشلهم ، مع جمام[39] القادمين من الرُّوم ومع خلاف مُرسيَّة 350 ، لئلاَّ يسندوا إلى ميرها ومرافِقِها إذ إنهم أرسلوا عن ألفونش وقت خلافهم ، فأخذ في الانصراف 351 .

ووقعت بين المُعْتَمِدْ والمُعْتَصِم ، صاحب المريَّة ، مشاجراتٌ وتباعاتٌ 352 باردة في معاقل من نظر الجبل وفي أمرٍ شربة 353 ، ما وقع فيه الشكوَى إلى الأميرِ . وانفصلا على غير موافقة ، كلُّ ذلك من المنحسة المَقْضيَّة عليهما[40] . ومثلُ ذلك جرى لنا مع أخينا صاحب مالقة ؛ وجعل يكرِّر في ذلك النَّظر الذي تكلَّم فيه سفرة بَطَلْيُوس ؛ وحفز في ذلك بزعمه ، وقال لى بقلة دُرْبَتِهِ : «إنما منع من ذلك السَّفرةَ الأولى ذِكري له عند انفصال الأمير ، فلم يُدرك ولا أدركنا ! والآن ، فلابدَّ من ذكره على سَعةٍ ؛ وإلاَّ ، فالحق بيني وبينك !» . فلم نَخَفْ لقوله ، ولا كابرتهُ ، لعِلمي أنَّ الأمير لا يحفل بشيءٍ من هذا كلِّه . ولمَّا رأى أمير المسلمين كثرة طلبه لنا ، أرسل إلينا قروراً ، يقول لنا : «لا يَرِبْكَ شكوى أخيك ؛ فإن السلطان لايسعه أن يقول له : اسكتْ عن طلبك !» ، ولا يعطيه عليك يدًا ، غير أنَّنا نلوي القصة مرحلةً * 46 (ب) بعد مرحلة ، حتَّى يَقَعَ الانفصال» . فشكرته على ذلك . وقال : «إن غرناطة عليه آكدُ من مالقة لاحتياجه إلى الاجتياز عليها في غزاوته ، وما أشبه ذلك من المرافق ؛ فتقدَّمْ أنت الآن ، وأعدَّ جَهدَك ما يجبُ من ضيافة السلطان إذ خطورُه عليك ؛ وهو مارٌّ بك على غرناطة في انصرافه !» . فسرَّني ذلك ، وتقدَّمتُ إلى وادي آش ، وأعدَدْتُ له ما كان جديرًا به .

(39) جمام : كثرة ، وفرة .
(40) م : عليهم .

الفصل الثامن

سياسة الأمير عبد الله بعد عودته من حصار لِيِّط

تشاؤُم عبد الله بعد رجوعه من حصار لِيِّط .

ولمَّا وصلتُ وادي آش ، وقد كان ظهر إليَّ قبلُ في لِيِّط من جفاء[1] قرور وتخويفه لي ، وتهديدي على لسان الأمير ، والأمير عن ذلك غافلٌ ، غير أنني حسبتِ ذلك من قِبَله لما رأيت من مكانته عنده ، فأدركني من ذلك رُعبٌ شديدٌ . وعاينتُ مع هذا ما حلَّ بابن رشيق ، وسمعتُ وعيد القلْيْعيِّ لي ، وجفاءه عليَّ ، وإزالة رقبتي عنه ، ما زادني ذلك جَزَعًا ، لا سيَّما أنَّ الجَزَعَ والسوداء[2] مُتَمَكِنةً من نفسي ، وأجدها في طباعي ؛ كدْتُ أن أموت غمًّا . ولم أر قط قبل ذلك ذلاً ولا كدرًا ؛ فأنكرتِ الأمور كلها مع السلطان ، على حسب ماكان يكرمني سفْرَة بطَلْيوس ، ورأيتُ ضدَّ ذلك كله ؛ وقرورٌ يناصبني العداوة ، ويرسل المشاوَرين 354 إلى هواني ، ويأمرني في حال تلك الحرب بأوامر باردة ، يريد بها إذلالي ، ويُظهر إليَّ فيها التعنيف والتعسُّف .

فلمَّا دخل نظري ، أراد إصلاح ما أفسد معي . فعلمتُ أن ذلك ليس لنيَّةٍ صلُحتْ ، بل لحاجَةٍ عَرَضَتْ ودَفَعَت إليها ضرورة من قبل الاجتياز عليَّ . ولأجلِ ذلك ، قال لي على لسان الأمير في خبر أخي ما قالٍ ؛ وتبيَّن إليَّ أنَه ، لو كان ذلك من عند الأمير ، لم يطلب قرورٌ منِّي عليها رشوةً . فإنه مع ذلك لم يُخلِّني من مؤْنَتها ، وعمل لي حُجَّةً[3] في دفع ضرر أخي عني ، وأخذ مِني عليها ألف

(1) م : جفا .
(2) السوداء : المالنخوليا ، وهو ان تحدث للانسان افكار رديئة ويغلبه الحزن والخوف .
(3) م : حاجة .

دينارٍ مرابطِيَّةً 355 لم أتجرَّأ[4] قط على ذكرها مدَّة حياته ، لئلا يطلبَني عند الأمير ؛ ثُمَّ لم ينفصل ساعة أن انصرف ، وطلب لربيبه[5] خمسمائة دينار[6] ؛ فأعطيتها له ، وكذلك كلَّ ما يطلب بإمرة وتهدُّدٍ ، مع قلَّة رَحمته ورفقه * 47 (ا) وخشونة لفظه . ثم أعطيته في غرناطة ألف دينار أُخرى باسم كسوة خيله . وأمَّا الذي صار إليه في سفرة بَطليوس ومُدَّة كونه على لِيِّيط مع الرسُل ، فأكثر من أن يُحصى ؛ وهو في ذلك كلّه لا يزداد إلاَّ نفاراً واستكبارًا . ومثل هذه الواسطة تُفسد على الرئيس كثيرًا ، وتُبغض إليه جماعةً 356 .

[أرسل فيَّ] أميرُ المسلمين ، وأنا بمكناسة ؛ فسألني عما صار إلى قرورٍ من قِبَلي ، فروَّيت الأمر بأحزم ما يمكن ، وقلتُ في نفسي : «إن أعلمتُه بذلك ، وهو على حال التمكين عنده ، فربَّما أحرجه كتابي عليه . وتقرَّعه به[7] ؛ ثم استقرَّه على مرتبته ؛ فيكون حتفي على يديه ؛ ولو أنى نأمن مكرَه ، لأعلمتُه بالحال ، أو ربَّما يقع الكتابِ إلى يَد قرور من غيرِ تعمُّد ، والغررُ لا يدخله إلاَّ أهوج ؛ وكثيرٌ من الحق يجب تُركه ، [وفيه فائدةٌ] بصاحبه ؛ فلم يسَعْني أن أقول في جوابي للسلطان إنَّه لم يَصِرْ إليَّ [بغير رشوة] ؛ فَيُكَذِّبُنِي ؛ إذ كان يعلم بلا شكٍ أنَّنا لم نخلِّه من ذلك .....الدفع التي أعلمني رسلي . وصحَّ عندي أن قرورًا .....حيث يصدِّقني ، ولا يقع قرور عنده في .....[8]»

بعض المؤامرات وموقف ابن القليعيّ المعادي

[أمَّا أخونا تميم ، صاحب مالقة ،] * 47 (ب) فإنه أرسل إلى القاضى ابنِ سهل 357 خمسين مثقالاً ، يستعطفه على القيام علينا بالحجَّة معه فردَّها إليه ابن سهل المذكور ، وتنزَّه عن ذلك .

وقال لى ابنُ القليعيٍّ : «هذا وقت افتراصك لهذا الرجُل ، بأن تكتب إليه ، وتعده بالقضاء عند انصرافك ، وهو يسمح في قصة أخيك ، على أن تجعلني معه في أحكامه . فإذا ألصقتني به ، رأيتَ عجائب من تأتيِّ الأمور على مرغوبك عند المرابطين وفي بلادك ؛ فإنك ، لوشئتَ أن تأخذ من أحدٍ درهما بغير الناموس[9]

(4) م : أتجرّ .
(5) ربيبه : ابن زوجته .
(6) م : خمس ماية .
(7) تقرَّعه به : أنَّبه وعنَّفه .
(8) خرم نحو نصف صفحة في الأصل .
(9) الناموس : السنَّة ، الشريعة .

لَسَمُجَ عند الناس ؛ وإذا أخذت ألفًا على وجه الحقّ ، حلَّ لك أخذُه ، ولم يستبشعه أحدٌ . ولا أجد أحدًا [ينفع لك] مثل هذا الرجل !» . ولم يبارحْني حتى دفعتُ إليه بخطٍّ يدي رقعةً تتضمن له القضاء ، وما يترتّب له عليه من مسانهة ومشاهرةٍ(10) . ورأيت إجابته إلى ذلك صلاحًا بي وخطأً بأخي ، ولما توجبه السياسةُ لمسايرته ومداراته على تلك الحال . [وكنت أظنُّ أنَّه] قد حرص على الأمر والنهي ، ولا أراه يبتدئُ إلاَّ بي ، مالم .....وفي هذا فسادُ ملكي وخلعي ، ويقدر على ذلك .....(11)

«.....* 48 (ا) وبكَ واثقٌ غير أنك قد جعلتَ لي بقولك هذا من الحرص على هذا المال ما أريد أن تُعلمَني مِمَّن يُقبض !» فإني لا أكاد أن أصدِّقَه ، لاحتياجي إلى مانحن بسبيله من النفقاتِ ، وإقامةِ هذا الجيش كل عام .

فجعل يُسَمِّي لي أقواما لا يعشُرهم في الخير والفضل ، وقدَّم ذكرَ صاحب الأحباس ابن سَلمون 358 ، وتسبَّب إليه برسم الأحباس ، ممَّن لم يُنَلَ منهم إلاَّ الطاعة والنصيحة . فقلت في نفسي : «الله أكبر ! ما قَصدَ هذا إلاَّ إلى هذه الحاشية لنا ولآبائنا ، إلاَّ وهو يريد إفرادنا دونهم ، ليتمكَّن بما شاء ، ولا نجد صديقا نستريح إليه ، مع ما تبيَّن من نفسه ، وحدَّة مقاطعه ، وأغراضه القاتلة» .

والعَيْنُ تُبْصِرُ فِي عَيْنَيْ مُحَدِّثِها إن كانَ مِنْ حِزْبِهَا أو مِنْ أعَادِيها 359

وجعل يطلب بني السُنيْذي 360 والكَتَبَة وغيرَهم ممَّن قد اصطنعناه [ونأمن] أمانته ؛ ثمَّ قال لي : «كلُّ ما رأيت من السلطان في ليِّط .....كان متفلتًا أن يجعل لك مجلسًا ولغيرك تست .... وأنت على سعةٍ ، وأفعل شيئًاتبطل به حجَّتُهُ [عليك] .....(12) .

.....* 48 (ب) كنتم عليها من التَّرقُّب والانذار بالعيال نفثة حاقد» . وكان هذا القُلَيْعيُّ مخمولاً في أيَّام الشيخ جدِّنا – رحمه الله – ؛ وكان لا يدعه في المدينة ، ويأمره بسكنى ضَيْعته 361 ، لما كان يرى من شره وقدرته على الدواخل . فلمَّا ظهر أمر المرابطين ، اصطنع إلى مُؤَمَّل 362 وغيره ، ووُسم لي بسمة الخير والقدرة على الكلام ، وأنَّه لاأحد يقدر على استمالة المرابطين على ماهو عليه . فوجَّهتُه رسولاً ، وهو في ذلك يعمل لنفسه ، ويسعى في هلاكي في الباطن ، وينفث بذلك ، على ما صحَّ عندي ، ويقول : «والله ! لأُبلغنَّ حفيدَ باديس الطينةَ

(10) مسانهة ومشاهرة : سنويا وشهريا .
(11) خرم نحو نصف صفحة في الأصل .
(12) خرم نحو نصف صفحة في الأصل .

السوداء ، ولأشوِّقنَّه إلى درهم ينُفقه ، [وذلك] على صنيع جدِّه بي وبغيري !» .

وأخبرني عنه أبو بكرٍ بن مُسكّنٍ 363 أنه [كان كتب] إلى أمير المسلمين في في أوّلِ سفره معه ، ولقي في الطريق خبر دخوله [الأندلس] ، وقال : «هذا على رغم أنوف الفَسقة سلاطين الأندلس !» . فقال أبو بكرٍ بن مُسكّن : «وتُخلّط معهم سلطانَك ؟» . فقال : «نعم ! وهو المقدَّم إن شاء الله ! .....مات لتنفُذ الاقدار !» . فلمّا أذن الله بانصرافه .....تكلّم ابن سهل إلى الأمير وقال له : «أنت على .....(13)

«..... » 49 (أ) نحن بحال لا يرضى عنّا فيه لا رعيّةٌ ولا جندٌ ؛ وفي هذا الفساد والقطع ، فقال لى القُلَيْعيُّ : «إن تَعَنَّ عليك الجندُ ، استنجدتَ من العُدوة من يُغنيك عنهم . ودعني ورأيي بعد إشراكي مع ابن سهل ، ولا عليك من حيث يقوم لك المال !» .

فرأيت أمرًا معمًّى ومستأثرًا به دوني ، مع ما كان ينطق به لسانه أبدًا من الوعيد ، والتهديد عند أصدقائه ومن ينقل ذلك إليَّ عنه أنَّه يقول : «والله لأبلغنَّ من حفيد باديس ما كان يبلغ جدُّه منّي ومن غيري !» . يسرح بذلك لقلة تحفُّظه وإرساله لسانه ، ولاحتقاره لنا واحتياجنا إليه . فزاد ذلك الجندَ قَلقًا ، وهمُّوا(14) بالانتقال مجتمعين على ذلك .

فلمّا بصرتُ هذه الحالة ، قلتُ في نفسي : «أنا بسبيلٍ ، إن استفسدتُ إلى الجند ، وهم جناحاي ، بقيتُ وحدى مع من يَروم خلعي . فالأوْلى على كلّ حالٍ اطبّاؤهم(15) ، واستصلاحُ ما فسد من أنفسهم ؛ وإسخاط القليعيّ وحده واجبٌ في رضى(16) عامَّة عبيدي وأجنادي» . فجمعتُهم بمحضره ، وأعلمتهم أني راجعٌ عن ذلك المذهب ، ورادٌّ عليهم إنزالاتهم 364 . فقام الكل على القُلَيْعيّ ، وهمُّوا باختطافه من بين يديَّ لولا إمساكي لهم ، وخشيتُ مع هذا عليه أن يقتلوه ، فتكون شهرة وعقوقا ، وينجرُّ الأمر إلى غير المحمود . فقلت لهم : «أنا أكفيكم أمره !» . وأمرتُ بثقافه على أجمل الوجوه في بيتٍ يقرب من القصر ؛ وكان تحت برٍ وإكرامٍ ، وأنا في ذلك أعتذرِ إليه من قيام العامَّة ، وأعِدُه بالانطلاق عند إطفاء هذه النائرة(17) ، كالذي صَنعْتَ .

(13) خرم نحو نصف صفحة في الأصل .
(14) م : وهمّو .
(15) م : اطبآهم .
(16) م : رضا .
(17) م : عند اطفا هذه النايرة .

فلمَّا توطدت الأحوال وقرَّت قرارَها ، أمرتُ بإخراجه ، وأنهيتُ إليه أن يكفَّ لسانه ، وَيَدَعَ فضول القول والعمل إلاَّ فيما يعنيه ويُشاكل طريقته . فقال لي : «نعم ! أنا ألتزم الروابط 365 ، وأسلك سبيل العافية إن شاء الله !» . فلم يكن إلاَّ أن انطلق ، وطار * 49 (ب) إلى أمير المسلمين بالشكوى ، وزاد في الطين بلَّة . فقال لي الجند : «لو أنَّك أمسكتَه ، لم يهيِّجْ عليك النار ! وستذمُّ عاقبةَ انطلاقه !» . 366

سيرة الجند مع الأمير
تشييد الحصون

وأرانى جميعُ الجند من التأتّي(18) والانقياد والمناصحة ماحسبتُ أنهم يقاتلون عنّي الدجَّال(19) . فسُررت بهذه الحالة ، واطمأننت إليها ، وقلت : «هؤلاء أمَّة لا يرون بي بديلاً لإنصافي لهم ورغد عيشهم معي ، وهم قد رأوا جند العُدوة وأن أقل عبد لهم أغنى من غيرهم ، وأصلح حالةً . فلا يمكن استبدال الأدنى بالأفضل !».ثمَ علِمتُ قياس المغاربة أهل الحصون ، وعلمتُ ماهم فيه من الخير ؛ ولم نظنَّ قطُّ أن أحدهم يبيع أيامي . وإنما وجَستْ نفسي من الرعيَّة لطمعهم في حطِّ المغارم ، وللذي شاع من الزكاة والعشر عن المرابطين 367 . فقلت : «إنَّ بهذه العِقْبان التي على رؤوسها ، لا تجترىء على شيءٍ ! وإذا تثقَّفت المعاقل ، كان أمر الرَّعية يسيرًا . وكم عسى يستطيع الجيش القادم على أن يعُمَّ جميع البلاد ؟ ومحاولةُ معقِلٍ واحد منها يطول ، ويحدث في خلافه أحوالٌ .

فصرفتُ وجه اهتبالي(20) إلى تشييد الحصون وبنيانها ، وإعداد ما يُصلحها لإحصارٍ إن كان .. فلم أدعْ وجهًا من وجوه الحزم إلاَّ وفعلته : من إقامة الاجباب(21) ، وإعداد المطاحن(22) ، وأنواع العدد من التِّراس والنَّبْل والرعادات ، 368 ، وجميع الأقوات ؛ وقلعتُها من القرى ؛ وأعددتُ لكلِّ حصن قوتَه لأزيدَ من العام . وفعلت أكثر من ذلك في المدينة حضْرتي ، ما أستغني عن تحديده لاشتهاره 369 .

(18) التأتي : الطاعة ، اللطف .
(19) الدجال : المسيح الدجال اي الكذاب الذي سيظهر في آخر الزمن .
(20) اهتبالي : اهتمامي وعنايتي .
(21) الجُب : البئر العميقة .
(22) م : المطاحين .

وقلتُ : «ليس في الممكن أن يتعرض أمير المسلمين أحدًا من سلاطين الأندلس إلاّ بعد إبرامه لأمر الروميّ ! ولا بُدَّ عند مُناظَرَتِهِم من فَرَجٍ : إن غلَبَ المرابطُ ، لم يفُتْنا الدخولُ في طاعته ، ولا أسدَيْنا إليه ما تُذمُّ عاقبته أكثر من الاحتياط على بلادنا والمداراة عليها ؛ «فلا الحمارُ سقط ، ولا الزِّقُّ انخرق !» 370 نحن مدركون : لا ينبغي تقديم يدٍ سيِّئةٍ إليهم * 50 (ا) . وإن غلب الرُّوميُّ ، كنا منه على حذرٍ ، قد نَفَعنا ما ابرمناه من هذا البنيان والتشييد ، واتِّخاد العدد ؛ فسيكون بذلك للمسلمين حمايةٌ وانجرارٌ إلى غدٍ ،إذ البنيان من المُرابط لا ينفع» ! 371 . ولذلك أعددْنا المنكَّب : إن تغلّب الرُّوميُّ ، فأكون على البحر متصلا بالمسلمين ، ندافع منها جهدنا ، إلى أن نُضطَرَّ إلى الجواز وطلب السلامة بحشاشة أنفسنا ونُتَفٍ من أموالنا . فشيَّدتُها لذلك ، كالذي شُهر عنَّا 372 .

والجاهل لا يدري ما أول هذا ولا آخره إلا ويخبط [خبط] عشواء(23) : فكلٌّ يتكلَّم على شهوته . ولم نعتقد في أمر المرابطين – يعلمِ الله ذلك – صدَّهم عن جهادٍ ، ولا تظافروا مع أحدٍ عليهم ، ولا أردتُ بهم شيئًا من مساءَةٍ نُسبتْ إلينا ، أكثرَ من أنِّي جزعت الجزع الشديد ممَّا تُقدِّم ذكره من تلك المعاني التي أبصرتُها ، وما جرى على ابن رشيق ، مع هلعي لذلك ، وتمكُّن السوداء منِّي ، وسوء الظنِّ مع معاينه اليقين . فقلت : مادام تلتقي الفئتان ، نخشى حملة السيل على هذه المدينة : فتحصينها أولى ، ولن يضرَّ ذلك فمتى دعاني أميرُ المسلمين إلى إعطاءِعسكرٍ أو مالٍ ، أو ما أشبه ذلك ممَّا يجب من مشاركته وإنجاده ، لم نتأخرْ عنه ، فنقيم على نفسي الحجة ؛ و نجلب إلَيَّ المضرَّة إن فعلتُ غيرَهُ ؛ غيْر أنه ، متى دعاني إلى الخروج إليه بنفسي ، نَعتذر ونَدافع ذلك جهدي 373 . فعسى [أن] يتركني ويقبل عذري ؛ ومتى لم يقبل لي عذْرًا ، نعلم أنه يُريد إخراج أمرى إلى حدود الفعل ؛ فهو إذًا عليَّ متَعسِّفٌ لكلام الأعداءَ والكذب ؛ فلا بُدَّ لي عند ذلك من الاحتياط على مُهجتي والتحصين على نفسي 374 ، ونجعله إذ ذاك كسائر من يريد إخراجي من السلاطين ؛ ولي معه الله ، إذ لم أنو به سوءًا ، ولا وأسيتُ(24) عليه أحدًا ، ولا صدَدْتُه عن جهاده . فبأيِّ شيء يتسبَّب إليَّ إلاَّ إن شاء التذنيبَ مع القدرة ؟ فلا طاقة بذلك * 50 (ب) ، كالذي صَنَعَ إنسانٌ دخل على بعض الملوك ، وقد أعدَّ لكلامه جوابًا ؛ فلما خُرج إلى الثقاف ، سُئل عن إعداده الجواب وزَعمه أنَّ ذلك نافع له ؛ فقال : «لكلِّ كلمةٍ وجدتُ جوابا إلاَّ لقوله : «خُذوُه !»»فلم

(23) م : ويخبط عشوى .
(24) واسيت : أعنتُ .

أدر ما أقول فيها ؛ فوكَّلتُ الأمر إلى الأقدار ! 375» .

وكُنتُ ، أيّامي تلك ، بين الرجاء والخوف ، إلا أنّي واثق بكلّ من معي من رجالي وخَدَمتي أنهم لا يغدرونني . فقويت نفسي لذالك بعض القوة ، مع ما كنت أعددته .

معاقدة عبد الله مع ألبَرْهانش

ولما حان انصرافُنا من لِيّيط ، كلَّمْنا أميرَ المسلمين في عسكرٍ يتركه عندنا بالأندلس ، خوفا من الروميّ أن يَكْلب عليها ، ويَطْلُبَنا بثأرِ تلك السفرة وغيرها ؛ فلا يكون عندنا بمن ندافعُ ؛ فقال : «أصلحوا نياتكم ، تُكْفَوْا(25) عدوَّكم !» ولم يعطنا عسكرًا 376 . فأيقنَّا أن الرُّوميَّ لا يَدَعُنا على هذه الفرصة دون طلبٍ ، كالذي كان . فلم يلبث أن احتفل وأتى طالبًا للمال ، مُتجنّياً على من خالَفَه أن يُفْسدَ بلاده ، وعاقد صاحبَ سرقسطة ومن يليه من الشرق ؛ فدافعوا شرَّه ودفعوا إليه ما سلف له عندهم 377 .

وبلغني الخبر ، وزاد ذلك في غَمّي ، وعلمتُ أني فيه كراكب الأسد 378 : إن أسلمتُ البلد ، ولا عسكر عندي ، هُتِكَ ، ولم ينجبرْ لي فيه دِرهمٌ ، ولم أُعذَرْ مع هذا ، ولا يُقرُّ المطالب بأن يقول عنّي إنّي ضيَّعتُه أو سُقتِ إليه العَدوَّ ، كالذي رأيتُ وسمعتُ قيل عن ابن رشيق – وخسارة بلدي زائدة(26) – ولا نقيم أَوَدًا بذلك لكلّ ما نحاوله من الغزوِ كلَّ عام وضيافاتِ المرابطين ؛ فتجتمع عليَّ الخسارة من وَجْهَيْنِ . وإن واسيتُ القومَ وأصلحتُ على نفسي ، قيل : «قد عاقد الروميَّ !» ويُشنَعُ عليَّ مالم أفعل ، كالذي كان . فلم أنجُ ممَّا توقَّعتُ للقَدر المقضي .

وكان ألْبَرْهَانِش زَعِيمَ جِهَاتِ غَرْنَاطَة وَألْمَرِيَّة ؛ وكان ألفونش قد وكَّله أمرَ الجهتين 51 (ا) * 379 ، من إنفاذ أمره فيها لفسادٍ على من تعذَّر له عنده شيءٌ ، أو لقبض مالٍ وتوسُّطِ ما ينفعه فيها . فأرسل إليَّ أوّلاً عن نفسه ، يُنذر بدخول وادي آش ، وأنّه لا يردُّه عن ذلك إلاَّ الفداء لها . فقلتُ في نفسي : «ومع من أتّق رَأْيَهُ ؟ أيُّ مقدرة بنا على مدافعته ؟ لا عسكر تُرِكَ لنا ندافع به ! فكم يأخذ في هذه النَصْبَة من أسرى المسلمين ! وكم يفسد فيها من الأموال ! ما لا يعشر قيمةَ

(25) م : تكفو .
(26) م : زاهد .

ما يُعْطَى كالذي عهدناه منهم ! اللَّهمَّ لو كان ، ونفَّذَ ذلك ، ويبلغنا عن أَسرى المسلمين عندهم ! أليس من الصلاح إفداؤهم(27) بما عزَّ ؛ فنحن جدراءُ أن نفعل ذلك قبل رحلتهم دون فساد في البلد ! ونحتسب ذلك لله تعالى(28) ، وهو العالم بالضمائر ! فإنًا لو فعلنا ذلك أشرًا وبَطرًا ، وعندنا بمن ندافع ، لكان فيه الحجة علينا !» .

فاجتمع رأينا على إرضائه باليسير ، مع معاقدته ألاَّ يقربَ لنا بلدًا بعد أخذ هذه الدفعة ، فارتبط إلى ذلك . فلما حصلت عنده ، قال : «ها أنا قد صَلُحَ جانبي ! والأَوْكَدُ عليكم أمرُ ألْفونش ، الذي هو على الحركة عليكم وإلى غيركم ؛ فمن أنصفه نجا ، ومن حاد عنه ، سلَّطَني عليه ! إنَّما أنا عبده ، لا بدَّ من إتيان مرغوبه ، والوقوف عند أمره . ولا ينفعكم هذا الذي أعطيتموني إن خالفتموهُ . وليس بنافعٍ إلاَّ فيما يخصُّني دون رئيسي إن حدَّ لي ضدَّه !» . فعلمنا أنَّ قوله حقٌّ يقبله العقل . فقُلنا له : «لا يمكن أن نوجِّه نحن إليه ونبدأه فنوقظه لأَكلنا ؛ ولكن ، متى أرسلَ يأْذن بذلك ، سنعتذر إليه ؛ فعسى [أن] يقبل رغبتنا» . ولم نفتح له بابًا في إعطاء شيءٍ إلاَّ يزيد طمعُه ! أُكثِرُ من تَلوِّي القول ، عسى من هنا إلى ذلك الوقت ، [أن] يأتي عسكرٌ يُكْسَرُ به ؛ فلا يُعبأ بقوله . وإن لم يأْتِ أحدٌ ، لم نكن نقدِّم إليه قبيحًا ، فنشقى عند ذلك .

ودافعْنا الأمرَ عند ألْبرهانش ، وأنه لا سبيل إلى أن نُعطيَه(29) شيئا ، * 51 (ب) واعتذَرنا بالمرابطين وغير ذلك ممَّا لزِمنَا من النفقات عليهم . فسكت عنَّا الخنزيرُ ، وأرسل إلى صاحبه ، كالذي يلزمه من التخدُّم له ، وسأله أن يوجِّه رسولا يطلب جزيته ؛ فإن انصرف دون شيءٍ ، كان هو المنتقم من جهاتنا لذلك .

التزام عبد الله بأداء الجزية لصاحب قشتالة وتبريره ذلك

وتأهَّبَ الفونش إلى الحركة ، وقدَّم رسولَه بين يديْ حركته . فلمَّا صحَّت عندنا ، أتانا منها المقيم المقعدُ ، ولم ندر أينِ الخَيْرة : إن كان في رفض البلد وتركه ليعبث فيه ، أو مداراته بما تيسَّر . ووقعت من ذلك هَيْبَةٌ في الناس ورجةٌ ، حتَّى بلغ من الجزع أنَّنا لم نُصدِّق أن يقبل منَّا المال دون الملازمة لنا ، طالبًا لإحنة(30) لِّييط(31) ومعاقدة المرابطين .

(27) م : افداهم .
(28) م : تعلى .
(29) م : نعطوه .
(30) احنة : حقد ، عداوة .
(31) م : لبيط .

وطمعنا أن يقنع رسوله باليسير ؛ فقال لي : «لم آت عن ذلك كلّه ، إلاّ أن تعطيه ما فاته عندك من جزية ثلاثة أعوام بثلاثين ألفًا 380 ! لا ينقصُ منها شيءٌ ؛ وإلاّ ؛ فها هو مقبلٌ ! والذي تقدر عليه ، فاصنع !» . فروّيتُ الأمر في نفسي ، ورأيت أن التعاطيَ(32) حماقةٌ لا تفيد ، وقلتُ : «إن أخذتُ هذه من الرعيّة ، ضجّت وشكتْ ، ويكون مقدمتُها بمرُّوكُش 381 شاكين ، يقولون : «أخذ أموالنا وأعطاها للنّصارى !» ولكن لهذا الوقت يحتاج الانسانُ ما ادّخر ليصونَ به بلده وعِرْضه . وأنا جدير أن أعطى ذلك من بيت مالي ، بحيث يسلم البلد ، وبحيث تشكر الرعية بمدافعة عدوّها دون تكليفها شيئًا ، ولا تقع الشُنعة !» . ففعلتُ ذلك ، وأرسلت إليه ثلاثين ألفًا ، لم أرزأْ أحدا فيها درهماً .

ورأيت مع ذلك أن أُجدّدَ معه عَقدًا ألا يعترضَ لي بلدًا ، ولا يغدرني بعدها ، خوفا أن يقتلب عليَّ ؛ فأجاب إلى العَقْد . وقلتُ في نفسي : «إذ لا بُدَّ من دفعها ، فبالعَقْد أوْلى . فإن حُوِّجْنا إليه ، وجدناهُ ، لم يضرَّ ؛ وإن استُغني عنه ، كان مكانه سُمْرُ القنا والبيض الرقاق ، إن تدارَكَنا * 52 (ا) الله بعسكرٍ يدفعه ؛ والحرب خُدعةٌ 382 وإذا لم تغلِبْ ، فاخلِبْ 383 .

فأجاب إلى تلك المعاقدة ، حرصا على أخذ المال ، ونحن لا نشكُّ أنّه يغدر ، كالخاطر لنفسه للضّرورة التي لا سبيلٍ إلى سواها . وقال لى عند ذلك رسولهُ : «يقول لك ألفونشُ : «إن كنتَ تريد تخلط مع هذه المعاقدة استعانةً به على شيءٍ من بلادك التي عند ابن عَبّاد ، فهو يجدُّ لك فيها في وجهته هذه .» فأجبتُه : «إنى لا أعين على مسلم أحدًا ! وإنّ الذي دعانى إلى المعاقدة المدافعةُ على بلدي وأهل ملّتي . فإنْ وفّيتم بذلك ، فهو المراد الذي إليه قصَدْنا .» وكان من نيته أن يخلّط الفتنة بيننا وبين ابن عباد ، ليجد بذلك السبيل إلى بلاده ، ويقوى عليها بأموالنا ، ويتسبّب إلى طلبِ كثيرٍ من أموالنا 384 إذ كانت تلك الثلاثون ألفًا على وجه الدَّيْن للمسالمة فقط ، وإنما أراد استئناف عملٍ .

وكان مع هذا لا يثق(33) بقولنا ، ويحسب ذلك منّا خُدعةً . وقلنا له : «إنّا مغرّرون في هذه الفعلة معك ، وستُدركنا تباعاتها عند المرابطين ، ونطالَبُ بذلك !» . فقال ، تسهيلاً لأخذ ماله : «متى أدرككم في ذلك منه طلبٌ ، فعليَّ الذبُّ عن مدينتكم .» فأجبناه : «بل ، هو يرى عذرَنا ؛ وقبولُه وعطفُهُ أرجى(34) عندنا من معونتكم .»

(32) التعاطي : التعنُّت والتكبر .

(33) م : يثيق .

(34) م : أرجا .

فانفصلت الحال على ذلك ، وقال : «لابد له من تدويخ سائر البلاد من نظر ابن عبَّاد وغيره ، إن لم يُعطه !» . فقلتُ : «هذا أمر لا يسألنا الله عنه يوم القيامة ! كلُّ أحدٍ مسؤولٌ عن رعيَّته ! 385 . نحن قد احتلْنا على من قلَّدنا الله أمره ، وفديْنا أرواحهم وأموالهم ! ومن له في بلاده حاجة من سائر السلاطين يُقابل أمركم حسب قدرته ، إن شاء بفداء أو قتالٍ . لا نتكلم نحن في شيءٍ من هذا ، ولا ينبغي لنا ؛ ولا أنتُم واقعون تحت أوامرنا ، فننهاكم عن * 52 (ب) ذلك . ونحن لم نتخلَّصْ من التحصين على ما يخصُّنا إلاَّ بعد كَدٍّ ، وما كدنا ، فشأنكم !وأنا بريءٌ ، لا أغمس في ذلك يدًا ولا لسانًا .»
ولم أجدْ وجها نرجو[35] به بعض الدفاع عن إخواننا المسلمين أكثرَ من مخاطبة المعتمد ، نعلمه بجلية حالنا معهم ، وما ذكروه من إيطاءِ بلاده ، وننذره بذلك ، لكيْ يُقْلع[36] ، ويدَّرعَ الحزم ، ويقدِّمَ للأمر أهبته 386 .

ثمَّ خاطبْنا أميرَ المسلمين ، نقصُّ عليه جميع ما وقع وما دفعت الضَّرورة إليه ، وأنَّ الحاضر أبصر من الغائب ، ولو الحال تقتضي بمطلها ، ولوبمقدار وصول الخطاب بمشورته سلامة للمسلمين ، لم أقدِّمْ شيئًا في ذلك ولا أخَّرته إلاَّ عن رأيه ، كالذي يلزم ؛ غير أن الحفز كان أشدَّ ، فلم أرَ التغرير بالمسلمين ، وإنَّ الانتقام منهم مُدْركٌ بحول الله على يديه . ولم نشك في أن الجواب يَردنا بالشكر على ما نظرناه وسدَّدناه ، لا سيما إذ كان الفداء من عندي ولم أكلِّف فيها مسلما دِرهما . فوردني جوابه مع ما أُملِيَتْ نفسه من الطَّلب لي ، وصُوِّرتْ عنده الأمور على غير حقائقها ، بما زاد في جزعي، يقول : «أمَّا مداهنتك وقولك الباطلِ ، قد علمناهُ ! وسنعلم عن قريبٍ كيف ترضي الرعيَّة ، وما تصنع إذ زعمتَ أنك نظرتَ لها . ولا تسوِّف ، فإنَّ هذا قريب غير بعيد !» .

فلم أقنطْ مع هذا ، وقلتُ ، عند الحقائق وتبيان ما وقع ، على لسان رسولٍ يزيل عن باله كلام الأعادي . وهذا من بَغْي القُلَيْعيِّ وأبي بكر بن مسكّن ، فإنهم لا ينقلون إلا على شهواتهم . وكان أبو بكر بن مسكّن قد بلغ من طغيانه عليَّ وسبِّه لي ، ورجائه[37] في أن يُسهمه أمير المسلمين من البلد ما يكون قِرْني[38] أو أكثر ؛ فإنَّه انتمى إلى بني زيري ، وجعل يهذي بذلك ويفتخر به ، لا يرى لأحدٍ

(35) م : نرجوا .
(36) يقلع : يكثر من تشييد القلاع ، يقيم القلاع .
(37) م : رجاه .
(38) القِرن : الكفء والنظير .

عليه فضلا ، ويسعى في نقض ما نبرم من أحوال الدولة ما لا يتمُّ معه مُلْكٌ ولا أمرٌ . فجعلت الذنبَ فيه سواءً كما في * 53 (ا) القُلَيْعي ، إذ مقالته لا تطفىء ما أشعل القليعيُّ لو أراد الخير ، كما أنَّ تركه لا ينقص ولا يفتر عن ذلك . فجعلتُ الهمَّ فيهما هَمًّا واحدًا .

ولمَّا تشدَّدتُ عليه ، وأمرته بالكف ، أخرق وهرب دون نفيٍ ، ومضى قاصداً إلى المُرابط ، يُغري بي ، ويسعى علَّى ، ويكذب ، ويصوِّر الأمور على غير وجوهها . فتكرَّرتْ مخاطبتي على أمير المسلمين ، نبيِّنُ له جميعَ ما وقع ، ونشكو بما دُهيت به من هؤلاء الفَسقة . وهو ، في ذلك كلّه ، لا يراجعني إلاَّ بالشدَّة ، وقبول قولهم عليَّ . فبقيتُ تلك الأيام على أسوأ حالٍ . لا ندري أين الخَيْرة ، ولا كيف التخلص .

وساء ظن المعتمد بي في دخول النصراني إلى بلاده ، وكفِّه عن بلادنا ؛ واعتقد أنَّ ذلك عن اتفاقٍ . ولو كان عن اتفاق ، لأدَّيتُ عليه مالاً فوق الجزية ! فليس لهم إلاَّ بني الكِرَى(39) غير منطاعين لقول أحد ، ولم يأت عسكر المرابطين إلى إشبيلية إلاَّ والبلد قد أفسد .

واللهُ تعالى يعلم أني ما واسيت في تلك النَصْبة ، ولا يسألني الله عن كلمةٍ طعنتُ فيها على مسلم . فاتفقت الأقاويلُ عند أمير المسلمين بكثرة الطلب ؛ ولو أنّي أُريد ذلك ، والانحياشَ إلى النصارى ، كالذي قيلَ ، لم يصل المرابطون إلى سبتة إلاَّ ومدينة غرناطة مملوءة منهم ؛ وكنتُ أستطيع على ذلك ، وكانت لى في المدَّة برهةٌ وفسحةٌ طويلةٌ ؛ إلاَّ أنَّ الأعمالَ بالنيَّات 387 ، وتلك القالة إنَّما كانت سببًا للذي قُدِّر ؛ ولو ان قضيَّتي تُسْتَوْضَح ، لَوُجد فيها ما لا مطعنَ فيه ، ولا مَقال ولا بيِّنةٌ ، ولا إسرار في مَيْلٍ على مُسْلمٍ ، ولا إدخال داخلةٍ . وكيف يصح هذا قِبَلَنا ، وأوَّلُ سَيْفٍ سُل على الروم إنَّما كان من قِبَلِنا ، وهي الوقيعة المشهورة بالنِيبَل ، 388 ، من طاعتنا ، في حين تطرُّق النصارى(40) إليها على حين غفلةٍ ؛ ووافق ذلك أوَّلَ ظهور المرابطين ووصولَهم سبتَةَ ؛ ووَرَدنا إذ ذاك * 53 (ب) رسول ألْفونش معتذرا من الأمر ؛ فصرفناه عن الطريق ، قطعا له ، وإيثارًا لأمير المسلمين . وعند الله تجتمع الخصوم ! .

(39) بنو الكرى : عسكر مستأجرون ، مرتزقة .

(40) م : النصرى .

الفصل التاسع

السنوات الأخيرة من إمارة عبد الله بن بُلُقِّين

ثورة يهود مدينة اليُسَّانة

ولمَّا كنتُ في تلك الفترة ، بدَتْ أمورٌ وأسبابٌ دَلَّت على ما كان من الانتقال ومقدِّماتٌ آذَنَتْ بالزوال . فأوَّل ذلك نِفاقُ أهل اليُسَّانة 389 لِعَلَّةٍ نذكرها ، وأرقُ سببٍ لم يُؤبه له . وذلك أني لما أمرتُ ببنيان السور المتَّصل بالحمراء 390 ، ودبَّرته على تلك النَّصبة(1) التي أضربتُ عن شرحها لاشتهارها ، هيَّأتِ السعادةُ أن وجد البنَّاؤون في الأساس قُمْقُومًا(2) مملوءًا ذهباً أعلموني به . فلما وقفتُ عليه ألفيْتُ ، فيه ثلاثة آلاف مثقال جعفرية 391 . فاستبشرتُ بها وتفاءلتُ بنجاح الطلبة ، والدنيا تسخر بنا كما سخرتْ بمن كان قبلنا . وقلتُ : «من أساسه يقوم بنيانه !» .

وكانت دار أبي الربيع اليهودي 392 الخازنِ للأموال في دولة جدِّي – رحمه الله – مبنيَّةً على ذلك الأساس ؛ فعلمنا أنه من ماله المدفون . فأتى ابنُ المرَّة متنصِّحًا(3) بالأمرِ ، ويقول : «أرسلوا عن ابنه ، يكشفْ لكم سائر دفائنه» . فخاطبنا عنه ليردَ علينا في بعض الأمر . وكان صهره ابن ميمون 393 ، كنا قد قدَّمناه على يهود اليُسَّانة بوجه الأمانة 394 ، وأسديْنا إليه جميلاً من التنويه به ؛ فاستمال بها أقوامًا من الغرباء ، يصول بهم على أهل ملَّته ؛ وكان خبيثًا ، فأحسَّ بالقصة ، ووجستْ نفسه منها ، واعتذر عن صهره ، وساء لذلك ظنُّه ، وخشي أن يُعذَّب على مال أبيه .

(1) النصبة : الهيئة ، الصورة .
(2) قمقوم : جرَّة ، وعاء من نحاس .
(3) متنصحاً : مكثراً من النُصْح .

ووافق قبل ذلك، عند انصرافنا من لبِّيط، أن فرضْنا على أهل اليُسَّانة ذهباً كثيرًا باسم التَّقوية 395، لم تجر عادتهم به، وحملناهم في ذلك على الصحَّة والانطياع؛ فنفرتْ لذلك أنفسهم. ووجد ابن ميمون المذكور السبيلَ إلى إغرائهم وحملهم على النفاق؛ فأجابوه، ودخلوا في السلاح؛ ونادى فيهم بأن: «جِدُّوا، معشرَ بني إسرائيل، في حماية أموالكم!» وافتضح بذلك ابن ميمون. وسبقت له جناية في قتل * 54 (أ) عاملنا ابن أبي لَوْلا على المُسْتَخْلَص 396 رياسةً وعدوانًا. وامتنعت اليُسَّانةَ بالجملة.

فلما رأيتُ ذلك، لم أجد بُدًّا من مُداراة الأمر. واشترطَ مُؤَمَّلٌ بإصلاحه، ونهض. ثُمَّ إني أعملت رأيي بعده، وعلمتُ أنَّه لا يلقى إلاَّ أحد وجهين: إما طاعة على غشٍّ، أو عصيانًا؛ وأيُّهما كان، فإرسال العسكر إليه واجبٌ، وشدَّةٌ وترهيبٌ، ليعلموا قدر ما جَنَوْه. فخرجتُ بنفسي في إثره، وقد اجتمعتْ إليَّ الأنداب(4). فإذا بمؤمَّل قد أقبل منصرفًا، وردَّنا عن ذلك المذهب، وقال لي: «قد اصلحتُ الأمر مع ابن ميمون. ونهوضك إليه لا يزيد القوم إلاَّ نفارًا(5)، وربما استعانوا بعسكر ابن عباد، ولا سيما أنه الآن بقرطبة، وليست تؤخذ بإحصار ولا قتال!». على أني قد علمتُ أنَّ ابن عبّاد لا يجيبهم في ذلك الوقت كلِّه، ولا اشتهر بذلك إلاَّ ما كان الناس يذكرونه، وابن ميمون يفتخر به ويُطْمع به أهلَ اليُسَّانة 397 فقبلتُ قول مؤَمَّل، وانصرفتُ على مقربة من الحضرة؛ وقلت: «خروجي إلى هنا أو وصولي إليهم سواء! إذا أردنا التهييب، فقد وصلناه!» ثمَّ قلتُ لمؤمَّل: «صف عليَّ ما انفصلت!» فقال: «إنَّ ابن ميمون زعيمها عدَّد أشياء أنكرها من الإرسال في صهره، وهذه الفَرْضة العظيمة، وسائر ذلك من الألقاب اللازمة 398. فضمنتُ لهم الصكوك برفع ذلك عنهم، ولابن ميمون في خاصَّته.» وأمرت بعقدها والإرسال بها. وقرَّت الحال قرارها.

ووجستْ نفسي من ابن ميمون لإظهار الخلاف والإعلان بذلك، وعلمتُ أنَّ هذه هدنةٌ على دَخَنٍ 399، وأن لا طاعة تصح لي معه، وسيؤْثر أمثال هذه. فدبَّت إليّ المداخلة من اليهود المخمولين في زمانه، ووعدتهم بالاحسان؛ وتكرر في الوساطة ابن سيقي، حتى أبرمتُ من ذلك ما أمَّلته. وكان أخذ ابن ميمون يسيرًا، لا عصبة له، وهو غافلٌ. وكان الواسطة أيضًا ابن المَرَّة مع ابي العباس الحكيم. وكان * 54 (ب) ذلك ممَّا نقمه مؤمَّلٌ لانحياشه عن ذلك، إلى أن وردوا

(4) الأنداب: التعزيزات، الحاميات.

(5) انظر سورة فاطر: 42. سورة الاسراء: 41.

الحضرة على عادتهم ، وأمرتُ بثقافه مع ابنه برضاءٍ من الشيوخ ، وأمرتُ أنَّ لا زعيمَ فيهم بعد اليوم إلاَّ الكلُّ مُنهم أمناء منوَّهٌ بهم 400 ؛ فشكروا ورضُوا . وخاطبتُ عامتهم نعلمهم بما لهم في ذلك من الصلاح . وتهدَّنت الأحوال وقرَّت ، إلى أن تلف الكلُّ .

قضيَّة زناتة

وقضية أخرى بعد هذه في أمر زناتة : إنه لمَّا أعملتُ الفكرة في عاقبة الأمر لهذه الفتن(6) العارضة ، رأيت أنَّ الاهتبال بالمعاقل من آكد ما يجب النظر فيه ، كالذي تقدم ذكره من النظر في عُدَدِها وما يُصْلِحها ، وأنَّ الأَوْلى استصلاح ما فسد من نفوس قوَّادها . وذلك أنه لم يكن يلي لنا معقلاً قطُّ غيرُ صنهاجة والوُصْفان والعبيد 401 ، ما خلا زناتة ؛ فإنهم كانوا أجنادَ الحضرة .

وكان الصنف المذكور قد ضعف ، واستولى عليه النقصان لمطالباتٍ جرت عليهم من قِبَل وزراءِ الدولة كاليهوديِّ وغيره ؛ فإنهم كانوا يَروْن ألاَّ ولاية تتهيأ لهم مع صنهاجة لاحتقارهم إياهم وأنَفَتِهم من تولية مثلهم ، فكانوا يميلون إلى الصنف البرَّاني 402 كله . ولمَّا جرى على اليهودي ما جرى منهم ، اعتقدها النابة في نفسه ، وخشي مثل ذلك ، فجعل نفسه في مطالبتهم ، وتبديدهم ، وإنزالهم على الانزالات الضعيفة 403 ؛ ومن كان بيده شيءٌ ، تُسُبِّبَ إليه وأُزيل عن يده . فأدْركهم النقصان والقلَّةُ ، وزاد في زناتة ، وقويت أحوالهم وإنزالاتهم ، على أنهم كانوا على الحقيقة خيرةَ جند الأندلس ، والموثوقَ بهم في الشجاعة والنجدة . وكان الصنف كثيرًا ، لا يعدم ضمَّهم من له مالٌ 404 .

فقلتُ في نفسي : «هؤلاء القوَّادُ الذين على الحصون ، وإذا كانت أنفسهم فاسدةً ، ولا يذكرون معنا على نعمة طائلة ، كيف يُمْسكون المعاقل ، أو بأيِّ قلبٍ يجدُّون معي ؟ وإنه لا عِوض منهم في الثقةِ للحصون * 55 (ا) وإنَّ زناتة هؤلاء المتأصِّلين لا ثقةَ فيهم للمدينة الفوقي ولا للحصون ، أكثر من خدمة الجندية ، لا يعدم منهم أحدٌ . فأنا جديرٌ أن أُشرك من ضعف من صنهاجة بهؤلاء الأقوياء الذين أدركتْهم العناية ويُمسك واحدٌ منهم إنزالَ خمسة فرسان وستَّة . ثمَّ من قنع بما بيده بقيَ ؛ ومن لم يُرِدْ لم نعدم منه العوض !» . ففعلتُ ذلك ، وأشركتُهم . وكان في هذا كله تحريكٌ للَشرِّ والقال .

(6) م : الفتون .

إذا لم يكنْ عـون مـن الله للفتى   فـأكثر ما يجني عليه اجتهاده 405

فلمَّا رأى كبار زناتة ذلك ، قلقوا ، وساءت ظنونهم ؛ فكنت ، متى دعوتهم إلى خدمةٍ ، نجدهم عنها عاجزين : من أُشرِكَ ومن لم يُشرَك ؛ فامتحنتُ على ذلك ؛ فقيل لي : «إنَّ كبارهم يُفسدون(7) صغارهم ! ولو أنَّك تُخرج غوغاءهم(8) من البلدة ، لصلح لك سائرُهم !» .

فأمرتُ بإخراج ثلاثة أنفس ممَّن يُتَّهم منهم . وكان المأمور بذلك لبيبٌ الخصيُّ ، صاحبُ المدينة 406 ذلك الوقت ، وثقناه لتربيتنا له . وكان في المجلس أقوام يحسدهم ويتَّهمهم على نفسه أن ينقلوا(9) طريقته السّيِّئة ؛ فأصاب الفرصة للخراب ، وأرسل من قِبَله إلى أولئك المخرَجين ، وإلى من سواهم من بني عمِّهم ، يقول لهم : «إنَّ الطلب قد وقع فيكم من مجلس السلطان ؛ وأُمرتُ بإخراجكم . فلا توهنوا ، واجتهدوا في التعصب عليه وترويعه ! وأنا معكم ! فإنه ، إذا رأى جماعتكم ، رجع إلى قولكم ! فلم يكن إلا بعد الأمر بساعةٍ ، وإذا بجماعة الجند قد أقبلوا إلى باب المدينة ، يقولون : «إمَّا أن يردَّ شِرْكَتَنا ، وإمَّا فالكل راحلون عنه ، منتقلون إلى غيره ! »وأتى الفاسق لبيبٌ وأصحابه المتفقون معه ، يقيم حُجَّتهم ، ويعضد قولهم ، ويخوِّف منهم . فميَّزتُ الأمر ، وعلمت أن هذه جعجعة لا يُرجع فيها إلاَّ إلى رأيي ؛ فأظهرتُ الشِّدَّة ، وقلتُ : «لست براجع عما أبرمتُ ؛ فتكون نفوس الذين أشركتُ معهم منصرفة * 55 (ب) إلى مثل نفوسهم ! فمن شاء ، فليمرَّ ، ومن شاء فَلْيَبْقَ !» . فلما سمعوا بذلك ، خرج الكلُّ 407 .

ومؤمَّلٌ ، في هذا كلِّه ، على اتفاقٍ مع لبيب ، يدخل في رؤوس الجند ويقولون لهم : «إنَّ هذا من قِبَل غيرنا ؛ ونحن أبرياء !» ويُرونهم الشفقة من الأمر والطعنِ عليَّ . وصحَّ ذلك عندي مع طائفةٍ من شيوخ العبيد أصحاب مُؤَمَّل ، وعملتُ حساب زناتة أنهم لا يَزُولونَ بالكلِّ ، وأن ذلك ترهيبٌ ، وأنَّ الرجوع عما أمرتُ به يُضريهم(10) إلى غير ذلك مما يُخلُّ بالرأي وتكون لهم الصَّوْلة والحماقة في المعصية ، وأن انقيادهم للأمر واستعذارهم بعده أشبه ، وللحجَّة عليهم أعزُّ وأبهى .

فلمَّا كان يومٌ آخر ، خرجتُ بنفسي إلى عرضهم كي لا يُبَطِّنَ عليَّ من تقدَّم ذكره . فأمرت بالبُريح 408 عليهم وإحضار الزمام 409 ، لنعلمَ من صحَّ مُضيُّه

(7) م : يفسد .
(8) غوغتهم .
(9) م : ينقلون .
(10) يضريهم : يعوِّدهم .

وقعوده فوجدت الكلّ مجتمعين ، قد انصرفوا مُتقطِّعين ليلاً ، لم يغِبْ منهم أحد فوق الثلاثة الذين أمرتُ بإخراجهم ، وجعلوا يعتذرون ويتنصّلون . فقلتُ : «الله أكبر ! هذا أشبه وأليق بالمملكة !» . ورأيت مؤمّلا ولبيبًا وغيرَهما[11] قد عزَّتْ[12] عليهم طاعتهم مؤمّلين أن لو كانت طامَّةً لا تُرفع .

والعَينُ تُبصرُ فِي عَينَى مُحدِّثها إنْ كان مِنْ حِزْبها أوْ مِنْ أعاديها 410

انقلاب مؤمل وثورته في لَوْشة

ولمَّا قرَّ أمرهم قراره ، جاء مُؤَمَّلٌ في إثر ذلك يقول : «إن هذا الانطياعَ منهم ليس لرغبة في البقاء معك ! غير أنهم يُدارونك حتى يحصلوا على فائد إنزالاتهم 411 ، ويتزودوا[13] به ! فلا فائد تُنزل عليه غيرهم ، ولا رجالٌ بقوا معك ؟» . وكنت إذ ذاك ناظرًا منه بعين الثِّقة فعمل قوله في نفسي ، وقلتُ : «لا يخلو[14] هذا القول عن وجهين : «إمَّا قد اطَّلع على ذلك منهم ، فهي نصيحة ، أو لم يطَّلع ، فهو بغائلته لا يدعهم ، وسيُدخل هذا في رؤوسهم ، وتكون عليَّ في ذلك الخسارة . وإن احتجتُ إلى العوض ، لم يكن لي على ما ننزله وفي بيت المال الكفاية لما نحن بسبيله * 56 (ا) من النفقات على سائر الأمم !» . فلم يأتني من هذه الكلمة نعاس 412 . وأمرتُ بإخراج كلِّ من في رأسه حماقةٌ . فبلغ عِدَّتهم نحو المائة فارس ؛ فخرجوا عن المدينة ، وتصَفَّتْ ، ولم يَبْقَ فيها إلاَّ من ينطاع لكلِّ أمرٍ .

وعمل في نفسي فعلُ لبيب وشيوخ العبيد ، وصح عندي منهم وفيهم أنَّهم عوَّجوا زناتَةَ ؛ وكانوا أشدَّ عليَّ من كل أحدٍ . وجعل زناتة يذكرون ذلك ، ويقولون وقت اعتذارهم : «لا ذنبَ لنا ! إنما نحن جندٌ ، ولولا ثِقاته وعبيده الذين حملونا على ذلك ، لم نجترمْ[15] عليه !» . وجعلوهم في وقت قيامهم [يمشون] على الأسواق ، ويأمرون الناس بالقيام ، ويقولون لهم : «لم نُدفَع نحن ، إلاَّ وهو يُريد إدخالَ النصارى 413 !» . فلم يلتفت الناسُ إلى قولهم ، إذ لم يَرَوْا ذلك من ثقات الدولة وصنهاجة .

(11) م : وغيره .
(12) م : عزَّ .
(13) م : ويتزودون .
(14) م : يخلوا .
(15) م : نجترموا .

ولمَّا أُخرج زناتة ، أمرتُ بعد ذلك بإخراج اثنين من شيوخ العبيد الذين صحَّ عندي إشعالهم لهذه القضية ، وثقَّفت لبيبًا . فوافق إخراجُهم ومؤمَّلٌ خارج المدينة ، فلحقوا به ، وقالوا له : «قد أخرجنا ! وغدًا بك هكذا ! فانظر لنفسك !» . فخرج معهم من فوره ذلك ، قاصدًا إلى لَوْشة ، مع من اتفق معه مثل ابن البراء الكاتب وغيره .

وكانت هذه تفقةً قديمةً بينهم مع بني مالك 414 عُمَّال لَوْشة ، أنَّه متى دهمهم أمرٌ ، لجؤوا[16] إليها . فنهضوا من فَوْرهم ذلك قاصدين إلى لَوْشة ، ولحقها ليلاً ، ودخل المدينة ، ولم يمنعه أحدٌ لمكانته منَّا ؛ وحسِب القائدُ ومن فيها أنه رسولٌ . فصار في قصَبتها ، وجمع الجندَ والرعيَّة ، وصرخَ فيهم بالبكاء ، وافتعل الكذب ، وقال لهم : «لم أخرجْ من غرناطة إلاَّ كما ترَوْن : «بطوْقي على عُنُقي» ! وتركتُ فيها النصارى قد استحوذوا عليها ؛ وكُشِف عنِّي ! فاثبتوا معي ونوجِّهُ إلى كلِّ سلطان : فمن أجابنا ، اعتضدْنا به !» . وخاطب بذلك حصون الغرب ، يأمرهم بالخلاف ؛ وأرسل إلى زناتة المُخرَجين ، ليكونوا معه مضيِّقين على * 56 (ب) غرناطة . وإنَّ أهل الجهة مع أهل الحصون ، لمَّا سمعوا ذلك ، دبَّروا رأيهم . وأرسلَ كل حصن من كبارهم إلى الحضرة من يطَّلع صورة الأمر ؛ فإن وجد خلاف قوله ، لم يخربوا وجوههم معنا ؛ وإن ألفَوْه حقًا ، نظروا لأنفسهم . فأتَوْني أفواجا مُعَزِّينَ ومهنئين على السلامة من النصارى ، ومستفهمين جليَّةَ الحال . فأخبرتهم بالأمر على وجهه ، ولم يَرَوْا شيئًا ممَّا ذكر مؤَمَّلٌ . فطابتْ أنفسهم ، وعلموا أنه مخالف منافقٌ . فبادر الكلُّ إلى منازلته ، وسألوني عسكر الحضرة .

وكنتُ ، لما صحَّ نفاقُهم بلَوْشة ، قد أبليتُ لهم عُذرًا[17] ، وأرسلتُ إليهم كُتُباً ورسلاً تومِّنهم ممَّا خافوا ، وتحذِّرهم قبيح العاقبة في إيثار الفتنة ، وإني مطلق إليهم أهاليهم ، ويخرجون عن الحصن حيث شاؤوا بأمانٍ ووثائقَ ؛ وهم في هذا كله ، لا يزيدون إلاَّ طغيانا وتهدُّدًا بانين على الشرِّ ، طالبين للثأر بلا ثأر . فلما يئستُ منهم ، مع اتِّفاق الحصون عليهم ، أرسلتُ بالعسكر ، وقوَّدتُ عليهم يوسف ابن حَجَّاج 415 ، سنذكر وجهَ مصاهرته لنا بعد هذا ؛ فنهض ؛ ولم يكن إلاَّ ساعة وصوله ، وجزع من معه بالقصَبة ، وخلَتْ عليهم ؛ ودخلها العسكرُ ، وأُسر فيها هو وكلُّ من معه . وأتانا من ذلك فتحٌ عظيمٌ .

(16) م : لجوا .
(17) ابليتُ لهم عذراً : قدمْتُ لهم عذراً .

وأمرْنا بثقافها وسوقان الأسرى ، وثَقَّفناهم مُستفتين(18) في أمرهم ؛ فأفتت السُّنَّة أنَّ قتلهم غير جائز إذ كان نفارهم جزعًا ، على أنه كانت لهم سَعَةٌ في الأرض غير لَوْشة ، إنما أرادوا الفساد في الأرض ؛ وآخرون يقولون بقتلهم . فآثرتُ الأليق والأبعد من الآثام ، وأنَّ ذلك لا يفوت ؛ ومن أخلاق الكرام التأنّي والعفوُ عند المقدرة 416 . فأوجبت السياسةُ تثقيفهم والشدَّةَ عليهم ، لئلاً تكون طَرْقةً لغيرهم ؛ وهو باب فَتْحُه على الدولة من أضرِّ الأشياء ، فلا غفلة للملك يقظان فيه .

وخاطبوا مدَّة كونهم بلَوْشة ، كلَّ رئيسٍ بالأندلس ، حتَّى صاحبَ مالقة . فلم يُجِبْهُم * 57 (ا) أحدٌ . فلمَّا يئس مؤمَّلٌ منهم ، أرسل إلى أمير المسلمين ، يُزوِّر عنده الأمر كلَّه ، ويكذب ، ويقول له : «لم نؤتَ إلاَّ من إنكارى أمرَ النصارى ، والقيام بدعوتك» 417 ، حجَّةً لا تقوم على ساق . وكان العسكر إليها مقبلاً مع نعمان ؛ فانصرف لمَّا علم بأخذها .

وصف الثائر نُعمان وسيرته ضدَّ عبد الله

وكان نعمان المذكور ممَّن فعلنا معه جميلاً ، وأحسنَّا إليه لحرمة القرابة والانقطاع إلينا من المرابطين ؛ وزال عنا بعد إعماله الدواخل علينا في حصوننا الغربية ، وعقده مع أهلها أن يصيروا في طاعة المرابطين متى دُعُوا . وكان له بتلك الجهة إنزالٌ ؛ فتمكَّن من القرب والعمل بذلك ، وخرج عنَّا بِسَراحٍ(19) ادَّعى من أجله أنَّ له بالعُدوة ميراثًا ومالاً يُريد اقتضاءه ؛ فأبحْنا له النهوض ؛ وإذا به يسعى علينا . وقال للأمير : «نُفيتُ من البلد من أجل نصيحتي لك ومحبَّتي في دولتك !» ، أمرٌ لم يكن منه حرفٌ ، حتى إنَّ أطواقي ، إن تكلَّمتُ ، لسعتْ عليَّ ، للقدر الذي شاءه الله ، عسى لعاقبةٍ محمودة إن شاء الله .

فعملتْ هذه المعاني كلُّها في نفس أمير المسلمين ، مع ما صوَّرْتُ عنده بكثرة الأموال المكذوب عليها والمنتفقة في طاعته والجهاد معه لو بقيت الحال 418 .

مسألة زواج الأميرتين أختيْ عبد الله

وإنَّا(20) في تلك الفترة ، رأينا من الصلاح النظرَ لمن معنا من البنات وتزويجهنَّ قبل أن يفجأ أمرٌ ، فيكنَّ على غير عصمةٍ ولا كفيلٍ . فتخيَّرنا لهما من بنى عمهما

(18) م : مثبَّتين ؟

(19) سراح : اذن بالرحيل .

(20) م : وان .

شاكلةً ، منهم مَعَدُّ بن يعلى ، للذي كان عليه من النجابة والعقلِ والمحبَّة ؛ فصدَّنا عن ذلك أهل دولتنا ، وقالوا نصيحةً وحَسَدًا : «إن أنتَ تصاهرتَ إلى بني عمك ، حَمَلْتهم دالة القرابة مع المصاهرة على الظهور عليك ، وفساد حالك بصلاحهم . فإياك ! وعليك بمن هو دون قيمتك ؛ فيراعي إحسانك ، ويرى هذا منك كثيرًا ، ويرى عياله بعين مولاه ؛ وإن هو تحرَّك إلى شيءٍ ، قعدت به دقة شأنه ؛ فلا أتباع يهاودونه[21] .» فقبلنا ذلك حذرًا * 57 (ب) على الدولة ، وقلنا : «من صلح من قرابتنا ، ندرك فعل الخير فيه دون مصاهرة تُطغيه !» .

وكان من بعض خدَمتنا من حضَّنا على يوسف بن حجاج ، لعلمه بأخلاقه مدَّة صحبته ؛ ووصفه بصفات ظاهرها يشبه المشاكلة . وذلك أنَّه قال : «في الرجل انقباضٌ واستيحاشٌ من الناس ؛ وبذلك تأمن من إجماعه عليك ؛ وفيه شحٌّ كثيرٌ ، لا يُخرج خيرَه من منزله ؛ وفيه غَيْرة شديدة توافق معاشرة العيال ؛ وبه حرجٌ ونزقٌ ، لا تصح[22] به ولاية ؛ وهو من نقصان البيان وعيِّ اللسان ما لا يطّبي بذلك الناس لتألب ، إن شاءه عليك ، ولا نقض لفعالك أو مقالك ، والرجل من أوساط الناس وممَّن لا ينتمي إلى ملكٍ ، ولا تحدِّثُه نفسُه بما لا أصل له فيه . فهو بين يديك كالكمأة التي إن شِئْتَ قَلَعْتَها ، لم تتعذَّر عليك من أصلها ، أو كالصمغة ، وإن شئت فرَّغتَها ، ظهرت ؛ وكانت لك المنَّة والخيار ! والآخر هو تربيتك ونشأتك ، وابن وزير جدِّك ، وله من بعد الهمَّة وكرم النفس وحسن السمت والوقار على حال الحداثة ما ترجى بركته ، وليس بمعتد قدره . وإن أنهضته إلى أمرٍ ، جدَّ فيه وأنت آمن من سوء العاقبة ، وإنما هو بمنزلة من أنهض ابنَه إلى درجة تُقرُّ عينَه . والأَوْلى أن يدعوك صهرك «مَولاي»[23] ، من أن يكون لك مِثلاً ؛ فتشقى انت ونحن ، إذ الغمد لا يحتمل سيفين 419 ولا ندري مَنْ السلطان فيكم ، إلاَّ من ارتضيتَه وقدَّمْته .» فعقدت لهما النكاح على أتم ما يمكن ، واستعددت[24] في سائر أمرى بالأحزم ، ووكَّلت ذلك إلى الأقدار ، وقلت : «هذا جهد الاستطاعة ؛ ودون جُهدك لا تلام . ولله أن يقضي بما شاء !» .

ولمَّا صار ولد حجَّاج بتلك المنزلة ، شرهتْ نفسه إلى وزارة الدَّولة ، مَقْطعُ من لم يميِّز المذهب . ولم نكنٍ بعد وزارة سماجة نستعمل لذلك أحدًا . فكأنه وقع في نفسه التقصير به ، جهالةَ الانسان * 58 (ا) بقدره له مُهلكةٍ ، وتركه صيانة قدره له فاضحَةٍ .

(21) يهاودونه : يميلون اليه .
(22) م : يصح .
(23) م : مولى .
(24) م : واستعدت .

وكان أهل دولتنا على مذهب جهالة في هذه الأمور : إنَّ كل أحدٍ منهم يريد أن يعمل برأيه ، وأن تجري االأمور على هواه ؛ فإن لم يتَّفق ذلك له ، صار في حيِّز الأعداء ؛ ولو كان على مرغوبهم ، ما اتفق لرئيسٍ عملٌ ، ولا تمَّ له شيءٌ . وكانوا قبل أيامنا قد شغلهم الخوف من صولة رؤسائهم : ما كانوا يَرَوْن السلامة غنيمةً . ولمَّا تمَّ لهم في أيامنا الأمن ، وأنسيتهم ما مضى ، أدركهم الأَشَرُ والبطر ، إلى أن تطمح أنفسهم لغير ذلك . وكنَّا نحن نظنُّ أن بالأمن نسلم من اللأئمة والعداوة 420 ، وخاننا القياس ؛ وكذلك العاقل المتحرز لا يجب له أن يظنَّ بالناس ظنَّه بنفسه ، ولا يعمل حسابه وحده . فليس كلُّ الناس على مذهبك ، ولا هواه مطابقٌ لهواك ! ولا محالة أنَّ باختلاف الأهواء تقع العداوات ، وباتفاقها المصاحبة وحسنُ المعاشرة . وأصدق الناس لك من يكابد معك ، ودهاه مثلُ الذي دهاك ، وإن كان من الأباعد ؛ فلا تستريح إلاَّ إليه ؛ ولا تشكُ همَّك مع من لم يَعْنه ما عناك : فإما ساهٍ عن حديثك ، قد اكثرتَ عليه ، وإمَّا مخالف لمذهبك ، قد استهدفتَ إلى عداوته ، وأحدثتَ في نفسه ما كنتَ غنيًّا عنه . هذا طبع البشرية . فلا تسمعْ ممَّن يريك التحقيق بكلامه ؛ فإن الحقَّ ثقيلٌ على النفوس ، والباطلَ إليها أسرع ، وعليها أخفُّ . ولمَّا علم الشيطان جِيَلَ[25] الانسان ، لمجراه منه بمنزلة الدم 421 ، أتاه مِن قِبَلِ هواه . ولا سبيل أن تلقى أحدًا عديم العقل : كلٌّ قد أخذ من التجربة حصَّته ، وحاز اختياره ؛ وعرضُك عليه ما يبدو[26] إليك عجزٌ وكلفةٌ : فإن كان رِيِّضاً ، فهو بشأنه أبصر ؛ ولعلَّ له عذرًا ، وأنت تلوم 422 ؛ فتولد عليه انقباضاً منك وتحفظًا لئلاَّ[27] يريك الخلاف حتى يأتي بما اعتزم عليه . وإن أَلفَيْتَهُ جاهلاً ، فمن العناء رياضة الهَرم 423 لم تزده أكثر من نقله * 58 (ب) عن ودِّه ، ولا ينتقل عن طبعه . كيفما رَوَّيتُ في الأمر ، أجده جهلاً من فاعله وكلفةً ، إذ لا تأديب يجمل بالمعلِّم ولا المتعلِّم . اللَّهمَّ إلاَّ من شورور في أمرٍ ، فعليه أن يعطي ما عنده من غير إلحاحٍ ولا يتمرن في انتظار طاعة ، فيكون الناصح ، إن سُمع منه ، تمادى على صداقته أو خولف في غشٍّ في انتظار طاعة فيكون الناصح إن سمع منه غش . فما قام خيرك يا زمان ، بشرِّكَ !

لو أنِّي أعلم أن بخلافٍ يسير على القائل يتنقل إلى حيِّز العداوة ، لم أشاوره في أمرٍ أبدًا : وأكون قبل مشاورته مخاطرًا حذرًا الذي نخشى منه ، أشدَّ عليَّ من عاقبة الأمر المعروض عليه . فالعاقل يقيس على هذه المعاني ويحرز بها صديقة . فربَّ

(25) م : جبلة ؟
(26) م : يبدوا .
(27) م : ليلا .

عداوة تتولد بأرقّ سبب ، أو عداوةٍ تعود إلى مودة ، عند الحاجة إلى التعاون أو الانخراط في سلك واحدٍ من عارضٍ يعمُّ أو مرغوبٍ يُرام تكون الحاجة فيه سواءً .

ولا خير في عقلٍ لا يتصرَّف تارات ؛ والمذهب السرمديُّ راكبٌ طريقة الجهل ، واقع في الوَرَطات . ومن الحق ما يسمُج ، فلا تقوم حلاوته وفرضُه بما يعقب من المشقَّة ؛ والعاقلُ يتخيَّر الأمور ، فيتجنب معسورها ، ويتوخى ميسورَها .

وللقائل ان يحتج على هذا النكاح : ما الذي أريد به ؟ إن كنا غالبين ، فقد استغنيْنا عنه ؛ وإن كنَّا مغلوبين ، لم يُفِدْ ذلك ! يعترض هذا بعد تِبْيان ما وقع !

وإنَّما أردنا اكتساب الحسنة مع الستر ؛ وانه متى عرض عارضٌ ، كان البعل مكتفيا بامرأته ، يُقلِّعها[28] إذ هي أحوج ماتكون فيه عند ذلك ، وتكون لنا منهم عُدَّة ، ويَقِلُّ طمعُ كلٍّ من يشره إلى خطبتهما . فقد كان كثيرٌ من سلاطين الأندلس رام ذلك ؛ وتوقعنا العاقبة إن فعلنا 424 تنشَّبنا[29] فيما لا مرد فيه ، ولا يُنفكُّ عنه إلا بالأموال الجسيمة التي هي أولى بالبذل في إقامة أود المملكة وما كنَّا بسبيله من الجهاد ؛ وإن أبينا ، وقع الخلاف والحقد من الطالب ، بحيث لا يوافق ؛ على أنه لم نحسب حسابَ ما جرى * 59 (ا) . (ولو كنتُ أعلم الغيب ، لاستكثرت من الخير)[30] . وكان زمانا لم نحسب فيه حساب خير وخرج منه مثقالُ ذرَّةٍ ، ولا قِسْنا على شيءٍ إلاَّ ولم نبلغ مِعْشار[31] ما يكون منه ، بل يدهى منه أمرُه وأفظَعه .

ولقد قال المطالبون إنَّ أمير المسلمين كان أحقَّ بها ، وإنَّما فعلنا ذلك فرارًا منه . وهذا من المحال أن يكون أحدٌ يتبعَّد الشرف ، ويُدعى إلى ما فيه حياته ، فيأباه ! . ولو أنَّني أشعر بشيءٍ من ذلك ، ونرى أن المذهب في هذا ، لكنت أشدَّ الناس اغتباطًا بالأمر ، وإليه مسارعة وعليه حرصا 425 .

ولم يكن مَنْ ألحَّ في ذلك أكثرَ من المعتصم – رحمه الله – ؛ فبادرتُ إلى ماتقدَّم ذكره ، خوفًا من كل ما ذكرناه . وإنَّه لمَّا تواترتْ على أمير المسلمين هذه الأنباء ، وصُوِّرتْ عنده على غير ما هي ، عملتْ في نفسه .

(28) يقلّعها : يصرفها .
(29) تنشبنا : تورطنا .
(30) الأعراف : 188 .
(31) معشار : عشر .

وانقطع رجاءُ مؤمّل بلَوْشة من أن يجيبه سلطان من الأندلس ؛ وعند ذلك ، خاطب أميرَ المسلمين ؛ فلم يصل الخطاب ، وهيَّأ[32] العسكر إليها مع نعمان ، حتَّى انقضى خبرها ، على ماوصفناهُ .

تدخُّل عبد الله في مسألة مُرْسية وغضب المعتمد

واعتقد المعتمد دخولَ النصارى بلده ومحاشاتَهم لجهاتي ، مع ما كان في نفسه من أمر مُرْسيَّة . فإنَّ ابن رشيق قال لي مشافهةً ، ونحن على لييِّط : «أريد أن أكون صنيعك وأدخل في جملتك .» وقال لي رسوله بعد ثقافة : «لو أنَّك تقبل من تخلُّف فيها ، لأقام الخطبة باسمك ، وكانت في طاعتك! تجدُه ويجدُك 426 ! . فأبيتُ هذا القول جملةً ، وقلتُ في نفسي : «هذه نَصْبَةٌ[33] لم يكد أصحابنا يتخلَّصون منها إلاَّ بعد المرام الشديد والكدِّ العظيم ! رُدَّ منهم هذه المشقات ! فلا يعترضها هذا الوقتَ إلا جاهلٌ بالزمان ! وليت لو سلمنا من هذا كلِّه ! وإنَّه من أمَّلَ أن يبقى بلده بيده ، فقد شره إلى كثير ، فكيف لفُضول العمل الذي كنت أرى وأميِّز ؟ ولما قامت علينا اليُسَّانة ، على ما قدَّمنا ذكره ، كان ابن الأحمر يُداخلها ، ويعدهم ويأمرهم بالتثبت ، حتى تبدو إليهم الأحوال ؛ ويبلغني * 59 (ب) من ذلك ما يقلق . فأردتُ بعض المكافأة على ذلك ، وأن نوجِّه إلى مُرسية من يعقد ما ابتدأني به رسولهم ابن يَكُّون ، المتصرف في خدمتهم ، ويقول لهم أن يبيِّنوا كيف يريدون[34] محاولة هذا الأمر : إن أرادوا القيام بدعوتنا لمُلِمَّةٍ متى كانت ، نغيثهم فيها بأموالنا ورجالنا ؛ وما فائدة ذلك وثمرته فيما نشترط نحن به ؟

ولمَّا توجَّه من ثقاتنا لذلك من أنفذناه ، اعتقدها المعتمد في نفسه ؛ على أننا لم نكن نعزم على ذلك أبدًا أكثر من طلب التَّعِلاَّت عليه آخر ذلك بأن نسمع منه مالا يوافق ؛ فينتقض العملُ بسببه ، أو توقف الحال إلى أمدٍ ما ؛ كالذي يقع بين الملوك من المداخلات والأعمال : فمنها ما يتمُّ ومنها ما لا يتمّ ، أو يتمادى إلى حين .

عبد الله يوفد سفارة إلى يوسف بن تاشفين بسبتة

وإنَّ أمير المسلمين ، لمَّا أتى سبتة ، وهو قد أحشد وأعدَّ ، قاصداً إلى جهتنا ،

(32) م : وهيي .
(33) نصبه : ورطة .
(34) م : يريدوا .

لا يريد غيرها ، أرسلنا إليه رسلاً مقدَّمة ، بعد عتاب كثير جرى بيننا وبين المعتمد على خبر مُرْسية ، لم يُرَدْ به مفاسدة أكثر مما وصفناه .

وحان وصول أمير المسلمين إلى سبتة ، وقدم رسلُنا عليه ، وهم : ابن سهل القاضي المتقدِّم ذكره 427 ، المُستعمَل للعملة الموصوفة ، وباديس بن وارْوي من تلكاتة ، يهنئونه[35] على سلامته ويتلقون بالرحب قدومه ومسارعتنا إلى ما يذهب إليه في جهاده ، وما أشبهَ ذلك .

فانصرف الرسولان المذكوران ، يُعلمانني أن أمير المسلمين قابلٌ لكل ما ذكرناه ؛ قد أعرض عليهما[36] من الجميل ولطيف القول ما لا شكَّ في محبته . فسرَّنا ذلك . وكان فيما قال لهم : «يصنع ماشاء ! لست ممن يكلِّف أحدًا إلاَّ طاقته !» . فكان ذلك منه دهاءً وحذقًا ، مع ما نُبِّه عليه قَبْلُ ، من قبل ابن سهل بالمخاطبة وغيره ، أنَّ نفارنا عنه إنَّما كان من خشونة الكتب الواردة من عنده ، وأنَّ المداراة بالقول أوْلى ، حتَّى يُظهرَ[37] ما شاء ويمهِّدَ لعمله بذلك .

وإنَّ ابن سهلٍ * 60 (ا) لما رأى من خلاف الجند ، واطلع عليه من أنفس أهل البلد ما اطلع ، قدَّم لنفسه ، ورأى أن لا يخلى من عملٍ يقرِّبه فيمن تقرَّب . وأعلمه أن البلدة ليس عليه فيها مختلفٌ 428 ، ونفث بذلك باديسُ المذكور . وصحَّ عندي وقت انصرافهما أنَّ ابن وارْوي قال : «أرسَلَنا للخدمة له في زعمه ، ولم نصنعْ غير أنِّي كتَّفتُه ، والقاضي ضرب عنقَه !» إلى أن وصل أمير المسلمين قرطبة 429 .

(35) م : يهنونه .
(36) م : عليهم .
(37) م : يظفر ؟ .

الفصل العاشر

خلع عبد الله بن بُلُقِّين ونفيه إلى المغرب

جواز يوسف بن تاشفين إلى الأندلس
وبدء النزاع مع عبد الله

واجتمع [أمير المسلمين] بالمعتمد ، وسأله عمَّا لهج الناس به من مداخلة الرومي ؛ فشهد بذلك ، للذي كان في نفسه من كلِّ ما وصفناه . وأرسل أمير المسلمين إلينا كتابًا يقول فيه : «أقبلْ إلينا ، ولا تتأخر ساعة واحدةً !» .

فرابني ذلك ، وهو موضع الانقباض ، لما تقدَّم من الطَّلب ، وأنَّ بمحضره جميع اعدائنا وإلحاحه علينا في الوصول . فاعتذرتُ إليه بتوجيه رسلٍ : أحدهما ولد حجَّاج ، والآخر ابن ماشاء الله . فساعة وصولهما ،قرَّعهما بكلِّ ما نُقل إليه ، وأمر بثقافهما بالحديد على المقام[1] ؛ وقال لهما : «بالله ! إنْ غزوته إنَّما كما نغزو ألفونش ! والذي يقدر عليه ، فليصنعْ !» . وأتاني بعض الفرسان الناهضين مع الرسل على أسوإ حالةٍ ، مضروبين ملهوفين[2] ، أطلقهم قرورٌ ليعلموني بالقصة ، ويقول : «بالله ! أن أطلقهما الأمير حتَّى ينطلق مؤمَّل وأصحابه !» . فدهمني من هذا الأمر ما لا مدفع فيه ولا حيلة . ولا ظَننته أن يجري على هذه الرتبة .

(1) وأمر بثقافهما في الحديد على المقام : وأمر باعتقالهما مقيَّديْن فورًا

(2) ملهوفين : حزانى مستغيثين .

وأرسل على المقام كتبًا إلى اليُسَّانة - فأول ما طاعت له 430 - وإلى جميع حصون الغرب ، على يدي نعمان المذكور ، الساعي في مداخلتها قديمًا . وكان في كتبه إليهم : «أمَّا بعد فقد ﴿جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾(3) . إن لم تطوِّعونا ، ﴿فأْذنوا بحربٍ من الله ورسوله﴾(4) . وإنَّ خطابه لم يردْ على معقلٍ منها إلاَّ وألقى بيده ، وقام أهله على إخراجِ قائدهم ، حتَّى تناثرت المعاقل كلها كانتثار العِقد 431 ؛ إلى أن وصل الأمير إلى بَليلُش ؛ ومن امتنع منها ، قاتلته الرعية معهم ، حتى يلقي بيده .

فلم نَدْرِ ما * 60 (ب) نصنع ، «واتسع الخَرْق على الراقع» 432 ؛ وقلت : «لا طاقة لي بجميع أهلِ البلاد ، إذ غدروا وخرجوا عن الطاعة ! فبمن نمسك الحضرة ؟ ليس فيها خلقٌ من غير جنسٍ ممَّن كان في المعاقل 433 . «ولا يتمكَّن للخباء أن يقف دون أوتاد !» 434 ولا في الأمر من مداراةٍ ولا حيلة مع الرجل أكثر من رغبته في خلعنا ! ولا ثم غيره يُسند إليه فنستريح فيه من هذه الداهية العظمى والطامة الكبرى ! ولا في الممكن أن نوجِّه إلى الرومي ، فيكون ذلك فسادًا في الدين ، واستعجالاً للمكروه ؟ وإن شعر بذلك اهل حضرتنا كانوا أوَّل من يقاتلنا قبل المرابطين ! ما دام الستر 435 بيننا وبينهم ، فيكشفون لنا القناعَ على بصيرة !» . فما عهدنا أيَّامًا وليالي كانت أفجع لقلوبنا ، وأدهى لنفوسنا من تلك الأيام .

وصول الجيش المرابطي قبالة غرناطة

وقدَّم أمير المسلمين عسكرًا إلى غرناطة ، مادام محاولته للحصون ، يحرسونها من دخول عسكرٍ برَّاني ، إلى أن يردَ عليها بنفسه . وأرسل القوَّادُ إلينا أن نبيح لهم القوت والعلف بالمدينة ؛ فأجبناهم ، لئلاً يقع منَّا شيءٌ من الخلاف ، يتسبَّبُ به إلى ما هو أكثر .

وأرسلت آخرين من الفقهاء إلى أمير المسلمين بمالٍ 436 ، ويُعلمونه أنِّي ابنه ، وغير مخالف عليه ، والطاعة منَّا له على مرغوبه ، دون أن يُحوجَ إلى هذا التعب كلّه . فأرسل إلينا الفقيه ابن سعدون ، يقول لنا : «لا طاعة ولا صلح إلاَّ بالخروج إليه ! وهذا أمانه : كتاب بخط يده ، يتضمن الأمان في النفس والأهل دون المال .» فأيقنتُ بالغرض . وكان في آخر كتابه لنا : «إن كنتَ استوحشتَ من النزول إلينا ،

(3) الاسراء : 81 .
(4) البقرة : 279 .

فتخيَّرْ من بلادك موضعا تصير فيه ؛ ولتكن غيرَ غرناطة ، لنرى فيها رأينا ! عُدَّة فاترةٌ لا تتمُّ !» .

فروَّيتُ هذا الأمر ، وعلمت أنّي بحالٍ ومكانٍ لا اختيارَ لي فيه ، وأنَّ المذهب فيَّ ألاَّ أليَ مَعقلاً ، وأنه لا مهرب من بين يديه . فقلت : «من السخف يكون أن أقول : «قد اخترتُ موضع كذا !» فإن كان لها كارها ، لم ألبث أن أُرَدَّ منه بتَحلُّل وحجةٍ للقويِّ على الضعيف ! وإن كان في نفسه العوضُ ، فبخروجي إليه يُربى على ما يعتقده * 61 (ا) من إحسان . ولا حيلةَ غير الخروج والترامي عليه ؛ فإن كان قد أجمل وقبل ، فله الفضلُ ، وعليَّ الشكر آخر الدَّهر . وإن كان قد غدر ، كُنَّا واثقين بالقدَر ، وأبليْنا عند الله وعند الناس العذر !» .

الحالة داخل غرناطة وموقف الأمير عبد الله منها

ولما التفتنا إلى أهل مدينتنا ومذاهبهم وحركاتهم ، اطَّلعْنا على أمورٍ دليلة على الانتقال ، مؤذنة بالزوال ؛ وقسَّمناهم أصنافًا 437 على القياس والرتبة ، مع المعاينة لما عمي قبل ، وإظهار ما خفيَ ، إذ لا حرج ولا هيبة ولا صَولة تُتَّقى . أمَّا الجند من البربر ، فكانوا مغتبطين بهم ، طامعين في الزيادة على أيديهم للجنسية . واتفق رأيهم على ألاَّ يلقَوْه(5) بحجَر ، وقدَّموا كتبهم بالطاعة ؛ وراجعهم عليها ، يعدهم بأن يبقيهم في أماكنهم على أفضل ما كانوا عليه ؛ فمن كن منهم بالمدينة الفوقىَ ، تقلَّع(6) إلى السُّفلى بأهله وماله ، وبقي هو بنسمته منفردًا متأهبًا للشرِّ ، إمَّا بالخروج إليه من الطاعة ، أو بإسلامنا إليه والتَّبرُّؤ(7) منَّا .

ومن كان من التجَّار وأهلِ البلدة ، فكانوا على نيَّة أنهم مع من سبق ، ولا طاقة لهم بالحرب ، ولا هم أهلُه ؛ وأكثرهم خرج من البلدة يقول : «لأيِّ وجه نحتمل الحصار ؟ تاجرٌ هنا وصانع كما في غيرها !».وأمَّا الرعية 438 ، فبخٍ بخٍ(8). ذلك ما كانت تبغي ، طمعًا منها في الحرِّية ، وأنها لا يلزمها غير الزكاة والعُشر .

وأمَّا الرَّقَّاصة 439 من المغاربة ، الذين كانوا عمادَ الحضرة ، وبهم كنَّا نُمسك الحصون ، فهُم أول من طاع ، وأعين من بالحضرة إليهم يقولون : «ما الذي خالف بنا عن صنيع بني عمِّنا ؟» فلم نجد في صنف منها راحة يرجى معونتُها !

(5) م : يلقونه .
(6) تقلَّع : هبط ، انصرف .
(7) م : التبري .
(8) بخ بخ : يقولها المتعجب من حسن الشيء وكماله .

وأمَّا العبيد 440 والصَّقالبة 441 ، فالعبيد الأعلاجُ ، أوَّل من عصا ، كما ذكرنا ، بلوشة ، رجوا أن يكونوا عنده فى أعلى مرتبة ، ولم يفكروا في عاقبةٍ أن يخطؤوا عنده ، فيقول : «ما نصحوا مولاهم رَبَّ الاحسان إليهم ! فكيف غيره ؟» 442 . إنَّما كلُّ أحد بشهوته بين عينيه ، للذي شاءَه الله – لا رادّ لأمره ولا معقِّبَ لحكمه(9) .

حتى الخدم من النساء والخصيان : كلٌّ طامعٌ في إقبال الدنيا عليه ، والخروج عن ثقاف القصر إلى راحة * 61 (ب) التسريح ، والاستهتار بالرجال ، ولما أشبه ذلك . فجعفر 443 الخصيُّ منهم ولبيب 444 كانا زعيمىَ المداخلة ورأسَ الفتك ، يقولان(10) : «نحن لا ولد لنا ولاَ تَلد 445 ! فعلى أي شيءٍ نصبر على القتال ؟ وما عسى نطمع أن نصير إليه : هل يجمل بنا سلطنةٌ أو قيادة أو قضاءٌ أو فقهٌ ؟ إنما نحن بمنزلة العيال : من سبق استمتع بنا ، وكنَّا عنده من جملة الفيء 446 ، نُرزق كسائر الكسب ، فلا نضيعُ ! تعالوا بنا نُقدِّم لأنفسنا !» . فوردت عليهم كتب أمير المسلمين بالإنزالات القويَّة 447 ، والمثاقيل(11) والمراتب العالية ، يَعِدُهم بذلك عند إكمال حاجته وإسلامهم لنا ، حتى اتفقت من كلِّ جهة .

عبد الله لا يجد مخرجًا إلاَّ بالاستسلام

ولمَّا اتَّسق له ما أمَّل ، وعلم بما معه في البلدة ، بعد تقديمة عسكره ، كما ذكرنا ، إلى فحص غرناطة ، وكان أهل البلد يتقلَّعون من المدينة إلى البادية 448 ، ويخرجون منها(12) أفواجًا ، رأينا أمارة الشر وعلامة السوء . فإذا بأمير المسلمين في أثر ذلك العسكر مقبلاً إلى الحضرة . فهاج الناس وجزعوا . واتّفق رأيي ، مع من نصحني ، أنَّ الخروج إليه أولى 449 ، والترامي عليه أنجاً من هذه النار الموقدة . فلعلَّه ، إذا رأى براءتنا ممَّا نقله العدوُّ ، ولم يجد في المدينة نصارى كما قيل ، فلا بدَّ له من وجهَيْن : إما صرفنا إلى أوطاننا ، وإما إخراجنا . فلن نعدم معه جميلاً ، إذ لم نَهِجْ عليه حربًا ، ولا أتعبناه في أمرٍ .

وكم عسى العيش في هذه الدنيا ! والنجاة بالنفس في دار الدنيا وتخليصها من الأوزار في الآخرة ، لا يبالغ ذلك شيءٌ ولا يعدله ! . فاستعملنا العقل الذي جعله الله أميرًا على كل شيءٍ ؛ وكلُّ قوَّةٍ لا يتأتيها(13) العقل ضُعفٌ وسكرٌ ، مع سوء

(9) انظر سورة الرعد : 41 .
(10) م : يقولون .
(11) م : والمثاقل
(12) م : ويخرجونها .
(13) م : يباتيها .

العاقبة . ولا سيّما أنّنا بحال لا بد من إسخاط الروم بإرضاء المسلمين ، أو إسخاط المسلمين بإرضاء الروم ! فالآن يَرثها المسلمون أَوْلى وأجمل للعاقبة 450 ، إذ هي نُشْبَةٌ 451 لا ملجأ منها إلاّ بما ذكرنا .

اللّهمَّ إنه لو امتسكنا فيها بنفقة الأموال ، ولا يمكن استبدادٌ دون انتظار قوَّةٍ من النصارى ، ثمَّ أتى الروميُّ ، فينحاش عسكر المسلمين إلى الجزيرة او ألى قرطبة * 62 (ا) ، مُرتقبًا لما يكون منه ، فيقول لي الروميُّ : « قد أقلعتُ عنك من أرادك ! هات من الأموال ما نستحق من المكافأة !» فلو قلتُ له : «اتركْ عسكرًا معي ، وابقَ انت لئلاّ يعاودنا !» ما كان يفعل ، ويخشى على عسكره البوار بين أهل البلدة والعسكر الخارج .

ولو انصرف بدون أن يترك قوَّة ، فساعة انصرافه وإقبال المرابطين ، لم ترتفد[14] لهم ساعةٌ ، وينقطع الرجاء عن معونةٍ أخرى : فهناك النكالُ[15] الأكبر ، وصحَّ لهم قتلُنا بالكتاب والسُنَّة .

ولو أنَّ عند إقبال الرُّوميِّ ، يقول لنا : «إن كنتَ تتَّقي من المرابطين ، ولا يمكننا السُّكنى معك من أجلهم ؛ فتخلَّ لنا عنها ، وتصير إلى كلّ ما تحبه مع النجاة بنفسك وحَشَمِكَ وذخائرك ، كالذي صنعتُ بحفيد ابن ذي النُّون ، إذ عاوضته بلنسيَّة ؛ وإلاَّ فلا استيطان لك عندنا ، إذ لا تفيدنا بالبلدة ، وما يُغني خروجك إلينا وتركك لمدينتك مطيبةً[16] للمرابطين ؛ فيدخل علينا الحزم منها .» فلو أطعناه ، لارتكبنا من الأوزار والخروج عن الدين ما يلعننا الله عليه والناس أجمعون ، وكنَّا نترك غرناطة حبسا للرُّوم ، يُضِرُّون منها المسلمين ؛ فلا دماء تُسفك منها ، ولا داخلة تُدخل إلاَّ وكانت في صحائفنا . ولا خير في أثرة الدنيا على الآخرة !

ولو أن يتربَّص المرابط عند إقبال الرومي ، ولا ينحاش له ، كما وصفنا ، ويبنى على لقائه[17] ، فلو التقت الفئتان[18] ، فلا بُدَّ من أن يكون للطائفة الواحدة على الأخرى ؛ فلو أنها على الرُّوميِّ ، ففي إثر ذلك ، لم يقدِّم على قتلنا شيئًا بالحجَّة أنَّنا أجلبناه ؛ ولو أنَّ الرُّوميَّ يَغلب ، فسنبقى بعد ذلك في المُلْك ما شاء الله ، لم يطبْ لنا مُلكٌ ، ولاستحينا من الله والناس أن يكون ذلك ببوَار المسلمين

(14) ترتفد : تنقضي .
(15) النكال : العقاب ، النازلة .
(16) م : مطية ؟
(17) م : لقاه .
(18) انظر سورة آل عمران : 13 .

وهلاكهم ! ثمَّ إنه لا يصح لنا ثبوتٌ معه ، وأيُّ شيءٍ كان يحجره عنَّا ، ولا شيءَ نرتجي به نزع أنفسنا منه ، ولا بمن ننتصر لو هَمَّ بأخذ الكلّ .

كيف ماروِّيْتُ في هذه الوجوه ، لا خير فيها لمن تعقَّب الأمر وتدبَّره ، إلاَّ بما صنعناه مع حكمة *62 (ب) الأقدار التي لا تجري على إهمالٍ ! فخرجنا إلى الرَّجلِ، كأنما نُساق إلى الموت[19] ، لا ندري ما نلقى ، إلاَّ كالمخاطر بنفسه ، متوكِّلين على القدر .

استسلام الأمير عبد الله ونهب أمواله

ولمَّا لقيناه ، سُرَّ بذلك ، وأقسم على الأمان في أنفسنا وأهلنا ، ولنا منه المراعاة والكرامة ما بقي . ثُمَّ أشار على قرور بالترقيب علينا ، إلى أن يُثبِّتَ خبَرَنا ، ويقفَ على أموالنا 452 .

فانتدب أهلُ دولتنا ، يطلب كلُّ واحد منهم أن يودَعَ عنده شيءٌ ؛ فلم نفعل ، وقلت في نفسي : «هؤلاء يطلبون ما يتزوَّدون به ؛ وليس ذلك شفقةً منهم عليَّ ! وليس نخلي من دفع ذلك إليهم من وجهين : إمَّا فاسقٌ يستأثر به دوني ، فتكون حسرتها في نفسي ، ولا نقيتُ بها عن وجهي ؛ وإمَّا متبَشِّلٌ[20] يبُغضه ، يحمله إلى الأمير ليتهنَّى به ما يقي له ؛ وعند ذلك نفتضح عنده ، و لا يقبل لي صَرْفًا ولا عدلاً» 453 . وإنه لا شيءَ نرجو[21] به بعد الله التقرُّب إليهم إلاَّ بالأموال ؛ ولو أمكنني أن أزيد فيها ، فتملأ أعينهم ! وأنا لا أبتغي إلاَّ العيش لخاصة نفسي وأهلي . وقد خفَّف الله عني بقلة العيال ؛ ولا خيرَ في الغرر بمال لا أدري إن بقي معي ، مع اختلاطه وكثرة شبهاته ؛ وكثرة المال إنَّما يُحتاج للمملكة والأجناد . فالآن قد أزاح الله ذلك عنِّي ، ولم يَبْقَ إلاَّ طلب السلامة بحُشاشة النفس ، وهي غنيمة في مثل هذا الوقت الحاد ! . فخرجتُ إلى الرجل بعد ثقاف القصر ؛ ولا خوف عليه ذلك الوقت ، إذ كان الناس بين يأسٍ وطمعٍ في الرجوع ؛ فلا جرأة من أحدٍ في اعتراض شيءٍ من ساقتنا . ولمَّا أنزلت بتولي قرور للأمر ، جعل الحرصِ على الخباء ، وأمر بطرد الداخل والخارج ؛ وحيل بيننا وبين عبيدنا وصنائعنا : كلّ يفتِّش عليه ويُبحَث على ما لديه من مالٍ كسبه في ولايتنا .

ثمَّ أتانا الفقيه ابن سعدون من عند أمير المسلمين ، يقول : «أحضرْ الأموالَ

(19) انظر سورة الأنفال : 6 .

(20) متبشل : منافق.

(21) نرجوا.

والأزمَّة بها ! فإن مؤمَّلاً قد أخبره أنَّه ليس عندك درهمٌ إلاَّ بزمام وذكر .» فقلت له : «نعم ، كلٌ * 63 (ا) ذلك قد تركته في داري ؛ فإن أباح لي المسير بنفسي لاستخراج الكلّ وإلاَّ ، فهذه أُمّي تتولّى ذلك مع ثِقاته حتى لا يغادركم منه خيطٌ !» .

وكان ، عند خروجي ، قد وقع في نفسي من خوف الثقاف ما خشيتُ الفُرقةَ منها إن تركتُها في القصر ؛ فخرجتُ معها ، ولم ألتفتْ إلى ما سواها 454 . وأنا مع ذلك في حيرة لا أدري لما يصير أمري ؛ قد أُشرب قلبي من الخوف والجزع ما لم أعهده قط ، ولا كان فيه عزاء ، فإن الأمور التي ينبغي لها الاستثبات والصبر ما كان من دون أمر ؛ وإن جلَّ خطبٌ ، يرجى في غيره الرَّاحة ؛ وبعض الشرِّ أهون من بعض 455 ؛ وإنَّما هذه النَصْبة[22] لم يكن لها عزاءٌ ولا استراحة إلى أملٍ ولا رجاء ليُسْرٍ ، إلاَّ بحيث يُحتسب . فأذهلني ذلك عن كلّ ما لي فيه صلاحٌ من تقدمة النظر في مالٍ أو غيره ؛ بل كانت نفسي آكدَ عليَّ ، لم تعمل حساب من يعيش ، لا سيَّما من لم تَجْرِ عليه قبل ذلك محنةٌ ، ولا أكربه الدهر برزية . فجاءت جملةً ، أبهتتْ وخانت القياس ، وحادت عن سبيل العهود .

وقد كان أرسل إليَّ قرور يطلب خطَّ يدي بإسلام المدينة وإخراج من لي فيها من الحشم . فبادرتُ على المقام ، إذ الالتواء عن ذلك ممَّا لا ينفع ؛ ولو فعلتُ ، لكان ذلك زيَّادة في الهوان ، ولم يُفِدْ شيئًا ، وأنا قد حصلتُ في القبضة 456 .

وكنت أخرجتُ مع نفسي أسبابًا[23] منها سَفْطُ ذهبٍ فيه عشرة عقودٍ من أنفس الجوهر ، وذهبًا مبلغه ستة عشر ألف دينار[24] مرابطيةً ، وخواتم[25] 457 ؛ وتأوَّلتُ في إخراجها معي أن قلت : «إن كان الأمر يبدو من الأمير بثقافي ، فهذه حاصلةٌ لا تنفع ، تُجعل كسواها ؛ وإن لم يكن ، وربَّما تأخر في الأمر بعد قضاء غزوته ، داريتُ منها وأعددتُها لما ينوب على العسكر ومتاحفة المرابطين» .

ولم يُتركْ لنا خادمٌ 458 إلاَّ حيل بيننا وبينها . وفُتِّش عليهم ألاَّ تكون في أوساطهم خبيئةٌ . وجعل قرورٌ يقولٍ لي ولأمي : «اكشفا لي عن ثيابكما * 63 (ب) . فقد أُخبر السلطان 459 أنَّ خيرة الجوهر على أوساطكما .» فتبرَأنا له عن ذلك ، ونزعتُ له عن الثياب . ثم جعل ينفض المخدَّات عن الصوف ، ويفتش

(22) النصبة : الورطة ، البلاء .
(23) أسباب : أمتعة منقولة .
(24) م : دينر .
(25) م : وخواتيم .

بينها ، ويقلّب التوابيت(26) على وجوهها ، ويحلُّ طيَّ الثياب ، فَتْشًا لم يُعهَدْ مثله قطُّ . ثم أمر بحفر الأرض التي عليها الخباء ، خوفا من أن ندفن فيه شيئًا ؛ وهو في ذلك كلّه يقول لي : «إن سلِمتَ بروحك ، فما في الأرض أوجهُ منك !» .

وصار الكلُّ فَيئًا من خادمٍ وغلامٍ ، ما خلاني وأمي . وكنت(27) وقت خروجي قد أخرجتُ مع أمي صبيَّةً طمعتُ أن أنجو بها ، فلا يؤبه لها ، ألاّ انفرد دون أحد من أهلي ، لتكون لي عدَّةً لما بعد ذلك ؛ فأتى قرور ، وألقى يده فيها ، وأخرجها ، وفتّش ثيابها على المقام ، وتحمَّلها . ثمَّ أتى إلى أثاث الخباء كلّه وفتشه ظاهرًا وباطنًا ، فكلُّ ثوب أو حاجةٍ استحسنها ، أخذها لنفسه . وكاد أن يُعرّيني من الكلِّ . وأصاب 460 الدنانير المذكورة ؛ فقال لي : «ما أردتَ بإخراجها ؟». قلت : «لأتاحف بها الأمير !».فهدَّدني وأدخلني تحت وعيد ؛ ثم أمر بانتقالها على المقام ، وأخذ السَّفط(28) بما فيه من الجوهر والخواتم : هو من جهة ، وربيبه من أخرى ؛ وأنا في هذا كله لا أرجو شيئًا إلاَّ السلامة في الروح ، ولم نَشُكَّ إلاَّ أنَّه لا يكون بعد هذا الا القتل .

ثم إنه أمر والدتي بالطلوع إلى القصر لاستخراج الأموال . فتكدَّرتُ لذلك أيَّاما ، ما منها يومٌ إلاَّ ونظنُّ أنها لا ترجع إليّ ، حتى دفعتْ إليهم الكلَّ بالأزمَّة 461 ، لم يغادرهم من ذلك قليلٌ ولا كثيرٌ ، حتى إنَّ الحاجة اليسيرة ربما كانت عندي في خباءٍ ، فيُشدَّد فيها على الوالدة ، فتأتي عنها وتحملها إليهم .

ولم يتبيَّن لي خلاف أهل بلدي ، إلاَّ والأمر قد فات ، من النّظر في الزمام أو غيره . ولم يتقدَّمني أحدٌ إلى مثل هذا ، فنأخذ حِذْري ونتأهب له ؛ ولم يكن إلاَّ ما شاء الله ، إذا أعطى ، فلا مانع ، كما أنه لا يتهيأ ، مع ما سُلب وضاع ، ثبوتٌ ولا بقاءٌ ، ولو رُفع إلى عنان السماء 462 .

فلمَّا تقصَّوا * 64 (ا) الجميعَ ، وتبيَّن الحق ، جاءني قرور بوصية السلطان ، مع أبي بكرٍ بن مسكّن ، وهو في ذلك عليَّ منتقم شانىء ، وهو يقول لي : «الأميرُ يُنهي إليك أن لا يبقى لك عند أحدٍ وديعةٌ ؛ وإنَّ ما في قصرك قد تنزَّلتَ عنه بالأزمَّة ؛ وما في خبائك قد صار إلينا وفتَّشناه ؛ وبقي لنا أن ندري ما لك مودوعًا ؛ وإذًا ، لا عهدَ بيننا وبينك ، إن خرِّج قِبَلك درهمٌ عند أحدٍ ؛ ولا تكون عقباك في ذلك إلا أن يجعلك في الصحراء بحيث لا تربح ذلك المال ، ويبقى عند من

(26) التابوت : الصندوق لحفظ الثياب .
(27) م : وكان .
(28) السفط : صندوق تُحفظ فيه أدوات النساء .

أودعَته» . فرجعتُ إلى نفسي أن نعلم لها عند أحد درهما وديعة ؛ فلم أجد . وأقسمتُ له على حقٍّ .

ورجعتُ إلى الوالدة ، أعظها ، وأقول لها : «أسألك بالله ! إلاَّ ما أشفقتِ عليَّ ؟ فربَّما قد أخرجتنَّ شيئًا لا أعلمهُ ؛ فيظهر بعدي ، ويكون فيه هلاكي ، وهلاكك ! والدُّنيا أقلُّ من هذا كلِّه ! والقومُ ، كما ترَيْن ، متعلقون بشعرةٍ يطلبون معنا أرقَّ سببٍ ! فإياك أن تشمتي بي ! وإذا تبرأنا له ، لا يمكن له تضييعنا . وليس يُدَّخر المال إلاَّ لثلاثٍ : سلطانٌ يجور ، أو فتنةٌ تدوم ، أو عُمرٌ يطول . ونحن في نفرٍ يسيرٍ !» .

فلمَّا سمعتْ ذلك ، بكتْ وقالتْ : «نخشى أن نبقى فقراء ! والموتُ أهونُ من الفقر 463 !» . فسهَّلتُ عليها الأمر ؛ وقالت : «إنَّ الله لا يُضيع من خلق !» . فكتبتْ تسمية[29] بما أودعت من متاعها ، تلك الليلة التي حان خروجي في غدها : ذكرتْ أن لها عند لذَّة خادمِ ابن أبي خيثمة 464 كاتبنا سُبيباتٍ[30] لبعض جواريها ، ولها عند ابن الزيتوني القرويِّ 465 أربعة آلاف مثقالٍ ، وحَلْيًا أرسلت فيه على المقام : نحو خمسة عشر عِقدًا ؛ فأمَّا الحلْيُ ، فأتاها وأعطته لقرور ، ولم تؤخِّرْ به ساعة ؛ وأما الذهب ، فإنَّها ، لمَّا جلَبتْه من ابن الزيتونيِّ ، بادر به إلى السلطان وتحمَّله لنفسه . وكذلك فعلتْ خادم ابن أبي خيثمة ، وأتتْ إلى قرور بتلك الأسباب» ؛ 64 (ب) فوقع إلينا الخبر ، وزادنا همًّا أن بدروا به للشرط الذي اشتُرط علينا ؛ فأخذتُ على المقام تلك التسمية ، وأرسلتها إلى قرور ، قبل أن يبدأ بنا ؛ فقال : « قد أخرجوه لنا . فإيَّاكم أن يبقى لكم شيء عند غيرهم !» . فاستفهمتُ والدتي ثانيةً ، وبكيتُ لها ؛ فقالت : «مالي شيءٌ عند أحدٍ أكثر !» . فأخذنا المصاحف ، وحلفْنا فيها لقرور أنه ما لنا شيء أكثر ، لا مودوع ولا مرفوعٌ» . فأعلمَ السلطان بما أقسمنا به ، وجعل مع هذا يبحث ويستقصي . فما وجد لنا أكثر كما قالت الوالدة .

ولمَّا لم يجدْ شيئًا ، أتانا قرورٌ ثانيةً ، وقال : «إنه قد ظهر أنه لا وديعة لكم أكثر . ولكن أيَّاك أن يكون لكم مالٌ مدفونٌ !» . فقلتُ : «ما علمنا قطُّ بدفنٍ ولا حسبنا هذا الحساب ؛ ولا كان الدفنُ شأنَنا ! وغير متعذرٍ على الأمير أن يحفر القصر كلَّه ، حتى يرى 466 !» . فقال لي : « إيَّاك بالمنكَّب !» . فقلتُ : «ما لي بالمنكَّب إلاَّ شيءٌ من الأثاث أعددته لنزولي فيها 467 : جميع ذلك بزمام بخطٍّ

(29) تسمية : قائمة .
(30) سُبَيْبات : أشياء صغيرة .

يدي . يُرسل فيه الأمير ويأخذ به !» . فقال لي : «هاتِ خطًّ يدك بإخلاء المنكَب !» . فبادرتُ على المقام . وأصاب(31) الزِّمام بالمنكَّبِ على الصِّفة التي وصفْتُ . وكان الجند قد تربَّصوا ؛ وقامت الرَّعية ؛ فطلب خطًّ يدي بالاخلاء ، فكان ذلك .

ولمَّا صح عنده براءَتنا من جميع الأشياء ، أتانا قرور لتحصيل ما بقي . والعجب منه في تلك المدَّة أنَّه أتاني بسِفْرٍ كبيرٍ ، وقال لي : «أقرأْه ! فإن فيه جميع الأعلام التي رأى الناس لنا بملك الأندلس ، وفيه عباراتها 468 !» . ولا أدري ما أقرأ ، [ولا أسمع] ، أكثر من قوله لي بهذا اللفظ : «ليس كذا هو ؟ فجبيتَ الأموال ، لا [بقي لك] منها شيءٌ !» . ولمَّا وقف على جميع ما في الخباء من وطاءٍ وثيابٍ ، رفع بذلك كتابًا إلى الأمير ، وأعاد الفتش ؛ فلم يجد غيرَ ما رآه * 65 (ا) أوَّلاً .

نفيُ الأمير عبد الله إلى المغرب

فلمَّا خُبر بما في التسميَّة أنَّه لا غنى للانسان عنه ، سوَّغه لنا مع ثلاثمائة دينارٍ وثلاث خدمٍ ، أُمر لنا بها ، وأعارنا دوابَّ(32) خمسةً لنقلان الأثاث كلِّه ، وأُمرنا بالنهوض إلى الجزيرة الخضراء ، وقال : تنتظروا 469 بها السلطان حتى يرد عليكم .» وأعطانا من المرابطين مُشيِّعين من يؤَنسنا ويتكفل أمورنا . فشكرنا له ذلك ، وتحركنا على المقام ، إذ كان الحفز منه في ذلك شديدًا .

وكنا طول طريقنا جازعين ، لاندري ما يذهب إليه بنا ، ولا ما الاشارة فينا . ولقد كنت أرى المرابطين ينزلون بمنزلٍ ، أو يحتلُّون في موضعٍ 470 ، فأقول : «إنَّ ذلك لشيءٍ أُمروا به !» . فكنت طريقي ذلك تحت جزعٍ وهلعٍ ، أسأل الله أن يكفِّر بها السيئات ، ويجعلها آخر مصائبنا بعزته ؛ إلى أن وصلنا الجزيرة .

فأُرسلْنا إلى سبتة ؛ ودخلنا البحر في يومٍ عاصفٍ ، أدركتْنا فيه أهوالٌ لم نكد نسلم منها إلاَّ بالأجل الذي لم يحضر ؛ حتى خرجنا إلى سبتة ، بعد أن قيل لنا : «فيها تنتظروا الأمير !» كما قيل عن الجزيرة . فزادنا ذلك قلقاً .

ثُمَّ نُقلنا إلى مكناسة الزيتون . وتلقَّانا الأمير سيرُ ، وأنَّسَنا ، وأخبرنا أن مقامنا عنده إلى أن يرد السلطان من الأندلس . وأرسل إلينا مائة دينارٍ . وعند حلولنا بها ، أيقنَّا بالمقام فيها 471 . وبقينا على تلك الحال ، قد فُقد ما كان بأيدينا ، وأُحوجنا إلى بيع ثيابنا التي تُركتْ لنا بعد أن استحوذ قرور وحاشيته على أكثرها

(31) أصاب : وجد .
(32) أصل : دواباً .

(فكلّ يدٍ وما أنهبتّ !) ، لم يتركوا لنا إلاّ مالا نظر له على نزارة ما أُبقي . والسلطان – أيّده الله ! – غافلٌ عن ذلك ، لم يمكن الشكوى إليه ، إذ كان قرورٌ واسطةً ، وما كنت أتشقّى من ذلك أكثر 472 .

ومن أعجب الأشياء أنّه ، عند حلولي بمكناسة ، [كتب إليّ] كتاباً يقول لي فيه : «أخْبرني عن الخاتم الذي خرجتَ به !» [وقد كنتُ] أخرجته من إصبعي وبعته بعشرة دنانير ؛ فراجعتُه نُعلمه * 65 (ب) بحاجتي إلى ثمنه . وإنما أراد أخذه لئلاّ يُبقي لنا شيئًا ، ويتقصّى الجميع ؛ وعلم أنّه لم يَبْقَ لي غيره .

ثمّ إنه وافاني من عند السلطان ثلاثمائة(33) دينارٍ أُخرى ، وأنا بمكناسة ؛ وخاطبني بكتابٍ يعدني بكلٍّ جميل ، ويقول لي : «لا أنساك ما بقيتُ !».فسرَّني ذلك – أحسن الله جزاءَهُ ! – ؛ فلقد كان أرفقَ بي بعد الله من كلِّ أحدٍ 473 . وأعلمني أنه ، إذا ورد مرُّوكش ، أكون معه حيث ما كان ، إكرامًا لنا وإيثارًا . فعلمت أني منتقلٌ عن مكناسة ، إلاّ أنَّ الروع كان أفتر ، إذ لم يمكن أن تُؤَخَّرَ العقوبة إلى ذلك الأمد . وقرورٌ ، مع هذا ، لا يدع طلبي عند السلطان ، على إحساني إليه ، جبلَّةً(34) قد جبله الله على بغضي ، مع قلَّة رحمته ، وقساوة قلبه ، ودنائته ولؤمه .

عزل الأمير تميم صاحب مالقة ونفيه إلى السوس

وبلغَنَا في طريقنا ذلك ما كان من ثقاف أخينا تميمٍ بعدنا ، وأنَّه ، لمَّا كان في مدَّة كوننا بغرناطة لإخراج الأموال ، ونحن على تلك الحال مُرقَّبين في الخباء ، كان تميم المذكور يزورنا 474 ، ويتكدَّر علينا للذي يلزم من حب القرابة وصلة الرَّحم . وكان قرورٌ ، في هذا كلِّه ، يرمقه ببصره ، ويعتقد في نفسه لذلك شرًّا ؛ وصوَّر عند السلطان أن ما أخرجناه من المال مودوع عندِه ، ليسلم لنا بسلامته 475 ، مع ما يزيد فيه من الطلب ، أن قيل للسلطان : «ثَقَّفتَ صاحبَ غرناطة ؛ وأخوه منه ! وإن تركَه ينصرف إلى بلده ، طلَبك بالثأر ، وأفسد عليكْ ما ترجو إصلاحه ، مع شرَّته وحدَّته ! فهو بذلك موسومٌ معروفٌ ! فعاجلْ بثقافه ، يَصْفَ(35) لك ما تؤمِّل !» .

وكان قبل ذلك ، على ماأعلمني أخي المذكور ، قد أنَّسه السلطان ، ووعده

(33) م : ثلاث مابة .
(34) جبلَّة : طبيعة .
(35) م : يصفي .

بصرف بلاده إليه التي صارت إليَّ ، وقال له : «لستَ من أخيك [بالمسؤول ؛ وأنت أظهرتَ لي] الطاعة ، وأجملتَ المعاشرة ، وإنك أوّل من ضرب الدراهم [المرابطية] . والآن ستَحمد عاقبةَ رأيك ، ونجعل لك بتلك المزيةَ على أقرانك !» .
فطمع الصبيُّ بذلك ، وشرِهَ إليه : كلُّ ذلك خذلانٌ [اغتر به] * 66 (ا) ملوك الأندلس 476 ، وأُسعد من أجله المرابطون ؛ فعميت البصائر ، وقويت الشهوات ، وامتدت الآمال بحيث ينبغي لها أن تقصر .

فلمّا همَّ به ، أُخذ فجأة لئلاّ يشعر ، فيغيب المال الذي اتُّهم به ، أو يفرَّ . ونال من قرور هوانًا كثيرًا ؛ ولم يترك له ، سَفَطًا ، ويبعث اسبابه في موضع محلّته ، أقيم لها ثم سوقٌ . وأُلقي في الحديد ، وأُمر به إلى السوس 477 . ولمّا كان طريقه على مكناسة ، لقيناه ؛ فأُخبر بهول ما قاسى ، وبصُرنا به ، وهوعلى تلك الحال قد شقي بالكبل لعظمه ، لا يقدر أن يتحرَّك به . وأوجب ذلك ما وُسم به من الشرِّ ؛ وأنَّ أهل مالقة رفعوا عليه حينئذٍ أفعالاً قبيحةً ، وأيادي سيِّئةً أسداها إليهم 478 ، على ما ذُكر ؛ فاتفقت الأسباب . ولم يُرد الأمير أخذه إلاَّ ببيِّنةٍ 479 ؛ إلى أن وصل السوس ، ووصَّى به أمير المسلمين إلى بَزْلَف ، وبالغ في إكرامه . وكان معه في عافيةٍ ورغدٍ من العيش . وفوَّض أمره إلى وُلاة السوس بعد بَزْلَف 480 .

الفصل الحادي عشر

خلع أمراء المريَّة وإشبيلية وَبَطلْيَوْس

موقف أمراء الطوائف أثناء الحملة على غرناطة

وحان انصراف أمير المسلمين إلى بلاده بالعُدوة ، بعد أن أكمل ما شاء من أمر بني عبّاد وصاحب المريَّة .

ونحن ذاكرون منها ما بلغَنا منها مِمَّا يقبله العقل ، لا بتخليط الناس ؛ ونختصر من الوصف ما يُغني عن الاكثار : فإنها أمور لم نشاهدها ، فنخبرَ على يقين وإطنابٍ ؛ ولا غابت عنَّا كل الغياب ، فنجهل مصدرها ومَوردها ، على أن الذي كنت فيه أشغل وأكرب من التفات ما حدث بعدنا لقلّة المبالاة[1] بما لا يعنينا منها ، ولشغل خواطرنا بما دُهينا به ، على أنَّ ذكر ما سمع ، ونحن أمنًا من الموت ، أيسر من ذكر ما عاينَّاه ، ونحن جازعون[2] منه . فحُقَّ لنا أن نذهل عن علمِ جليته بالمعاينة ، وعن وصفه بعد الأمان ؛ فإنه من ذَكَر الهول ، فكأنَّه فيه .

وقد كان أميرُ المسلمين ، قبل مجيئه إلى غرناطة ، قد وعد المعتمدَ بها ، وقال له : «أنا رجلٌ مغربيٌّ ؛ وليس قدَّمني أخذ مالٍ ولا بلاد ! * 66 (ب) ، وقد ترى مارُفع على صاحب غرناطة ؛ ونتوقع عليها من الرومي . وليس غرضي أكثر من تخليصها ؛فإذا صارت في يدي ، لا يمكنني إمساكها لِبَوْن[3] بلاد الأندلس من العُدوة ، وضعتُها عند ذلك في يدك ، فتكون أعلمَ بما تصنع بها ، وأقعدَ[4] لما يُصلح المسلمين .»

(1) م : المبالة .
(2) م : جازعين .
(3) م : لبين .
(4) أقعد : أعلم ، ادرى .

فلم يَشُكَّ المعتمدُ أنَّ ذلك منه كائن ؛ وعمل حسابًا آخر أن قال في نفسه : «إن لم يتهيأ له أخذها بقعود صاحبها عن الخروج إليه ، فليست ممَّا تؤخذُ من وقفةَ واحدةٍ ! ستنجرُّ الحال من أجلها ، وتشيخ عليها المحلات ، كما صُنع بلِيِّيط ؛ وتدخل الشِتْوة[5] ، فيحتاج إلى الانصراف ، وتبقى هذه المعاقل التي طاعت للأمير أكون زعيمَها . وفي خلال ما يتلوَّى أمرُ غرناطة ، احتيج إليَّ ، وكان لي بذلك الصولة على الفريقين ، ولا نُخلَى من بركتها !» . وكان الحبيب إليه أن تبقى على ما ذكرناه ، إذ لا يعلم ، عند حصوله عليها ، ما تكون قُرعتُه معه ، كالذي كان 481 . وسكت عني في الأمر ؛ ولم يُرِ الانكشافَ بسره إلى رئيسٍ يُفشي عليه ، غير رموزات ، إذ ذاك لا تنفع . ولو قال لي : «امتسكْ !» فأنا أحوطُ على حالي ، أو : «اخرجْ !» لم أُطعهُ فاتهمه ؛ ولا يمكن أن يعطيني تقوية ، فيفتضح عند المرابط . إنَّما كان صنعٍ الأمير يطَّلع وُيرى ، عسى يتهيَّأ له في النَصْبة شيء ، أو يسلم من معرَّته ؛ قد تنشب ، ولم يجد محيصًا غير ما كان بسبيله .

وكذلك ابن الأفطس معه على تلك الحال . وصاحب المريَّة في المريَّة لم يتحرَّكْ ، كلُّ أحدٍ منهم ينظر إلى نهاية تمضي من أمْرِ غرناطة فرابهم أمرها ، وأقلقهم .

ولمَّا بصرتُ تألُّبهم عليَّ مع الأمير ، خاطبتُ كلَّ واحد منهم بكتابٍ أقول لهم : «هذا الأمر منجرٌّ إليكم ! واليومَ بي وغدًا بكم !» . فلم يمكنهم قراءَة الكتب دونه ، وعرضوها عليه . فحنق عليَّ ؛ وكُتبت الأجوبة بإملائه ، يقولون : إنما تريد أن تلطخنا بأفعالك * 67 (ا) ، ونحن قد برَّأنا الله منها !» وما أشبه ذلك من الوعيد والتذنيب : فِعْلَ من قد وَحِلَ ، ولم يقدر على أكثر مما قدَّمنا ذكره ، مع الطمع وعمي البصائر ، كما وصفنا قبل .

وكان رُسُلهم إلَيَّ قبل ذلك يحضُّونني على الامتساك والتجلُّد . وقال ابن الأفطس : «أنا أعتذر عنه !» . ولم يروْا كَتْبَ كتابٍ خوفًا من أن يكون ظهيرًا عليهم ، غير اهذاء ذلك على الألسنة ، فعلمتُ أنهم قومٌ قد أسلموني إلى طاقتي ؛ فإن كانت لي ، لم تدخل عليهم داخلةٌ ؛ وإن كانت عليَّ ، لم يُفسدوا وجوههم مع المرابط ؛ وحسبُه اجتهادُهم معه بأنفسهم ورجالهم .

فرأيتُ حالي في هذا كلِّه تالفةً ، وعلمتُ أنَّه ، طول مدة امتساكي لو امتسكتُ ، لكان سلاطين الأندلس أجمع متألِّبين علي فتنتي مع رعيَّتي ، لما يلزمهم من الطاعة للمرابط والطمع ، عسي [أن] يحصل لأحدٍ مزيدٌ في بلاده 482 ، ولا تمكن لأحدٍ منهم معونتي ولا الاسْتِفسَاد معه من أجلي . فنحن لم يُعِنْ بعضنا بعضًا

(5) الشتوة : فصل الشتاء .

على الرُّومي ! فكيف على المسلم ، مع حرب الكانون 483 وقيام أهل البيت 484 ! هذا مالا طاقة به لمن عقل ! . ولم نظنَّ نحن أنّ الأمر ينفتق إلى هذا كله ، ولا نعاجَل هذه المعاجلة . ولو علمنا ذلك ، لم يكن أحدٌ يتقدَّمني إلى الخروج إليه ، إذ ما سوى ذلك على هذه الرتبة لا ينفع .

وإنما طَمِعْنا بما قصصْناه قبلُ وحسبك أنه لمّا آلت الحال إلى ما لم يُجرَ على قياس ، خرجنا إليه ، ولم نَلْتوِ ساعة .

حركات المرابطين على المريَّة

ولم يقدِّمْ شيئًا أمير المسلمين ، وقت خروجي إليه ، على إرسال جيشٍ إلى المريَّة ، قبْل ابن عباد ، إذ كان بتخلُّفه موسوماً بالنفاق ، وبأنه معاقدي على ذلك ، وأنَّ تخلُّفه لا يكون إلاَّ عن اتفاقٍ .

فلم يحرِّكْ منها موضعًا إلاَّ وأجاب . وتناثرت معاقله أجمع ، حتى بلغ العسكر إلى باب المريَّة . وكان الرَّجلُ – رحمه الله – ساعةَ ورود الخبر عليه بخروجنا ، انطبق له ، واعتلَّ لما رأى من هوله وسوءِ عاقبته . وقضى عليه وصول العسكر إلى الباب ، وهو على تلك الحال ؛ فأُقرع لها وماتَ 485 . * 67 (ب) وولي بعده ابنُه معزُّ الدولة ، الناهضُ إلى قلعة حماد على مانصفه بعد هذا .

وقد كان ، لِمَا رأى من طلب [المرابط لبلاده] ، قد وجَّه إليه ابنه الآخر ، يعظُه ويُعلمه بوجه الحق فيه ، إذ كان ينتحل فقهًا ؛ وذلك ممَّا ذكرنا من قلَّة الميز بالأحوال ، إذ يرى هذه الأمور مشتعلةً ، ويطمع إطفاءها بالوعظ ! فساعةَ وصوله ، أمر الأميرُ بثقافه على المقام في الحديد . وتحيَّل أبوه في انطلاقه ، حتى انصرف إليه فارًا من المرابط ، اختلسه من موضعه رجل له شَبَّاكٌ(6) ، قذف به في البحر حتى سَلِمَ إلى والده 486 .

وفتر الطلب على المريَّة للشغل بما حدث من أمر ابن عباد ، وأنه أوكدُ الأشياء 487 . وإن ابن صُمادح ، لمَّا حضرتْه الوفاة ، وصَّى ابنه هذا المستخلَف ، وقال له : «أمتسكْ في هذه القصبة طول مقام ابن عباد في ملكه بإشبيلية ما استطعت ! فإن رأيتَ ابنَ عباد قد خرج ، لا تتربَّصْ ساعةً واحدةً ، وانجُ بنفسك إلى القلعة 488 ، وادخل البحر بما قدرتَ عليه من ذخائرك ، إذ لا مطمع لك في البقاء بعده !» .

(6) شَبَّاك (شباك) : قارب صيد .

فحفظ وصيَّةَ أبيه ؛ وساعة انقضى في إشبيلية ما انقضى ، تخيَّر قطعةً أشحن فيها جميع ما قدر عليه من ذخائره ، وكتم أمره ، وخرج باسم أنَّه ناهضٌ إلى أمير المسلمين بهدية ليهدِّن بذلك أهل المريَّة ؛ فسُرُّوا بفعله 489 ، وقالوا : «هذا هو الصواب ، قبل أن يحلَّ بك ما حلَّ بغيرك !»،حتى توسَّط البحر ، وأعطى للنَّواتيَّة مالاً جسيماً ، وأخبرهم غرضه . وخرج بالجزائر 490 ، وأكرمه صاحب القلعة 491 ، وأمَّنه في ذخائره ، وأكرم ضيافته ، وخيَّره حيث يحب السُّكنى ؛ فاختار تدلَّسْ 492 ، لأنها على البحر ، وليغيب عن عين السلطان ، خوفًا من الطلب . والخمل في ذاته ، وأخذ لنفسه بالأرجح في أكثر أحواله .

توتر العلاقات بين الأمير المرابطي وبين المعتمد بن عباد

وإن المعتمدَ ابن عبَّاد ، لمَّا بصر بدخول الأمير غرناطة ، واستنجز وعدَه ، فلم يُلتفتْ ، ورأى ثقافها بالمرابطين وإخراج من فيها من الحشم وكلٍّ من طمع بالبقاء على حاله ، جزع جزعاً شديدًا ، وخاف أن يُثنِّي به ، إذ رأى مذهبَ الأمير في البلاد واستصراخه * 68 (ا) . ولم يمكن للأمير أن يأخذه بغير ذنب ، فيقبُح ذكره . وأشار عليه المرابطون بثقافه ؛ فأبى حتى يلوح قِبَلَه ذَنْبٌ يؤخذ به . ثمَّ إنَّه ، بعد أن نهض تبعه قرور يقول له : «الأمير يحتاج إلى تذكارك بعضَ الأمر فانصرف !» ، فأبى ، ومضى لوجهته ، فارًّا بنفسه ؛ وأطوى المراحل ، حتى وصل قرطبة . وقال في طريقة لابن الأفطس : «انجُ بنفسك ! فقد ترى ماحلَّ بصاحب غرناطة ، وغداً بنا 493 !» .

ثمَّ إنَّه ، بعد أن ظهر للأمير نفورُه ، وَجَّه إليه يأمره بالقدوم عليه ، ويقول له : «نريد الاجتماع بك فيما نحن بسبيله .» : ليقول : «لا !» فيجد السبيلَ ، كما فعل . فراجعه ابن عبَّاد : «إنَّ ذلك كان وقت كنت ضيفًا ، وتريد الغزو ؛ فلزمتْني معونتك بنفسي وجميع أموالي ! والآن إنَّما أنتَ لي جارٌ مثل باديس وحفيده ؛ وأنت أقدر منِّي على الشرِّ بجنودك ! فلا يمكنني التغريرُ بنفسي ، عسى أنك تريد أخذ بلدي ، إذ لا تصح لك غرناطة إلاَّ بما ينضاف إليها من الأندلس !» . فشرط عليه أمير المسلمين أن يلتزم الرباط 494 ، ويقطعَ القَبالات 495 ؛ وتحاملاً كثيرًا علم أنَّه لا يفعله ؛ وفي تركه أو فعله قطْعُه . فامتنع ابن عبَّاد جهده ، وبنى على الشَّرِّ .

وبُديء بمداخلة معاقله ؛ فانتثرتْ ، كما جرى لغيرها ؛ وقامت عليه الرعايا بكلِّ قطرٍ . وأرسل إذ ذاك إلى الرُّومي ، يستغيث به ؛ فقعد عنه ، خَيْفةَ التغرير 496 ،

وهي حجة أمير المسلمين على ابن عباد ، أن قال له : ظفرتُ بكتبك إلى الروميّ وإرسالك عنه !» . فقال المعتمد : «لو فعلتهُ قبل أن تؤخذ بلادى بَطرًا وأشرًا ، كنتُ ألام ! وأمّا بعد أن رأيتُ طلبي في الروح ، اضطرتني الضرورة إلى ذلك للمدافعةِ ، ولو يومًا واحدًا !» .

وهي كانت علّةُ الجميع ؛ وبذلك هلك ابنُ الأفطس ، ومنه أُتيَ .

الاستيلاء على قرطبة وإشبيلية ونفي ابن عبَّاد إلى المغرب

فلمَّا تبيَّن للأمير خلافُه وقعودُه عنه ، شاور الفقهاءَ في أمره ؛ فأشاروا عليه بغزوه . فكان غزوه بعد إبلاء عذرٍ ؛ ولهذا ما أخّر[7] به (لِيَهْلِكَ من هلك عن بَيِّنَةٍ)[8] ولتكون له الحجة على من يريد إخراجه . فأمرَ الأمير سير * 68 (ب) بالخروج إليه ، ونهض ، ونحن بمكناسة 497 ، ونازله مدَّةً طويلةً ؛ ومعاقله قد ذهب أكثرها بالطاعة .

وافتتح الأمير بخلال هذا مدينةَ قرطبة 498 ، واستُشهد فيها ابنه المأمون ووزيراه ابن زيدون وابن بكر 499 - رحمهم الله - بمداخلة من أهلِ البلد ، مع انخراق المدينة[9] وأنّه لا يمكن ضبطها إلاّ بأهلها . وكان المعتمد حذرًا على قرطبة ، ويرجو[10] بقاء حاله بثبوتها ، ويوصي ابنَه بالصبر ، ويقول له : «لا تجزعْ ! فالموت أهون من الذّلّ ! وليس السلطان إلاّ من القصر إلى القبر !» .

فلمَّا أُخذتْ قرطبة ، انقطع الرجاء . وضاقت إشبيلية ؛ ونفد ما كان بيده من أجل النفقات ، إلى أن دخلها الأمير سير عَنْوةً بمداخلةٍ من بعض أهلها 500 . وهلك فيها عالمٌ ، وانكشف الحرُم ، إذ للجيش معرَّةٌ[11] لا تُملك بعد صبرهم على ملكهم . وظهر لسير من اجتهادهم في القتال ما أعجبه ذلك ، وقال : «لو أني أقصد[12] مدينة الشِرْك ، لم تمتنعْ هذا الامتناع !» .

وكان دخولها من ناحية الوادي ، وهوأسهل الأماكن . ولولا صبر أهلها وكثرة أقارب ابن عبَّاد ، لم يستطع على شيءٍ ؛ فكأنه غُلب بالثقات الذين كانت الأبواب

(7) م : وخّر .
(8) الأنفال : 42 .
(9) انخراق المدينة : اتساعها وتفرق دورها .
(10) م : ويرجوا .
(11) معرَّة : أذى ، اثر قبيح .
(12) م : نقصد .

بأيديهم ، ووكَّلهم بمن سواهم ، إلى أن لم يكن مع القضاء مدفعٌ . وكان دخولها يوم الأحد في [22] رجب [سنة 484] ، في التأريخ الذي دُخلت فيه غرناطة بعدها بعامٍ كاملٍ 501 .

ودُخلت قبلها قرمونة 502 ؛ ومات فيها عالمٌ كثيرٌ . ثمَّ التوى أمر رُندة ؛ فنازلها قرور ، إلى أن ظفر بالراضي ، وخدَعه ، وحصل على أمواله ؛ ثمَّ قتلَه ، خوفًا من أن تفتضحَ تلك الأموال ؛ وقيل إنَّ ذلك لم يكن عن رأي السُّلطان 503 . وأمر بقتل كلِّ من ظفر به في رندة المذكورة من الأحرار والجند المقاتلين . وقُتل فيها رجلٌ من العرب يعرف بأبي الصِمْصام ، جرأة على الله ، ليأخذ بنتُه ؛ ونكحها من بعده ، وحصل على ماله . ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ﴾[13] . وامتسك بالعبيد ، وصيَّرهم إلى السلطان .

ولمَّا ظفر بابن عبَّاد ، فيَّأ 504 الأمير سِير خَدمَه وعبيدَه ، حاشى أُمَّهاتِ الأولاد 505 . وأمَرَه أمير المسلمين بإرساله إليه . فقدِم علينا بمكناسة 506 مع دَخْلته[14] ؛ * 69 (أ) وبقي فيها إلى أن سيق معنا إلى آغمات 507 .

وإنَّ أمير المسلمين ، لمَّا فتح الله له في هذا كله ، أخذ في الانصراف إلى مرُّوكُش ؛ وقد بلغ من آماله غايتها ، وامتلأت يداه بالأموال ؛ وقسم على أجناده من بعض مال الفيء ، وأهدى إلى الصحراويّ 508عمّه 509 من تلك الذخائر . وأمَرَنا أن نستوطن آغمات ؛ فأتيناها ، ولقينا من أمير المسلمين كلَّ جميل ، وأنزلَنا بداره الصغرى في الحريم ، ولم يزل يعتقدنا من إنعامه ، كيف ما هيأ الله على يديه ، ووجدناه بعد الله أرفقَ بنا ، وأحسنَ مذهبٍ فينا من الناس أجمعين ، ومن كلِّ من سبق إليه منَّا إحسانٌ510 .

عزل المتوكِّل بن الأفطس صاحب بَطَلْيُوسْ ومهلكه

وبقي ابن الأفطس يتخدَّم أمره 511 ؛ وكان يداري ابنَ الأحسن 512 ، وينفعل له في كلِّ ما أراد ، طمعا منه في البقاء لحينه ؛ وهو ، في ذلك كلِّه ، يُنهش ، ويُري أياتٍ تدلُّ على الشرِّ ، وأنَّ المذهب في أخذه . وداخل عليه ابنُ الأحسن في بلده ؛ فشعر بذلك ، وتيقَّظ له ، واستوحش من المرابطين ، وداخل الرُّوميَّ ؛ فحقَّت عليه المطالبة 513 ؛ وسُعي عليه جَهْرًا ، بعد السعي سرًا ؛ وهو في ذلك كلِّه ، مثل السمكة العاجزة الموصوفة في (كتاب دمنة) ، لم تزل في تقلبٍ وترددٍ ،

(13) هود : 123 . النمل : 93 .

(14) الدخلة : الأسرة ، البطانة .

حتَّى أخذها الصيَّاد 514 ؛ وهو كذلك يريد أن يخلِّط : يخاطب الأمير بإظهار الطاعة والمشاركة في أمر الرُّوميّ ، ويخاطب ألفونش ليستعين به على مُلمَّةٍ ، إن دهتْه من المرابطين . وكان ابنه المنصور داهيةً بالأمور ، قد أُشرب قلبه الحذر والخوف ، قد رأى طريقة ابن الأحسن ، وسعيه على أبيه ؛ وهو رجلٌ سجلماسيٌّ فقيهٌ ، متصرفٌ في أمور الأمير ، استوطن بطليوس ، واكتسب فيها مالاً ؛ يُري أن كونه في الثغر لما ينفع المسلمين ، وهو يعمل في خلع صاحبها .

وكان ابنُ الأفطس الشيخ مُتَّبعًا لهواه ؛ لو سأله روحَه ما بَخُلَ عليه به ، متوقعا لشرِّه . وكلُّ شيءٍ يحذره الانسان ويكرهه بقلبه ولا يكون عليه بالخيار فهو متورط لا محالة فيه ، فإنَّ المداراة فيه ، ممَّا لاتنفع ، والاستعمال منقطعٌ ؛ ولا خيرَ في مجاورة عدوك عند * 69 (ب) الحاجة إليه ، إلاَّ أن تدرى عند ذمِّ العاقبة معه أنَّك مستغنٍ عنه بغيره ، وإلاَّ ، فأنت له طُعمةٌ .

فقال له ابنُه المنصور : «هذا التردُّد لا يُجزئك(15) ، ولا يُغني عنك ما تُري من إظهار الطاعة للمرابط ! ولا طاعة أهل بلدك لك ومحبَّتهم التي يعرضون عليك ! فلو أنَّهم يَرَوْن بعض حقيقة في عزيمة ، لما أبقوْا عليك ؛ كالذي رأيتَ صُنع بغيرك ! فإما أن تُصفي للمرابط ، فلن تبلغ مرضاته إلاَّ بالانخلاع له ووضع البلد في يده ، وتقنع بأن تكون متحرِّيًا ، متخليًّا عن الرياسة ؛ فعاجلْ ذلك ، تجدْ عنده الأمان ! وإن نفرتْ نفسك عنه ، فلا تتأخَّرْ عن الفرار منه بنفسك وأهلك وجميع أموالك ! يجعلك الرُّوميُّ في أي بلدةٍ شئتَ ؛ وربَّما سوَّغها لك ، كما فعلٍ بابن ذي النون في بلنسيَّة ؛ وتترك مدينة بطليوس ، لاتدخل على المسلمين داخلةٌ ، فيحصل لك النجاة بمهجتك ، وسلامة البلد للمسلمين !» . قال له أبوه ، وسفَّه رأيه : «لا أترك موضعي ! وعسى [أن] تهيَّءَ الأقدارُ ضدَّ ما تظُنُّ !» . فخرج عنها ابنه ، ونجا بماله وأهله ، وأخذ لنفسه بالرأي الدي أشار به على أبيه 515 . وبقي الشيخ لحينه ، حتى نفذ أمر الله فيه .

وإنَّ الأمير سير ، لما أراد من التخدُّم لأمر بطليوس والحيلة فيها ، لم يَثِقْ بنفسه في ذلك ، لحدوث ولايته الأندلس 516 ، ورأى أن الداء لا يُعانَي(16) إلاَّ بدوائه ، ولا يُلقى أحدٌ إلاَّ بحجره ؛ فتخيَّر لذلك ابنَ رشيق ، لأنه أندلسيٌّ ، عالمٌ بالمكائد في الفتون ، مع ماكان له عليه من الأيادي قبلُ في لييط ، وأن ثقافه ذلك الوقت لم يكن إلاَّ على رغم منه بمضادَّةٍ قرور له . فانتهز الفرصة في إطلاقه ،

(15) لا يجزئك : لا يفيدك .
(16) لا يعانى : لا يعالَج .

والمكافأة له على صنيعه بما يأمره من أمر بطليوس 517 .

وخاطب السلطانَ في أمره ، بعد أن أطنب في صفة حاجته إليه . فقَبِلَ قولَه ، وأمر بإرساله ، وألطف له القول ، واعتذر إليه ممَّا جرى ، وأمر له بمالٍ جسيمٍ . ونهض ، بعد أن حدَّ له الوقوف عند أوامر سير ، وأنه مستحييه ؛ فمضى . وفُجِىء الناس من انطلاقه * 70 (أ) ما تعجَّبوا منه وخلطوا القول في ذلك ، كلُّ أحدٍ على مقدار عقله أو شهوته .

فلمَّا وصل ، تخدم أمرَ بطليوس بكلِّ وجه من المداخلة لأهل البلدِ ومن معه في القصبة من الحرس وغيرهم ، حتى وقع الاتفاق على أن يطرقها ليلاً ، ويفتحوا له(17) . فكان من ذلك ما حاولوه ، وتعلقوا بالسور عند الأمارة التي كانت مع من داخله . وتُقبِّض على الشيخ وابنيه الفضل والعباس ، واحتُوي له على أموالٍ جسيمةٍ . وأمر سير بإخراجه للقتل ، بعد أن رأى في نفسه هوانًا عظيما ، وشدَّه على المال ، ونقم عليه ما كان من عمله مع النصارى والمعاقل التي أعطاهم ؛ فأمر بقتله مع ابنيْه الفضل والعباس518 – رحمهم الله – .

وطاع جميعُ ذلك الثغر للمرابطين ، كأنه لم يكن قطُّ لغيرهم . وفيءَ أهله وبناته ، وجميع ما تركه . ثم صار ابنه المنصور في جملة الروم ، حَنَقًا لما جرى على أبيه ، يطلب الثأر ، ويتطرَّق(18) معهم بلاد المسلمين 519 .

جهاد المرابطين ضد النصارى
قضيَّة بلنسية

وصرف المرابطون وجوههم إلى فتنة الروم ومقاصاتها ، بعد إكمالهم لأخذ سلاطين الأندلس ، يقولون : «إنَّه لا ينبغى لنا قتال الرُّوم ، ونترك وراءنا(19) الأعداء ، مِمَّن يواسي(20) علينا معهم ! 520 . فكلها تهيَّأت بلا مشقة غير إشبيلية ؛ فوقع فيها بعض التعذر ، كما قدَّمنا ذكره . فسبحان المقدر الذي إذا أراد شيئا أن يقول له : «كُنْ !» فيكون . هذا نصُّ ما كان ولا نعلم ما يكون ، كما قال بعض الشعراء :

وأَعْلَمُ عِلْمَ اليَومِ والأَمْسِ قبْلَهُ ولكنَّني عن عِلْمِ مَا في غَدٍ عَمِ 521

(17) م : ويفتحون .

(18) يتطرق بلاد المسلمين : يغزوها ، يجد السبيل لغزوها .

(19) م : ونتركوا ورانا .

(20) يواسي : يعين .

ثم نشأ بعد ذلك من أمر بلنسية ما لم ينبلغ بها ما يوصَف 522 ؛ فإن الحديث لا يحلو ذِكْرُهُ إلاّ بعد تقضّي آخره ؛ و القوس لا تُكبَّد[21] إلاّ بقبض طرفيْها ؛ فإذا استكمل الخبر ، طاب إيراده وحَسُنَ موقعه ، ونُمّق بعضُه ببعض . ولو أننا ندع هذا التأليف إلى مدّة يتم فيها خبر بلنسية ، لأتينا به بعد أن يكون الظهور[22] للمسلمين ، وترك * 70 (ب) هذا الديوان مخرومًا ، انتظارًا لما يكون فيه أملٌ بعيدٌ . 523

واستئناف تاريخ لها فصولٌ لا يُعنى ، لا سيما أننا أخذنا أنفسنا في حيز تمامه بما يليق بالزمن ، ورضناها بما تستمرُّ عليه من ترك الشره والتّنزه عمّا فات ، وإعمال قطع اليأس عمّا قيل

وَاليَأسُ عَمَّا فَاتَ يُعقِبُ راحةً   ولربَّ مَطْعَمَةٍ تعود ذُباحًا 524

فإذا كان ذلك كذلك ، فأول ما يجب أخذ أنفسنا به إخلاص النّيّة لأمير المسلمين – أيّده الله ! – وتمنّي الخير له ، لأن صلاح المسلمين بصلاحه . ومن الديانة اعتقاد ذلك ، لما أُمر به من طاعة الأئمة والنُّصح لكلّ مسلمٍ ، لا سيما أنه محسنٌ إلينا . ثم اقتصرنا على النظر فيما يخصُّنا وأنزلنا أنفسنا بمنزلة من لم يكن قطُّ إلاّ على هذه الحال ، واعتبرنا بمن كان قبلنا ، ونظرنا لمن هو دوننا ، وما حلَّ بابن الأفطس ، فشكرنا الله على ما نجّانا منه .

تأملات في تقلب الأقدار

وصرفنا وجْهَ اهتبالنا إلى ما ننتفع به ، وغلّبْنا النفس النّاطقة على الحيوانيّة ؛ فإنها تحمل على الفضائل والانصاف ، ومعرفة حقائق الأشياء ، كما أن الحيوانية تحمل على الغلبة ، وإيثار الشهوات ، والحيدة عن سبل المعرفة .

ورأينا أن شَغْلَ البال بما مضى لا يردُّ شيئًا غيرَ الهمِّ والكرب اللّذين يُنحلان الجسم ويُذهبان اللُّبَّ ، وأنَّ الحرج على ما لا يكون تعبٌ للبدن ومشقة ، والانسان ابن الآن . تقول الفلاسفة : لا يُلتذُّ بما مضى ، ولا يُدرى ما يكون فيما بقي ؛ وإنما له لذّة ساعته التي هو فيها ، أو عمله الذي يجده لمعاده . فإن أعقب الله بخيرٍ ، فلن نخسر ما سلف من أيّامنا ، فنهرم قبل أوان الهَرم ؛ وإن كان الذي يأتي أشدَّ من هذا ، فيحقُّ اغتنام ما نحن فيه ، ونعدُّها أعيادًا ، ونُحدث لِلّه عملاً يرضاه ؛ وإن كنّا أبدًا على هذه الرتبة بلا انتقالٍ وغير متمكّنٍ من ذلك ؛ فتوطين النفس

(21) كبد القوس : ما بين طرفي علاّقتها .

(22) م : الظهر .

على ما يُعلم أنها عليه دائمة أحرى وأروحُ للبال .

ثمَّ إني اعتبرتُ جميع ما في الدنيا ، التي إليها يسعى الناس ؛ فوجدتُ نفسي مُبلغة منها كلَّ أمَلٍ ، * 71(ا) وإن انقطعت ، فلم نصحبْها ، ونحن منها على يقين بتخليدها . بل ، لكل شيءٍ مدةٌ ، ولا بد من تركها ، إما بموت أو حياةٍ ، والخروج منها في مدَّة العُمر خير من منيَّة على فتنةٍ وغرقٍ ، عسى بذلك [أن] يعظِّمَ الله الأجر ، ويكفِّرَ السيئات(23) ويكون ذلك للانسان زاجرًا عن الآثام ، ويعتبر فَقْدَ ماله كأنَّه لم يكتسبه برزيَّة نفسه إذ حان حينُه ، فيقدِّم لها النظر ، بتوفيق الله تعالى ، قبل الموت وحلول الفوت(24) . والله المستعان ! لا شريكَ له . سُئل النبي – عليه السلام – عن علامة انشراح القلب للاسلام ؛ فقال : «التجافي عن دار الغرور ، والانابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل لقاء الفوت» 525 .

(23) انظر سورة الطلاق : 5 .

(24) الفَوْت : الأجل .

الفصل الثاني عشر

تأملات أخيرة في المنفى

المؤلّف ونظم الشعر

وإذ قد أتينا على وصف بعض الحادثات بالأندلس ، ورتبة دولتنا ، وما انتهت إليه فيها أحكامنا ، حسبما ساعدتنا عليه أذهاننا ، ونالته مَقْدُرتنا ، إلى انصرام الأمد ، فنرجع الآن إلى ذكر بعض ما يتعلق بذلك من شعرٍ نظمناه وقت فراغ البال وجَمام النفس[1] ، مع ما أعان على ذلك من النَّظر إلى كلّ مستحسَنٍ ، والسُّرور بطيبِ كلّ خبرٍ . على أنني لم أنتحلْه قبل ، ولا كان من شأني الأخذ به ، إلاّ على سبيل الاستطراف والاطناب في وصف شيءٍ أن أنعَته ، فربما صنعتُ في البيت أو البيتين أيّامًا ، أُحضر لها ذهني ، وأحدُّ فكري ؛ فتصدع بعد كدٍّ ، وما أكادُ ، كالشيء المستغرَب من غير معدنه 526 ، فيُنشدها الكتَبة في مجالس الاحتفال للراحات ، نقطع بذلك الزمان عند الفراغ من الشغل ، كالذي يأخذ به الملوك أنفسَهم في ساعات الدعة ؛ ونضيف معها لَمَعا من آدابٍ وسِيَرٍ تحضرني ، ممّا يختلج في الخاطر ويجريها الانسان بصحبة الزمان وتنقّله في الحالات . وقيل لرجلٍ : «من أين لك هذا العلم ؟» فقال : « قَلبًا عقولاً ، ولسانًا سؤولاً» 527 .

طالع المؤلّف

وكلُّ شيءٍ إنما ينطبع بالنشأة وحين المولد . ولقد طالعتُ من مولدي أشياء ميَّزتُها من طبائعي وأخلاقي ، على أن واضعيه ألَّفوه ونحن في حال الطُّفولية *

(1) جَمام النفس : راحتها .

71 (ب) ، لم يوصل إذ ذاك إلى معرفة شيءٍ من أحوالي . وكَتمه عني سِماجة مدَّةً ، حتى وقع السِفْر إلى يدي على غير ظنٍّ ؛ فشقَّ ذلك عليه خوفًا عليَّ من العُجْب بما كان فيه منصوصًا من السعادة . فطالعتُ منه عجائب وغرائب ، إذ كان المولد رصد لي 528 ؛ وكان الطالع 529 الحوتَ أربع درج ، وصاحبه المشتري في الحادي عشر مع الزُّهرة ؛ وسقطت الشمس في الدلو مع عطارد ؛ واتَّفقت النَّحسان في الثور بيت الأخوَّة والقرابة 530 ؛ وصار القمر هَيْلاجًا إذكان في السابع من البروج ، فَصلُح لذلك لأجل سقوط نَيِّر النَّوبة ؛ والزهرة كَدْخداه 531 دُلَّت بمكانها – والله أعلم – على قولهم ، على سنيها الوسطى خمسٌ وأربعون سنة يزيدها المشتري سنيهِ الصغرى اثنى عشر عامًا ؛ فجميع ذلك سبعة وخمسون عامًا . والله بغيبه أعلمُ ! .

وتكلَّم (الطالع) على أرباب مُثَلَّثات النَّيِّر الدالة على تقسيم السعادة للمولود ؛ فكان رَبُّ المثلَّثة الأولى زُحل ، ومعه المريخ في بيت غروبه(2) ؛ فدلَّ على أنَّ الثُّلث الأول فيه بعض التَّقدير والتنغيص والتكدير ؛ ومثله الثلث الثاني الذي لعطارد ، إذ كان في بيت الشقاء والهموم ، محصورًا بين النحسين ؛ فدلَّ على مثل ذلك وأشدَّ ، كالذي تبيَّن الآن ؛ والقسمة الثالثة للمُشتري ، وهو في بيت الرجاء والسَّعادة ؛ فدلَّ على ضدِّ ذلك كلِّه ، وأطنب في وصف السعادة فيه ، لا أدري كيف ، إذ هو بعيد في القياس ، قريبٌ في قدرة الله . ثم وصف خبرَ الأمراض فدلَّ(3) على الأمراض النَّفسانية من السَّوداء وحِدثان النَّفس بأشياء مخوِّفةٍ .

وذكر خبَر البنين ؛ فقال : بحيث شهد شاهدٌ ، يكون الولد ؛ وشهد آخر بأن لا ولد . ودلَّ على القلَّة ، إلاَّ أنَّه لابد من كونهم ، وإن كان ما ذكرناه دليلاً على قلَّتهم ؛ ورُبما كان ذلك في نصف العمر . فظهر ذلك بنشأتهم الآن 532 .

وذكر خبرَ الزهادة في الحرام كلِّه ؛ وحقَّ ذلك لكلِّ أحدٍ ، غير أن الذي يتهيأ في نَصْبَة المولد أغلبُ على الطبع ؛ ثم نظر فيه بوجه التَّعفُّفِ ، والبحث على ما أوجب ذلك ، وأنَّ تلك الزهادة من تلقاء نفسه مع سلامة المعتقَد ؛ فإنَّ الزُّهَرَةَ ، إذا كانت في أحد بيوت زُحَل ، ظَهر على(4) المَوْلود قُبْحُ ذلك الشَّرهِ ؛ فتعفَّفَ ، وقال إنَّ حكمته في يديه أكثرُ منها في لسانه .

ورأى صاحب بيت العُرْس ، وهو عطارد ، في بيت زُحل ؛ فدلَّ على الميل

(2) م : غربه .
(3) م : فدلَّت .
(4) م : إلى .

إلى الصُّغار ذوى الطبائع العطاردية ، مع منافرة ما لا تُبيحه الشريعة ، إذ لم يكن بين صاحب بيت العرس وصاحب الطالع مواصلةٌ ولا مشاكلة .

كلُّ هذا قد علمناه من أنفسنا ، كأنَّه حاضرٌ معنا أو مطَّلعٌ علينا . فلم نشكَّ في صحته بإذن الله ، فسبحان مصرِّفُ الأيَّام ومُجري الأفلاك !

والفلك ما استدار من الأشياء ، وهوقوله تعالى : «كلٌّ في فَلَكٍ يسبحون»(5) . وسمَّاه سماءً ؛ فإنَّ العرب تدعو(6) كلَّ ما ارتفع سماءً ؛ فهي ، لارتفعها علينا ، سماءٌ533 ؛ وهينمتُها(7) : فَلَكٌ ، لا سماءٌ 534 .

آراؤه في التنجيم

ولا يعلم الغيبَ إلا الله ، غير أنَّ أهل العقل منهم يقولون : إنما هي دلائل على الخير والشرِّ ؛ ولا يُعلم بها الجليَّة ، كالغيثِ المنزل دليل على نبات الزرع به ، أو كالنار المشتعلة بمكان عُلم أنَّها مُحرقةٌ . ويحتجون بحديث الرسول – عليه السلام – في قوله إذا أقبلتْ بحريَّةً ، فتشاءمتْ ، فتلك عينٌ غُدَيْقةٌ(8) 535 . ومعاناة الحكيم الماهر دليلٌ على بُرئه ، يرجى له ذلك إن أخَّرتْه المدَّة . وجيء بطبيبٍ عالمٍ إلى أحد العظماء ، من بلاد الهند ، فلما شكا(9) المريض إليه ، قال له الحكيم : «قد بريتَ بحول الله !» فلمَّا أعلمه الترجمان بقوله ، قال العليل : «إن شاء الله» ، فأجابه الحكيم : «إنَّ الله قد شاء : لم يَسُقْنِي إليك من أرض الهند إلاَّ وهو قد قضى بصحَّتك !»

وقد أغلى(10) أهل الهند في هذا العلم ؛ ومنهم من اتخذه شرعًا ، حتى إن فيهم من لا يولِّى مملكتهم إلا من شاكل طالعه طالع الدولة ؛ وهم يزعمون أنَّ طالع الملك ، إن لم يكن وتدًا من أوتاد المملكة 536 ، أو كان منها ثاني عشر أو سادساً ، وأمكنة الكواكب غير متفقةٍ * 72 (ا) لذلك ، فإنه يُنحسها ولو بلغ الجهد من الاحتياط عليها ، إمَّا تُهلكه ، أو يهلكها ، ضرورة تسوقه الأقدارُ إليها . فكانوا يتخيَّرون الطوالع قبل اختيار العقول والمذاهب ، يَرَوْن أن القدر أغلب من

(5) الأنبياء : 33 . يٓس : 40 .
(6) م : تدعوا .
(7) الهينمة : الكلام او الصوت الخفي .
(8) م : غديقا .
عين غُدَيْقة : كثيرة الماء ، والتصغير للتعظيم .
(9) م : شكى .
(10) م : أغلوا .

الرأي ، ويقولون : «لك سعادة الدولة ، ومساعدة الأقدار ، هيأت لنا هذه الآراء لطولِ المُدد» .

ثمَّ إنَّهم يزعمون أنَّ العمر الطبيعي مائةٌ وعشرون عامًا 537 وأنَّ القواطع التي تكون قبلهُ إنَّما هي من أحداث داخلة على الانسان عَرضيَّة ، إما من فساد المزاج ، فتخور الطبيعة ، إذ جعلوا الأربع طبائع 538 التي في الانسان قوامَه كأركان البيت ، فمتى فسدتْ منها طبيعة ، اعتلّ الجسم ؛ وإن تغيَّرتْ كلّها ، مات . وجعلوها مشاكلةً للأزمنة : فالدَّمُ ربيعيٌّ ، والبلغم شِتْويٌّ ، والصفراء صيفيَّةٌ ، والسوداء خريفيةٌ 539 ؛ فمن عالج كلَّ زمانٍ منها بضده من الأغذية والأدوية ، فقد أصاب . ولا باقي مع الله !

و [لمَّا] احتُجَّ عليهم بالذي يموت فجأةً ، أو في زحمة ، أو بأرقّ سبَبٍ ، وهو يظهر صحيح الجسم ، أضافوا إلى الطب من علم النجوم ، واتفق رأيهم أن لا فلسفة تتم لأحدٍ حتى يجمعهما ، وأنَّ لا قوام لأحد العلمين دون الآخر ، فقالوا : إنَّما ذلك من الهياليج الساقطة 540 . فإن المولود ، إذا كانت هياليجه ساهرةً ، صحَّ ارتباط نفسه بجسمه ؛ فلا تخرج إلاَّ عن مشقة مع تمام المدَّة التي تدلُّ عليها العطيَّة . وإن كانت هياليجه ساقطة كلها ، عَرض للموت بأرقّ سببٍ . فإن لم يكن له هَيْلاج ، سُيِّرت الدرُج المطلعيَّةُ وعُدَّ لها أعوامٌ ؛ ويكون القطع عند تمامها 541 ، وقد يكون في تحاويل السِّنينَ ؛ وإن تتمَّ العطية عند انتهاء صاحب حدِّ الدَّرجة إلى موضعِ نحسٍ ، قَطْع أو شبه القَطْع ، إن لم تساعده الأنجم السعيدة . وسمَّوه الجان بختان 542 ، وهودليل الحياة بإذن الله . ومنهم من قال : علمُ الانسان بمولده عذابٌ له ولا يدفع به قَدَراً . ومنهم من رأى ذلك قوَّةً لنفسه * 72 (ب) ، ورضي بما قسم له البارىءُ – عزَّ وجلَّ – ؛ فلا ينكِّد على نفسه ، ويعيش طيب العيش ، يدري أن لا قاطعَ يقطع به في تلك المدَّة ، ويشجِّع لقول عليٍّ – رضي الله عنه – لرجلٍ قد أسنَّ : «أيَّة شجاعة قد فاتتْك !» ، يعني لو أنَّك قبل اليوم تدري أنَّ هذا يكون عُمرَك لم تبالِ . وأما أنا ، فأقول إنَّه تأنيسٌ ما لم تقرب المدَّة ، وزيادة في ألم المنيَّة إذا اقتربت . ولا يكون الطِّبُّ إلاَّ ليُصحَّ البدن مدَّة الحياة كراهية العيش في نكدٍ ، وأما لدفع أجلٍ ، فلا ينفع شيءٌ .

آراءٌ طبيَّة

قال بعض الحكماء : «الناس يعيشون(11) لياكلوا ، ونحن نأكل لنعيش !» فتأمَّل دقةَ معناه 543 .

وجَمَعَ أحدُ الملوك أطبَّاءَهُ ، فقال لهم : «أعلموني بالدواء الذي لا داءَ معه !» . فكلُّهم تكلَّم على الأدوية والمعاناة(12) بها ، غير واحدٍ منهم كان أعلمَهم وأكبَرهم سنًّا ، فردَّ عليهم أن : «ليس عن هذا سألكم الأمير ! ولكنَّه يأذن لي في الكلام ؟» . فقال له : «قل ! فأنتم معدِن(13) الحكمة والفلسفة !» . فقال «أيُّها الأمير ! إنَّ الدواء الذي لا داء معه أن تكون ، عند أخذك للغذاء ، تَترك منه بقدر ما تتمُّ به الشبعة ، ولو لقمتيْن ، ولا تتملأ ! فذاك دواء لا يُحتاج معه إلى طبيبٍ !» 544 .

وذُكر هذا عن الرشيد ، أنَّه قُدِّم بين يديه قصعة بطعامٍ ؛ فلما أكل قال : «هذا غذاءٌ ودواءٌ . فما زيد عليه كان داءً !»،وعلى أنَّه «لكلِّ امرىء من دهره ما تعوَّد» 545 .

وقال النبي – عليه السلام – : «أصل كل داءِ البَرِدَةُ(14) ، وأصل كل دواء الحِمْيَةُ !» 546 . وقيل : «أقلِلْ طعامًا ، تحمد منامًا» 547 . وقالت الحكماء : «إنَّ الكثرة والقلَّة عَدُوَّا الطبيعة».

قد نرى(15) في شرب الخمر من إذا اعتدل مزاجه منه بالكثير ، لا يجب أن يقال له : «قلِّل !» ، ولا من وافقه القليل ، أن يقال له : «ازدَدْ !» غير أنَّ العاقل يرى ذلك بحسِّه ، ويعلم ما يوافق طبعه ؛ فلا يزيد عليه شيئًا .

وسُئل حكيمٌ عن الخمر ؛ فأعابها إلاَّ أنَّه قال : «إذا أُخذتْ كيف ينبغي ومع من ينبغي ومتى ينبغي ، فلا بأس بها : تُفرح النفسَ ، وتُذهب بالهموم ، وتشجِّع ، وتحمل على الفضائل . والتزيُّد منها شرٌّ كثيرٌ ، * 73 (ا) كما أنَّ التقليل منها خيرٌ كثيرٌ !» .

وشبَّهوا كثيرها في الأبدان مثل التُّرموس(16) الذي إذا أُكثر عليه بالماء وطال مَكْثُه ، استحال وذهب نوره . وقيل فيها :

(11) م : يعيشوا .
(12) المعاناة : المعالجة .
(13) معدن الحكمة : أصلها و مصدرها .
(14) البَردة : التُخمة ، ثقل الطعام على المعدة .
(15) م : نروا .
(16) الترموس : الترمس .

سألتُ الشيخ بقراطًا وبقراطٌ له عقلُ
وفضلٌ ماله شبهٌ وطبٌّ ماله مثلُ
فقلت : الخمرُ تُعجبني ! فقال : كثيرُها قتلُ
فقلت له : فقدِّرْ لي فقال ، وقولُه فصلُ :
وجدتُ طبائع الأشياء أربعةً هي الأصلُ
فأربعةٌ لأربعةٍ لكلِّ طبيعةٍ رِطلُ 548

هذا ماقاله الناس . ولا خير فيما لا تبيحه الشريعة . ولا بأس بعلم الشيء عند الحاجة إلى وضعه ؛ وبعض الشرِّ أهون من بعضه 549 لمن ابتلى بها أن يأخذها على حقها .

وقالوا إنَّه ممَّا يولِّد فرح النفس الشربُ بآنية الذهب وشمُّ النرجس ، كما أنَّ الشرب بآنية القزدير وشمَّ البنفسج ممَّا يولد الحزن .

وقالوا إنَّها من أكبر أدوية السَّوداء في تلك الساعة ؛ وتُعقب سوداء أشرَّ من الأولى إن أُكثر منها . والعلة في ذلك أنَّه لاخير فيها إلاَّ ما رقَّ منها ، وحال عليها الحول ، وعطرت رائحته ، وهي حارَّةٌ يابسةٌ ، ثمَّ تستحيل إلى البرد عن شرب الماء للضرورة ، وتجد الرطبة منها ، كَبِدَيَّة اللَّون ، غليظة الرَّونق ، مُولِّدة للدم والنوم ؛ وهي الموافقة لزمان الشتاء . وليتخد منها لكلِّ زمانٍ ما يوافق طبيعته ، ويخالف هواه .

ورأو أن أخذها بعد الغداء بساعةٍ ، لينام الانسان قبلها ويروى من الماء أنجع له وأنفع . وكذالك الجماع أنفع ما يكون بعد سكون الأعضاء وتودّعها بالنوم بعد الطعام ، في صبيحة تلك الليلة ، عند تملى الأعضاء ، واحتياجها إلى اخراج الفضول ، ونشاطها . ولا يكون ذلك عن * 73 (ب) تكلُّفٍ ، حتى تميل الطبيعة إليه ، لا سيما إن ساعدتْها النفس ؛ ويوافق ذلك الشخص هواها ، إذ النفس والجسم شكلان مرتبطان : متى اعتل أحدهما ، تضعضع الآخر ؛ ومتى صحًّا جميعًا ، قويت المنَّة وتكاملت الصحَّة . ويكون ذلك أسرع في الباه ، كما أنَّ المعدة متى اشتهت شيئًا ، فقد ضمنت هضمه .

قال جالنوس : «إنَّ المريض الذي يشتهي أرجى[17] منِّي للصحيح الذي لا يشتهي !» 550 . ألا ترى أنَّ الطبيب الماهر ، إذا عانى العليل ، وقاس بين دوائين يكون نجعهما واحدًا[18] ، قصد إلى الذي يعلم أنَّ النفس عليه أقبل في حال

(17) م : أرجا .
(18) م : واحد .

الصحَّة ؛ فيعتمده . ألا ترى أنَّ شراب السفرجل وشراب السَّكَنْجَبِين[19] فعلهما واحدٌ ؛ غير أنَّ شراب السفرجل أليق بالنفس ، وهي إليه أشوق ؛ فيرى الحكيم توقانه إليه زائدًا في الدَّواء ، وينجع فيه بالشهوة .

ولم يروا لشرب الخمر عند العطش شيئًا أنفع من شرب الماء ، للتوقان وإطفاء الحرارة وقمع الأبخرة .

وليستعملْ من الطعام ما خفَّ ، ولو عاوده في النهار مرَّات ؛ فهو أسرع لهضمه ، ، وأشهى لمعدته ، وأخف على جوارحه . وقال بعض الحُكماء : لأن أتملأ شراباً أحبُّ إليَّ من أن أتملأ طعامًا ! فإنَّ التخمة ، إن تعقَّدتْ قتلتْ ؛ وإن تحلَّلَتْ ، أسقمت» 551 . قال بعض الفلاسفة : «خففوا هذه الأنفس من[20] أوقار الشهوات ، لتصعد إلى عالمها الأكبر ؛ فتأتيكم بعجائب ما هنالك !» .

وقالوا في الشراب إنه يسلِّي الهموم . وأنا أقول إنَّها تَهيِّج الهموم ، إنما هو ما تنزل عليه : إن ألفتْ سرورًا ، حرَّكتْ منه ما سكن الانسان عنه ؛ وإن ألفتْ هومًا ، ذكَّرتْ بما هو فيه وأشدُّ منه ، وفتقتْ إلى طرق السوء . والهمُّ إنَّما يكون بما ينتظر الانسان من سوءٍ ؛ فذاك الذي لا يسليه عنه شيءٌ ، ولا يأتيه منه نعاسٌ[21] ؛ والغَمُّ إنَّما يكون بما مضى ؛ فربَّما سَلَتِ الخمرُ عن بعض ذلك ، ولا شيء يولد النوم مثل الغمِّ بتذكار ما سلف ، أو النظر في كتاب لا ينبغي منه تعلُّمًا أكثر * 74 (ا) من مطالعة ما مضى .

ومن الجهال من يعتقد أن العشاء قريب المنام يُولِّد الرقاد من أجل التملوء[22] ؛ وأنا أقول إنَّه يمنعه ؛ فإن الحرارة تصعد إلى الدماغ من الأبخرة ، وكلُّ حارٌّ مانع للنوم ، كاأنَّ البرد في الدماغ مولِّده . ألا ترى أن الأدمغة الباردة كثيرة النزلات من الرطوبات ، وتولد النسيان ؟ والسريع الحفظ قد يكون في دماغه حرارة ويبوسة ، وقلَّ ما تراه ينزل ، وإن كان فلا يدوم ذلك به ؛ فإنها من فضلات الدماغ . وكذلك الجاحظ العينين يعرض عن[23] ذلك ، وقلَّما يسلم من الأمراض والتعرُّقِ . والغائر العينين عندهم أصحُّ بصرًا ، ومع أنها من صفات الجمال ، إذ قالوا : «هو الغائر العينين ، الأسيل[24] الخدَّين ، المشرف الحاجبين» . 552

(19) السكنجبين : المركَّب من الخلِّ والعسل .
(20) م : عن .
(21) نعاس : نوم .
(22) م : التملي .
(23) م : من .
(24) خد أسيل : أملس .

كذلك قولي ، وإنه لا يتم لأحدٍ جمالٌ إن خشنت أطرافه وامتلأت خدّاه[25] . وكانت العرب تمدح في الانسان كبرَ رأسه ، وتقول إنه علامةُ السُّؤددُ . ويمدح الغلام الأبله العقول 553 .

وقيل : الجمال في اللسان ، ما كان ناطقا بالصواب ، ولا خير في التّهور والاكثار بما لا يحتاج . ووصف بعض الشعراء رجلاً فيما رثاه به ؛ فقال :

لَقَدْ وَارَى المقابِرُ مِــنْ شَرِيكٍ كَثِيــرَ تَحَلُّــمٍ وَقَلِيــلَ عَــابِ
صَمُوتًا في المَجَالِسِ غَيْــرَ عَــيٍّ جَدِيرًا حِينَ يَنْطِقُ بِالصَّوابِ 554

رجع الكلام إلى التنجيم

وممّا وصفناه من علم التنجيم ، احتججت يومًا ببعض المنجمين أنّهم على غير شيءٍ ؛ فقال : «إن كنتَ نقمتَ بأنّنا نزعم أنَّ الكواكب فاعلةٌ أو يعلم أحدٌ الغيب ، فمحالٌ ذلك ، لا يدَّعيه أحدٌ ، غير أنّا نقول بأنّها مصرِّفةٌ[26] . ألستَ تقول في الشمس إنَّ الله خلقها ضياءً ؟ فكذلك أقول في النجم السعيد أو النحيس إنَّ الله خلقه لذلك ؛ ثمَّ لا يعلم كيفيَّة هذه السعادة وصورتَها غير الحَملَة ؛ والله أعلم بما يتهيأ منها .

وليس منها شيءٌ إلاَّ موافق للشرائع إذ النَصْبة كلُّها مخلوقةٌ من مدبر واحد ، لا إله غيره ؛ فمتى كان في العالم دولةٌ أو ملّةٌ ، لم تدلَّ النجوم على غيرها ، إذ الحكم من لدن الواحد * 74 (ب) . فأوَّل ما نبتدئك به أنّه ما من طالعِ ملّةٍ ومولد نبيٍّ إلاَّ وقد شاكل طالع القران 555 ، واتفقت له من السعادة في الهيئة ما خرج به من القوّة إلى الفعل .

وأخرى .أليس يقول اليهود إنَّهم زُحَليُّون[27] ؟ لا شكَّ في ذلك ! ألا ترى اتخاذهم السَّبْتَ عيدًا ؛ وهو لزُحَل ، وأخلاقهم كلُّها مطابقةً لِمَا يدلُّ عليه زحل[28] من البخل ، والقذارة ، والخبث والمكر ، والخديعة ؟ ثمَّ الرُّوم من بعدهم شمسيُّون ، لا امتراءَ في ذلك ! ألا ترى أن يوم الأحد جُعل لهم عيدًا ، وهويومٌ شمسيٌّ ، وطبائعهم موافقة للشمس ، وصورهم فيها : البياض والحمرة والشقرة ، والرَّهبانية في عُبَّادهم لعقم الشمس ؟ ثم المسلمون : أليس هم

(25) م : خديه .
(26) مصرِّفة : مؤثرة ، لها تأثير
(27) م : زحليين .
(28) وردت «زحل» في الهامش .

زُهريين(29) ؟ والزُهرة دالَّة على الدين ، والنظافة ، والمروءة ، والوضوء ، والطهر من الجنابة ، وإباحة النكاح ، والاماء ، والطيب والزينة ؟ ثم أمرنا باتخاد الجمعة عيدًا ، وهو يوم الزهرة !» 556 .

ثمَّ انظرْ إلى بروج الفلك(30) . تقول إن السابع بيتُ العُرس . وأكثر ما يَستعمل الناسُ النكاحَ في شهر رجب ، وهو السابع من أشهر العام المؤرَّخ به ؛ والثامن من البروج بيت الموت والمواريث ، وشهر شعبان الثامن(31) من الأشهر الذي تُنسخ فيه الآجال ؛ والتاسع من البروج بيت الدين والسَّفر ، وشهر رمضان المعظَّم ، تاسع أشهر العام وجب فيه الصوم ومحافظة الشرع ؛ والعاشر بيت المُلْك والسلطان ، اتُّخد العاشر من الأشهر عيدًا ليظهر فيه بهاء الدين وعزُّه 557 .

وقد قال الله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾(32) . وأقسم ﴿بِالخُنَّسِ الجَوَارِ الكُنَّسِ﴾(33) وهي الكواكب السيارة . ويزعمون أنَّ زُحل هو النجم الثاقب . لأنه يفتق بضوئه سبع سموات ، وأنَّه أعظمُ من الأرض ستة وتسعون مرَّة ؛ وغيره من الكواكب قد وصفوا قسمتها من العِظَم على الأرض ، غير القمر وعطارد ، فإنها أصغر من الأرض . وأنَّ الشمس أعظم من الدنيا مائة وثمانون ضعفًا . ولكل كوكبٍ منها مدَّةٌ * 75 (ا) يقطع فيها الفلك ، ورتبة هيَّأها له بارئه – عزَّ وجل – ؛ وإنَّ العالَمَ السُفليّ متعلقٌ بالعلويِّ ، مؤثِّرٌ به بإذن رَبِّه .

ومنهم من قال : لأي شيء تُنسب إلينا الزندقة(34) ؟ 558 ولم ننكر الخالق ؛ وإنَّما تكلَّمنا في المخلوقات ؛ فيوصف كلُّ مخلوقٍ بما يدركه علمُ الانسان . كواصف رجلٍ أو شجرٍ أو جبلٍ !» .

وذُكر عن حكيم أنَّه رُئي بالمُصحف عن يمينه ، والاسطرلاب(35) عن شماله فسُئل ما الذي اوجب جمعها لديه ؛ فقال : «أتلو(36) في المُصحف كلامَ الله . وأعتبر في الاسْطُرلاب خلق الله ؛ وعلمُ الهيئة عبادة !» 559 .

(29) م : زهريون .
(30) بروج الفلك اثنا عشر ، هي الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت .
(31) م : ثامن :
(32) البروج :1
(33) التكوير : 15 – 16 .
(34) الزندقة : الكفر باطناً مع التظاهر بالايمان .
(35) الاسطرلاب / الاصطراب : مقياس النجوم .
(36) م : أتلوا .

وإنَّه لما نصَّ عليَّ هذه المقالة ؛ كان جوابي عنها : «كلُّ ما تقول يشبه أن يكون من موافقة أهل السنَّة بما احتججتم به ؛ غير أنَّكم خالفتم القرآن في قولكم «يكون» و «لا يكون» ؛ والله يقول[37] ﴿قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الغَيْبَ إِلاَّ الله .﴾ فقالوا : «لسنا نقطع على الأمر أنَّه يكون ؛ ولا نقول إلاَّ أنَّه يدل ؛ ونأتي بحجةٍ إلاَّ يتمُّ شرحها . اللَّهُمَّ ! إذا قلنا : هذا مولد سعيدٌ ، هل نقدر على شرح تلك السعادة والكائن فيها . ومنا من يتحرَّى[38] ، فيعدل ولا يتكلَّم على شيءٍ . وقولنا هذا كقول من رأى سحابًا ثقالاً فيقول : «هذه تدل على الماء الكثير» . هل قائلٌ ذلك ملحدٌ ؟ ثمَّ (الله يفعل ما يشاءُ)»[39] .

وهذا أيضا ممَّا قدمنا ذكرَه صدرَ الكتاب أنَّ كلَّ مفتونٍ ملقَّنٌ حجَّتَه 560 ، والله يقول[40] : ﴿وَكَانَ الانْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ ، على أنَّ الحق عليه نورٌ لا يخفى . تقول العرب : «الحقُّ أبلج[41] ، والباطل لجلج[42] 561 . » . قال المأمون 562 : «لم أغتبط بأيَّام السرور مذ علمتُ التنجيم ، ولا استمريْتُ الطعامَ مذ علمتُ الطبَّ ، ولا طاب لي النوم مد علمتُ عبارةَ الرؤيا[43] !» .

مسائلُ فلكية

ويزعمون أن الليل 563 ظلُّ الأرض ، ولا ضياءَ غيرُ الشمس ؛ فبإشراقها على الأرض عند طلوعها ، كان النهار ؛ وبدخولها تحت الأرض ، رجع الظّل طالعاً[44] ، فأظلم الليل[45] .

وبعضُهم من قرأ أن الشمس تجري ، لا مستقرَّ لها ، إذ يقولون إنَّ الشمس لا تستقر * 75 (ب) بمكان ، إذ لا يصحُّ أن يكون المكان إلاَّ أعظم من الذي تحلُّ فيه ؛ ولا أعظم من الشمس إلاَّ الفلك ، والفلك دوَّار . وقالوا في الكسوف إنَّ الكلام فيه لا يمكن إلاَّ بالوقوف على صورة الهيئة ، ولولا ذلك ، لم يحلَّ القول .

(37) النمل : 65 .
(38) م : يتحرا .
(39) آل عمران : 40
(40) الكهف : 54 .
(41) أبلج : واضح مشرق .
(42) لجلج : ملتبس .
(43) عبارة الرؤيا : تفسير الأحلام .
(44) م : طالع .
(45) م : اللّيل .

وقد أثبت قوله بما ظهر من الكسوف الذي حُدَّ أمره ووقت انجلائه ومَبْلَغِ المنكسَف(46) منه ؛ وإن الشمسَ في ذاتها لا يعرضها شيءٌ ؛ غير أنَّ جُرْمَ القمر يحول بينها وبين الأرض متى قابلها ، وكسوف القمر من مقابلة الأرض .

وزعموا أنَّ ضوء الكواكب والقمر من الشمس ، وأنها أجرامٌ شفَّافةٌ تكتسي النور من النّير الأعظم ؛ فيبدو(47) ضوءُها بغيبها ، ويطمس عليها طلوعها . وهو قول الشاعر في ملك :

لأنَّكَ شَمْسٌ والمُلوكَ كَـواكبُ إذَا طَلَعتْ لَمْ يَبْدُ مِنهُنَّ كَوْكبُ 564

العلوم الطبيعية والطب

وقال أهلُ الطبيعة : أن لا حيوان يكون إلاَّ بالحرارة والرطوبة ، فأين ما كان الماء والشمس تولَّد فيه الحيوان ، وقد يكون من غير نسلٍ . ونرى حيوانًا يكون في جوف صخرة صمَّاء مُلَمْلَمَةٍ(48) ؛ وأنَّ الله يخلق ما يشاء . قال تعالى(49) : ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ، عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ ونُنْشِئَكُمْ فِي ما لاَ تَعْلَمُونَ﴾ . وذكر عن الحجاج 565 أنه رئي في المنام على حالةٍ حسنةٍ ؛ فسُئل عن ذلك ، على ما كان من جَوْره ؛ فقال : «رَحِمَنِي رَبِّي بِكَلِمَةٍ قُلْتُها : مررتُ يومًا على زرعٍ ؛ فقلت : لو شاء الله ، لأنبته في النار واليفاع ! أي في الصحاري التي لا ماء فيها . وقال تعالى(50) : ﴿وَيَخْلُقُ مَالاَ تَعْلَمُونَ﴾ .

ولم يبلغ الانسانُ بعلمه أكثرَ من معرفة الطبيعة : علاجُ ضعيفٍ لا يرفع قدرًا أكثر من تقويم المزاج عند انحرافه ؛ فعالجوا الأبدان بما أدركتْه عقولهم ، وجرَّبوه بأعمارهم ، وتركوه سلفًا في الأواخر . فكلٌّ يعاني(51) على مقدار تجربته ....(52) ولا يوافق القراءةَ حظًا حسنًا ومعرفةً بهذا الشأن ، فقد أخطأ وتكلَّف * 76 (ا) . وقالوا إنَّ الدواءَ المُسهل للجسم بمنزلة الصابون للثوب : ينقّيه ويُخلقه ؛ فاستعماله في زمان الخريف أوْلى لسلطان السوداء فيه ، كما أنَّ استعمال الفصد في زمان الربيع

(46) م : المنكشف .
(47) م : فيبدوا .
(48) صخرة صمّاء ململمة : صخرة مستدير صلبة .
(49) الواقعة : 60 – 61 .
(50) النحل : 8 .
(51) يعاني : يداوي .
(52) بياض نحو كلمة في الاصل .

تخفيفٌ لا يخطىء من أخرج فيه الدم ، وإنَّ أشبه شيء من الأغذية بمزاج الانسان : فالخبز النقيُّ واللحم الثنيُّ(53) والشراب الحوليُّ(54) ؛ فمن اقتصر على هذه دون تخليط لم يزل صحيحَ الجسم ، قويَّ البِنْية .

وقيل لجالينوس الحكيم ، وكان في زمان المسيح 566 – عليه السلام – : «إنَّ الله أرسل نبيًا يُبرىءُ الأكمهَ(55) والابرص !» . فقال : «وأنا أعالج الأكمه والابرص !» . فلمَّا قيل : «يُحيي الموتى» ، لم يصدِّق ذلك حتى رآه معاينة حقًا .

دحض قول من ينكر أن الجنَّ تتكلَّم

وتُنكر الحكماءُ ما يزعم الناس من رؤية الجنّ ، وتكذِّب من يقول بسماع نطقهم أو كلامهم على ألسنة البشر ، وتقول إنَّه لا يتكلم إلا من له لسان وآلة تعينه ، وإلاَّ ، فكيف تنطق ريح تهب ؟ إنَّما هو بِرْسامٌ(56) يعرض في دماغ من يدَّعي ذلك ؛ فيتصور في دماغه أمرٌ ما ، يخيل له بفساده أنَّه يتكلَّم ويسمع ، ما ليس منه شيءٌ على حقيقة ؛ فيهذي هذيانًا ، ضربًا من الروحانية التي يكون الانسان مفكِّرًا في بلدةٍ أو شخصٍ أو صورة من الصوَّر ، إذا حدَّثته نفسُه بها صار كالناظر إليها وإن سدَّ عينيْه ، أو كالنائم يرى ما تحدِّثه به نفسه ، أو كالنَّاظر في المرآة يرى ما ليس بموجود . هذا ، لعَمري مذهبٌ خولف به طريق السُّنَّة . والله يقول(57) : ﴿قَالَ عِفرِيتٌ مِنَ الجِنِّ﴾ وقوله(58) : ﴿يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾ ؛ وهذا دليلٌ على أنَّه لا يكون النُّطق إلاَّ بلسانٍ ، ولا المرويَّة إلاَّ ببصر ليس على خلقة الانس ، كلٌّ على جبلَّةٍ ، يَرى ويسمع ويعقل .

ولولا ذلك لم تَدِنْ ، ولا سبَّحتْ ، ولا اهتدتْ لما يُسِّرت له .إنَّ الطير التي هي عندنا لا تعقل وصفها الله بمعرفته ، فقال(59) : ﴿والطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ ؛ وقال تعالى(60) ﴿وإن من شيءٍ إلاَّ ويُسبِّحُ بحمدِه﴾ . ووصف بالسجود النجم * 76 (ب) والشجر(61) والدوابَّ التي هي عندنا جوامد . فكيف أحد الثقَلَيْن(62) اللذين بُشِّرا بالثواب ، وأُنذرا بالعقاب ، وخوطبا بما خوطب به الانس . وقال تعالى(63) : ﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَ الانْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ

(53) الثني : الطري .
(54) الشراب الحولي : أتى عليه الحول .
(55) الأكمه : المولود أعمى .
(56) بِرْسام : ورم في الرأس يثقل منه الدماغ .
(57) النمل : 39 .
(58) الأعراف : 27 .
(59) النور : 41 .
(60) الاسراء : 44 .
(61) انظر سورة الرحمن : 6 .
(62) الثقلان : الانس والجن .
(63) الأنعام : 130

رُسُلٌ مِنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ .

فمن لا يؤمن بأنهم لا يتكلّمون ويعقلون ، فلا يؤمن بالملائكة ، ويحتاج أن يكون قوله هذا نسقًا في كلّ من ليس له لسانٌ وجوارحُ أنّه لا يتكلّم بجوارح الانسان ؛ فالملائكة لا توصف بيد ولا لسانٍ ؛ وهم المنزَلون بالوحي على الأنبياء والمخاطِبون لهم بالكتب والسُّنّة : فلا يؤْمن بالرسالة والوحي من يتمذهب بهذا .

هموم الهوى والشباب

وقالوا إنَّ الجماع من أكبر أدوية السوداء لسرور تلك الساعة ؛ ودخول الحمّام ، لما يعرض للانسان من الانطراب فيه . من سرَّه أن تقرَّ عينه حياته ، فليتمتع ما وجد سهولة شهوته ؛ ومن اغتنم ساعة لذّته ؛ فقد غنم ؛ ومن أخّرها فقد عدم ! فإنَّ الانسانَ ابنُ الآن !.

وقالوا إن الجلوس على المياه والرياحين ممَّا يُسْلي العاشق ويتداوى من أحزانه به . وأمَّا أنا ، فأقول إن ذلك يزيد في تذكاره ؛ ونقيم البرهان على ذلك أنّ النَّفس لا تولع إلاَّ بما استحسنتْ ؛ فكلُّ مستحسَنٍ تراه يُخرجها إلى ذكر الأسني في خاطرها ، وكلّ حديث إنما يسوقه إليه ؛ وكلّ ما زيد تذكارًا زاد شوقًا ، فأعقبه سهرًا وقلقا . والشيء لا يُعانَى إلاَّ بضدّه : فكيف يشغف بحسنٍ ويُسليه حسنٌ ؟ بل يوقظه ويشغله ! ألا ترى أن المكروب ينفرج بالسرور ، والسرور يضمحلّ بالكدر ؟ .

وليس لعاشق مُرزَّأً بمالٍ ولا أهلٍ ، فيتسلّى بما يُذهب غمومه ؛ بل هو من شأنه في لَذَّةٍ حلاوتها مشوبة بحرارةٍ : وهو حكم الحلو كلّه في المذاقات ، لا يكون الا مائلاً إلى الحرارة ؟ وكذلك في المشتَّمات : كل ما تمَّتْ حرارته ، طاب ريحُه .

وإذا قاسٍ حال أزمنته التي كانت تَسُرُّه على ضروب من حالات الصبوة ، لم يجد فيها مدَّةً كانت عنده أفضل ، وأبلغ في السرور ، وأهشَّ للنفس وأليق * 77 (ا) بالحسِّ وأذكى للقلب ، وأصفى مَشْرَبًا ، وأهنأ طعْمًا ، من تلك المدَّة ، وإن كان فيها بعض جوىً ؛ فإنَّهُ لأبدَّ دون(64)الشُّهد من إبرِ النَّحلِ» 567 ، ودواؤهُ ، ما لا يرضاه ، ولا يختاره بدلاً ممَّا هو فيه ، ان يشغله عن ذلك خطْبٌ كبيرٌ ، ينسى به ما كان عليه ، والذي هو بسبيله عنده أوْلى .

(64) م : بعد .

تأمُّلات عن الطموح وزوال خيرات الدنيا

والصبوة تُحدثُ للانسان هيجانًاوهمومًا : كالمهتمِّ بالنظر في ماله ، أو المشغَّب بمحاولة ما يُصلحه ؛ فليس كلُّ شغَب[65]ضارًا ، بل يؤلم منه مكابدةُ الأعداء ومقاساةُ طلب العيش ، الذي ، إن فتر عنه شَقِيَ ، لا طلب الزيادة في الرزق ، فإن ذلك يسعى كالَبَطِرِ الذي هو بالخيار في الكدِّ أو الراحة .

والنفس توَّاقةٌ : متى سعتْ[66] إلى مرتبة ، تاقتْ إلى ما فوقها 562 ؛ فالعاقل يرى أن كلَّ كدٍّ وطلبٍ دون السعي في طلب ما لا بدَّ منه من قوام العيش فخر وأشَرٌ ورغبة وحرص[67] . ولذلك هو الانسان عن كلِّ شيءٍ مسؤولٌ ، إلاَّ عن ثلاثة : طعامٌ يسدُّ جوعه ، وثوب يستر عورته ؛ وبيتٌ يُكِنُّه من الشمس 569 . ولو أنَّ له الدنيا أجمع ، لم يكن له منها زائدًا إلاَّ حظُّ العين الذي يستوي به فيه مع غيره من الناظرين ، فسلموا من تبعاته ، وتورَّط هو في حسابه وأوزاره . وما كان إلى انقطاعٍ ونفادٍ ، فحقيق على اللبيب أن يزهد فيه أن لو آلتْ حاله إلى السلامة بعد ذهابه ، لا عليه ولا له ؛ فكيف ، وهو قد أيقن بالفناء وبعده الحساب والجنَّة أو النَّار ؟ . وقال المسيح – عليه السلام – : «الدنيا قنطرة ، فاعبروها ولا تَعْمِروها !» 570 .

على أنَّه لا يوجد أحدٌ يزهد في حالٍ كلَّ الزهادة ، حتى يبلغ منه أمله أو بعضه ؛ فإن الزهادة الطبيعية إنَّما تكون فيما تكره النفس ، ولا بُدَّ من ميلها إلى ما فيه أدنى سرورٍ . والله يقول في الانسان ، لعلمه به[68] : ﴿وإنَّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ ؛ فكأنَّ الشيءَ ، إذا أُدرك ، انصرفتْ عنه النفس لبلوغ نَهمْتها ؛ ومتى تمنَّع * 77 (ب) عليها ، كانت به أشدَّ كَلَفًا .

ولقد بلوتُ من نفسي بعض ذلك ، اذ الطبع البشريُّ واحدٌ ، لا يكاد يختلف إلاَّ في الأقلِّ ؛ ولذلك أُمر الانسان أن يحبَّ لأبناء جنسه ما يحب لنفسه 571 ، حضًا[69] 572 على العدل والانصاف . وأجدني في كثرة المال ، بعد تملُّكي عليه مع ذهابه ، أزهدَ مني فيه قبلَ اكتسابه ، مع شفوف الحال إذ ذاك على ما هي عليه الآن . وكذلك شأني كله في كل ما أدركتُه قبلُ من الأمر والنهي ؛ واكتساب

(65) الشغب : القلق ، الهم .
(66) م : سمعت .
(67) م : فخراً وأشراً ورغبةً وحرصاً .
(68) العاديات : 8 .
(69) م : حظاً .

الذخائر ، والتأنق في الطعام والملابس والمراكب والمباني ، وما مشاكل من الأحوال الرفيعة التي نشأنا عليها ، حتى إنَّه لم يَبْقَ من ذلك ما تتمنَّاه النفس ، وما لا تظنُّه ، إلاَّ وقد بلغْنا منه الغاية ، وتجاوزْنا فيه النهاية ؛ ولم يكن عند الحصول عليه ينقطع ويذهب وشيكًا ، فتطول عليه الحسرة ويُعدُّ من جملة الأحلام ! بل ، تمادى برهة من عشرين عامًا ؛ وما كان قبله من العمر يكاد أن يوازيَه ؛ إذ رُبِّينا في حِجْرِه 573 . ووجدتُني ، بعد فَقْد هذا كلِّه ، على الولد أحرصَ مني على ما سواه من كلِّ ما وصفنا ، لعُدْمِه ذلك الوقت ؛ وقلت في نفسي : «الغاية التي إليها يسعى الناس من أمر دنياهم ، قد أدركناها ، وشُهرنا بها في الآفاق ؛ ولا بدَّ من فَقْدِها ، باكرًا[70] كان أو مؤخرًا ، بحياةٍ أو بموتٍ ! فنحسب هذه العشرين عامًا هو مائة عامٍ ، إذا تمَّت سواءً ، و(كأنْ لم تَغْنَ بالأمس)[71] ، ونحن الآن جدراءُ بالنظر فيما نبتغيه . ولله أن يقضي ما يشاء !» .

قيل لرجلٍ حرَّاثٍ : «هل زرعتم ؟» فقال : «حرثْنا . والله الزارع !» وبذلك ذُكر أنَّه لم يَبْقَ من المتوكلين على الله غيرُ المزارعين ؛ فإنهم يدفنون في الأرض أقواتَهم ويطلبون فضل الله وبركته .

ابناء المؤلف

وكان تدبيرنا هذا إلهامًا لينفذ القَدر ، بكون من نشأ لنا منهم لم يتبعَّدْ وقته ، ولا كان في غير مكانه .

وذكر * 78 (ا) الفلاسفةُ أنَّ الوحي يتجزَّأ[72] على ثلاث : كلامٌ وإلهامٌ ، ومنام ؛ وهو قوله تعالى[73] ﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾ . وقيل في قوله[74] – عزَّ وجلَّ – ﴿وأوحَيْنَا إلى أُمِّ موسى أن أرضعيه﴾ إنما كان وحيَ إلهامٍ . وكان النبيُّ – عليه السلام – يقول في بعض أقسامه : «لا ! ومقلِّبِ القلوبِ !» 574 فإنها بين يديْ الرحمان يقلِّبها كيف شاء لينفِّذ فيها أحكامه وتَجري عليها أقداره .

فما بقي لنا من مالٍ حلالٍ للمعاش ، يُغنى عن السؤال ، وعملٍ صالحٍ للمَعاد[75] ، يُنجي من العقاب ويوجب الثواب .

(70) م : بكيراً .
(71) يونس : 24 .
(72) م : يتجزى .
(73) النحل : 68 .
(74) القصص : 7 .
(75) المعاد : الآخرة .

وقد كان سقراطُ الحكيمُ يكره الوطأ(76) مدَّة عمره ، يعتقد بذلك أنَّه مهرمة للجسم ومُسرعٌ إلى الفناء ، 575 فقد قيل إنَّ فاعل ذلك مُقتبِسٌ من حياته ؛فمن شاء ، فَلْيُقَلِّلْ ، ومن شاءِ فليُكْثِر ! ولهذا رجَّح الجاحظ في (كتاب الحيوان) بأنّ الخصيَّ إنَّما طال عمره من أنَّه لا يجامع 576 .

وأمَّا أنا فأقول إنَّ تلك الساعة التي يستحيل فيها عن الإنسانية بقطعه إلى الـ....(77) أشدُّ استفراغًا ، وأذهبُ لجوهريَّته ، وأقطعُ لعروقه من أن لو جامع كلَّ يومٍ من عمره عشر مرَّات ؛ لأنَّ المُجامعَ مخرِجٌ للفضول ، وهذا خرج منه الجوهر ، وفُرِّغت عروقه ، ولَيِّنت لحمه ، وأُضعفت عُصُبه ، وأرختْ جلدته .

ولمَّا كبر سنُّ سقراط ، وعلم أنَّه ليس بعد الكِبَر إلاَّ الموت ، جامع مرَّةً من عمره ، آخر زمانه ، وتأوَّل في ذلك إتمامًا لحكمة البارىء – عزَّ وجلَّ – ؛ وقال : «لم تكن حكمة النسل إلاَّ بهذا الفعلِ ؛ وإن أنا متُّ تاركًا له أصلاً ، كنت كالساخط أو المعنِّت(78) لما رتَّبه الرَّبُّ ، وعسى بذلك نستوجب عقابَه !» ثمَّ قال ، إذ حضره الموت : «ما أظنُّ عيبًا عليَّ إلاَّ مجامعة تلك الساعة» .

وكان من نعمة الله عليَّ أن رزقني بكرَ أولادى ابنةً ، لم يزلْ قبيلُنا كلُّه يتبرَّك بها ، ويكره أن يكون بكرُهُ ابنًا ذكرًا . وقد رأينا في سيف الدولة أبينا – رحمه الله – أن لم تتمَّ له فرحته بذلك 577 ؛ على أنَّ هذا * 78 (ب) ليس على العموم ؛ وإنَّما ذكرناه للتفاؤل ، إذ قال نبيُّنا – عليه السلام – : «تفاءلوا ولا تطيَّروا !» 578 فنحن قد تفاءلنا ، لا سيما بما شُهر عند أهالينا وقالوه قديمًا ، ولو كان ضدَّه ، ما ذكرناه ، للنهي عنه .

ثم رزَقنا بعد هذا ابنيْن . فلم نُبشَّر بالأنثى ، كي لا يجتمع علينا حزن ذلك مع ما نحن بسبيله ، لُطفًا من الوهَّاب وإنعامًا وإحسانًا . فتعداد نعَمِ الله شكرٌ لها ، والاعلان بها على وجه الشكر والتقوى ، لا على وجه الفخر والخُيَلاء ، من أوجب ما يأخذ به الانسانُ نفسَه . قال النبيُّ – عليه السلام – : «أنا سيِّد ولد آدم ، ولا فخر ؛ وأنا أفصح العرب ، ولا فخر !» 579 .

حديث المؤلف إلى قرَّائه

ثمَّ انصرف وجهُ اهتبالنا إلى وضع هذا الكتاب ، وهو لَعَمري بمنزلة الابن الذي

(76) م : الوطيء .
(77) بياض كلمة في الأصل ، لعلَّها «الحيوانية» .
(78) المعنِّت : طالب الزلَّة والمشقَّة .

يُبقي ذكرَ أبيه في العالم ، لنبيِّن به عن أنفسنا ما أشكل على الجاهل من مقالة سوءٍ [في دولة] زعم الحاسدون أنَّ منها كان سقوطنا . ولن نعدم مع هذا بركتها لما نرجوه من ثوابها وحسناتها لبعدنا منها ونزاهتنا عنها . وإنما وضعنا هذا الكتاب لمن أشكل عليه الأمر من أهل الفضل والحقِّ ، المحبِّين[79] لله فينا ، الوادين[80] الخيرَ لنا ؛ ولا يزيد البغاة إلاَّ طغيانًا وتعنيتًا[81] .

فنردُّ على أهل الانصاف وذوي الألباب :

«إنَّكم أنتم المخاطَبون من الله ورسوله ! فعليكم اعتمدنا ، وإياكم خاطبنا ، ولكم ما تكلَّفنا ! فلا عمي[82] بكم عن المعرفة تحيُّدكم عن المنهاج ؛ ولا شنآن[83] ؛ لِترةٍ[84] سلفتْ تُحرِّفكم إلى نفثات الحاقدين ! والله يجعلنا في الجنَّة إخوانًا ، كما جعلَنا على الخير أعوانًا !»

ونردُّ على من اعترض جهلاً أو حقدًا :

«اخسأ[85] بجهلك ، ومتْ بغيظك ! فليست الأقدار جاريةً على اختيارك ، ولا أنت بالمخاطَب ! بل تأخذ بأدب الله تعالى لنبيِّه – عليه السلام – في قوله[86] : ﴿خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِين﴾ . وهل تنقم ، أيُّها الطاعن لنا ، بأننا ورثنا ملكًا عن آباء كرام ، يومٌ منه خيرٌ من عمرك كله ؟ إذ قالت * 79 (ا) العُلماء إنَّه من عاش ذا فضلٍ على نفسه وأصحابه ، فهو ، وإن قصُر عمرُه ، طويلُ العمر ، مع أنَّه كان في طاعةٍ لم توصف مقدَّما ، بحمد الله ، بجَوْرٍ ولا طغيانٍ ، ولا سفكْنا دمًا ، ولا غصبْنا مالاً 580 . وكانت مدَّتنا فيه نحوًا[87] من عشرين عامًا خيرًا من سنين ، إذ ﴿لَيْلَةُ القَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾[88] . وتمام المُدد على قديم الدَّهر عادةٌ لا تُستغرب لنا خاصَّةً . ولا بد من الفراق ! فلله الحمدُ إذ لم نفقدها بفقْد عقولنا ولا أدياننا ، ولا تمت بنفاد أعمارنا : فيوم من عُمر الانسان يذكرِ الله فيه خيرٌ من تمام عمله ؛ ومَيْتَةٌ على بلاءٍ وتذكارٍ خيرٌ من مَيْتةٍ على فتنةٍ غفلةٍ .

(79) م : المحبُّون .
(80) م : الوادون .
(81) تعنيتا : طلباً للأذى والزلة .
(82) م : عما .
(83) شنآن : بغض .
(84) ترة : سيئة .
(85) اخسأ : اخرسْ .
(86) الأعراف : 199 .
(87) م : نحو .
(88) القدر : 3 .

المؤلف يدافع عن مَسْلكِه أميرًا

ثم أضربتَ عن وصف كل جميلٍ فعلناه ، وحزمٍ استشعرناه ، وخدمةٍ للدولة تكفلناها وطلبتَ بُنيَّاتِ الطريق(89) ، وتنبَّعتَ ما لاعارَ فيه على الملك ، ولا نقصانَ في المملكة ، من راحةٍ تُختلس عند الفراغ من الشغل كي يُعقب نشاطًا ، وعملٍ دُفعنا إليه تسلية . فقد قالت الحكماء : «ترك اللّذات يُعقب البَردَة(90) ، ويؤثر في الجلد أدواء منكرةً» . وقيل : إذا لم يكن بالمرء على البقاء مقدرة ، فليتمتَّع ؛ فإنَّ ترك ذلك للنفوس 581 .

فهجَّنتها(91) بلفظك ، وأخرجتَها من حيِّز الهزْل إلى الجدِّ ، وكنتَ كجارٍ سُبَبة(92) : إن رأى حسنةً ، كتَمَها ؛ وإن رأى سيئة أذاعها . فطَفَّفْتَ وأربَيْتَ إن افتريتَ ، وما أذعتَ هذا ، وأنت تعلم أنَّه لم أكن مخلوعَ العِذار(93) ، ولا أخلدتُ إلى راحة توجب الغفلة ، كالذي صنع مَنْ كان قبلنا من ملوك ، وتَعَفَّفنا عن الدماءِ والأموال والحُرم 582 ! ولم يبق لك ما تقول : «إنما كان صاحبُ غرناطة حريصًا على جمع المال ، محبًّا في الحسان ، يُنادم الصبيان !» لم تحسن الرويَّة ، ولا ظننته فكرًا .

ألستَ تعلم ، أيها الجاهل ، أنَّ المَلِكَ لا يَنْتَفِع من المال إلاَّ بما كان أوقارًا(94) ؟ وهل استوجب المَلِكَ إلاَّ بذلك ؟ وكيف لا يحرص على صيانة عزه والعدَّة على عدوِّه ؟ ما أنساك ما علمتَ أنه مَنَعَ من حقٍّ أو أعطى في غير ما يجب ؟ فقل متى ضاع معقِلٌ ، أو رفض * 79 (ب) جُنْدًا ، ودخلتْ داخلة من التقتير أو المنع ؟ أو متى شكا رجلٌ من المسلمين أنَّه أخذ مالاً بغير حقٍ ؟ لم تستطع على تزوير ذلك ! فالأغلب يعلم صحته . أكثرْ من قولك ، متى خرج من عنده شاعرٌ بصلةٍ جزلةٍ ، أو متى خرج [مادحٌ] بكسوةٍ سنيَّةٍ : أمر لا أحتاج فيه إلى اعتذار ، إذ العمل به من الإدبار .

وأمَّا منادمة الصبيان ، فإذ لم يكن بدٌّ من استعمال شيءٍ من الخمر ، التي قد تاب الله(95) علينا منها ، فما للعُقارِ والريَّار(96) وليس ذلك مجلسَ حكمٍ ، فيُتخيَّر

(89) بُنيَّات الطريق : الطرق الصغيرة المتشعبة .

(90) البَردة : التخمة ، ثقل الطعام على المعدة .

(91) هجَّنتها : عبتها ، قبَّحتها .

(92) سُبَبة : كثير السب للناس .

(93) مخلوع العِذار : منهمك في الغي (كالدابة بلا رسَن) .

(94) أوقار : أحمال .

(95) تاب الله : غفر . اشارة إلى سورة المجادلة : 13 .

(96) الريار : الريق يخرج من فم الصبي .

له ذوو الأسنان ، ولا وُضِعَ لتدبير رأيٍ ، فيشاوَرُ فيه أهلُ العلم ، ولا ميدان حرب ، فيُدعى إليه أنجاد الفرسان ! ولِكلِّ وقتٍ حكمٌ ، من استعمل فيه غير شاكلته ، فقد جهل . ولم نكن مع هذا نأخذ معهم في جِدٍّ ، ولا نمكّنهم من أمرٍ ، ولا نُنهضهم إلى غير طريقتهم . . والمستعمَلون لخدمة الدولة مشهورون ممّن له حنكة ودربة 583 ، والخديم لا يكون نديمًا 584 . كيف تصول اليوم على من أطلع على عوارتك البارحة ، إذ السكر عورة ؟ أم كيف تأمر بخدمة الجندية والشدة عليه في الخروج مَنْ تعاطى معك الكأس ، وكثّر معك المزاح والعربدة ؟ ثم تطلبه لخدمتك ، فتجده عِثْولاً[97] عمّا يصلحك مشغولا .

وبغير هذا كلّه ، فإن الدُّول الكبار لم يزل فيها الغلمان وأبناء الصنائع صغارًا وكبارًا ، عبيدًا وأحرارًا ، وهم بين يدي الرَّئيس جمالٌ ، وعلى خدمته أعوانٌ ؛ ويتصرَّف الصغير السّنِّ فيما لا ينبغي للمسنِّ أن يتولاّه . ولكلٍّ درجتُه ورتبتُه . وهل المُلْكُ أو المال إلاّ للتزيُّن والتجمُّل به ، وانتخابُ الحسان منهم تليق بهم الكسوة السنِّية والمراكب الفارهة ؟ وأخوك من واتاك 585 ، إذ يتعبَّد[98] بمالك من شئت يتعبد [في خدمتك من] حرٍّ أو مملوكٍ ....

جعلَنا الله وإيَّاك عن الشرِّ مُعرضين ، وبطاعته عاملين ! إنَّه أكرم الأكرمين ! لا ربَّ غيره ، ولا إلهَ حقٌّ حاشاه (586) ! .

(97) العِثْوَل : الجافي الغليظ .
(98) يُتعبد : يُستخدم ، يُتخذ عبداً .

التعليقات والشروح

الفصل الأول

(1) انظر الجاحظ ، البيان 1 / 98 ، 3 / 328 .
(2) المعجم المفهرس ، 4 / 138 .
(3) انظر كتاب الحيوان ، 1 / 89 وما بعدها .
(4) انظر الامتناع ، 2 / 152 . زهر الأداب ، 4 / 120 .
(5) مثل معروف – انظر الميداني ، 1 / 174 . جمهرة ، 203 . العقد ، 1 / 254 .
(6) انظر الفِصَل ، 1 / 108 .
(7) انظر الفِصَل ، 1 / 14 .
(8) المعجم الفهرس ، 1 / 194 .
(9) انظر إخوان الصفا ، 3 / 229 .
(10) الميداني ، 2 / 210 .
(11) اخوان الصفا ، 3 / 228 .
(12) انظر اخوان الصفا ، 3 / 360 .
(13) نفسه ، 1 / 99 ، 108 وما بعدها .
(14) المعجم الفهرس ، 2 / 322 .
(15) انظر رسائل الجاحظ ، 2 / 229 .
(16) انظر الجاحظ ، البيان ، 3 / 381 .
(17) انظر رسائل الجاحظ ، 2 / 29 . العسكري ، 115 .نهاية ، 8 / 186 . وفيها جميعًا ترد «وَعَظ» لا «أتعظ» .
(18) المعجم الفهرس ، 2 / 519 .
(19) الاشارة إلى دولة بني زيري في غُرناطة التي ينتمي إليها المؤلِّف .
(20) انظر رسائل الجاحظ ، 1 / 313 .
(21) يُنسب إلى إياس بن معاوية في البيان للجاحظ ، 1 / 114 ، وكذلك في عيون الأخبار ، 1 / 225 ، 280 .
(22) يُنسب إلى ثاني الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب . انظر الجاحظ ، البيان ، 2 / 328 . نهاية 3 / 5 .
(23) إن لقب «المظفر» الذي تلقب به باديس بن حبوس جد عبد الله اتخذه عبد الله أيضًا حينما ارتقى عرش غرناطة .

(24) كان التمكن من العربية وتلاوة القرآن الكريم أساس التعليم الاسلامي في العصور الوسطى (انظر ابن خلدون : المقدمة ، 538) . لقد رأى باديس أن حفيده تلقى ما يكفي من التعليم الأساسي فاراد ان يكسبه تدريبًا عمليًا على فن الحكم .

(25) الأخ الاكبر للمؤلف هو المعز تميم ، وعمهما ماكسن ، وكان كلاهما - كما يقرُّ عبد الله - أحقَّ منه بوراثة الملك وأقوى منه ومع ذلك فإن باديس - كما يضيف المؤلف - آثره عليهما في ولاية العهد .

(26) توفي سيف الدولة بلقين - والد عبد الله - في سنة 456 هـ / 1064 م (المرقبة ، 92 . الاحاطة ، 1 / 434)أو في السنة التالية (ابن عذاري ، 3 / 261) .
ومن الغريب أن يقول المؤلف إنه لم يكن لجده ابن سوى سيف الدولة بعد أن ذكر قبل قليل أن عمه ماكسن كان منافسًا له ، اللهم إلا إذا كان المقصود أن والده كان ابن باديس الوحيد الجدير بأن يخلفه في الملك . وسيتحدَّث عبد الله فيما بعد عن عمه ماكسن الذي استُشهد في وقعة الزلاقة عام 479 هـ / 1086 م(التبيان ، 74) .

(27) انظر الجاحظ ، البيان ، 3 / 111 .

(28) مثل معروف يُنسب إلى اكثم بن صيفي . الا أن عبد الله - ولعلَّه يعكس عدم ثقته بالعامة - يستعيض عن كلمة ''الناس'' في المثل بكلمة ''العامة'' - (الميداني ، 1 / 264 . الجاحظ ، البيان ، 1 / 130) .

(29) ينتمي محمد بن أبي عامر الملقب بالمنصور الى اسرة عربية كانت قد نزلت في الجزيرة الخضراء عند الفتح العربي . وقد استبد المنصور بالسلطة بالرغم من أنَّه - كما يقول عبد الله - لم يكن من البيت الاموي أو من الخاصة ، ولم يبدأ سيرته بشغل منصبٍ سامٍ (ابن عذارى ، 2 / 374 وما بعدها ، 382 وما بعدها . الحلة ، 1 / 268) .

(30) لكسب رضى العامة ، قام المنصور بحملة ضد الفلاسفة وأهل الفلك والتنجيم ، وأمر بحرق واتلاف كتب الفلسفة والفلك بمكتبة الحكم المستنصر الشهيرة .
ومن بين التدابير الأخرى التي اتخذها المنصور للغرض ذاته قضاؤه على سلطة الصقالبة في البلاط الأموى ، والقرار الذي اتخذه عام 388 هـ / 998 م بالغاء الخدمة العسكرية الالزامية (طبقات الأمم ، 66 . ابن عذارى ، 2 / 374 وما بعدها ، 382 وما بعدها ، 437 . اعمال ، 59 ، 68) .

(31) كان علم التنجيم شائعا في الأندلس بالرغم من استنكار الفقهاء لمزاولته . ويشير المؤلف في كتابه اكثر من مرة إلى تكهنات المنجمين عن طالعه وطوالع غيره من ملوك الطوائف (وعن تكهنات المنجمين عن حسن طالع ابن المنصور عبد الملك انظر الذخيرة ، 4 / 1 ، ص 79 . الحلة ، 1 / 270) .

(32) لما خلف هشام اباه الحكم الثاني (366 هـ / 976 م) لم يكن يتجاوز العاشرة من عمره ، وكان ضعيف البنية وتنقصه المقدرة على الحكم . وقد احتفظ المنصور بهشام خليفة بالاسم دون أن تكون له سلطة حقيقية ، بل واذاع بان هشامًارغب في الانقطاع للعبادة وبأنه فوَّض إليه كافة السلطات لتسيير شؤون الدولة (الذخيرة ، 4 / 1 ، ص 73 . أعمال ، 58) .

(33) لما ولي هشام الخلافة رفع المنصور إلى مرتبة الوزارة . وبعد عام من ذلك ، صُرِف المصحفي عن الحجابة واستعيض عنه بالمنصور (ابن عذارى ، 2 / 398 .اعمال . 60) .
كان منصب الحاجب في الأندلس يوازي منصب الوزير في المشرق ، ومنصب حاجب القصر في مملكة الفرنجة . وقد سما منصب الحاجب بفضل المنصور مما حدا بملوك الطوائف فيما بعد إلى حمل هذا اللقب تدعيمًا لمراكزهم (المقدمة ، 240 . المقري ، 1 / 216).

(34) هذه إشارة إلى قيام المنصور - بعد ست سنوات من وفاة الخليفة الحكم الثاني (366 هـ / 976 م) - بالتخلص من رجال البلاط الصقالبة ، ومن الحاجب المصحفي ، ومن القائد الكبير

غالب ، ومن جعفر بن حمدون المعروف بابن الأندلسي (ابن عذارى ، 2 / 386 وما بعدها ، 393 وما بعدها ، 417 ، 427) .

(35) بعد وفاة المنصور محمد بن أبي عامر (27 رمضان 392 هـ / 8 اغسطس 1002 م) عيّن الخليفة هشام الثاني الابن الأكبر للمنصور – المظفر عبد الملك – خلفًا لأبيه في منصب الحجابة . وقد سار عبدالملك على سياسة ابيه ، فعزز الجيش النظامي ، وقاد بنفسه غزوات سنوية ضد قشتالة وجليقية وبرشلونة (ابن عذارى 2 / 438 . الحلة ، 1 / 269 وما بعدها) .

(36) ما إن علم أمراء النصارى بشمال اسبانيا بنبأ وفاة الحكم الثاني حتى اخذوا في شنّ الغارات في مناطق الثغور ، فشرع المنصور لذلك في تجهيز وشن حملات تأديبية ضدهم صيفا وشتاءً. ويذكر أنه شنّ ستًا وخمسين غزاة عاد منها جميعًا ظافرًا ، ومن هنا جاء لقبه ''المنصور'' الذي اتخذه فيما بعد بدلاً من ''الحاجب'' (الذخيرة ، 4 / 1 ، ص 44 . اعمال ، 60 ، 66 وما بعدها ، 81) .

الفصل الثاني

(37) للتخلص من العصبيات القبلية العربية في الجيش ، اعاد المنصور تنظيمه بحيث أصبح يضم فرقًا افرادها من مختلف القبائل . وفضلاً عن ذلك ، ولتمكينه من مواصلة غزواته ضد النصارى بشمال اسبانيا ، لجأ المنصور إلى إقامة جيش ثابت قوى معظم أفراده من قبيلة زناتة المغربية ، وبعض الجنود المرتزقة من النصارى من شمال اسبانيا ، وكان ولاؤهم له شخصيًا ، فكان باستطاعته الاعتماد عليهم لدعم سلطانه (المقتبس ، 7 / 193 . ابن عذارى ، 2 / 408 وما بعدها . المقري ، 1 / 397) .

(38) إن السياسة الخاصة بتجنيد المغاربة بدأها في الواقع الخليفة الحكم الثاني ، وكانت الخطوة الأولى التي اتخذها في هذا السبيل حينما انحاز إلى جانب الأمويين سنة 360 هـ / 971 م ابنا علي بن حمدون جعفر ويحيى ، اللذان كانا قبل ذلك من كبار مؤيدي الفاطميين في افريقية . وفي الوقت ذاته ، رحب الحكم بفكرة تجنيد بني برزال الزناتيين ، وكانوا قد ساهموا مساهمة كبيرة في هزيمة زيري ابن مناد . وواصل المنصور سياسة اصطناع زناتة (المقتبس ، 7 / 192 وما بعدها . مفاخر 44) .

(39) عُدوة (بضم العين) حسب لهجة قريش ، عِدوة (بكسر العين) حسب لهجة قيس ، أو عَدوة (بفتح العين) كما في لهجة المغرب ، بمعنى الشاطىء أو ضفة النهر أو جانب الوادى (انظر لسان العرب ، 19 / 267 . 105 / 2 **Supplément**) . وترسم الكلمة ''عُدوة'' (بضم العين) في القرآن الكريم (الأنفال ، 42) .وبالنسبة للأندلسيين ، الذين يبدو أن ''عِدوة '' (بكسر العين) كانت شائعة بينهم ، فإن العُدوة (بر العُدوة) كانت تعني شمال إفريقيا ، باستثناء افريقية . اما في المغرب فإن العدوة كانت تعني الأندلس .

(40) لمس الأندلسيون القدرات القتالية للبربر اثناء حربهم ضد الحسن بن قنون (360 – 363 / 1 – 974 م) ، وفي اللقاء الحاسم بين المنصور – وكان جند البربر يشكلون ميمنة جيشه – وبين غالب بن عبد الرحمان (أعمال ، 63) . وبعد إلغاء خلافة قرطبة ، وأثناء الفتنة التي أعقبتها ، يقول ابن حيّان عن البربر إنه لا ''يُقتل الأعداء إلا بهم ، ولا تعمر الأرض إلا في جوارهم'' (انظر الذخيرة ، 2 / 1 ، ص 21)

(41) خلافا لما يقوله عبد الله ، فإن زاوي بن زيري وصنهاجة استدعاهما إلى الأندلس عبد الملك المظفر لا والده المنصور ، الذى ''التوى في الاذن له [زاوي] بالدخول إلى الأندلس حذرًا من دهيه ومكره وبُعد صيته في المغرب'' . الا أن عبد الملك تغاضى عن مخاوف أبيه ، ودعا زاوي للقدوم أملاً في ''طلب السمعة باستخدام مثله'' (الذخيرة ، 4 / 1 ، ص 81 . مفاخر ، 26) . ولعلّ عبد الملك اتخذ قراره بعد أن نقل العُبيْديون – وكان بنو زيري آنذاك من أكبر مؤيّديهم مقرّ دولتهم من إفريقية إلى مصر ، وبعد الانشقاق الذي حدث في صفوف الزيريين ، ولرغبته – قبل كل شيء – في إحداث

توازن بين زناتة في الأندلس وبين اعدائهم التقليديين صنهاجة . ومن الجدير بالذكر أن المؤلف لا يذكر شيئًا في هذا المقام عن الحروب بين زناتة وصنهاجة في شمال إفريقيا ، ولا يشير إلى المنازعات الداخلية بين بني زيري انفسهم وهي المنازعات التي كانت سببًا مباشرًا لرحيل زاوي عن شمال افريقيا بعد مصرع أخيه ماكسن – والد حبوس – في القتال ضد باديس بن المنصور (ابن عذارى ، 3 / 263 . اعمال ، 227) . وفي الاندلس اشتهر زاوي بدهائه ومكره وطموحه وبأسه في القتال ، وكان له دور حاسم في تنصيب سليمان المستعين خليفة سنة 399 هـ / 1009 م ، وتعهّد له بمساعدة صنهاجة قائلاً : ''وأنا الكفيل بصنهاجة'' (الاحاطة ، 1 / 515) . ويصف ابن حيان حبوس ابن ماكسن بالشجاعة والدهاء والفروسية والرجولة (الذخيرة ، 1 / 1 ، ص 404) .

(42) كان من نتيجة إصلاح المنصور العسكري خلق جيش ثابت قوي وإعفاء الأندلسيين ، اعتبارًا من عام 388 هـ / 998 م ، من الخدمة العسكرية الالزامية بعد ان توفر لديه عدد كافٍ من الجند المغاربة ، ودعا الأندلسيين الى الالتحاق بغزواته على أساس تطوعي . وكان من جراء هذه السياسة ان نعم أهل الأندلس بالرخاء (أعمال ، 68) .

(43) هذه كذلك وجهة نظر الرحالة المشرقي ابن حوقل الذي لاحظ – بعد زيارة الأندلس سنة 337 هـ / 8 – 949 م – أن الأندلسيين تنقصهم الشجاعة والفروسية والثبات في ساحة القتال (ابن حوقل ، 108 وما بعدها) . الا أنه ينبغي أن نذكر بأن ابن حوقل كان ذا ميولٍ شيعية ، ولعلّه كان يرمي من وراء قوله إلى حفز الخليفة الفاطمي في إفريقية على غزو الأندلس وانتزاعها من ايدي الأمويين .

(44) ان رواية صاحب (التبيان) عن قيام المنصور بإعادة تنظيم الجيش وبإعفاء الأندلسيين من الخدمة العسكرية الالزامية شريطة مساهمتهم بضريبة سنوية للانفاق على الجيش الجديد هي رواية مهمة وفريدة بالنسبة لجانبها المالي . ولعل الأمير عبد الله – بإشادته باصلاحات المنصور العسكرية وبقوله ان حكام الأندلس حذوا حذوه – يهدف إلى الدفاع عن نفسه وعن بقية أفراد اسرته ضد الاتهامات التي وجّهها اليهم الفقهاء وغيرهم بفرضهم على الرعية ضرائب غير تلك التي أقرّها الشرع (التبيان ،136، 158 رسائل ابن حزم ، 3 / 173) .

(45) كما يذكر المؤلف ، فإن القضاة والفقهاء في الأندلس – وخاصة في عهد الأمويين – كانوا موضع تقدير وحظوا بنفوذ كبير (انظر اعمال ، 145 وما بعدها . المقري ، 1 / 217 وما بعدها) . يذكر ابن حيان ان عبد الملك بن المنصور كان يستجيب لكافة رغبات زاوي وأقربائه الا في الأمور الخاصة بالشريعة (انظر الدخيرة ، 4 / 1 ، ص 82) . ويحاول عبد الله الدفاع عن ملوك الطوائف بتاكيده على انّهم كانوا كذلك دائمًا يُجلّون الفقهاء ولا يتدخلون في تطبيق الشريعة .

(46) لما كان هشام الثاني لا يمتلك سلطة حقيقية ، فان المؤرخين الأندلسيين يتحدثون عادة عن الدولة العامرية التي بدأت بالمنصور وانتهت بابنه الثاني عبد الرحمن . كان الخليفة في قرطبة إمام الأندلس ، الاّ أنه لما ظهر خلفاء في الأندلس – أمويون وغير امويين – حتى منتصف القرن الخامس الهجري ، أى إلى نحو خمسين سنة بعد نهاية الدولة العامرية ، فإن عبارة عبد الله غير دقيقة تمامًا ، وهو يحاول تبرير تجزؤ الأندلس باختفاءالخلافة في قرطبة . والحقيقة هي انه بعد سقوط العامريين ، بدأ البربر – على سبيل المثال ، بمن فيهم زاوي وصنهاجة – بتقديم الولاء إلى الخليفة الأموى سليمان المستعين ، ثم نقلوا ولاءهم – لمصلحتهم الخاصة – إلى الحمّوديين ، فاعترفوا بهم خلفاءً إلى أن زالت خلافتهم عام 448 هـ / 1057 م (البكري ، 134 . ابن عذارى ، 3 / 152) .

(47) بالرغم من قول عبد الله بان رؤساء صنهاجة فكّروا في العودة إلى شمال إفريقيا بعد ان رأوا انقسام الأندلس بين عدد من الأمراء المتنافسين ، فإن صنهاجة في الواقع قامت بدور حاسم في مجرى الأحداث بعد سقوط الدولة العامرية . فبفضل زاوي واخوانه من رؤساء البربر ، نودي بسليمان ابن الحكم خليفة(ربيع الأول سنة 400 هـ / نوفمبر 1008 م)، فاستردّ قرطبة (27 شوال 403 هـ / 11

مايو 1013 م) ، وقام على الأثر بتقسيم جنوب الأندلس بين ست من قبائل البربر ، فكانت إلبيرة من نصيب صنهاجة (ابن عذارى ، 3 / 113 . اعمال ، 119 ، 228) . بل إنّ البربر بعد دخول قرطبة توثّبوا على الأقاليم وتملّكوا كبريات المدن (العبر ، 4 / 151) . وحتى لو لم يرغب سليمان في ذلك ، فإنّه ما كان باستطاعته ان يفعل غير ما فعل ، إذ إنه كان تحت سيطرة البربر التامة ، حتى إنه كثيرًا ما كان يشار إليه بإمام البربر (ابن عذارى ، 3 / 83 . أعمال ، 228) . وإذا كان زاوي اعتزم الرحيل عن الأندلس حقا ، فلماذا بقي في البلاد ثماني سنواتٍ ، وقام بدور نشط في الأحداث ، وتحصّل لقومه على كورة إلبيرة الغنية حيث يبدو أنه – مبدئيًا على الأقل – كان مصمّما على البقاء ؟ (الذخيرة ، 1 / 2 ص 588) .

لقد حظي زاوي وقومه بكل تكريمٍ من قِبَل عبد الملك بن ابي عامر ، الذي ولاّه الوزارة (الذخيرة 4 / 1 ، ص 82) أو الحجابة (الاحاطة ، 1 / 513) . إن البربر لم تُسأ معاملتهم الا في فترة قصيرة من خلافة المهدي بن عبد الجبار الذي اعتبرهم المساندين الرئيسيّين للعامريّين . وبعد هزيمة المهدي وانتصار سليمان المستعين ، اصبحت صنهاجة وغيرها من قبائل البربر اقوى منها في اي وقت مضى ، وخلافًا لما يدّعيه عبد الله ، فان صنهاجة لم تفقد شيئًا من امتيازاتها السابقة .

(48) يرسمها العُذري ''لبيرة'' (العذري ، 92 وما بعدها) ، ويشير إليها جغرافيان مشرقيّان ب ''لبيرة'' و ''يلبيرة'' (المقدسي ، 236 . ياقوت ، 1 / 338 وما بعدها) . وقد كانت البيرة مركزا دينيًا وإداريًا في عهد القوط الغربيين ، وكانت تعرف آنذاك ب Eliberris أو Iliberris ، ومنه اشتقّ اسمها العربي ''إلبيرة'' .

ويشير المصنّفون الأندلسيّون إلى سهل إلبيرة باسم البسيط ، والفحص ، والسهل ، والمرج ، وقد اشتهر بخصب تربته ووفرة مياهه وغلاته . وبُعيْد الفتح العربي للأندلس ، أُنزل جند الشام في سهل إلبيرة لشبهه بغوطة دمشق (العذري ، 92 وما بعدها . قلائد ، 226 وما بعدها . الاحاطة ، 1 / 103 . المقّري ، 1 / 148) . Recherches,1 / 328 f. "Description", 27 ff.

(49) يبدي ابن حوقل ، وقد زار جزيرة صقلية في منتصف القرن الرابع الهجري ، ملاحظةً مماثلةً عن مغالاة أهل بلرم في اقامة المساجد على مسافات متقاربة (ابن حوقل ، 120 وما بعدها) .

(50) كما ذكر في الهامش 47 ، فإن كافة المصادر الأندلسية تذكر بأنّ الخليفة الأموى سليمان قام ، بعد استرداد قرطبة بمساعدة البربر سنة 403 هـ / 1013 م ،بتقسيم جنوب الأندلس بين الجماعات البربرية المختلفة (انظر ابن عذارى ، 3 / 113 . اعمال ، 119) ، فكانت كورة إلبيرة من نصيب زاوي ابن زيري . لذلك فإن أهل البيرة لم يؤخذ رأيهم في الموضوع ، فهم لم يستدعوا زاوي ، كما رعم عبد الله ، كما أنهم لم يُستشاروا في من يتولى أمرهم . وفي الواقع ، فان أهل البيرة كانوا قد عانوا الأمرّين على يد البربر بعد ان طُرد هؤلاء من قرطبة (400 هـ / 1010 م) ، بحيث كان من المستبعد جدًّا ان يقع اختيارهم عليهم ، ناهيك عن استدعائهم للاستيطان بين ظهرانيهم (ابن عذارى ، 3 / 96 – 113 .مفاخر ، 43وما بعدها . اعمال ، 117 وما بعدها) . لعل من الارجح ان زاوى كان قد استقر في إلبيرة قبل دخول سليمان قرطبة للمرة الثانية ، وان سليمان لم يستطع والحالة هذه الا ان يقبل بالأمر الواقع .

(51) إن الفتنة التي أعقبت الدولة العامرية تميّزت بالعداء الشديد الذي أبداه الأندلسيون تجاه البربر الوافدين حديثًا إلى الأندلس . فقد اعتبرهم الأندلسيون مسؤولين عن انهيار الخلافة الأموية في قرطبة ، وعن الفتنة التي تلت ذلك ، ولذلك فانهم سعوا جاهدين لطردهم من البلاد . وأن هذه ''النُفرة الطبيعية'' بين الأندلسيين والبربر جعلت الجماعتين البربريتين – زناتة وصنهاجة – توحدان صفوفهما . وفي اللقاء مع الأندلسيين – وعلى رأسهم المرتضى الأموي – كان جيش زاوي يضمُّ عناصرمن صنهاجة وزناتة (الذخيرة ، 1 / 1 ، ص 456 . ابن عذاري ، 3 / 272) .

(52) بمقتضى تقسيم الولايات ، يُفترض بأن سليمان المستعين خصَّص البيرة لصنهاجة ، وجيان لبني يفرن وبني برزال (ابن عذارى ، 3 / 113 . أعمال ، 119) . أمَّا العذري فإنه يكتفي بالقول بانه بعد قيام الفتنة على رأس الأربعمائة اقتُسمت كورة البيرة بين البربر وأهل المرية (العذري ، 93) . ويذكر ابن الخطيب بأن زاوي بن زيري تحصَّل على كورة البيرة وجيان (أعمال ، 228) .ويذكر ابن عذاري بأن بني برزال استقروا في قرمونة واستجة والمدُّور ، وأنَّ بني يفرن استقرُّوا إلى الجنوب منهم في المنطقة الجبلية المحيطة بمدينة رندة (ابن عذاري ، 3 / 268 ، 270) . ويبدو من رواية عبد الله أن زيرى ضم جيَّان إلى أراضيه بعد انقضاء بعض الوقت على استقرار بني زيري في إلبيرة . ويُستخلص من ذلك بأن جماعات زناتة الأخرى إمَّا انها لم تُمنح جيَّان وإما أنها اضطرت إلى التخلي عنها لزاوي . الا أنه لما كنا لا نعلم عن قيام حروب بين الجماعتين امكن الافتراض بأنهما اتفقتا وديا على أن تُضَمَّ جيان إلى صنهاجة وهي من القبائل المستقرَّة غير الظاعنة ، وإن يكون من نصيب زناتة الرحَّل الأراضي الجبلية الرعوية في الجنوب (انظر هـ ـــ هـ . ر . ادريس : "Zirides" ، مجلَّة (الأندلس) ، 29 ، (1964) ، ص 52) .

ويقع حصن آشر Iznajar غربي غرناطة في منتصف الطريق بين لوشة وأليسانة ، ويصفه الادريسي بأنه معقلٌ منيع (الادريسي ، 204) .

(53) عن العرف الخاص بالقرعة لاقتسام الممتلكات بين البربر انظر Marçais a Guiga, Textes Arabes de Takroûna, 345 ، الهامش 9 والمراجع الواردة فيه .

(54) اتخذ ترتيبات مماثلة الأمراء الزيريون في إفريقية حينما خلف المنصور بن بلقين بن زيري أباه سنة 373 هـ / 984 م . فقد ولَّى أخويه يطوفت وأبا البهار أشير وتاهرت على التوالى ، وتضافر الاخوة الثلاثة في محاربة أمير فاس الزناتي زيرى بن عطية الذي كان قد اعلن ولاءه للخليفة الأموي هشام الثاني . وهكذا بينما حظي كلٌ من الاخوة الثلاثة بالاستقلال الذاتي ، فانهم كوَّنوا جبهة موحدة في وجه عدوهم المشترك (انظر العبر ، 6 / 157) .

(55) كان الأندلسيون يتوقون إلى التخلُّص من الخليفة الحمودي علي بن حمود وأنصاره من البربر ، وإلى إعادة الخلافة الأموية إلى قرطبة . ولما كان خيران العامري صاحب المريَّة يدرك مدى تعاطف الأندلسيين مع بني امية ، فانه انضم إلى منذر بن يحي التجيبي صاحب سرقسطة ، وبايعا أموياً خليفة في الأندلس ، وهو عبد الرحمان (الرابع) بن محمد بن عبد الملك الناصر ، الذي كان قد فر من قرطبة إلي بلنسية وتلقَّب بالمرتضَى (407 / 1016) .

وفي سنة 409 هـ / 1018 م ،قرر المرتضى وحلفاؤه الزحف على قرطبة حيث كان القاسم ابن حمود قد خلف أخاه عليًا إثر اغتياله في شهر ذي الحجة سنة 408 هـ / 22 مارس 1018 م ، ولعل اغتياله كان بتحريض من خيران . وقبل الوصول إلى قرطبة ، قرَّر خيران ومنذر التحوُّل إلى غرناطة متظاهريْن – على حد قول ابن حيَّان – بانهما يريدان محاربة صنهاجة ، ولكنَّهما في الواقع ارادا الغدر بالمرتضى ، إذ إنَّه لم يُرقْ لهما استقلاله في الرأي (الذخيرة ، 1 / 1 ، ص 453 . ابن عذارى ، 3 / 1 – 122 . أعمال ، 130) .

(56) كثيراً ما ترد ''حصن'' في النصوص الأندلسية وصفًا لمكان منيع يحتلُ عادة موقعًا ذا أهمية استراتيجية قرب الحدود أو عند طريق رئيسي أو قرب البحر . فبلِّيليش ولييط والحصون عند حد غرناطة الغربي كلُّها يصفها المؤلف على أنها حصون (التبيان ، 115 ، 128) . وكان سوار ابن حمدون في القرن الثالث / التاسع قد احتمى بحصن غرناطة قرب مدينة إلبيرة (المقتبس ، 3 / 56) .

أما ''المعقل'' ، فيبدو أنه كان يطلق – كما يفعل المؤلف هنا – على الحصون الجبلية الكبرى ، بل وعلى المدن المنيعة التي كانت تتمركز فيها حامية وسط السكان المحليين . فعندما زحف عبد الله على مالقة ، ذكر عددًا من الحصون التي استولى عليها ، ولكنه استثنى من بينها منت ماس (منتماش) Bentomiz فوصفها بأنها معقلٌ عظيم (التبيان ، 116) . ولما واجه الأمير الزيري خطر

المرابطين ، بادر إلى تشييد عدد من الحصون ، مما يدل على أن الحصن كان - فيما يبدو - دون المعقل ضخامة . وعند حديث الأمير فيما بعد عن صنهاجة ذكر بأن صنهاجة كان لا يُستغنى عنهم في ولاية الحصون ، ولذلك فأنه قرر بأن يحسّن من أوضاعهم ليتمكن من الاعتماد عليهم في حفظ المعاقل الكبرى (التبيان ، 146 وما بعدها) .

(57) مثل مشهور (الميداني ، 1 / 189) .

(58) لما واجه الرسول عليه السلام في السنة الخامسة للهجرة هجومًا جديدًا من جانب كفار قريش بعد وقعة أُحُد ، أمر بحفر خندق أمام الأجزاء المكشوفة من المدينة المنوّرة تعزيزًا لوسائل الدفاع عنها .

(59) قد تعني كلمة ''سعاية'' المكيدة والدسيسة ، أو طلب الاحسان والصدقة ، ولعل الكلمة وردت هنا بالمعنى الثاني (انظر Supplément, 1 / 656 . الأهواني : ''أمثال العامة في الأندلس'' ، ص 345) .

(60) يؤكد ابن حيان بأن قدوم صنهاجة إلى الأندلس كان في المقام الأول بقصد الجهاد لا من أجل مكسب مالي أو غرض نفعي . وكان زاوي سخيًا في إنفاقه ، وقد فسر ذلك بما جاء به من شمال إفريقياً من عقود وذخائر (انظر الذخيرة ، 4 / 1 ، ص 81وما بعدها) .

ولعلَّ ثمة سببًا آخر لجواز زاوي إلى الأندلس - وهو سبب يُغفل عبد الله ذكرَه - ألا وهو الصراع الداخلي الذي كان قد نشب في شمال افريقيا بين بني زيري انفسهم بعد ارتقاء باديس ابن المنصور العرش (386 / 996) ، وهو الصراع الذي أدى إلى مصرع ماكسن بن زيري - شقيق زاوي - في ساحة القتال (ابن عذاري ،3 / 263 . أعمال ، 228) .

(61) يشتهر نهر غرناطة باسم شنيل ، بفتح الشين أو كسرها (الادريسي ، 203 . ابن عذارى ، 2 / 133) أو سنجل أو سنجيل (المُغرب ، 2 / 115 . الاحاطة ، 1 / 116) . والاسم مشتق من اللاتينية Singilis . كما يُعرف النهر باسم فلوم المشتقة من اللاتينية flumen (ابن غالب ، 283 . «Description» 67) . ولما كان النهر ينبع من جبل الثلج Sierra Nevada فإنه عُرف كذلك بنهر الثلج (الادريسي ، 203) . وقد أولع الشعراء بالتغني بوادي شنيل ، وفضلوه على نهر النيل (انظر الاحاطة ، 1 / 118 . المقري ، 1 / 148) .

(62) شُلَيْر أو جبل الثلج هو الاسم الذي اطلقه الأندلسيون على جبال Sierra Nevada . والاسم مشتق من اللاتينية Mons Solarius ، لأن أشعة الشمس تلمع فوق مرتفعاته التي يكسوها الثلج طوال العام . وكانت غرناطة تنعم بالبرودة وطيب الهواء بفضل جبل الثلج ، والجداول الستة والثلاثين النابعة منه (انظر ابن غالب ، 283 . الادريسي ، 203 . الروض ، 112 . الاحاطة ، 1 / 96) .

(63) لعلَّ الاسم غرناطة / إغرناطة (بكسر الألف أو بفتحها) مشتق من الرومانسية Granata ، بمعنى الرمانة ، ولذلك فإنه يشار إليها في المصادرالعربية المبكرة بحصن الرمان (ياقوت ، 3 / 788 . الروض ، 23 . الاحاطة ، 1 / 91 . المقري 1 / 141) .

خلال القرون الثلاثة الأولى من الحكم الاسلامي في الأندلس ، كانت إلبيرة / قسطيلية (Illiberis / Castella) حاضرة كورة إلبيرة ، الا ان غرناطة كانت أقدم حصن ومدينة في الكورة (ابن غالب ، 284 . Recherches,1 / 383) .

ان الحروب الطويلة بين العرب وبين المولّدين في الربع الأخير من القرن الثالث للهجرة / التاسع للميلاد ادت الى تدني غرناطة ، التي لم تعد اكثر من قرية كبيرة مسورة في نهاية القرن . والفضل في احياء غرناطة وفي صيرورتها لأول مرة حاضرة كورة البيرة يرجع إلى زاوي بن زيري . وتؤكد ذلك الاكتشافات الاثرية الأخيرة التي تدل على أن بني زيري كانوا أول من شيد تحصينات غرناطة (انظر Al-Andalus, 9(1944),429. EI², 2 / 1012,1014 f) .

وقد أشاد الكتاب المسلمون المتأخرون بمنعة غرناطة ، وسمَّاها الحجاري ''عُقاب الجزيرة'' (انظر

المغرب ، 2 / 102) .

(64) إن كلمة ''فحص'' في الأندلس كانت تعني كلَّ موضعٍ يُسكن سهلاً كان أو جبلاً ، بشرط أن يزرع (ياقوت ، 3 / 852) . وكثيرًا ما يشير ابن الخطيب إلى فحص غرناطة (Vega) بالفحص الأفيح ، ويقارنه بغوطة دمشق (اللمحة ، 13 وما بعدها) .

(65) الزاوية La Zubia قرية إلى الجنوب من غرناطة ويذكرها ابنُ سعيد على أنها من منتزهات غرناطة المشهورة (المُغرب 2 / 103) .

(66) لم يعد اسم ''السطح'' يطلق على أية جهة على مقربة من غرناطة . ويذكر المؤلف فيما بعد قولجر Gójar على انها قرية من عمل السطح .

(67) نظر الجبل الجهة المواجهة لغرناطة من منحدرات جبل الثلج (''Mémoires'', 18 n. 23) . ولعل المقصود به مجرد المنطقة الجبلية الواقعة خلف غرناطة .

(68) يعترف عبد الله هنا صراحة بوجود جماعتين في غرناطة الزيرية ، وهما الأندلسيون والبربر . وفي أحد أزجال ابن قزمان ترد عبارة ''لا أندلسي نعم ولا برابر'' (ديوان ابن قزمان المخطوط ، ورقة 144) .

(69) إن رواية المؤلف عن خراب البيرة رواية ممتعة وفريدة ، إذا إن الكتّاب المسلمين المتأخرين يكتفون بالقول بان إلبيرة عانت في فترة الفتنة ، وإن اهلها انتقلوا إلى غرناطة التي اصبحت بعد ذلك قاعدة الكورة (الادريسي ، 203 . الروض ، 29 . الاحاطة ، 1 / 93 ،Simonet,33) .

(70) وصل المرتضى إلى ظاهر غرناطة في سنة 409 / 1019 ، بعد نحو ست سنوات من استقرار زاوي في المدينة الجديدة على الضفة اليمنى من نهر حدُره Darro حيث ركّز على إقامة التحصينات ، إذ إنه كان دائمًا يتوقع الشرَّ من جانب الأندلسيين (الذخيرة 1 / 1 ، ص 453 . ابن عذارى ، 3 / 125 . المقري ، 1 / 177 . . Torres Balbas ''La mezquita mayor de Grannada,''428 f)

(71) قارن ذلك بالحديث النبوي الشريف : من أقال مسلمًا أقاله الله عثرته . (المعجم المفهرس ، 4 / 130) .

(72) يقول المؤرخ القرطبي المعاصر ابن حيان صراحة إن الأندلسيين قابلهم رجال صنهاجة ومغراوة من زناتة (الذخيرة ، 1 / 1 ، ص 456) .

ولا يرد في المصادر ذكر لعدد المتقاتلين من الجانبين . وتدل رواية ابن حيان على أن الأندلسيين كانوا يفوقون البربر عددًا فهو يقول : ''واقتتلتْ صنهاجة مع اميرهم مستميتين لما داهمهم من بحر العساكر ، على انفرادهم وقلة عددهم'' (انظر الاحاطة ، 1 / 516) . كما يتحدث ابن حيان المشايع للأمويين مفتخرًا عن وصول الأندلسيين ''في تعبئة محكمة ، وكراديس منتظمة'' (الذخيرة ، 1 / 1 ، ص 398) .

(73) بعث المرتضى – حسب رواية ابن حيان والمقّري – بكتابين لا بكتاب واحد إلى زاوي . وفي الكتاب الأول ، دعا المرتضى زاوي إلى إعلان ولائه له ، ووعد بالاحسان له . وردًّا على هذا الكتاب ، أمر زاوي كاتبه بأن يكتب على ظهر الكتاب نصَّ سورة (الكافرون) . فاغتاظ المرتضى لهذا الجواب ، وبعث إلى زاوي بكتابٍ وعيد قال فيه : ''قد جئتُك بجميع ابطال الأندلس وبالفرنج ، فماذا تصنع ؟'' . وردًّا على هذا الكتاب الثاني ، اقتبس زاوي الآيات الأربع التي أوردها عبد الله (الذخيرة ، 1 / 1 ص 397 وما بعدها المقّري ، 1 / 485

(74) من الجدير بالذكر أن عبد الله لا يذكر الرواية التي أوردها ابن حيان وغيره من المصادر الأندلسية ، وهي انه قبيل اللقاء كان خيران ومنذر قد كتبا لزاوي بأنهما سيغدران بالمرتضى وينسحبان من ساحة القتال (الذخيرة ، 1 / 1 ، ص 400) . ويمكن تفسير غدرهما بالانتهازية وبالتقلب ، ولما أبداه المرتضى من روح الاستقلالية – وكانا يأملان في أن تكون رئاسته اسمية فقط – ولتهيُّبهما من لقاء البربر في ساحة القتال (الذخيرة ، 1 / 1 ، ص 456 المقرى ، 1 / 485) .

(75) مثل أندلسي : إما هُلك وإما مُلكٌ (الزجالي ، 2 / 75 ، رقم 320) .

(76) اقتتل الجانبان أياماً قبل فرار الأندلسيين يطاردهم فرسان البربر . ويؤكد ابن حيان رواية عبد الله عن وفرة الغنائم التي ظفر بها البربر : فكان من نصيب زاوي سرداق المرتضي وما فيه ، وغنم البربر كل ما جلبه تجار قرطبة النازحون الذين رافقوا المرتضي مع سلعهم أملاً في جمع الثروات عند دخول قرطبة . وبعث زاوي الى القاسم بن حمود بنصيبه من الغنيمة ، وفي جملتها سرادق المرتضى ، فضربه القاسم على الوادي الكبير ، والنظارة تتقطع قلوبهم حسرة منه (الذخيرة ، 1 / 1 ، ص 456 وما بعدها . ابن عذارى ، 3 / 126 وما بعدها . الاحاطة ، 1 / 516) . ويُذكر أن زاوى قال لقومه بعد الانتصار بأن انهزام العدو ''لم يكن عن قوة منا . إنما جره ، مع القضاء ، غدر ملوكهم [الأندلسيين] لسلطانهم ليهلكوه كما فعلوا ، فإني عرفت ذلك من يوم نزولهم'' (الذخيرة ، 1 / 1 ، ص 458 وما بعدها) .

ويبدو تحيز عبد الله في أنه لا يذكر في روايته مشاركة زناتة مغراوة في القتال ، كما أنه لا يذكر شيئًا عن غدر منذر وخيران ، ولا يشير إلى أنَّ المعركة دامت اياما .

(77) لا يُعرف تاريخ المعركة على وجه التحديد ، الا ان ابن حيان يقول إن المرتضى زحف نحو غرناطة سنة 409 هـ / مايو 1018 – 1019 م (الذخيرة ، 1 / 1 ، ص 453) . ولا يذكر عبد الله شيئا عن النهاية المفجعة للمرتضى الذي ذُكر أنه أبدى بسالةً في القتال ، ثم انسحب إلى وادي آش حيث لقي مصرعه على أيدي عيون خيران العامري (الذخيرة ، 1 / 1 ، ص 455) .

(78) كانت وفاة باديس بن المنصور بن زيري صاحب افريقية وفاة طبيعية في 30 ذي القعدة 406 هـ / 10 مايو 1016 م محاصرا قلعة بني حماد ، وكان عمه ، وكان قد استقل في القلعة في العام السابق ، يوشك على الاستسلام له (ابن عذارى ، 1 / 384) .

(79) لما خلف المعز بن باديس أباه في ذي الحجة 406 هـ / مايو 1016 م كان يبلغ من العمر ثماني سنوات وأربعة أشهر (ابن عذاري ، 1 / 267) أو ثماني سنوات (العبر ، 26 / 158) ، أو حتى سبع سنوات (ابن عذارى ، 1 / 395) . وكان لوزيره ابي الحسن بن ابي الرجال دور كبير في قيام المعز آخر الأمر بالتخلي عن المذهب الشيعي والعودة إلى السُنَّة ، فقطع صلاته بالخلفاء الفاطميين في القاهرة (440 هـ / 8 – 1049 م) . وتوفي المعز بن باديس في 25 شعبان 454 هـ / 3 ستمبر 1062 (ابن عذارى ، 1 / 399 ، 427) .

(80) يذكر ابن حيان سببين آخرين لرحيل زاوي : اولهما ان زاوي كان يدرك بانه كان سيُهزم على أيدي الأندلسيين لولا غدر زعمائهم بالمرتضى ، وثانيهما ما كان يساور زاوي من مخاوف من انضمام زناتة إلى الأندلسيين ضد صنهاجة ، ولذلك ، فإنه نعتَ زناتة بأنهم ''الأعداء في الحقيقة'' (الذخيرة ، 1 / 1 ، ص 402 وما بعدها . أعمال ، 131) .

إن زاوى ، الذي ولد ونشأ في المغرب الأوسط ، يبدو أنه كان يُحس بالعزلة والانقطاع طيلة العشرين سنة التي قضاها في الأندلس ، ولا بد أنه كان كذلك يشعر بحنين حقيقي الى مسقط رأسه .

وفضلا عن ذلك ، فإن الوضع في شمال إفريقيا كان قد تبدَّل عما كان عليه عند قدوم زاوي إلى الأندلس سنة 392 هـ / 1002 م . فالخلفاء الفاطميون كانوا قد انتقلوا إلى مصر ، ولم يغْدُ في استطاعة الأمراء الزناتيين في فاس الاعتماد على تأييد الأمويين في قرطبة . ثم إنَّ الصراع الداخلي منذ سنة 405 هـ / 1014 م بين بني زيري في افريقية وبين ابناء عمومتهم الحماديين اصحاب القلعة قد أوهن كليهما . ولا بد أن العامل الأخير كان العامل الحاسم الذي دعا زاوي لاتخاذ قراره بالعودة إلى القيروان (انظر العبر ، 158) .

(81) ان تلكاتة التي انتمى إليها بنو زيري كانت – كما يقول ابن خلدون – اعظم قبائل صنهاجة ، وكانت قد استقرت في المنطقة الواقعة بين افريقية وبين المغرب الأوسط (اي في شرقي القطر الجزائري) . ومن الصنهاجيتيْن ظهرت اسرتان حاكمتان : بنو زيري من تلكاتة ، والمرابطون من مسوفة ولمتونة

الصنهاجيَّيْن (العبر ، 6 / 152 وما بعدها . مفاخر ، 51 وما بعدها) .

(82) اقلع زاوي من المنكَّب في سنة 410 هـ / 9 مايو 1019 - 26 أبريل 1020 م ، إذ إنه قرر الرحيل عن الأندلس بُعيْد انتصاره على المرتضى ، وحينما كان المعز - على حد قول عبد الله - ما يزال طفلاً (الذخيرة ، 1 / 1 ، ص 458) .

(83) يورد ابن حيان رواية مختلفة ، فهو يقول إن ابن زاوي ، واسمه حلالي (ولعلّه حلال ، كاسم واحد من اخوة زاوي العديدين) تلوَّم بغرناطة ، وفي نيته القبض على قاضي غرناطة ابن أبي زمنين والمشيخة من أهلها ومصادرة اموالهم عند عودتهم من وداع ابيه في المنكَّب . فعلم القاضي بتدبيره ، وبدلاً من أن يعود إلى غرناطة مباشرة توجَّه إلى حصن آشر حيث كان حبوس يرتقب ، كما يبدو ، ركوب عمه البحر فيلحق بغرناطة . وقد حثَّ ابن ابي زمنين حبوسًا بالتوجه إلى غرناطة دون ابطاء ، وبذلك باءت خطة حلالي بالفشل . وكان أول ما قام به حبوس عند دخوله غرناطة احتلال قصبة المدينة . وقد فوجيء حلالي بما قام به ابن عمه ، وذُكر انه قال لحبوس إن دخوله ''هو بدخول شامت اشبه ! كأنك فتحتَ بلدا وطردتَ عدوا !'' . فاعتذر له حبوس وقال : ''ما ذاك إلاَّ لرسم الامارة ، وارهاب الرعية'' (الذخيرة ، 1 / 1 ، ص 460) . ويورد ابن خلدون وابن الخطيب روايتين مقتضبتين مماثلتين ، الا ان من الجدير بالذكر ان ابن الخطيب يقول إن زاوي قبل رحيله اسند الأمر إلى ابن أخيه حبوس - وكان بحصن آشر - وانه جرت بينه وبين ابن عمه المتخلف على غرناطة ''محاورة انجلت عن رحيله تبعا لأبيه'' . وهذه الرواية ان صحَّت تدل على أن زاوي كان قد ترك ابنه في غرناطة تحوطا خشية ان لا تتحقق آماله في افريقية ، فيُضطر إلى العودة إلى الأندلس (العبر ، 6 / 180 الاحاطة ، 1 / 477) . كما ان من الجدير بالذكر كذلك ان حبوسًا لم يكن بين مشيِّعي عمه في المنكَّب ، وقد يدل ذلك على ان حبوسًا - كبلقين بن زاوي - كان لا يشاطر عمَّه الرأي بان يرحل بنو زيري الى إفريقية ، وأنه كان يدبر لأخذ غرناطة دون خفرٍ من جانب القاضي ابن أبي زمنين . ويقول ابن خلدون إن أهل غرناطة قاموا على ابن زاوي واستدعوا حبوسا الذي كانت تناصره معظم صنهاجة ، وهذا يتفق مع رواية عبد الله عن تولي حبوس الامارة في غرناطة . ويقول ابن الخطيب إن حبوساً ''استبد بالملك ورأب الصدع'' (الاحاطة ، 1 / 477) .

(84) توجه زاوي إلى افريقية بموافقة المعز بن باديس الذي ذُكر بأنه خرج بنفسه للترحيب به (ابن عذارى ، 1 / 269 ، 3 / 128) . وحرص أقرباؤه في القيروان على رجوعه لحاجتهم الى من هو في سنه ومقامه ليرأس البيت الزيري ويملأ الفراغ الذي تركه موت باديس والد المعز (الذخيرة ، 1 / 1 ، ص 458 . الاحاطة ، 1 / 517) . ويُذكر أن زاوي - تعزيزًا لمكانته - جلب معه رأس الخليفة الأموي سليمان المستعين ، فثأر بذلك لموت أبيه زيري الذي كان رأسه قد اهداه إلى الخليفة الحكم الثاني جعفر بن على الأندلسي قبل ذلك بستين عامًا (الذخيرة ، 1 / 1 ، ص 460) . ومع أن المصادر الأخرى لا تذكر شيئًايساند ما يقوله عبد الله عن المخاوف التي ابداها بعض وزراء المعز تجاه زاوي ، فان روايته يمكن تصديقها وهي رواية مهمة . يقول ابن حيان إن المعز لم يقلد زاوي ، ولا احدًا من ولده شيئًا من عمله (الذخيرة ، 1 / 1 ، ص 458) ، وأنه مات بالطاعون في القيروان ''بعد منصرفه إليها خاملاً مغمورًا بين أعاظم قومه'' (الذخيرة ، 1 / 2 ، ص 588) . ولا يذكر ابن حيان تاريخ وفاته ، وكذلك عبد الله الذي لا يورد غير تاريخيْ فقط في كتابه (التبيان ، 86 ، 173) .

(85) يمتدح ابن حيان حبوسا فيقول إنه ''كان على قسوته يصغي إلى الأدب وينتمي في العرب ، للأثر المقفوّ في قومه صنهاجة . وكان يؤْثر لذلك (كتاب التيجان) في ذكر مناقبهم'' ، ويضيف بأنه كان ''شجاعا حسن الفروسية .. كامل الرجولة'' (الذخيرة ، 1 / 1 ، ص 460 وما بعدها) .

ان إشادة عبد الله باستقامة حبوس وصرفه الأحكام الى القضاة كان يُقصد من ورائها دون شك التأثير في المرابطين - وكان عبد الله اسيرًا في قبضتهم - وكان الفقهاء يحظون لديهم بمكانة مرموقة (القرطاس ، 88) .

(86) في هذا دليل على ان حبوسا – شأنه في ذلك شأن عمه زاوي – كان يُحسُّ بتفوق الأندلسيين عددًا على البربر ، ولذلك فانه طالب اقرباءه باليقظة وبالاحتفاظ باكبر عدد ممكن من الرجال المدربين على القتال .

(87) لكلمة ''جهة'' معنى محدد آخر غير ''الناحية'' وهو ''الفَرْضة'' أو ''الضريبة'' . ولذلك فإن عبارة ''حاز جهته'' قد تعني أيضا أن كلَّ واحدٍ من أقارب حبوس وبني عمه حظي بجباية الناحية المخصصة له (انظر Supplément, 2 / 95) .

(88) يصف ابن حيان حباسة بن ماكسن بانه ''فارس صنهاجة وفتاها'' . وقد لقي حباسة مصرعه خارج أسوار قرطبة في شوال 406 هـ / مايو 1012 م . وقد حزن زاوي وأقرباؤه كثيرًا لمصرعه ، وقطعوا عهدًا على انفسهم بالثأر من اهل قرطبة لمقتله ، وهو ما حدث بعد ذلك بقليل (عن مصرع حباسة ، انظر ابن عذارى ، 3 / 111 وما بعدها . الاحاطة ، 1 / 487) .

(89) في فصلٍ في ذكر الفقيه ابي عمر احمد بن عيسى الالبيري ، يقتبس ابن بسام من خطاب كان قد وجهه الفقيه الى الوزير أبي العباس بن العريف في ارضٍ كان قد تعدى عليه فيها الوزير (الذخيرة 1 / 2 ، ص 340) .

ومن الجدير بالذكر ان المؤلف يصف ابا العباس وابنه من بعده بكاتبَيْ حبوس لا وزيرَيْه (التبيان ، 67) ، بينما يصف ابنَيْ القروي بانهما وزيرا باديس بن حبوس (التبيان ، 72) . ولعل تفسير ذلك هو أن ملوك الطوائف أحجموا عن نعت كتابهم بالوزراء في السنوات الأخيرة لخلافة قرطبة ، وبُعَيْد إبطال الخلافة رسميا ، لتفادي اتهامهم بالانتزاء والخروج على الجماعة . اما نعت ابن بسام لأبي العباس بن العريف بوزير حبوس فهو نعت جاء في وقت متأخر .

(90) يرد ذكر فرقان مرة ثانية فيما بعد على انه مؤيد وفيٌّ لباديس حينما حذَّره في الوقت المناسب من مؤامرة دبرها يدير وأنصاره من صهاجة لاغتياله (التبيان ،) .

(91) إن ''جماعة'' في النص – كما في الكتابات الأندلسية والمغربية – تعني ''مشيخة'' . يروي ابن حيان كيف أن بلقين بن حبوس زار الكاتب أحمد بن عباس في السجن ، ثم قال : ''فانصرفتُ إلى باديس والمشيخة ... فالتظت الجماعة'' (الذخيرة ، 1 / 2 ، ص 71 ، 661) . ويستعمل ابو الحزم بن جهور ''جماعة'' بنفس المعنى حينما يقول إن منصبه بقرطبة ''هو للجماعة ، وانا أمينهم'' (الذخيرة ، 1 / 2 ، ص 603) .

(92) توفي حبوس في شهر رمضان سنة 429 هـ / 7 يونيو – 6 يوليو 1038 م (أعمال ، 229) لا في السنة السابقة لها (ابن عذارى ، 3 / 191) . ويؤكد ذلك أن زهيرًا صاحب المرية لقي مصرعه على ايدي رجال باديس في 30 شوال 429 / 4 اغسطس 1038 ،بعد ان توجه زهير – على حد قول عبد الله – للاستيلاء على غرناطة بُعَيْد سماعه بنبأ وفاة حبوس (التبيان – العذرى ، 83) . ومن الغريب ان عبد الله في روايته الموجزة عن إمارة حبوس أغفل ذكر بعض الأحداث المهمة التي وقعت في الأندلس في تلك الفترة ، والتي لا بد وانه كان لها اثرها في دولة بني زيري في غرناطة (انظر مقدمتنا ، ص29) .

الفصل الثالث

(93) خلف باديس اباه في رمضان 429 / 7 يونيو – 6 يوليو 1038 بموافقة شقيقه بلقين (ابن عذاري ، 3 / 191) وتكنَّى بأبي مناد (أو بأبي مسعود حسب ابن عسكر) وتلقَّب بالمظفر بالله الناصر لدين الله . وفي الوقت ذاته ، اتخذ لنفسه لقب ''الحاجب'' (اعمال ، 230 . المرقبة ، 91) . وقد شاع بين ملوك الطوائف اتخاذ الالقاب الفخمة من عهد الخلافتين الأموية بقرطبة والعباسية ببغداد . وفي (التبيان) ، يشير عبد الله إلى جده بالحاجب ، والسلطان ، والرئيس ، و الرئيس الأجل ، والأمير .

(94) سدو أن يدير نشط في التآمر على باديس نُعَيْد خلافة باديس لأبيه ، ولما أخفق في محاولاته لخلعه فرَّ إلى إشبيلية مع المتآمرين معه .

(95) كما يقول عبد الله ، فان الأمراء المجاورين بادروا إلى محاولة الاطاحة بأمير غرناطة الجديد ، الا أن باديس اثبت تفوقه عليهم ، فحقق انتصاراً باهراً على كل من زهير العامري امير المرية في سنة 429 هـ / 1038 ، وعلى إسماعيل بن عباد في سنة 431 / 1039 . وفي الواقع ، فان كافة الاندلسيين ناصبوا باديس العداء (ابن عذارى ، 3 / 201 وما بعدها) .

(96) ولد اسماعيل بن يوسف Samuel ha-Nagid في قرطبة ، ويُجلُّه الأمير الزيري في كتابه فيشير إليه بكنيته ابي ابراهيم ، كما ان الكتّاب الأندلسيين يُثنون عليه عالمًا وشاعرًا وجمّاعا للكتب وفلكيًا ، ويشيد ابن حيان بعلمه وحكمته ودهائه . كان ابو العباس بن العريف قد ادرك تمكن اسماعيل من العربية وجودة اسلوبه في الكتابة ، فاتخذه كاتبًا له وبذلك اصبح ابو إبراهيم على اتصال وثيق بحبوس ، ثم بابنه باديس من بعده ، فخدم كليهما كاتباً ومشرفاً على جباية المال . ان استكتاب باديس اسماعيل لم يكن تحديا للعرب كما يزعم بيريس (انظر Poésie, 268) بل يرجع في المقام الأول الى ما ابداه من كفاءة وسداد رأي . اضف إلى ذلك – كما يوضح عبد الله نفسه – ان باديس كان يرتاب في كل من الأندلسيين وقومه صنهاجة ، بينما كان بوسعه الاطمئنان إلى اسماعيل لأنه لم ينتم إلى أيٍّ من الفئتين . فاسماعيل هو الذي قام – في الوقت المناسب – بتحذير باديس من تآمر يدير على حياته ، وهو أيضاً الذي ثَنى باديس – بعد ذلك ببضع سنوات – عن المضي في خطته للفتك بالعرب من سكان غرناطة ثأرًا لقيام عرب مدينة ربدة بالتواطؤ مع المعتضد بن عباد ضد اميرهم من البربر . ويصف صاعد ابن أحمد – وهو معاصر لاسماعيل – أبا ابراهيم بأنه ''خادم الأمير باديس ... ومدبر دولته'' ، ويذكر أن وفاته كانت في سنة 448 / 1056 .

ان الطائفة اليهودية الكبيرة العدد في غرناطة – اعترافاً منها بالخدمات التي اسداها اسماعيل للدراسات التلمودية – انعمت عليه بلقب ha-Nagid ، أي زعيم اليهود ، أو المدبر كما يقول ابن حيان . ويُمتدح في اسماعيل تواضعه وحكمته وكرمه ، خلافا لابنه يوسف الذي يمقته المؤرخون الأندلسيون لغروره وكبريائه ، وكثيراً ما يخلط بعض هؤلاء المؤرخين بين الأب والابن .

ان لقب اسماعيل ورد في أشكال عدة في العربية والعبرية ، ونظرًا لإمالة حروف العلة في لهجة التخاطب في غرناطة ، والرسم الذي ورد فيه اللقب عند ابن حزم وابن بسام ، فاننا آثرنا الرسم ''النغريلة'' للقبه (طبقات الأمم ، 90 . الذخيرة 1 / 2 ، ص 761 وما بعدها ، 269 وما بعدها . رسائل ابن حزم ، 3 / 41 . Poésie, 265 ff . Perlmann, 271,283) .

(97) كان ابو العباس بن العريف وابنه ابو القاسم من بعده كاتبيْن لحبوس ، وكان أبو ابراهيم قد عمل مساعدا لكليهما . ولما كان ابو العباس – وابنه كما يُفترض – قد شايع يدير ، فان باديس لا بد وانه تخلص من الابن بعد توليه الامارة . ويبدو ان تورط ابي القاسم في مؤامرة يدير ، فضلا عن تقصيره في عمله ، قد ساعدا في ترقية ابي ابراهيم الى منصب كاتب باديس، هذا الى دور ابي ابراهيم في احباط المؤامرة على حياة باديس .

(98) انظر الميداني ، 2 / 87 .

(99) ان مؤامرة على حياة الحكم الأول (الربضَي) – ثالث امراء بني امية في قرطبة – أحبطت سنة 189 / 805 في ظروف مماثلة (انظر ابن عذارى ، 2 / 71) .

(100) يدل ذلك على أن ابا ابراهيم جمع بين منصبيْ كاتب الرسائل وكاتب الزمام ، أي أن باديس عهد إليه بالمكاتبات الرسمية ، وبإدارة الشؤون المالية ، وهو امر لم يسبق له مثيل بالنسبة لذمّي ، اذ إن منصب كاتب الزمام كان محظورا على اليهود والنصارى في كل من الاندلس والمغرب (المقّري ، 1 / 217) . ولعل هذا الحظر يفسر اعتناق الاسلام من قبل يهودي بارز معاصر آخر هو ابو الفضل ابن حسداي ، قبل ان يصبح وزيرًا وكاتبا لأمير سرقسطة (المقري ، 1 / 641 ، 3 / 402) .

إن عبد الله بقوله إن أبا إبراهيم لم يكن له تسلط على مسلم يسعى للدفاع عن سيرة جده ضد اتهامات الفقهاء كأبي إسحاق الالبيري (L'Espagne musulmane 69 f. Poésie, 267)

(101) يرى س . م . ستيرن أن المقصودَ بالرعايا غيرُ المسلمين من سكان غرناطة . لقد كان اليهود كثيري العدد في غرناطة منذ الفتح الاسلامي ، ولذلك عُرفت المدينة ''بإغرناطة اليهود ، لان نازليها كانوا يهودا'' (Description'', 67'' .الروض ، 23) .

إلا أن ابن حيان ، عند حديثه عن غرناطة في إمارة سعيد بن جودي في اواخر القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، يسميها ''مدينة غرناطة العرب'' و ''ومدينة غرناطة عُشّ العرب'' (المقتبس ، 3 / 91 ، 107) .

(102) قد تعني ''ظَلَمَة'' الموكَّلين بتنفيذ الأحكام كصاحب الشرطة وأعوانه . وفي أحد الأمثال الأندلسية : اربط حمارك مع حمير الظلم (Supplément, 2 / 85 الزجالي ، 2 / 97 ، رقم 429) .

(103) هذه الفقرة من أكثر فقرات الكتاب صراحة ، وفيها تظهر براعة المؤلف في التعليل المركَّز لقيام جده باتخاذ اليهودي ابي ابراهيم كاتبًا . ومن بين الأسباب الستة التي يوردها تأكيده على ان اهل الذمة لم يدخلوا ضمن الأندلسيين ، ولذلك فان ابا ابراهيم – وليس له حزب او عصبية – امكن الاطمئنان اليه في المنصب . وفي هذا دليل آخر على الانقسام والعداء المتزايدين في الأندلس بين البربر والأندلسيين منذ بداية القرن الخامس الهجري .

(104) لعل المقصود بالانزالات القوية اراض ذات فائدة كبيرة او إقطاعات سخية من الأرض ، وتقابلها الانزالات الضعيفة التي يشير إليها المؤلف فيما بعد (التبيان ، 146) . ومع ان ''انزالات'' ترد ستَّ مرَّات في الكتاب ، فان القرينة لا توضح الشروط الدقيقة التي كانت تُمنح بموجبها ، والتي كان يتمتع بها أصحابها ''(Zirides'', 66''

ونظرًا للغموض الذي يكتنف مفهوم ''انزال'' ، فمن المفيد استعراض تاريخ الكلمة . لما ولي ابو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي على الأندلس سنة 125 / 742 ، انزل جند دمشق في الكور الجنوبية من الأندلس ''وجعل لهم ثلث اموال أهل الذمة من العجم طعمةً '' (الحلة 1 / 63 . الاحاطة ، 1 / 103) . ويبدو ان ذلك يعني أن العرب كانوا يحصلون على ثلث المحاصيل لا ثلث الأراضي من أهل الذمة . ويذكر ابن حزم – ممتعضًا – بان صنهاجة كانت تأخذ ''النصف والثلث ممَّن أنزلوا عليه من أهل القرى '' (رسائل ابن حزم ، 3 / 177) . وهذا يعني – كما يبدو – ان صنهاجة كانت تأخذ نسبة من المحصول ، لا انها تمتلك نصف الأرض او ثلثها .

اما المعنى الآخر لكلمة ''انزال'' ، وهو الالتزام بتوفير المبيت للجند ، فانه لا يتفق والمعنى للكلمة التي يستعملها عبد الله (Supplément, 2 / 670) .

(105) المُنية (وتُجمع على مُنى ومُنيات) تعني في الاصطلاح الاندلسي بيتًا ريفيًا في ضيعة او مزرعة كبيرة ، وهي تعرف في اسبانيا اليوم باسم huerta أو cortijo ، وفي مصر تعرف بالعِزبة . والكلمة من اصل يوناني اخذها اقباط مصر على صورة ''منيا'' بمعنى المحطة او الميناء او الدير (Supplément,268 / 2.Esp. Mus, 32 n.1 . مؤنس : تاريخ الجغرافية ... ، 563 ، هامش 5) .

(106) الملعب بمعنى عروض الفروسية بما في ذلك السباق والكر والفر . وشبيه بذلك ''لعب البارود'' في المغرب الأقصى اليوم ، او ''الميز'' في طرابلس الغرب .

يقول ابن حيان ان الحَكم الثاني كان ''يتطلَّع على فرسان البرابر اذا تحركوا للعب ، شاخصاً اليهم معجبًا بهم ''(المقتبس ، 7 / 193 .Supplément, 2 / 543) .

(107) قولجر / قلجار هي اليوم Gójar .

(108) وقع حادث مماثل للمهدي بن تومرت في أغمات (انظر القرطاس ، 113) .

(109) نشأ الأخوان علي وعبد الله القروي مع سيف الدولة المؤلف ، وكانا رفيقيْه في المكتب ، والتحقا

بعد ذلك بخدمة باديس وزيريْن ومستشاريْن مقرَّبين ، الى ان سخط عليهما ونفاهما من غرناطة .

ويرد ذكر هدوس القروي وسيطًا بين ابي البهار بن زيري والمنصور بن أبي عامر . ولعلَّ هدوس هذا انتمى الى نفس اسرة عليّ ممَّا يدل على انه كان للأسرة صلة قديمة ووثيقة ببني زيري في شمال إفريقيا ، وكما يدل على ذلك اللقب ''القروي'' ، اي من القيروان (انظر مفاخر ، 24) .

(110) يورد الجاحظ نصًّا مختلفًا بعض الشيء على انه حديث نبوي : رأس العقل بعد الايمان مداراة الناس (الجاحظ ، البيان ، 2 / 20) .

ان المؤلف – شأنه في ذلك شأن الكثيرين من الأدباء الأندلسيين في القرنين الرابع والخامس الهجريين – تأثر كثيرًا بمصنفات الجاحظ الأدبية وبنثره المُرسل (انظر 284 - Pellat, 277) .

(111) بعد فشل المؤامرة على حياة باديس ، فر يدير إلى إشبيلية حيث كان القاضي ابن عباد قد ولي السلطة منذ عام 414 / 1023 .وقد شارك يدير فيما بعد في معركة ضد باديس قرب استجّة وفيها هُزم العباديون (محرم 431 / سبتمبر – اكتوبر 1039) . ومن المستبعد ان يكون يدير قد وقع في الأسر ، والا فان اسمه كان ورد الى جانب اسم ابي الفتوح الجرجاني الذي استسلم لباديس أملا في ان يصفح عنه ويأذن له باللحاق بأسرته في غرناطة ، ولكنه قُتل بمنتهى القسوة بعد ذلك بايام (الاحاطة ، 1 / 455 وما بعدها) .

(112) مات حتف انفه : مات موتا طبيعيًا . ترد العبارة على أنها حديث (الحيوان ، 1 / 335 . العقد ، 1 / 28) أو أنها مَثل (الميداني ، 2 / 183) . و ''مقروع'' بمعنى ''مهزوم'' أو ''مُذَلّ'' (انظر لسان العرب ، 10 / 139) .

(113) خلف زهير الصقلبي من موالي العامريين اخاه خيران اميرًا في ألمرية في 3جمادى الأولى 419 / 30 مايو 1028 ، واحتفظ بأحمد بن عباس كاتبًا له .

ويعزو ابن حيان العداء الذي نشب بين باديس وبني زهير الى مساندة الصقلبي لمنافس باديس ، محمد بن عبد الله البرزالي ، زعيم زناتة وأمير قرمونة .

ان وصف عبد الله لزهير بالغباوة والجهل لا يتفق مع ما عرف عن حب اهل المرية له . ويمتدح المؤرخون الأندلسيون زهيرًا لحسن سيرته ، وبنائه المساجد ، واستشارته الفقهاء والعمل برأيهم ، كما يُطرون ورعه وشجاعته وسداد رأيه (الاحاطة ، 1 / 517 وما بعدها) .

(114) خلف ابو جعفر احمد بن عباس القرطبي أباه كاتبًا لزهير . وخلافًا لما يذكره عبد الله من ان ابن عباس كان من أشد الناس حماقةً ، فانه اشتهر بالفصاحة ورشاقة الأسلوب ، وكان جمَّاعا للكتب . يقول ابن حيان ان أحمد ابن عباس بذَّ أهل زمانه في اربعة اشياء ، هي المال والعُجب والبخل والكتابة . ويؤخذ عليه الكِبْر والعُجب وتحقيره لغيره ، كما يُستدل من مسلكه نحو مضيفيه في غرناطة ، ومن قوله بعد زيارة مسقط رأسه قرطبة : ''مارأيتُ بقرطبة الا سائلاً أو جاهلاً !'' وكما يقول عبد الله ، فانه يبدو ان ابن عباس كان يحظى بنفوذ كبير عند زهير ، ويذكر ابن حيان ان ابن عباس كان يتطلع إلى التخلص من أميره والى تولي إمارة المرية مكانه .

وابن عباس هو الذي اقنع زهيرًا بمساندة البرزالي صاحب قرمونة وعدو حبوس ، وهو الذي عامل بني زيري معاملة تنمُّ عن الغطرسة ، وكان مسؤولا اكثر من غيره عن فشل المحادثات لتجديد التحالف القديم بين زهير وباديس (عن ابن عباس ، انظر الذخيرة ، 1 / 2 ، ص 151 – 178 .الاحاطة ، 1 / 259وما بعدها) .

(115) كان الصقالبة في الأصل نصارى وقعوا في الأسر أو ابتيعوا من شمال إسبانيا او من وراء جبال البرانس ، وهم ليسوا بالضرورة من أصل صقلبي (سلافي) . وقد كان للناصر على وجه الخصوص أعداد كبيرة منهم ، يخدمون في الجيش ، أو في البلاط ، لثقته بولائهم . وخلال فترة الفتنة التي اعقبت سقوط الدولة العامرية ، سعى الصقالبة جاهدين لاعادة الخلافة الأموية ، اذ كانوا يأملون

في استرداد نفوذهم السابق على عهدي الناصر وابنه الحكم المستنصر . وقد توجه عدد من زعماء الصقالبة إلى شرق الأندلس ، فملكوا عددًا من المدن الساحلية ، كالمرية ، وبلنسية ، ودانية ، وطرطوشة ، وبذلك كوّنوا كياناتٍ عرقيةً مستقلةً عن الأندلسيين والبربر ، ولذلك فان عبد الله يشير الى جنسيّي زهير الخصيان .

يقول ابن حوقل إن ''جميع من على وجه الأرض من الصقالبة الخصيان فمن جلب الأندلس ، لأنهم عند قربهم منها يُخصوْن ، ويفعل ذلك بهم تجار اليهود'' (ابن حوقل ، 106) . وكان هؤلاء الخصيان يُبتاعون صغارًا ويُربّون من قبل مبتاعيهم ، وكان ثمة اقبال كبير على اقتنائهم للخدمة في بيوت الأمراء .

(116) يورد ابن حيان وصفا مسهبًا للمعركة (قرب الفونت Alpuente) التي هلك فيها زهير االعامري (30 شوال 429 / اغسطس 1038) ، ووقع فيها ابن عباس في الأسر . ان باديس وقد عزم – بعد فشل المفاوضات – على القتال ، نصب كائن في الممرات الجبلية في طريق زهير ، وهدم قنطرة كان الصقلي سيعبرها . ولما دنا زهير من القنطرة ، هاجمه جند باديس ، وكان معظمهم من صنهاجة وبعضهم من زناتة . وفي بداية المعركة ، تخلت فرقة السودان عن زهير ، الا أن زهيرًا نفسه صمد في قلب جيشه وأمر فرقته من الصقالبة – وعلى رأسها هذيل – بدحر صنهاجة . ومع ان صنهاجة كانوا أقل عددًا ، فانهم اوقعوا الهزيمة بالصقالبة ، وأسروا هذيلاً ، فأمر باديس بحز رأسه فورا . ولما عاين زهير ذلك ، فر بنفسه وهلك – ككثيرين من جنده – في احد الشعاب على مقربة من الفونت .

وبأمر من باديس ، قُتل الضابط والفرسان الذين وقعوا في الأسر في عين المكان ، اما الأدباء – بمن فيهم ابن عباس – فنُقلوا إلى غرناطة (الذخيرة ، 1 / 2 ، ص 659 وما بعدها . العذري ، 83) .

(117) كانت هزيمة المرتضى على يد صنهاجة بزعامة زاوي لا حبوس (التبيان ،   ) ، الا انه لما كان عبد الله ينحدر مباشرة من حبوس ، فإنه يُرجع الفضل في الانتصارين المهمين الى جده الأعلى حبوس ، والى جده باديس .

(118) بعد أن قضى ابن عباس نحو شهرين في السجن تولّى قتلَه باديس بنفسه شرَّ قتلة (21 ذو الحجة 429 / 24 سبتمبر 1038) . وكان أبو الحزم بن جهور ، صاحب قرطبة منذ عام 422 / 1031 ، قد وجّه رسولاً إلى باديس شافعًا في ابن عباس دون جدوى .

يقول ابن حيان ان الذي حثّ باديس على قتل ابن عباس هو عبد العزيز بن ابي عامر صاحب بلنسية ، الذي بادر إلى ضم المرية بُعيْد هزيمة زهير ، خشية ان يسعى عليه ابن عباس إن هو أخلى سبيله . ولعلّ هذا القول صحيح ، اذ إن باديس قتل ابن عباس في اليوم الذي انصرف فيه رسول ابن عبد العزيز .

وكان ابن عباس قد عرض على باديس مبلغًا كبيرًا من المال لافتداء نفسه ، وكاد باديس ان يقبل بذلك ، لولا معارضة اخيه بلقين ، الذي حذّره من مغبة الافراج عن ابن عباس . وكما ذكرنا من قبل ، فان ابن عباس كان متعجرفا وصلفا في معاملة الآخرين . ان ذلك ، واعتباره مسؤولاً عن تردي العلاقات ، وقيام الحرب مع زهير الصقلبي ، فضلاً عن عدائه الشخصي لاسماعيل ابن النغريلة ، كل ذلك ادى إلى هلاكه (الذخيرة ، 1 / 2 ، ص . 660 ، 663 وما بعدها . الاحاطة ، 1 / 260) .

(119) لا شك في ان مركز باديس توطد بعد انتصاره على زهير ، إلا انه ليس صحيحًا ما يقوله المؤلف من انه لم يجترىء أحد على جده بعد تلك القضية . ففي السنة التالية ، اشتبك اسماعيل بن عباد مع باديس قرب استجّة ، ثمّ انتزع المعتصم بن صمادح صاحب المرية ، والمعتمد ابن عباد صاحب اشبيلية ، وادى آش ومالقة على التوالي من يد باديس ، واحتفظا بهما بعض الوقت (التبيان ، قلائد ، 18) .

(120) لا يُعرف على وجه التأكيد ما إذا كان ابن اخي باديس هذا قد ترك غرناطة الى بلد آخر في الأندلس ، او – وهو الأرجح – انه قصد افريقية ، كما فعل زاوي من قبله . ومهما يكن من امر ، فانه لا يُذكر المزيد عنه . كما ان من المرجح كذلك ان رحيل ابن بلقين عن غرناطة لم يكن باختياره ، اذ إن باديس – بعد تجربته المرّة مع ابن عمه يدير – لابد وأنه كان يَهمُّه ان يجنِّب ابنه المشاكل من جانب ابن بلقين ، الذي يذكر عنه عبد الله بانه عارض سيف الدولة ، وكان يتوقع أنه يسبب له المتاعب .

(121) يبدو أن باديس بعد ظفره على زهير اتخذ لنفسه لقب ''المظفر'' ، وبهذا اللقب يشير عبد الله الى جده بعد ذلك .

(122) كان لباديس في الواقع ابن آخر هو ماكسن ، وكان أصغر سنًّا من سيف الدولة (انظر الهامش 26) .

(123) ان ما يصف به عبد الله اباه تؤكده المصادر الأندلسية الأخرى التي تقول بانه كان عاقلا ونبيلاً ، مما جعل أباه يسميه وليًّا لعهده . ويورد ابن الخطيب نص كتاب بخط سيف الدولة بعث به إلى قاضي مالقة ، ويصفه بانه ''يدل على نبل ، ويعرِّف عن كفاية'' (المرقبة ، 91 وما بعدها . الاحاطة ، 1 / 433) .

وعلى عكس ذلك ، كان باديس ، الذي كان يُضرب به المثل في السطوة وسفك الدماء . ويحاول عبد الله تبرير ذلك بالظروف والمتاعب التي واجهها جده . وما قضيَّتا ابن عباس وابي الفتوح الجرجاني سوى مثلين لأناس فتك بهم باديس بمنتهى القسوة . ويحكى ان عجوزا شكت لباديس عقوق ابنها ''فأحضره وأمر بضرب عنقه ، فقالت له : يا مولاي ، ما اردتُ الا ضربه بالسوط وأدبه . فقال : لست بمعلِّم صبيان ، وضرب عنقه'' (المغرب 2 / 107) .

(124) انظر الهامش 109 .

(125) عند وفاة أبي ابراهيم (448 / 1056) ، كان باديس منزعجا أشد الانزعاج من السياسة التوسعية التي ما انفك ينتهجها عدوُّه اللدود المعتضد بن عباد ، الذي اخذ في صرف انتباهه إلى الامارات البربرية الصغيرة في جنوب الأندلس . ففي سنة 445 ه / 1053 م ، استولى المعتضد على موررور وأركش ورندة ، وقام في العام التالي بضم الجزيرة الخضراء ، وتطلع إلى أخذ مالقة . ففي السنة التي توفي فيها ابو ابراهيم ، كان باديس بحق تحيط به المتاعب ، ولذلك فان أبا ابراهيم وصَّى ابنه ''بان يسعى في طلب الوزارة عند استقامة الدَّولة للرئيس'' (ابن عذاري ، 3 / 266 ، 270وما يليها) .

(126) من الجدير بالذكر ان المؤلف – كسائر المؤرخين الأندلسيين – يتكلَّم باجلال عن ابي ابراهيم اسماعيل ابن النغريلة ، ويشير إليه دوما بكنيته ''أبي إبراهيم'' ، في حين أنه عند الحديث عن ابنه يوسف ، فإنه يشير إليه باستمرار بِ''الخنزير'' أو ''اليهودي'' ، دون ذكرٍ لاسمه او كنيته . ان معاداة عبد الله ليوسف بن النغريلة كَان لها ما يبررها ، اذ اعتبره مسؤولاً عن سقي السم لأبيه .

وفي القصيدة المشهورة التي نظمها الفقيه ابو إسحاق الإلبيري ضد الوزير اليهودي ، يشير الى يوسف بالقرد . ويصف عبدُ الله بالخنزير البرهانش Alvar Hánez'رسول الفونس السادس اليه . وهاتان التسميتان لأهل الذمة تستندانْ الى بعض الآيات (الأعراف ، 166 . المائدة ، 60 . انظر كذلك : اعمال ، 240 .Perlmann, 287 f. Poésie, 243) .

(127) ذكر المؤلف ذلك أيضًا عن حبوس وأبي ابراهيم . ان عبد الله ، وهو يؤكد بانه لم يكن لأبي ابراهيم او ابنه من بعده اية سلطة على المسلمين ، يسعى لدحض الاتهامات التي وُجِّهت – وخاصة من قبل الفقهاء – ضدّ باديس وحبوس باتخاذهم وزراء من اليهود ومنحهم السلطة على المسلمين (انظر السِلَفي ، 83وما بعدها . أعمال ، 231) .

(128) عُرف صاحب الشرطة بالأندلس بصاحب المدينة (انظر Supplément, 1 / 819) . وفي ايام خلافة قرطبة كان صاحب المدينة واليها ، فكان لذلك صاحب أسمى سلطة مدنيَّة . وحينما كان الخليفة

الناصر يخرج من قرطبة على رأس حملة ، كان يترك مع ابنه في العاصمة ، لمشورته ومساعدته ، احد كبار وزرائه وصاحب المدينة . وقد عهد الحكم المستنصر بهذا المنصب المهم إلى وزيره الاثير لديه المصحفي الذي يشار إليه بالوزير صاحب المدينة (المقتبس ، 7 / 92 . Es p. Mus., 90,93 f

ومن الجدير بالذكر انه في عهد باديس ، ثم في عهد عبد الله ، قُلِّد الخصيان الصقالبة كموفق ولبيب – دون البربر أو الأندلسيين – منصب صاحب المدينة بالحضرة (التبيان ، 147) .

(129) ''وأنا المشرف عليه'' ، اي الموت . وترد عبارة مماثلة في (طبقات الأطباء) : اعتللتُ بحمّى ، فطاولتني وأشرفتُ منها . (ابن جلجل ، 104) .

(130) اشتق المؤلف الفعل ''تبرمك'' من برمكي ، بمعنى قام بدور البرمكي ، أي استبد بالسلطة وتجبّر . و الاشارة بالطبع إلى يحيى بن خالد البرمكي ، الوزير الشهير للخليفة العباسي هارون الرشيد . وقد استبد يحى – بمساعدة ابنيْه الفضل وجعفر – بالسلطة سبع عشرة سنة (170 – 187 هـ / 786 – 803 م) الى أن قرر الرشيد فجأةً وضع حدٍّ لسلطان البرامكة .

(131) يردد المؤلف ما سبق ان ذكره تبريرًا لاتخاذ حبوس ابا ابراهيم كاتبًا له . فقد عهد باديس إلى يوسف بجباية الأموال ومراقبة العمال ، وكان معظمهم في غرناطة من اليهود . وفضلا عن ذلك ، فإن يوسف كان ذميا لا يمكن أن يصبو لامارة غرناطة ، وهذا امر مهم لباديس الذي كان دائما يرتاب في الأندلسيين ، وفي شيوخ صنهاجة بعد مساندتهم لابن عمه يدير . ولذلك ، فان اعتبارات مالية وسياسية حدتْ بباديس إلى الاعتماد اكثر فاكثر على يوسف بن النغريلة ، مما نفّر عنه ابنيْ القروي وشيوخ صنهاجة .

(132) ضُرب الدينار الثلثي في الأندلس في اوائل القرن الهجري الثاني / الثامن للميلاد . يدَّعي يوسف بان عبد الله بن القروي كان لا يعطي لبيت مال باديس اكثر من خمسة عشر الف دينار من الدراهم الفضية ، في حين ان جباية وادي آش ينبغي ان تدر لبيت المال اكثر من مائة الف دينار ثلثية ، أي ذهبًا . ولما كانت جودة الدراهم قد اخذت في التدني بعد سقوط خلافة قرطبة ، اتضح الفرق الكبير بين الرقمين المذكورين (انظر EI², 2 / 297,319) .

(133) ''بنت'' أي صورة مصغرة من . فابن الخطيب يسمي مسقط رأسه لوشة – تَحبُّباً – ''بنت الحضرة'' (الاحاطة ، 2 / 343) . وتوصف جزيرتا يابسة ومنورقة بانهما ''بنتا جزيرة ميورقة'' (الروض ، 198) . ويصف ابن جبير جزيرة صقلية بانها ابنة الأندلس ، اي أنها صورة مصغرة من الأندلس من حيث سعة العمارة وكثرة الخصِب (ابن جبير ، 266) . ويرى حسين مؤنس ان المقصود ببنت التبعية الادارية (تاريخ الجغرافية .. ، 574) . وعلى ذلك ، فان عبد الله يريد ان يؤكد ما بين وادي آش وغرناطة من صلةٍ وتشابه .

(134) ولّى باديس – بعد استيلائه على مالقة سنة 447 / 1056 – ابنه سيف الدولة بلقين على مالقة ، وسماه وليًا لعهده . وقد ظلَّ بلقين واليًا على مالقة حتى وفاته فيها سنة 456 / 1064 (المرقبة 91 ، وما بعدها) . وهكذا ، فان بلقين اصبح واليا على مالقة وعلى وادي آش ، واتخذ في مالقة ابن الحسن النباهي قاضيًا ووزيرًا ، وعهد ليهودي هو يوسف بن النغريلة بادارة شؤون وادي آش المالية .

(135) يقصد عبد الله بوقيعة بطليوس المعركة الشهيرة عند المؤرخين المسلمين بوقعة الزلاقة ، أو يوم عَروبة / العَروبة ، والمعروفة عند المؤرخين النصارى بوقعة Sagrajas / Sacralias (12 رجب 479 هـ / 23 اكتوبر 1086 م) ، وفيها احرز سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين نصرًا كبيرًا – قرب مدينة بطليوس – على الفونس السادس ملك قشتالة . وسيتحدث المؤلف فيما بعد عن هذه الوقعة . الا أن من الغريب انه يسمي الوقعة باسم المدينة القريبة من مكان حدوثها ، بدلا من من الاسم الذي اشتهرت به ، وكأنها احدى المعارك العادية .

(136) انظر الهامش 91
كانت المشيخة (مثل Curia عند الرومان) شائعة في الأندلس وفي بعض اجزاء المغرب بمعنى مجلس أعيان . ويبدو ان نظام المشيخة شاع في الأندلس بين البربر بمعنى ''الجماعة'' ، كما شاع بين الصقالبة واليهود (انظر الذخيرة ، 1 / 2 ، ص 661 ، 4 / 1 ، ص 122 . المقتبس ، 3 ، 62 .اعمال ، 194) . ويستعمل عبد الله ''المشيخة'' عند حديثه عن يهود غرناطة ، كما يستعمل ''الشيوخ'' عند حديثه عن يهود اليسانة (التبيان ، 74 ، 146) .

(137) مع ان شرب الخمر كان أمراً مألوفاً بين ملوك الطوائف في مجالسهم الخاصة ، من الطريف ان نجد عبد الله يشير صراحة إلى إقبال كل من والده وجده على الشراب ، في وقت كان فيه الفقهاء يحملون على اسرته لمخالفتها مقتضيات الشريعة . وكان باديس – على وجه الخصوص – قد ساءت سمعته بسبب ادمانه على الشراب (الاحاطة ، 1 / 437 ، 457) .

(138) لعل وفاة سيف الدولة – وهو في الخامسة والعشرين من عمره – كانت في سنة 456 / 1064 (المرقبة ، 92 . الاحاطة ، 1 / 734 . أعمال ، 231) ، الا أن ابن عذاري يذكر ان الوفاة كانت في سنة 457 / 1065 (ابن عذارى ، 3 / 261) .
ساءت العلاقات بين سيف الدولة وبين يوسف بن النغريلة بسبب دسائس ابنيْ القروي ولأن يوسف – كما زعم – لم يَفِ بما قطعه على نفسه بشأن جباية وادي آش . ويقول ابن الخطيب إن سيف الدولة استاء من يوسف ''منكرًا استيلاءه على الملك ، وتنويهه باليهود من قومه ، وانطلاق يده على المسلمين'' (اعمال 230) .

ومن الجدير بالذكر أن عبد الله يورد قضية السمّ على أنها حقيقة مسلَّم بها ، ويشاطره الرأيَ في ذلك عدة مؤرخين مسلمين (انظر ابن عذاري ، 3 / 261 . الاحاطة ، 1 / 434) . الا ان ابن النباهي يقول إن سيف الدولة توفي في مالقة ''من وجعٍ أصابه'' (المرقبة ، 92) . ومن الجديربالذكر ان ابن بسام – وقد خصص فصلا للحديث عن الوزير اليهودي ، وفيه يوجِّه إليه نقدًا شديدًا – لا يذكر قضية السم (الذخيرة ، 1 / 2 ، 766 – 769) .

(139) لم يكن المعز تميم – شقيق عبد الله – يتجاوز العاشرة من عمره عند وفاة أبيه . فولاّه باديس مالقة خلفا لأبيه ، وعيَّن شيخا من صنهاجة مؤدبًا ومستشارًا له . ولم يكن تعيين الأبناء الصغار السن امرًا غير مالوف بين ملوك الطوائف ، فالمعتمد – بعد استيلائه على شِلْب سنة 444 / 1053 – ولّى ابنه محمدا – المعتمد فيما بعد – وعمره اذ ذاك ثلاث عشرة سنة على اقليم الغرب .

ولما شبَّ تميم اتخذ لنفسه لقب ''المستنصر بالله'' لا ''المنتصر بالله'' ، كما يذكر ابن الخطيب . فالدرهم المضروب في مالقة سنة 474 / 1081 يحمل اسمه ولقبه الكاملين : ابو معد المستنصر بالله المعز لدين الله .

ويصف المؤلف اخاه فيما بعد بانه عُرف بشرِّه وسوء معاملة لرعيته . اما ابن الخطيب فيصفه بانه ''كان شهمًا شديد الجرأة ، بعيد الاعتدال ، سيء الملكة في الرعية'' . وقد خلعه المرابطون ونفوه إلى سوس بجنوب المغرب الأقصى سنة 483 / 1090 ، وتوفي في مدينة مراكش سنة 488 / 1095 . (التبيان ، 167 . اعمال ، 336 . العبر ، 6 / 180 وما بعدها) .

(140) استولى باديس على مالقة من المستعلي محمد بن ادريس ، آخر خلفاء بني حمود ، في سنة 447 / 1055 (البكري ، 134 . ابن عذاري ، 1 / 299) .

ان السبب الرئيسي لاستيلاء باديس على مالقة هو الحيلولة دون سقوط المدينة في يد المعتضد ابن عباد الذي كان قد استولى على الجزيرة الخضراء في السنة السابقة ، واخذ يهدد مالقة (جمهرة ، 50) . ولا شك في أن ضعف أمراء بني حمود ، الذين كان البربر يساندونهم ، أغرى الأمراء الآخرين بمهاجمتهم . الا أن من الطريف ان نلاحظ السبب الثالث الذي ذكره عبد الله ، ألا وهو

ان أمير القيروان الزيري – المعز بن باديس – كان يعيِّر باديس باخذ القرى دون القواعد في الأندلس .

(141) كان باديس طيلة سنوات حكمه يشعر بعداء امراء الأندلس له . ومما زاد من مخاوفه السياسة التوسعية التي انتجها المعتضد ، الذي ضم إلى مملكته الإمارات البربرية في مورور ورندة وأركش (445 / 1053) ، وطرد بني حمود من الجزيرة الخضراء 446 / 1054 . وبفضل تحصين باديس لقصبة مالقة ، استطاعت حاميتها الصمود في وجه بني عباد بعد ذلك بعشر سنوات .

(142) قامت دولة بني عباد في إشبيلية سنة 414 / 1023 على يد القاضي ابي القاسم محمد بن عباد ، الذي خلفه سنة 433 / 1042 ابنه عباد الملقب بالمعتضد . وخلال فترة حكم المعتضد ، التي دامت الى سنة 461 / 1069 ، تزعم الطائفةَ الأندلسيةَ ضد البربر ، ونجح في توسيع رقعة اراضيه كثيرًا على حساب جيرانه الأضعف منه في غرب الأندلس وجنوبها . وبعد أن استولى المعتضد على قرمونة 459 / 1067) ، صرف اهتمامه شرقًا . ولما كان باديس منشغلا بمتاعبه الداخلية ، فانه أصبح في موقف دفاعي في مالقة وغرناطة (الذخيرة ، 2 / 1 ، ص 23 وما بعدها . الحلة ، 2 / 39 وما بعدها . اعمال ، 155 وما بعدها) .

(143) انحاز اهل مالقة الى المعتضد لكونه اندلسيًا مثلهم ، فداخلوه وقاموا ضد باديس حينما وصلت الى ظاهر مالقة قوة تابعة لبني عباد على رأسها ابنا المعتضد محمد وجابر . وسقطت المدينة في ايدي العباديين ، باستثناء القصبة التي صمدت حاميتها من السودان الذين استغاثوا بباديس . وفي هذه الأثناء ، حذَّر زعماء مالقة الأميرين العباديين من التراخي ، وحثوهما على التعجيل بمهاجمة القصبة ، الا انهما لم يصغيا لهذ التحذير . ولم تلبث أن وصلت من غرناطة نجدة زيرية يقودها الناية ، وتمكنت من استرداد المدينة (الذخيرة ، 2 / 1 ، ص 49 وما بعدها . قلائد ، 18) .

(144) أسس الدولةَ الحموديةَ في قرطبة عليُّ بن حمود ، فكان أول خليفة غير أموي في الأندلس (407 / 1016) . الا أنَّ الأندلسيين لم تُرقْ لهم خلافة غير اموي ، ولم يُخفوا ميولهم للبيت الأموي كلما سنحت فرصة مواتية لذلك . اما البربر ، فانهم ساندوا الحموديين بادىء الأمر ، واعترفوا بهم أئمةً لهم ، الا أن ولاءهم لهم كان ولاءً اسميا ، ولم يلبثوا أن تخلوا عنهم . وقد ملك بقايا الحموديين مالقة والجزيرة الخضراء إلى إلى أن استولى على الأخيرة المعتمد بن عباد (446 / 1054) واستولى باديس على مالقة (447 / 1055) .

ان افول نجم الحموديين كان يرجع إلى منازعاتهم الداخلية ، والى تخلي البربرعنهم ، وبخاصة باديس الذي كان مركزه في غرناطة قد توطد في هذه الأثناء ، فلم يَعُدْ في حاجة حتى إلى خليفة اسمي (البكري ، 133 وما بعدها . ابن عذاري ، 3 / 119 وما بعدها) .

(145) خلف المعتصم بن صمادح اباه معن بن صمادح اميراً لألمرية في سنة 443 / 1052 ، ودام حكمه اربعين عامًا . وقد تحالف المعتصم – كأبيه من قبله – مع باديس بعض الوقت ، ولكنه بعد ان وطَّد مركزه اغتنم فرصة المتاعب الداخلية والخارجية التي واجهها باديس ، فحاول توسيع رقعة إمارته الصغيرة على حسابه (الذخيرة ، 1 / 2 ، ص 768 . العذري ، 84 وما بعدها) .

(146) حول ألقاب المظفر باديس ، انظر الهامشين 93 ، 121

(147) لما أُخرج محمد بن صمادح من وشقة في الفتنة من قِبَل ابن عمه منذر بن يحي ، صار إلى بلنسية حيث اكرمه أميرها عبد العزيز بن ابي عامر ، ذلك لأن ابن صمادح كان قائدًا لجيش جده المنصور ابن ابي عامر . وقد صاهره ، فزوَّج أختيه من معن وصمادح ، ابنَي محمد بن صمادح .

وبعد هزيمة زهير العامري ومصرعه ، استدعى أهل المرية عبد العزيز بن أبي عامر ليكون اميرًا للمدينة ، فوصلها في 30 ذي القعدة 429 / 3 سبتمبر 1038 ،ولكنه ما إن أحس بخطر مجاهد العامري صاحب دانية حتى خرج لملاقاته ، وولَّى على المرية ابا الأحوص معن بن صمادح الذي

ارتكب – كما يقول ابن حيان – ''الغدرة الصلعاء'' ضد من أحسن اليه ، فاستولى على المرية (433 / 1 – 1042) . ويقول العُذري إن اهل المرية رغبوا إلى معن ان يولُّوه على أنفسهم ، وأنه استشار باديس ونال استحسانه . ولذلك ، وكما يقول عبد الله ، فانه بفضل باديس في المقام الأول استطاع ابن صمادح الاحتفاظ بإمارته في المرية حتى وفاته في رمضان 443 / 6 يناير – 4 فبراير 1052 (الذخيرة ، 1 / 2 ، ص 729 وما بعدها. . العذري ، 84) .

(148) كان عبد العزيز بن عبد الرحمن – حفيد المنصور بن ابي عامر – في سرقسطة حينما دعاه الصقالبة العامريُون في بلنسية لتولي الامارة (417 / 6 – 1027)بعد رحيل مجاهد عنها إلى دانية . وقد تلقى عبد العزيز عونا من الفرنجة في حروبه مع مجاهد . وحكم عبد العزيز – الملقب بالمنصور – فترة طويلة ، وتوفي في سنة 452 / 1060 . ولا بد ان ابن ابي عامر قد اتخذ موقفًا معاديًا من باديس بعد مساندة الأخير لابن صمادح في المرية (العُذرى ، 84 . ابن عذاري ، 3 / 164وما بعدها) .

(149) كان المنصور بن ابي عامر قد ولّى أبا الحسين مجاهدًا من كبار الموالي الصقالبة على دانية والجزائر الشرقية (جزر البليار) ، ولما نشبت الفتنة عا 399 / 1008اصبح مجاهد اميرًا على دانية والجزائر الشرقية ، واتخذ لنفسه لقب الموفق بالله . ويشتهر مجاهد في التاريخ الأندلسي بغزواته الجريئة في جزيرة سردانية ، وعلى الساحل الايطالي المقابل للجزيرة . وكانت وفاته في دانية سنة 436 / 3 – 1045 (ابن عذارى ، 3 / 156 . الضَّبِّي ، 457وما بعدها) .

(150) اشتهر البربر عند الأندلسيين ببسالتهم وجرأتهم في الحروب ، وعمد المعتضد وابن الأفطس امير بطليوس الى تجنيدهم (الذخيرة ، 4 / 1 ، ص 21) . وعن بسالتهم انظر الحكاية الطريفة التي أوردها ابن عذاري ، 3 / 282 ، وكذلك الهامش 40 .

لما كان مجاهد قد خدم في الجيش في عهد الدولة العامرية ، فانه يعبر هنا عن تجربته الشخصية للبربر في ساحة القتال . ولم تغبْ عن باله كذلك الانتصارات التي احرزها بنو زيري بعد ذلك على المرتضى وزهير العامري .

(151) ان ما استخلصه محمود علي مكي من هذا الجواب بان بني زيري في غرناطة كانوا شيعة ليس له ما يبرره ، ولا تدل عليه حقائق الوضع (انظر ''التشيع في الأندلس'' ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد ، 7 – 8 (59 – 1960) ، ص 127 ، 130) . ومما ينفي ذلك : (1) ان العامريين – وخليفتهم الأموي – لا يمكن بالتأكيد ان يكونوا قد اذنوا لزاوي وأقربائه بالقدوم إلى الأندلس لو كان هؤلاء من الشيعة . (2) وحتى بنو حمود الذين ادَّعَوْا لأنفسهم نسبًا علويا لم يُعرف عنهم التشيع ، علناً على الأقل ، ولم يدعوا اهل الأندلس الى التشيع (جذوة ، 22 . المعجب ، 30) . (3) ان الكتاب الأندلسيين – مع ماعرف عنهم من بُغْضٍ للبربر – ما كانوا بالتأكيد ليسكتوا عن تشيُّع بني زيري لو كان ذلك صحيحًا . (4) بل ان بني زيري بافريقية – وكانوا شيعةً باديء الأمر – كانوا في فترة الأحداث التي يتحدث عنها عبد الله قد نبذوا التشيع ، وقطعوا صلاتهم بالخليفة الشيعي في القاهرة ، وعادوا الى اعتناق المذهب المالكي السُّنِّي (ابن عذاري ، 1 / 275 ، 277) .

(152) ابو الحسن ابراهيم بن محمد بن يحيى ، المعروف بابن السقاء ، كان وزيرًا لأبي الوليد بن جهور ، صاحب قرطبة ، خمس عشرة سنة الى أن اغتيل على يد عبد الملك ، الابن الأصغر لأبي الوليد ، بتحريض من المعتضد بن عباد (23 رمضان 455 / 19 سبتمبر 1063) . كان ابن السقاء وزيرًا قديرًا أحسن خدمة أميره . فبفضله قامت علاقات وثيقة مع باديس ، مما حال دون المعتضد ومهاجمة قرطبة ، فلجأ المعتضد الى المداخلة لانتزاع المدينة من يدي بني جهور . ويُذكر أن المعتضد حرَّض عبد الملك على التخلص من ابن السقاء ، وشجَّع ابن السقاء في الوقت ذاته على اغتصاب السلطة مستهدفًا بذلك إيهان قرطبة من الداخل تمهيدًا لاستيلائه عليها . وفي الواقع ، فان الفوضى انتشرت في قرطبة بُعيْد وفاة ابن السقاء ، إلى أن سقطت المدينة آخر الامر في يد بني عبَّاد (462 / 1070) .

وكما يذكر المؤلف ، فان ابن السقاء كان على علاقات ودية مع باديس الذي ذُكر بانه زار قرطبة . كما يُذكر بان ابن السقاء زار غرناطة رسولاً لأبي الوليد بن جهور (ابن عذاري ، 3 / 248 ، 251 . الحلة ، 1 / 186) .

(153) انظر الهامش 145 .

لم يكن ابو يحيى محمد بن معن – الملقب بالمعتصم – يتجاوز الثامنة عشرة من عمره حينما خلف اباه اميرًا لألمرية (443 / 1052) .

يذكر ابن حيان ان المعتصم هاجم حصنا من عمل تليمير لابن خاله عبد الملك بن عبد العزيز ابن ابي عامر "واستعان بحليفه باديس ... فوجده مبارعًا الى ذلك ، لما كان يعتقده من العصبية البربرية ، ويذهب إليه من ازدراء فرقة الأندلسيين" .

ونظرًا لضيق رقعة إمارة المعتصم ومواردها المحدودة ، فانه لم يكن ندًا لجاريه الأقوى منه باديس وابن عباد (الذخيرة ، 1 / 2 ، ص 731 وما بعدها . ابن عذاري ، 3 / 167 وما بعدها . أعمال ، 190) .

(154) هذه هي المرّة الأولى التي يصف فيها المؤلف يوسف بن النغريلة بانه وزير باديس . وقبل ذلك ، وصف المؤلف اسماعيل بن النغريلة وابنه على انهما كاتبا باديس . الا ان من الجدير بالذكر ان ذلك كان هو المألوف في الأندلس في السنوات القليلة الأولى التي تلت الغاء خلافة قرطبة ، اذ إن أحدًا من ملوك الطوائف لم يرغب – بل لم يجرؤ – في الظهور بمظهر أمير مستقل تمام الاستقلال عن الخلافة ، وله وزراؤه . وفي منتصف القرن الخامس / الحادي عشر ، اعتاد الأندلسيون على وجود كيانات سياسية مستقلة مختلفة ، وعلى تسمية كتاب الأمراء المستقلين بالوزراء . على ان هذا التغيير كان تغييرًا شكليا وحسب ، إذ إن الوزير هو الكاتب في الأندلس .

(155) كتاب (التبيان) هو المصدر الرئيسي لمعلوماتنا عن الناية . وفي معرض حديث ابن خاقان عن استرداد مالقة من يد بني عباد يقول : "فأخرج باديس من حينه كتيبته .... وعليها ابن الناية قائد جنده" (قلائد ، 18) .

ويبدو ان النابة كان ضمن فرقة من الصقالبة في خدمة المعتضد ، ثم فر من اشبيلية ، لتورطه في مؤامرة اسماعيل بن عباد ضد ابيه ، ولجأ الى باديس وأسدى إليه خدماتٍ كبيرةً ، كما في استرداد مالقة ، وفي شن الغارات على اراضي ابن عباد ، كما ان استرداد باديس لجيان واستيلاءه على بياسة كانا بفضل جهود النابة (التبيان ، 91 – 92) .

(156) في عام 450 / 1058 فكر المعتضد في مهاجمة قرطبة ، وعهد بذلك الى ابنه الأكبر وولي عهده اسماعيل ، الذي اشتكى من ان ما لديه من قوة لا تفي بالغرض ، إذ ان قرطبة مدينة منيعة ويمكن لأميرها الاستعانة بباديس . الا ان المعتضد أصرَّ على وجوب خروج اسماعيل فورًا . وفي منتصف الطريق إلى قرطبة ، ترك اسماعيل عسكره وعاد فجأة إلى إشبيلية ، ومنها توجه مع اسرته الى الجزيرة الخضراء ، حيث ذُكر بأنه كان يعتزم إقامة إمارة مستقلة لنفسه . ومع ان الأب تصالح مع ابنه ، الا أنه أعدم المتآمرين مع اسماعيل . وخشي اسماعيل ان يحل به ما أصابهم ، فدبّر مؤامرةً ثانية استهدفت التخلص من ابيه ، الا انها باءت بالفشل ، وحنق المعتضد اشد الحنق ، وبادر إلى قتل ابنه بنفسه سنة 450 / 1058 (الذخيرة ، 3 / 1 ، ص 143 وما بعدها . ابن عذاري ، 3 / 244 وما بعدها . المعجب ، 97) .

(157) لعلّ مقاتل بن يحيى ومقاتل بن عطية البرزالي شخص واحد . وقد عرف مقاتل بالرُّيُّه el Royo لحمرةٍ كانت في وجهه ، وكان خدم كلاًمن باديس وحفيده عبد الله . وكان المعتضد ، قبيل محاولته الاستيلاء على مالقة ، قد اجلى بني برزال الزناتيين عن قرمونة (459 / 1067) ، فالتحق بعضهم – ومن بينهم مقاتل – بإخوانهم البرابرة في غرناطة .

وقد ولّي عبد الله في اواخر ايام ملكه مقاتلاً مدينة أليسّانة التي كانت آنذاك تتعرض لهجمات المعتمد بن عباد . ومع ان مقاتلاً نجح في درء خطر ابن عباد ، فان عبد الله صرفه عن الولاية لأنه كان يشك في ولائه ، ويخشى انحيازه إلى المرابطين .

اشتهر مقاتل فارسًا مقداما ، وشارك في وقعة النييل شمالي غرناطة عام 478 / 1085 ضد فرقة مغيرة من القشتاليين ، وأبلى في القتال وضرب مثلاً اقتدى به رجاله (الاحاطة ، 3 / 300 . ابن عذاري ، 3 / 269 . اعمال ، 237وما بعدها) .

(158) ابو الربيع الماطوني الذي يوصف هنا بقابض الوجيبة يشير إليه المؤلف فيما بعد بأبي الربيع اليهودي ، ويصفه بأنه ''خازن الأموال'' في دولةجده باديس (التبيان ،144) .

يؤكد ذلك ما سبق ان ادعاه عبد الله (التبيان ، 68)بان اكثر العمال بغرناطة كانوا يهودا . ويبدو ان ابا الربيع الماطوني – خال يوسف بن النغريلة – كان قد عُهد اليه بجباية ومراقبة الايرادات من ضياع الأمير الخاصة – ''مستخلَص'' الأمير – التي لا بد انها كانت واسعة ، بحيث كانت تمكّن قابض الوجيبة من تغطية المصروفات اليومية لأسرة الأمير ، ومن توفير قروض لوالدة ماكسن كذلك .

(159) ماكان المعتصم بن صمادح ليتجرأ على الاعتداء على اراضي باديس أو الايقاع به ، لو لم يكن باديس يواجه متاعب كثيرة في تلك الفترة (8 – 459 / 5 – 1077) . ففي الداخل ، كان باديس مكروبًا بفقد ابنه وولي عهده سيف الدولة بلقين ، كما كان منزعجا من دسائس اقربائه ضد ابن النغريلة ، وانحيازهم لابنه ماكسن . وفي الخارج ، كان باديس قد فقد حليفه ابن السقاء في قرطبة ، وكاد ان يفقد مالقة لابن عباد . وكان المعتضد بن عباد قد قضى على إمارات البربر في جنوب الأندلس ، واستولى على الجزيرة الخضراء ، وطرد بني برزال من قرمونة . ومند ذلك الحين أصبح باديس في موقف دفاعي في وجه أمراء الأندلس . وفي تلك الظروف ، اخذ ابن صمادح في الاعتداء على أراضي باديس ، وفي المداخلات ضده .

(160) لابد ان تغريب ماكسن حدث قُبَيْل وقوع اعمال الشغب ضد اليهود في غرناطة في 10 صفر 459 / 31 ديسمبر 1066، إذ إن نبأ مصرع الوزير اليهودي بلغ ماكسن وهو في طريقه خارجًا من غرناطة . ولما علم ماكسن بالنبأ ، يمّم وجهته صوب جيان ، فاستبد في حكمها مع أقربائه (التبيان ، 86 – 87 . ابن عذارى ، 3 / 266) .

الفصل الرابع

(161) مما هو جدير بالملاحظة ان يوسف بن النغريلة كان دائما – فيما يبدو – يستشير مشيخة اليهود في غرناطة قبل الاقدام على عمل مهم . يقول ابن بسام إن يوسف ''تسمى من خططهم [اليهود] الشرعية بالناغيد ، معناه المدبِّر بالعربية'' (الذخيرة ، 1 / 2 ، ص 767) . وعلى ذلك فيفترض انه – بحكم هذا المنصب – كان يتولى رئاسة مشيخة اليهود لبحث الأمور ذات الأهمية بالنسبة له ، والجماعة اليهودية عامة .

(162) ان تهمة التواطؤ بين يوسف بن النغريلة وبين المعتصم بن صمادح صاحب المرية يرددها المتأخرون من المؤرخين الأندلسيين كأحد اسباب قيام صنهاجة ضد يوسف وضد يهود غرناطة (359 / 1066) . بل ذُكر بان الوزير اليهودي ''طلب أن يقيم لليهود دولة'' في ألمرية يكون هو أميرها (ابن عذاري ، 3 / 266) . الا أن من المستعبد ان يكون اختياره قد وقع لهذا الغرض على المرية بدلا من غرناطة ، التي كانت بها طائفة يهودية كبيرة (اعمال ، 231 . الاحاطة ، 1 / 440 . Poésie,270) .

(163) كان أبو الأصبغ عبد العزيز بن ارقم (الأرقم) من وادي آش قد خدم عليًا بن مجاهد صاحب دانية قبل أن يصبح وزيرًا مقرَّبًا للمعتصم بن صمادح . وكثيرًا ما كان المعتصم يوفدُ في سفارات مهمة ، وفي احدى هذه السفارات الى المعتمد بن عباد أعجب المعتمد بكفائته فدعاه بان يلتحق بخدمته ، الا أن ابن ارقم اعتذر عن ذلك ، ولذلك اشتهر بالوفاء (المقّري ، 3 / 498) .

(164) لا يمكن أن يكون المعز تميم – شقيق عبد الله الأكبر – قد تجاوز الحادية عشرة من عمره حينما كان يوسف يداخل ابن صمادح (8 – 459 / 5 – 1066) ، ولذلك فان المؤلف يشير الى صغر سن اخيه . ولعل هذا يفسر كذلك عدم ورود اسم تميم عند ذكر حملة ابن عباد على مالقة ، مع انه كان واليها منذ وفاة ابيه بلقين .

(165) ان إحجام ابن صمادح عن مهاجمة غرناطة له ما يبرره ، اذ إن صنهاجة كانت متمركزة فيها ، ولذلك وُصفت بأنها ''معدن الجيش'' . ولازالة مخاوف ابن صمادح ، قرر يوسف ابن النغريلة نقل بعض زعماء صنهاجة الى أماكن خارجها كجيَّان والمنكّب .

(166) يورد ابن بسام رواية مماثلة عن انقطاع باديس عن الناس وانهماكه في شرب الخمر ولكنه – بخلاف عبد الله – يضع اللوم على اليهودي الذي ''حجب صاحبه عن الناس ، وسجنه بين الدن والكاس'' . ويضيف ابن بسام ان اليهودي كان ''ملَّك ابن صمادح أكثر حصون غرناطة باحتجان أموالها ، وإفساد قلوب رجالها ، فأضافها ابن صمادح الى بلده'' (الذخيرة ، 1 / 2 ، ص 767ومابعدها) .

(167) اثناء الفتنة بين العرب والمولدين في كورة البيرة (276 / 889) ، احتمى العرب بحصن غرناطة . ولما كان سور الحصن متداعيًا ، فان المدافعين العرب كانوا يقاتلون نهارا ويرمّمون السور ليلا . ويُعتقد ان الحصن كان يقوم على اقصى الطرف الغربي من السبيكة ، وقد اخلي في الأيام الأخيرة لخلافة قرطبة ، ويبدو انه هو حصن الحمراء الذي اعاد بناءه يوسف بن النغريلة (المقتبس ، 3 / 56 ، 62 . الحلّة ، 1 / 149) . ويصف الزهري – وهو جغرافي عاش في اواسط القرن السادس الهجري ، وأقام فترة من الزمن في غرناطة – قنطرة القاضي على نهر حدّرُه بانها تقع ''بين الحمراء وباب مورور'' (مؤنس : تاريخ الجغرافية ... ، 386) .

(168) مع انه لا يرد في المخطوط سوى اليوم والشهر اللذين وقعت فيهما اعمال الشغب ضد اليهود في غرناطة ، فان هذه احدى مرتين يذكر فيهما المؤلف تاريخًا في (التبيان) ، وأما المرّة الثانية فهي تاريخ استيلاء المرابطين على إشبيلية .

وتذكر المصادر الأندلسية المتأخرة السنة 459 / 1066 دون ذكر اليوم والشهر . اما عبد الله فانه يقول إن القيام على اليهود كان يوم السبت العاشر من شهر صفر [459 / 30 ديسمبر 1066] . (انظر ابن عذارى ، 3 / 266 . الاحاطة 1 / 440 . Poésie, 273) .

(169) عَجُز بيت معروف لأبي تمام . والبيت (من بحر السريع) هو :

يا عمرو قل للقمر الطالع اتسع الخرقُ على الرقع

(ديوان ابي تمام ، 449) .

(170) يمكن ايجاز الاتهامات التي وجهتها المصادر الأندلسية الى يوسف بن النغريلة فيما يلي :

(1) تحامل على الدين الاسلامي ، فألّف كتابًا زعم فيه بوجود تناقض في آيات القرآن الكريم ، وزعم بان بامكانه ايراد آياته في ابيات مقفاة وموشحات ، ومع ذلك فان امير غرناطة لم يحاسبه على ذلك (الذخيرة ، 1 / 2 ، 766 . رسائل ابن حزم ، 3 / 42) .

(2) تواطأ مع بني صمادح ضد باديس (الذخيرة ، 1 / 2 ، ص 767 . ابن عذاري ، 3 / 266) .

(3) تحيز إلى ابناء دينه واستخدم جملة وفيرة منهم ، حتى إنهم تسلطوا على المسلمين (ابن عذاري ، 3 / 265 . اعمال ، 230) .

(4) تطلّع الى اقامة دولة لليهود في المرية يكون هو اميرها (ابن عذارى ، 3 / 266) .

(5) تمكن من باديس مما أغاظ شيوخ صنهاجة والمسلمين في غرناطة (الذخيرة ، 1 / 2 ، ص 728 وما بعدها . اعمال ، 231) .

(6) حجب باديس عن الرعية ، وشجّعه على الشراب وحياة الدعة .

أما عبد الله فانه لا يأخذ على يوسف سوى مداخلته لابن صمادح ، وتنفيره وسوء معاملته لزعماء صنهاجة ، وسم والده بلقين .

ان القصيدة الحادة الشهيرة التي نظمها الفقيه ابو اسحاق الالبيري ضد الوزير اليهودي ، وضد احتكار اليهود للسلطة والثروة في غرناطة ، كان لها دون شك دَوْرٌ في إثارة مسلمي غرناطة ضد اليهود ، ومع ذلك فان من الغريب ان لا يذكرها عبد الله مع انها كانت – كما يقول ابن الخطيب – السببَ في هلاك ابن النغريلة . ان القصيدة لابد وأنها كانت عاملا مساهما في اثارة النقمة على اليهود في غرناطة ، وحتى ظهور باديس شخصيًا لم يؤدِّ الى تهدئة العامة ، فدخلوا القصر الملكي ، وقتلوا يوسف الذي ذُكر بأنه فحَّم وجهه بقصد التعمية ، واختبأ في دار للفحم . وهلك عدد كبير من اليهود – اكثر من اربعة آلاف شخص كما يقول ابن بسام – ونُهبت دورهم .

ان سلوك يوسف وغطرسته واستخفافه بالدين الإسلامي ، كل ذلك أحفظ دون شك الكثيرين من اهل غرناطة ، الا أن مذبحة اليهود في 10 صفر 459 / 30 ديسمبر 1066 كانت في المقام الأول نتيجة لتسلط يوسف المتزايد ، ولنقمة المسلمين لاستبداد ذمي بالسلطة (الذخيرة 1 / 2 ، ص 769 . المغرب 2 / 132 .ابن عذاري ، 3 / 266 .اعمال ، 231 . الاحاطة ، 1 / 439 وما بعدها **Garcia Gómez, Un àlfaqui espanol.., 30. Poésie, 270 ff Perlmann, 284 f..**) .

(171) بالاضافة إلى غرناطة وطائفتها اليهودية الكبيرة ، كانت اليُسَّانة Lucena مدينة كل سكانها تقريبًا من اليهود ، الا أن المصادر الأندلسية لا تذكر اليهود في جيان . ويُذكر انه كان بجيان طائفة يهودية موسرة منذ القرن الثالث عشر الميلادي . ان تمكّن مسكن – كما يذكر عبد الله – من جمع اموال طائلة من يهود جيان يدل على ان طائفة يهودية ثرية كانت تقيم في جيان في القرن الحادي عشر الميلادي .

(172) متاعي : مما هو لي ، يخصُّني . وفي مثل اندلسي : إما دار متاعك ، واما بالكرا تسكن (الزجالي ، 2 / 75 ، رقم 319) .

(173) ولي المأمون يحي بن اسماعيل بن دي النون مُلكَ طليطلة من سنة 435 / 3 – 1044 الى 11 دي القعدة سنة 467 / 28 يونيو 1075 .

لما جهَّز باديس حملة لاسترداد وادي آش (459 / 1067) ، كان يواجه صعوبات كبيرة . فكان قد فقد وزيره ابن النغريلة ، وشهد ثورة معادية في غرناطة . وكان ماكسن قد انتزى في جيان ، كما ان باديس كانت تساوره الشكوك في اقربائه من صنهاجة . وفي الخارج ، كان قد شهد تزايد قوة ابن عباد الذي أخذ يهدد قرطبة . فلم يعد أمام باديس لذلك الا ان يتحالف مع ابن ذي النون الذي كان آنذاك المنافس الرئيسي للمعتضد بن عباد على الزعامة في الأندلس .

(174) قام المأمون فيما بعد بدور مماثل اثناء النزاع بين الأمير عبد الله وبين الفونس السادس مماجعل عبد الله يقول عنه انه كان ''عدوًا في الباطن ، صديقا في الظاهر'' . ومن الجدير بالذكر انه في الوقت الذي لا يقسو المؤلف في كتابه عند الحديث عن ابن عباد – وبخاصة المعتمد – فانه يحمل على ابن ذي النون ، مع ان بني زيري لاقوا من بني عباد متاعب اكثر مما لاقوه من ابن ذي النون . ولعلّ تفسير ذلك انه حينما أعد عبد الله كتابه (في حدود سنة 487 / 1094) كانت طليطلة قد سقطت في يد الفونس ، وكان بنو ذى النون قد زال ملكهم ، فكان بوسعه لذلك ان يكون صريحًا في حديثه عنهم .

كان المأمون آنذاك (459 / 1067) يسعى جاهدًا للاستيلاء على قرطبة ، فلا بد أنه رحب لذلك بالفرصة المتاحة له لتوسيع رقعة أراضيه جنوبًا (انظر الذخيرة ، 1 / 2 ، ص 610).

(175) الاشارة هنا الى التحالف الذي كان قد عقده باديس سنة 433 / 1042 مع معن بن صمادح حينما قطع الأخير ولاءه لعبد العزيز بن ابي عامر وأعلن – بمساندة باديس – استقلاله في المرية . ولما خلف المعتصم اباه بعد ذلك بعشر سنوات ، قام بتجديد التحالف ، واحتفظ بعلاقات ودية مع باديس لفترة ما . الا أن المعتصم انتهز سنة 458 / 1066فرصة المتاعب التي كان يواجهها باديس وقام – كما يذكر عبد الله – بالاستيلاء على وادي آش ، وعلى عدد من المعاقل . ولما احسَّ المعتصم بالخطر الذي كان يتهدد مركزه في المرية ، استصفح باديس ، وتوسل اليه بتجديد عقد التحالف بينهما (التبيان 78 . الذخيرة ، 1 / 2 ، ص 271) .

(176) كان يحيى بن يفران احد زعماء صهاجة البارزين ، وكان ابن النغريلة قد اخرجه من غرناطة وولاَّه المنكَّب . ولعل استيلاء ابن عباد على مالقة كان وقت ولاية يحيى في المنكَّب ، ولقربها من مالقة امره باديس بنجدة الحامية المحاصَرة في قصَبتها . الا أن ابن خاقان يذكر ان القوة المغيثة كانت بقيادة ابن الناية (قلائد ، 18) . والتفسير الوحيد لذلك هو ان الناية خرج على رأس قوة من غرناطة ، وانضم الى يحيى في المنكَّب ، أو ان الناية تولى القيادة بعد سقوط يحيى في القتال .

ان تَلْكاتة التي كان ينتمي اليها يحيى كانت الفرع الصنهاجي الذي انتمى اليه كذلك بنو زيري ، ولعل ذلك ادى إلى طموح يحيى ومنافسته لباديس (التبيان 88 . انظر الهامش 81 أعلاه) .

(177) لعل مخلوف بن ملول هو الشيخ من صنهاجة الذي كان باديس قد اختاره ليكون مؤدبا ومستشاراً لحفيده تميم حينما ولاَّه مالقة بعد وفاة أبيه (انظر الهامش 139) .

(178) يذكر ابن الأبار ان المعتضد دُعي له بمالقة ''وبخمسة وعشرين حصنا من حصونها جمعة واحدة'' (الحلة ، 2 / 49) .

يستعمل عبد الله نفس العبارة والحجة حينما يذكر فيما بعد موقف الفونس السادس من فكرة احذ غرناطة (انظر التبيان ، 101) .

(179) ومما يُذكر ان باديس كان قبل ذلك قد ازعجه تواطؤ أهل رندة مع بني عباد ضد أميرهم الزناتي (445 / 1053) ، وخشي من أن يحذو رعاياه الأندلسيون في غرناطة حذوهم معه ، فسوَّلت له نفسه الفتك بهم . وكان مصمما على ذلك لولا ان اسماعيل بن النغريلة بيَّن له مغبَّةَ ذلك ، وما سيؤدي اليه من تنفير كافة الأندلسيين وجمع كلمتهم ضده (الاحاطة ، 1 / 437) .

أما الآن ، وقد حنَّكت باديسَ السنون ، وواجهته مشاكلُ جمة فلا بد أنه تذكَّر تلك المشورة فلجأ الى مصالحة أهل مالقة لا ايقاع العقوبة بهم بعد استرداد المدينة .

(180) ان اليقظة التي ابداها باديس اثناء حملة وادي آش في الامور العسكرية والمالية على حد سواء تدحض ما كان قد اتُّهم به من إهمالٍ لشؤون الدولة ، وميلٍ الى الراحات ، وإقبال على الشراب (البيان ، 3 / 265) .

(181) هذا مثل آخر على العصبية البربرية للتي كان على الناية – كابن النغريلة من قبل – ان يواجهها حينما اصبح وزيرًا لباديس . ولما كانت سياسة الأمير – طيلة سنوات حكمه – تقوم على اتخاذ وزرائه من اهل الذمة أو من الصقالبة ، فان مثل هذه السياسة كان من شأنها تنفير اقربائه فضلا عن الأندلسيين . كما أن ذلك يفسِّر – الى حد كبير – التاييدَ الذي حظي به ابنه ماكسن من جانب طائفة كبيرة من صنهاجة .

(182) لما واجه عبد الله وضعًا مماثلاً في فترة حكمه ، حذا حذو جده دون شك ، فانتهج سياسة مماثلة لسياسة جده تجاه الزناتيين في خدمته (انظر التبيان ،147 – 148) .

(183) كان باديس قد نفى ابنه ماكسن من غرناطة بُعَيْد وفاة يوسف بن النغريلة لأنه ارتاب في مؤامرة دُبرت لخلعه وتنصيب ماكسن اميرًا لغرناطة . وفي نحو ذلك الوقت ، وُلِّي مسكَّن على جيان بتوصية

من ابن النغريلة . ولما علم مسكن بوفاة الوزير اليهودي اصطحب ماكسن الى جيان معلنا استقلالها وإمارة ماكسن بها ، مما أرعج الناية كثيرًا وأكد صحة شكوك باديس في أقربائه من صنهاجة .

(184) إن محاولة الناية استرداد جيان عن طريق مداخلة حاميتها لم تكن عملاً غير مألوف في فترة ملوك الطوائف ، حينما كان يتم الاستيلاء على الأراضي والمدن عن طريق التواطؤ والمداخلة . فبهذه الطريقة استولى ابن عكاشة وابن رشيق على قرطبة ومرسية على التوالي (اعمال ، 158 ، 160 ، 201 ، الحلة ، 2 ، 177) .

(185) ما زالت كلمة ''هركاس'' – وأحيانا ''اركاس'' – مستعملةً اليوم بين البربر من سكان جبال الأطلس بالمغرب الأقصى بمعنى نعل أو سبَّاط من الطراز القديم . ولعل الكلمة من اصل بربري ، وهي تُجمع على هراكس وهراكيس (انظر Supplément, 2 / 763) . وفي مثل مغربي : هركس باهركاس حتى ياتيك ربي بالسَباط (ابن شنب ، مثل رقم 1914) . وشبيه به المثل الأندلسي ''جلد ان حي ما تعمل منُّ هراكس'' (الزجالي ، 2 / 179 ، رقم 792) .

(186) أُكره بنو برزال الزناتيون على الرحيل عن شمال إفريقيا من قِبَل بني زيري في افريقية ، فقدموا الى الأندلس ، والتحقوا بخدمة الخليفة الأموي الحكم المستنصر ، ثم ابنه هشام الثاني . ومن الجدير بالذكر ان ابن حزم يقول ان بني برزال كانوا إباضية (جمهرة ، 498) . وفي اثناء الفتنة التي أعقبت سقوط الدولة العامرية ، اقتطع كبير زعماء برزالة – محمد بن عبد الله – إمارةً لنفسه في قرمونة ، ما بين قرطبة وإشبيلية ، ظلت قائمة الى عام 459 / 1067 ، حينما استولى عليها المعتضد بن عباد . ولا بد ان كثيرين من ابناء برزالة انتقلوا عندئذ الى غرناطة ، بالرغم من العداء التقليدي بين زناتة وصنهاجة .

الا أن هذا العداء – فيما يبدو – خفَّتْ حدتُه تدريجيًا بعد اختفاء الجيل الأول من زعماء الجماعتين ، كزاوي وحبوس ومحمد بن عبد الله البرزالي . كثيرًا ما يوصف باديس بانه ''مستخدِمُ الكثير من قبائل زناتة'' .

ويذكر المؤلف ان ابن النغريلة والناية كانا يؤثران دائما زناتة على صنهاجة ، لان صنهاجة كانوا يزدرون الوزيرين . ومن الجدير بالذكر ان عبد الله يشير دائمًا إلى زناتة بالصنف البراني (الذخيرة ، 1 / 1 ، ص 459 . ابن عذاري ،3 / 268 وما بعدها . اعمال ، 230 ، 236وما بعدها . التبيان ،93 ، 46

(187) خلف علي بن مجاهد أباه أميرا لدانية (436 / 1044) وحكم اثنتين وثلاثين سنة الى ان خلعه صهره سليمان بن هود صاحب سرقسطة سنة 468 / 1076 . وُلد علي بن مجاهد لأم نصرانية ، وأُسر وهو ما يزال طفلاً اثناء الحملة الفاشلة التي قادها والده ضد جزيرة سردانية ، وافتداه والده سنة 423 / 1032 ، فعاد الى دانية شابًا (الذخيرة ، 4 / 1 ، ص 265) .

في فترة إمارة زهير العامري بالمرية ، كانت بَسْطة تُتْبَعُ المرية ، الا أنه يبدو بان مجاهدًا استولى عليها اثناء النزاع حول المرية بين ابن صمادح وابن ابي عامر (ابن عذاري ، 3 / 157 وما بعدها . اعمال ، 221 وما بعدها) .

(188) لعل ابن اضحى الذي يشير اليه عبد الله هو عمر بن مشرف بن محمد بن أضحى بن عبد اللطيف الهمداني ، الذي يصفه ابن الزبير بانه فقيه ووزير جليل ، وتوفي في حدود عام 505 / 1 – 1012 (ابن الزبير ، 62) .

وينتمي بنو اضحى الى اسرة عربية شهيرة عريقة في إلبيرة ، ويُعرفون ببني اضحى بن عبد اللطيف الهمداني ، وكان جدُّ الأسرة قد قدم الى الأندلس ضمن قادة جند حمص في طالعة بُلْج بن بِشْر القشيْري (123 / 741) . وتُنسب قرية همدان Alhendin – على بعد ستة اميال جنوبي غرناطة – الى هذه الأسرة البارزة التي نزلت في الموضع ، وكان لأبنائها دور مرموق في تاريخ غرناطة الاسلامية (جمهرة ، 397 . المقتبس ، 3 / 61 . المرقبة ، 124وما بعدها . المقري ، 1 / 118 ،

5 / 1 : 1 ، 6 / 314) .

(189) تعرّض ابن النغريلة للاتهامات ذاتها ، فاتُّهم بمداخلة ابن صمادح . ويَحملُ عبد الله فيما بعد على ابن النابة وابن النغريلة لانحيازهما إلى زناتة على حساب صنهاجة (انظر التبيان ، 85 ، 146) .

(190) كان ابو عبد الله محمد بنَ الحسن الجذامي النباهي قاضيًا لمالقة في عهد بني حمود . ولما استولى باديس على مالقة (447 / 1055) ، أقر ابن الحسن في منصبه ، ثم لما ولي بلقين مالقة – وبطلب من باديس ، وكان ابن الحسن مقرَّبا منه ، وناصحا له – احتفظ به قاضيًا ووزيرا لكورة مالقة . وبعد وفاة بلقين (456 / 1064) ، عرض باديس على ابن الحسن منصب القضاء بغرناطة ، الا أنه اعتذر عن قبوله .

لم يقبل ابن الحسن اجرًا على القضاء ، واشتهر بالعدل والصرامة في احكامه . وقد قُتل اثناء زيارته لاحدى ضياعه قرب قرطبة (463 / 0 – 1071) .

وعُرفت أسرة بني النباهي بأنها اسرة قضاة وعلماء ، وينتمي إليها صاحب (المرقبة العليا) من رجال القرن الثامن الهجري (المرقبة ، 90وما بعدها . الاحاطة ، 1 / 433) .

(191) ترد ''عِلْج'' هنا احتقارًا بمعنى نصراني مرتد في خدمة امير مسلم ، وفي ذلك تعريض بأصل واصل (Supplément, 2 / 159) .

وفي النصوص الأندلسية ترد ''عِلْج'' بمعنى تحقيري ، وتعني إجمالا وفي الغالب نصرانيًا جافي الطبع غير متحضّر . وبهذا المعنى مثلاً يستعمل ابن حيان الكلمة حينما يتحدث عن خروج رسول الحكم المستنصر في سنة 363 / 973الى حلويره Elvira الوصية على عرش نباره التي يصفها بالعلجة حلويره (المقتبس ، 7 / 147) .

(192) لا يرد ذكر ابي الربيع النصراني في اي مصدر آخر ، الا أنه يبدو من كلام عبد الله انه كان كاتب حشم في فترة وزارة يوسف بن النغريلة . وبعد صراع الوزير اليهودي ، فرّ ابو الربيع الى دانية حيث افام بعض الوقت الى ان استدعاه باديس واتخذه وزيرًا . وهذا مثال آخر على اعتماد باديس – طيلة فترة حكمه – اعتمادًا كاملا على أهل الذمة ، فمنهم كان يختار وزراءه وكبار خَدَمته . وينعكس رد الفعل المعادي لهذه السياسة في غرناطة في هجاء من ثلاثة ابيات للشاعر الغرناطي المعاصر خلف ابن فرج المعروف بالسُميسر ، يقول في بيتٍ منها معرضا باستوزار باديس اهل الذمة :

فـــزمـــانـــاً تـــهـــوّدا وزمـــانـــاً تـــنـــصـــرا

(انظر السِلَفي ، 83 وما بعدها) .

(193) يقول ليفي بروفسال ان الحشم في الأندلس جنود مرتزقة من البيض أو السود ، كانوا يُجنَّدون من خارج الأندلس ، بخلاف الأجناد الذين كانوا جنودًا ''وطنيين'' (انظر HEM, 3 / 72) . الا انه يبدو بان كلمة ''حشم'' لم يستعملها المؤرخون الأندلسيون دائمًا بمدلول محدد . ولم يكن الحشم بالضرورة دائما يتم تجنيدهم من خارج الأندلس . فبعد ان استسلم حفص بن عمر بن حفصون للخليفة الناصر صار في جملة حشم الخليفة وجنده . ويقول ابن القوطية إن جميع ثوار الأندلس صاروا ''يرتزقون ويقتطعون في حشمه [الناصر]'' (افتتاح الأندلس 114 . ابن عذارى ، 2 / 195) .

عن استعمال ''الحشم'' في عهد المرابطين ، انظر ابن عبدون ، 28 . هوبكنز ، 142وما بعدها . الحلل . Supplément, 1 / 291.22 .

(194) نزع باديس طوال فترة حكمه الى الاسترابة بصنهاجة ، ولعلّ ذلك يفسّر السبب الذي من اجله استخدم عدداً كبيراً من زناتة لايجاد توازن مع صنهاجة . ويتحدث عبد الله فيما بعد عن انتهاجه سياسة استخدام المزيد من صنهاجة ، اذ إنهم – كما يقول لم يُنصَفوا في المعاملة في عهد جده .

ان النصيحة التي قدَّمها باديس لابنه ماكسن كان لها في الواقع هدف مزدوج : إضعاف صنهاجة من ناحية ، والتفريق بينهم وبين ابنه من ناحية أخرى (اعمال ، 230) .

(195) لعل مما اوحى لعبد الله بالحط من شخصية ماكسن وتأكيده على عدم جدارته بان يخلف باديس رغبته في تبرير استبعاد ماكسن عن الحكم ، وفي تبرير اختيار باديس له – دون ماكسن – وليًا لعهده . الا أن كون ماكسن حظي – في أوقات مختلفة – بتأييد ابن المغريلة ، وعدد كبير من شيوخ صنهاجة ، والعديد من الولاة ، من شأنه ان يبعث على الاعتقاد بان ماكسن لا بد وانه حظي ببعض صفات الزعامة .

(196) من سوء الحظ أن تنتهي رواية المؤلف فجأةً عند هذه النقطة وهو في معرض وصفه للأحداث التي وقعت في السنوات الخمس الأخيرة من فترة حكم باديس ، وللظروف التي اكتنفت ارتقاء عبد الله العرش . ان الفراغ في المخطوط يغطيِّ فترة زمنية تقرب من سبع سنوات .

الا ان الجزء الأخير من رواية المؤلف يُلقي بعض الضوء على دسائس النساء في البلاط ، ودورهن في التأثير على قضية وراثة الملك ، ويتبين منه مدى نشاطهن من وراء الستار . ومن الجدير بالتنويه – ولعله فريد في بابه – ان يبحث امير مسلم مثل هذا الموضوع الحساس في مجتمع اسلامي .

ويبدو واضحًا ان نساء البربر حظين بقسط وافر من الحرية والنفوذ يفوق ما كان للنساء الأندلسيات . وكثيرًا ما يتحدث عبد الله بكل محبة واحلال عن والدته التي يبدو انه أخذ بعين الاعتبار نصيحتها ومشاعرها في موضوع علاقته بأخيه تميم ، وإفراجه عن الفقيه ابن القليعي ، وإستسلامه للمرابطين .

وكان للنساء بين المرابطين من صنهاجة نفوذ اكبر من ذلك . فزينب زوجة يوسف بن تاشفين كان لها نفوذ كبير اثناء حكم زوجها . وكان كثير من رحال صنهاجة ينتسبون لأمهاتهم ، كداود ابن عائشة ، ومحمد بن فاطمة . وقد انتقد الأندلسييون هذا الحانب من كيان المرابطين الاجتماعي الذي كان فيه للنساء دور بارز ونفوذ كبير (ابن حوقل ، 97 . المعجب ، 177 . الاحاطة ، 1 / 149 . المواعيني ، ابن ابراهيم ، انظر القطعة من كتابه (ريحان الألباب)في **Historia Abbadidarum, 2 / 9** .ليفي بروفسال : الاسلام في المغرب والأندلس ، 251 . **Terrasse, Islam d'Espagne, 114** التبيان ، 75 ، 80 ، 94 ، 117 ، 162 – 164) .

الفصل الخامس

(197) في منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، واجه ملوُك الطوائف خطراً حديداً من جانب النصارى بشمال اسبانيا . فإن فرديناند الأول ، وقد نجح في توحيد قشتالة وليون ، كرَّس حياته في السنوات العشر الأخيرة من حكمه لقضية «حرب الاسترداد» reconquista . وتلت وفاة فريديناند سنة 457 / 1065 فترة من الحروب الداخلية بين ابنائه الثلاثة مما هيّأ متنفساً لملوك الطوائف . وقد امضى الفونس عشرة شهور منفياً في طليطلة (يناير – اكتوبر 1072) ، وبعد اغتيال أخيه شانجه الثاني ، عاد الفونس إلى ليون ونُصِّب ملكاً لليون وقشتالة (اكتوبر 1072) . ولم يلبث أن انتزع من أخيه غرسية جليقية / غليسية ، فتوحدت من جديد قشتالة وليون وجليقية وعلى رأسها الفونس السادس ، الذي نشط بعد ذلك في انتهاج سياسة توسعية على حساب جيرانه المسلمين ، وبذلك استأنف «حرب الاسترداد» التي بدأها والده . ولم يكتف الفونس بمطالبة ملوك الطوائف بأداء الجزية له ، وباتخاذه لقب «امبراطور الملّتين» باسبانيا imperator totius hispaniae بل أخد كذلك في مطالبتهم بتسليم المدن والحصون (أعمال ، 243 وما بعدها **(La Espàna del Cid, 257 FF** .

(198) بعد وفاة باديس (20 شوال 465 / 30 يونيو 1073) ، خلفه حفيداه عبدُ الله في غرناطة وتميم

في مالقة . وتلقَّب عبدُ الله - كباديس من قبله - بالمظفر بالله الناصر لدين الله (المرقبة 94 . الاحاطة ، 3 / 379 . Vicens Vives 177) .

(199) باطر شولش Pedro Ansúrez هو كونت كريون Carrion بليون ، من أسرة غوميز Gómez ، وكان وصياً على الفونس السادس في صغره ومؤدباً له . وقد رافقه في منفاه في طليطلة ، وقام بدور نشط في المؤامرة التي حيكت لتنحية شانجه الثاني عن عرش قشتالة وليون ، وفي تنصيب الفونس خلفاً له . ويُذكر بان الكونت باطر شولش كان يجيد العربية ، كما كان - كسيده صديقاً تارة وعدواً تارةً أخرى للكنبيطور . وكانت وفاته سنة 511 / أواخر سنة 1114 أو أوائل سنة 1118 (*La España del Cid* 128, 173, 175 ff . Reilly, 127) .

كان فرديناند الأول قد فرض على ابن هود صاحب سرقسطة ، وعلى ابن ذى النون صاحب طليطلة ، وعلى ابن عباد صاحب اشبيلية اداء جزية سنوية له ، وبذلك أمِنَ ثلاثتُهم طائلة غزواته . أما بنو زيري في غرناطة فيبدو انهم لم يكونوا بعد قد ادَّوْا أيَّة جزية لِمَلك قشتالة وليون . ولذلك ، فإنه حينما ارتقى الفونس السادس العرش ، اوفد رسولَه باطر شولش يطلب الجزية ، فكان ذلك - كما يقول عبد الله - «أول مداخلة نشأتْ بيننا وبينه» .

(200) وُلد أبو بكر محمد بن عمار سنة 422 / 1031 في قرية شنَّبوس Estombar ، بناحية شِلْب بغرب الأندلس ، وكان من كبار الشعراء والوزراء في بلاط بني عباد بإشبيلية . ولما ولي المعتمد شلب ، قامت بينه وبين ابن عمار صداقة حميمة ، فلما تولَّى المعتمدُ المُلك ، اتخذ صديقه القديم وزيراً له ، وعهد اليه بسفارات مهمة . فابن عمار هو الذي أقنع الفونس بالكفِّ عن مهاجمة أراضي إشبيلية (467 / 1075) في مقابل أداء ضريبة سنتين له . يقول ابن خاقان إن ابن عمار «اصطفاه العدو ، فارتاعت منه الأقطار» .

ومن سخرية القدر أن يلقى ابن عمار مصرعه على يد المعتمد (477 / 1083) ، وبموته - كما يقول عبد الله - زال احد اسباب المشاكل بين الأمير الزيري والمعتمد (التبيان 107 ، قلائد ، الحُلَّة 2 / 131 وما بعدها) .

(201) عن ابن أضحى ، انظر الهامش 188 .

(202) تقع بَلِّيلش Belillos على مقربة من Pinos-Puente إلى الشمال الغربي من غرناطة ، وكثيرا ما كان يمر بها ملوك قشتالة في طريقهم إلى شن الغارات على فحص غرناطة . وبصفها ابنُ الخطيب بأنها حصن منيع على بعد نحو ستة اميال من غرناطة . ويذكر الرازى نهراً باسم بليليش يصب في نهر شنيل في سهل البيرة («Description»101. Simonet, 211) .

(203) وُلد أبو القاسم محمد بن عباد في باجة بغرب الأندلس سنة 431 / 1040 ، وخلف أباه المعتضد ملكاً لاشبيلية سنة (461 / 1069) ، وتلقَّب بالمعتمد . وقد واصل سياسة أبيه التوسعية ، فاستولى على قرطبة سنة 462 / 1070 ، وطمع في اخذ غرناطة منتهزا فرصة موت باديس وارتقاء الشاب عبد الله العرش . إلا أن ما كان يدبره ضد غرناطة باء بالفشل بسبب تطورات غير منتظرة في قرطبة التي استولى عليها المأمون بن ذي النون صاحبُ طليطلة (أوائل 467 / 1075) ، ثم استردها المعتمد بعد ذلك بخمسة شهور . (ابن عذاري ، 3 / 259 وما بعدها . الحُلَّة ، 2 / 52 53 ، 62 ، 177) .

(204) القلعة ، أو قلعة اسطلير ، أو قلعة يحصُب (بكسر الصاد أو ضمها) ، أو قلعة بني سعيد (وتُعرف اليوم باسم القلعة الملكية Alcala la Real) كلها اسماء وردتْ عند المؤرخين الأندلسيين في أوقات مختلفة اسماً لهذا المعقل الذي يقع على بعد نحو 30 ميلا إلى الشمال الغربي من غرناطة على الطريق المؤدية إلى قرطبة . أما التسمية «اسطلير» - ويستعملها المؤلف فيما بعد - فهي نسبة إلى عين قرية من المكان . واكتسب المعقلُ اسم «قلعة يحصب» نسبة إلى قبيلة يحصب اليمنية ، التي نزلت بها منذ فتح الأندلس (المقَّري ، 3 / 330) . واشتهر المعقل في تاريخ الأندلس وأدبها بعد القرن الخامس

الهجري باسم قلعة بني سعيد ، نسبة إلى اسرة بني سعيد العربية الشهيرة التي حظيتْ بشيء من الاستقلال في القلعة في القرن السادس الهجري .
ويبدو من كلام المؤلف أن ابن عمار – قبل وصوله إلى بَلَّيلش بمساعدة القشتاليين – كان قد استولى على القلعة التي أُعيدت فيما بعد إلى عبد الله في مقابل اسطبة التي تنازل عنها للمعتمد (المُغرب ، 2 / 160 وما بعدها . Simonet, 58 . مؤنس : تاريخ الجغرافية .. ، 465 وما بعدها) .

(205) في سنة 462 / 1070 ، كان المأمون بن ذي النون يوشك على أخذ قرطبة ، ثم اضطُرَّ إلى الانسحاب بعد وصول قوة لبني عباد استجابةً لاستغاثة ابن جهور . إلا أن بني عباد انتهزوا فرصة ضعف بني جهور واستولَوا هم أنفسهم على قرطبة . وعلى الأثر قام ابن ذي النون بالاستعانة بمغامرٍ جريء من قرطبة – حَكَمَ بن عكاشة – فولاه احدَ حصونه المجاورة للمدينة . وعن طريق مداخلة بعض العناصر في قرطبة ، وبعض رجال الحامية ، تمكَّن ابن عكاشة من دخول قرطبة واعلان تبعيتها للمأمون بن ذي النون (أوائل 467 / 1075) .
وخلافاً لوصف عبد الله لابن عكاشة – دون ذكر اسمه – بأنه «لا خَطَر له» ، فإن ابن عكاشة في الواقع كان رجلاً شهماً جريئا ينحدر من احد بيوتات قرطبة . وكان من اصحاب الوزير ابن السقاء إلى أن اغتيل الوزير ، فسُجن ابنُ عكاشة ، ثم هرب من محبسه ولحق بالمأمون بن ذي النون فنصح له . (الحُلَّة ، 2 / 62 ، 176 وما بعدها . أعمال ، 150 ، 158 وما بعدها) .

(206) لما استولى المعتمد على قرطبة (462 / 1070) ، ولَّى على المدينة ابنه الأكبَر ابا عمرو عباداً الذي لقي مصرعَه في الهجوم المباغت الذي شنَّه ابن عكاشة على المدينة . ويخلط ليفي بروفنسال بين ولديْ المعتمد ابي عمرو عباد والفتح المأمون ، والأخير ولاَّه ابوه قرطبة بعد استردادها ، وظل واليها إلى أن استولى المرابطون على المدينة (484 / 1091) ، وقُتل هو الآخر فيها . ويتفجَّع المعتمد في احدى مراثيه الشهيرة لمقتل ولديه ويذكر اسميْهما (الذخيرة ، 2 / 1 ، ص 71 . الحُلَّة ، 2 / 61 . أعمال ، 158 . قلائد ، 12 . 20 . «Mémoires»; 33 n. 8) .

(207) قاد محمد بن مرتين فرقةً من جيش المعتمد بن عباد كان قد أرسلها – بطلبٍ من ابن جهور – للمساعدة في الدفاع عن قرطبة في وجه جيش ابن ذي النون الذي كان يتهدَّدها . وبعد ان ضم المعتمد قرطبة إلى مملكته ، وَلَّى ابنه عباداً المدينة وترك معه قائد جيشه محمد بن مرتين ، الذي يدل اسمه على أنه من اصل نصراني . ومع أن عباداً وابن مرتين حُذِّرا مسبقاً بما كان يقوم به ابن عكاشة من مداخلات ، فإنهما تغاضيا عن تلك التحذيرات ، وانتهى الأمر بمصرع كليهما في الهجوم المباغت الذي شنَّه ابن عكاشة على قرطبة وتمكَّن من الاستيلاء عليها (الذخيرة ، 2 / 1 ، ص 269 وما بعدها) .

(208) أبو مروان عبد الملك بن ملحان فقيه أديب من أسرة بارزة من مدينة بَسْطة . وقد طلب إليه أهلها بأن يتولّى ادارة شؤونهم ، ففعل إلى أن سقطت المدينة في ايدي المرابطين .
ومن ذرية ابي مروان احمدُ بن ملحان الطائيُ الوادي آشي ، الذي استقل بوادي آش وبسطة عن المرابطين سنة 539 ، ثم اعلن ولاءه فيما بعد للموحدين (المغرب ، 2 / 77 وما بعدها . اعمال ، 264) .

(209) لما كان النزاعُ مع المعتمد بن عباد قد بدأ بُعيْد وفاة باديس ، فإن عبد الله لايمكن أن يكون قد تجاوز عندئذ الثامنة عشرة من عمره . وخلافا لما يذكره المؤلف من أن وزراءه استغلوا فرصة حداثة سنه ، فإن الفضل يرجع إلى كبير وزرائه سماجة الذي تمكَّن – بكفاءته وثباته – من إنقاذ غرناطة من هجمات ابن عباد . ويبدو أن الحقيقة هي ان انشغال عبد الله بابن عباد – لا حداثة سنّه وعجز وزرائه – كان السبب الرئيسي لانحياز ابن ملحان إلى جانب ابن صمادح ، الذي أخذ بدوره يتعدى على أراضي عبد الله (اعمال ، 234) .

(210) لم يُهتدَ إلى موقع حصن شيلش .

(211) هو حصن شانت افليج الذي يصفه العُذري بانه من اجزاء البيرة (العُذرى ، 92) ، ولعله يقع بالقرب من قرية دلاية (Daliás) .

(212) كثيرا ما يردد عبد الله وجهةَ النظر بان المعتمد كان سيسالمه لولا الأثرُ السيءُ لابن عمار عليه ، وانه – بعد اختفاء ابن عمار – لم يقع أي إشكال بينهما . فابن عمار – على حد قول عبد الله – هو الذي ورّط المعتمد في حروب عدوانية ضد غرناطة ومرسية ، لكي يثبت لأميره بانه لا غنًى له عنه . إلا أن من غير المستبعد ان ابن عمار – قبل اخذه مرسية بزمن طويل – كان يسعى جاهداً للاستعانة بالفونس كي يتملّك هو – لا المعتمد – غرناطة . ففي تلك الفترة سعى مغامرون كثيرون – عن طريق الخديعة أو القوة – إلى الوصول إلى كرسي الامارة . وفي هذا المجال ، اعتقد ابنُ عمار – وهو الرجل الطموح – أن النجاح سيكون حليفه . فوفاةُ باديس ، وارتقاء الشاب عبد الله العرش ، وتجزؤُ المملكة الزيرية ، وكونُ ابن عمار اندلسياً من أرومة عربية – فضلاً عن شاعريته – كل هذه كانت عوامل إلى صالح ابن عمار في سعيه وراء السلطة (قلائد ، 86 ، 94 . المعجب ، 122 . الحُلّة ، 2 / 134) .

(213) يصف المؤلف هنا بكل وضوح السياسة التي اتبعها الفونس السادس تجاه ملوك الطوائف منذ تولّيه الملك (انظر كذلك اعمال ، 243 وما بعدها) . فقد استهدف جباية المزيد من الضرائب ، وزرع بذور الفرقة بين الملوك ، فيُضعفهم بذلك ويفقرهم هم ورعاياهم تمهيداً للاستيلاء على اراضيهم . ومن الجدير بالملاحظة أن الفونس لم يكن – في المراحل الاولى من «حرب الاسترداد» – تواقاً إلى الاستيلاء على مدن المسلمين ، لأنه – كما يقول المؤلف – كان يدرك بان سكانها سيعادونه ، وبانه لن يتسنّى عملياً طردهم وإحلالُ أهل ملّته محلّهم .

(214) سقطت طليطلة في يد الفونس السادس في منتصف محرم سنة 478 / مايو 1085 ، أي بعد اثنتيْ عشرة سنةً من الأحداث المذكورة . إلا أن عبد الله يضرب هنا مثلاً جيدا ويوجز العوامل التي ادت إلى استيلاء الفونس على طليطلة ، وهي «فقر اهلها وتشتّتهم ، مع اندبار سلطانها» . كان امير طليطلة آنذاك حفيد يحي وسميّه ، وقد تلقّب بالقادر (الذخيرة ، 4 / 1 ، ص 149 وما بعدها . الروض ، 135 . اعمال ، 181 وما بعدها) .

(215) ششلاندُ Sisnando Davídiz مُستعربٌ اصلُه من Tentugal ، غربي قُلمُريَّة Coimbra بغرب الأندلس ، كان أسره المعتضد بن عباد وألحقه بخدمته . يقول ابن بسام – ويرسم الاسم «ششنندُ» أن ششنندُ كان في خدمة المعتمد بن عباد الذي كان يوفده رسولاً عنه في مهمات خاصة إلى فرديناند الأول ، إلا أن ششنند خشي بطش المعتضد ، ففر من اشبيلية والتحق بخدمة فرديناند الذي ولّاه قُلمريَّة التي كان قد استولى عليها من صاحب بطليوس سنة 456 / 1074 . ويوصف ششلاند احيانا بوزير قلمرية ، وقد اصبح أول كونت بالبرتغال ، ويبدو انه كان مستشارا لالفونس السادس في الشؤون الاسلامية حتى وفاته سنة 1091 .

ويورد ابنُ بسام روايةً ممتعةً عن ششلاند يمتدح فيها ذكاءه ودهاءه ، وبصفه بأنه كان امين سر الفونس ، وبان امراء الطوائف كانوا يسْعَوْن إلى اكتساب رضاه . وقد ولاه الفونس طليطلة بعد استيلائه عليها ، فبسط في اهلها «من عدل احكامه حتى استمال قلوب اعلامها» . وقد اشار على الفونس بالابقاء على اهل طليطلة ، وبحسن معاملتهم ، وقال له : لستَ تجد بمن تعمرها ، ولا تظفر بعامل أطوع من ابن ذى النون يدبِّرها» . وبالنسبة للعلاقات بأمراء الطوائف ، اشار ششلاند على الفونس بان لا يُلحَّ عليهم «فلستَ تستغني عنهم ، ولا تجد عمالا اطوع منهم ، فانك ان ابيتَ إلا الالحاح عليهم ... احوجْتَهم إلى مداخلة سواك» (الذخيرة ، 4 / 1 ، ص 129 ، 131 . La Espana del Cid 91, 134 n. I, 237 f 247 (Menéndez Pidal, «El conde mozrabe Sisnando Davidiz», Al-Andalus, 12 (1947), pp. 27ff.) .

(216) ان هذه الملاحظة للمؤلف تبين مدى الضعف السياسي والفرقة في الأندلس في النصف الثاني من

القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي . فبدلا من أن ينتهج امراءُ الطوائف سياسةً نشطةً موحدةً تجاه الخطر المتفاقم الذي كان يتهددهم جميعا من جانب الفونس السادس ، فإنهم – على حد قول المؤلف – اكتفوا بابن يكون دوْرُهم دَوْر متفرج يؤدي الضريبة . فقد عقدوا آمالهم على حدوث ما قد ينقذهم من محنتهم ، دون ان يقوموا باي عمل من شأنه أن يجنّبهم الخطر الداهم الذي كان يؤْذن بنهايتهم ونهاية الاسلام في الأندلس .

(217) من الغريب أن المؤرخين النصارى لا يذكرون هذا الاجتماع ، كما ان المؤرخين المسلمين من جانبهم لا يذكرون الروايَة النصرانية القائلَة بانه في سنة 473 / 1080 قدمَ الكنبيطور إلى بلاط المعتمد رسولاً لألفونس لتسلم الضريبة السنوية ، وبأن الأمير الزيريَّ غزا – إبَّان زيارة الكنبيطور هذه – أراضي اشبيلية بمساعدة الكونت غرسية أردونيث دى نخيرة .García Ordónez de Nájera وغيره من نبلاء قشتالة (انظر La Espána del Cid, 259 ff).

(218) ان الكلام الذي ينسبه عبد الله هنا إلى الفونس ليس في الواقع سوى أمانٍ جالتْ في خاطر المؤلف ، والعبارة التي يعزوها لألفونس ليست سوى ما كان الأمير الزيري يحب ان يقولها الفونس لابن عمار . وتبيِّن القصةُ بكاملها الأساليب التي اتبعها ملك قشتالة مع امراء الطوائف .

(219) إن كبَّاب بن تميت كان قد ولأه ارجذونة وأنتقيرة الوزيرُ سماجة الذي صُرف عن منصبه سنة 474 / 1083 ، وعلى ذلك فإن انتزاء كباب في اسطبة حدث خلال السنتين اللتين ساءت فيهما العلاقات بين عبد الله والمعتمد (5 – 467 / 3 – 1075) . وقد حاول كباب أن يفسد الاتفاق الذي أُبرم بين الأميرين ، الا أن عبد الله – بالتعاون مع المعتمد – تمكَّن من عزله واعتقاله . ومع ان عبد الله صفح عنه وأبقاه في جملة الجند ، فإنه لم يستعمله بعد ذلك في معقل أو حصن .

(220) لابد أن استيلاء ابن عباد على قلعة أسطلير تمَّ بعيْد وفاة باديس . ان مبادلة قلعة اسطلير باسطبة لم تكن اجراءً غير مناسب لقربهما – على التوالي – من غرناطة واشبيلية .

(221) يرد ذكرُ حصن قاشتره (اليوم Castro del Rio) عند ابن الخطيب ، ويرسم الاسم قشره (اللمحة ، 79) .

(222) يقع حصن مارتش (اليوم Martos) في كورة جيان ، ويشير إليه ابنُ عذاري باسم توشي (Tucci). ان الاسمين اللاتينيين Tucci و Acci تحوَّلا في العربية إلى : توشي وآشي (ابن عذارى ، 2 / 142 . Recherches, 1/309) .

(223) المَطْمَر (وتعني مخزنا تحت سطح الأرض) توصف هنا على انها حصن صغير على مقربة من بسطة . ويبدو ان بسطة ، التي كان الناية قد انتزعها من صاحب دانية ، آلت إلى ابن ذى النون في أواخر حكم باديس ، وهذا يفسر قول عبد الله إن حصن المطمر كان بيد ابن ذى النون («Zirides»,n. 21 . 101) .

(224) وهكذا فإن الفونس قام بدور الحَكَم بين امراء الطوائف ، مما يدل على مدى ضعفهم وخنوعهم . ويحاول عبد الله تبرير ما قام به بحجة ضعفه العسكري وانعدام من يعينه . ومع انه كان على عبد الله ان يؤدي لألفونس ضريبةً سنويةً مقدارها عشرة آلاف دينار ، فإنه يحاول ثانية أن يظهر بمظهر الند لألفونس ، وان يبيّن للقاريء بانه كان يحظى بالاجلال من قبله (انظر الهامش 218) .

(225) بعد ان فشل ابن عمار في ما دبره ضد غرناطة ، اغرى المعتمد – بعد استرداده لقرطبة – بالاستيلاء على مرسية التي كان يحكمها منذ سنة 455 / 1063 ابو عبد الرحمن محمد بن طاهر . وقد اخذ ابن عمار على عاتقه ان يستولي على مرسية للمعتمد ، ولكنه في الواقع كان يسعى إلى الاستحواذ على إمارة لنفسه . ولتحقيق ذلك . داخَلَ ابنُ عمار بعضَ زعماء مرسية ، وطلب عونا من كونت برشلونة رامون برنجوير الثاني ، واستخدم ابن رشيق ، وهو مغامر طموح وصاحب حصن بلج Velez Rubio ، وهو حصن في مقاطعة لورقة . وقد نجح ابنُ رشيق في الاستيلاء على مُرسية

(471 / 8 – 1079) ، مستعيناً بأصدقائه واقربائه الكثيرين في المدينة (المعجب ، 121 وما بعدها . الحُلّة ، 2 / 116 وما بعدها ، 134 وما بعدها . اعمال ، 160) .

(226) ان المعلوماتِ الوحيدةَ المتوفرَة لدينا عن سماجة – بالاضافة إلى رواية عبد الله – المعلوماتُ التي يوردها ابن الخطيب ، الذي يشير إليه بسماجة الصنهاجي . كان سماجة – وهو من شيوخ تلكاتة – وصياً على الأمير الزيري الصغير السن ، ومؤدبا ووزيراً له إلى ان بلغ الأمير سنَّ الرشد ، وتوطّد مركزه . ويعود فشلُ مخططات المعتمد ضد غرناطة في المقام الأول إلى حزم سماجة الذي يصفه ابنُ الخطيب بانه كان حازماً جواداً شجاعاً فاضلا . ولما بلغ عبدُ الله سنَّ الرشد ، وأراد الاستبداد بالملك ، صرف سماجة عن منصبه (لعل ذلك كان في سنة 474 / 1081) ، فرحل سماجة عن غرناطة إلى ألمرية حيث عاش إلى آخر عمره . ويتهم الأميرُ سماجَةَ بأنه كان يريد أن يبقيه تحت وصايته ، وان يعيِّن صنائعه قواداً وولاةً على معظم المعاقل ، وبأنه كان يتآمر مع ابن صمادح ضد غرناطة . يقول عبدُ الله إن سماجة كان «جزوعاً ، قليل الجرأة على العظائم» ، ويتهمه بأنه كتم عنه – عمداً – طالعَه «خوفا عليَّ من العُجْب بما كان فيه منصوصا من السعادة» . وبعد عزل سماجة عن الوزارة ، لم يتخذ عبدُ الله وزيرا (أعمال ، 234 وما بعدها) .

(227) لما استولى ابنُ عكاشة على قرطبة من يد بني عباد ، بادر باعلان تبعيتها لابن ذى النون (أوائل 467 / 1075) . ووصل المأمون بن ذى النون إلى قرطبة قادماً من بلنسية في 23 جمادى الثانية 467 / 25 فبراير 1075 . وبعد ذلك بخمسة شهور ، توفي المأمون في قرطبة ، ولعلَّ وفاته كانت بسبب سُمٍّ ناوله إياه ابنُ عكاشة (18 ذو القعدة 467 / 5 يوليو 1075) .
كان ابن ذى النون قد وسَّع رقعة اراضيه كثيرا ، ففضلا عن قرطبة ، كان قد استولى في السنوات القليلة الأخيرة من حكمه على بلنسية وبسطة ، وبياسة ، ولذلك يقول عبد الله إن الأندلس كانت «قد ارتجَّتْ له ، وخافه الرؤساء» (اعمال 158) .

(228) يُقصد بأهل العلم المنجِّمون ، وكان من الشائع في الأندلس استخدامهم لمعرفة الطالع والتكهن بأحداث المستقبل وتبدل الأسر الحاكمة (انظر الهامش 31 الفصل الأول) . وكانت هذه التكهناتُ (الحِدْثان) تُجمع في ملاحم . وقلما وُجد امير من امراء الطوائف لم يستخدم منجماً للاستنارة بمشورته . اما العامة ، فإنهم كانوا ينظرون إلى المشتغلين بالتنجيم على انهم زنادقة .
ويبدو ان عبد الله – كبقية ملوك الطوائف – كان يؤمن بتكهنات المنجمين ، اذ إنه يتحدث بإسهاب فيما بعد عن طالعه السعيد ، كما اخبر به المنجمون . ومما يؤكد ايمانه بمثل هذه التكهنات ان كلاً من ابن ذى النون وابن هود وابن عباد حلَّ به ما كان قد تكهَّن به المنجمون ، بعد استيلائهم – على التوالي – على قرطبة ، ودانية ، ومرسية (طبقات ، 86 . ابن عذاري ، 4 / 62 وما بعدها . الحلل ، 45 . التبيان) .

(229) صَدْر بيت (من بحر المتقارب) من موشح كثيراً ما يُستشهد به للدلالة على ان كمال الشيء مؤذن بزواله . والبيت ، ويُنسب إلى علي بن أبي طالب ، هو :
إذا تـمَّ امـر دنـا / بـدا نقصُه توقَّـعْ زوالاً إذا قيـل تـم
(انظر المرقبة ، 172 . المقَّري ، 2 / 359) .

(230) بعد مقتل الوزير ابن الحديدي (468 / 1075) ، نشبت فتنة في طليطلة وفر القادر بن ذى النون معتصماً بأحد حصونه . وانتهز ابنُ عبد العزيز الوزير ببلنسية فرصة ضعف القادر والمشاكل التي واجهته فأعلن استقلاله عن طليطلة ، وأغار امير اشبيلية وسرقسطة على اراضي القادر . واستدعى اهل طليطلة المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس لتولي الامارة في طليطلة ، فقدم وبقي عشرة شهور في المدينة (472 / 1080) الا انه أغفل اتخاذ التدابير الكفيلة بحمايتها . وفي هذه الأثناء ، استغاث القادر بألفونس السادس لمساعدته لاسترداد طليطلة ، وتعهّد – بالمقابل – بالتنازل له عن عدد من المعاقل ، وبزيادة الضريبة التي يؤديها له . ويقول ابنُ بسام إن القادر عَقَد اتفاقية سريةً

قَبِلَ بمقتضاها بأن يسلّم طليطلة لألفونس ، ولو أن الاتفاقية نصّت في الظاهر على اداء مبلغ اكبر من المال . ولدى دخول القادر طليطلة ، جبى المال بالقوة ، مما أدى إلى إفقار الرعية وشغبها ، ونزوحها عن المدينة .
وقرر الفونس آخر الأمر بأن يأخذ المدينة ، ووعد بمساعدة القادر لاسترداد بلنسية (10 محرم 478 / 8 مايو 1085) . فأرسل البر هانش Alvar Hánez على رأس قوة ساعدت القادر على استرداد بلنسية ، التي اصبحت في الواقع تحت حماية الفونس الذي أبقى في المدينة حاميةً قشتالية لمساندة القادر (الذخيرة ، 4 / 1 ، ص 157 وما بعدها . ابن الكردبوس ، 86 وما بعدها . اعمال ، 181 وما بعدها . La Espana del Cid, 303 ff, 309 ff, 434) .

(231) كان الفقيه أبو بكر يحي بن سعيد بن الحديدي وزيراً ومستشاراً لاسماعيل بن ذى النون وابنه المأمون من بعده . وكانت له مكانة عند المأمون الذي لم يكن يقطع في شيء الا عن مشورته ، وهو الذي أحبط مؤامرةً في طليطلة ضد المأمون اثناء وجوده في بلنسية ، وقبض على زعماء الثورة وزُجَّ بهم في مطبق حصن أبّده Ubeda .
ولم يعمل القادرُ بنصيحة جده بالاحتفاظ بخدمات ابن الحديدي ، ودبّر مؤامرةً لقتله وهو في طريقه من قرطبة إلى طليطلة مرافقاً لجثمان المأمون . ولما علم ابن الحديدي بأمر المؤامرة على حياته ، توجّه إلى ضيعته ولم يَعُدْ إلى طليطلة . وفي هذه الأثناء ، افرج القادر عن السجناء في أبّدة فجاءوا — متلثّمين كالنساء — إلى القصر الملكي في طليطلة حيث كان ابن الحديدي قد استُدرج بالأمان . وقد ذُعر ابن الحديدي لرؤية اعدائه القدماء في القصر ، واستجار — عبثاً — بالقادر ، فاعتدي على الوزير وقُتل صبرا (10 محرم 468 / 65 اغسطس 1075) .
ويتفق ابنُ بسام مع عبد الله في ان متاعب القادر بدأت بعد أن فَقَدَ هذا الوزيرَ المحنّك ، فقد تلتْ مصرعَه عشر سنوات من الفتن ادت إلى تدخل الفونس . ويقول ابن بسام — وكان معاصراً للأحداث — إن المدينة اصبحت مسرحا للأحزاب المتصارعة «وانتبذ ابنُ عبد العزيز لتلك الوهلة ببلنسية من جماعته ... وفغر الطاغية ادفونش بن فرذلند فمه على ثغوره المثغورة» (الذخيرة ، 4 / 1 ، ص 151 وما بعدها . اعمال ، 179 وما بعدها) .

(232) يذكر ابن بشكوال احمد بن سعيد بن غالب اللورانكي من أهل طليطلة ويصفه بانه كان فقيها وأديبا وكانت وفاته في شوال 469 / مايو 1077 (الصلة ، 67) .

(233) يذكر ابن بشكوال عبد الرحمن ابن مغيث الذي أمَّ في الصلاة في جنازة ابن اللورانكي . ويشير ابن عذاري إلى ابن مغيث مستشاراً للمأمون ، ولعلّ ذلك يفسر الاحتكاك في البلاط بينه — كأحد اعضاء المشيخة — وبين الوزير ابن الحديدي (ابن عذاري ، 3 / 271 . «Mémoires», 41 n. 28) .

(234) خلف المقتدر احمد بن سليمان بن هود والده سليمان اميراً لسرقسطة في سنة 438 / 1046 ، واستولى على ممتلكات اخوته .
ويروي ابنُ بسام بالتفصيل كيفية استيلاء المقتدر — غَرَضاً — على دانية من صهره علي بن مجاهد في شهر شعبان سنة 468 / مارس — ابريل 1076 . وعلى الأثر نُقل علي بن مجاهد مع افراد اسرته إلى سرقسطة ، حيث توفي سنة 474 / 1 — 1082 .
وكما يقول عبد الله ، فإن المقتدر لا بد وانه ظفر بأموال طائلة من قصور علي بن مجاهد في دانية ، اذ إن صاحب دانية كان قد عُرف ببخله وبفرضه ضرائب فادحةً على رعيته (الذخيرة ، 4 / 11 ، ص 265 وما بعدها) .

(235) يتضح من رواية عبد الله ان ابن الريُوله ، الوزير السابق لعلي بن مجاهد ، كان قد تخلّى عنه والتحق بابن هود ، وساعده في الاستيلاء على دانية . ولما ارتاب المؤتمن بن هود بمداخله ابن الريُوله الفونس السادس قتله في سنة 478 / 1085 . ومع انه لا تتوفر معلومات عن ابن الريُوله غير ما ورد في (التبيان) ، فإنه لا يُستبعد أن يكون هو ابن احمد — وزير المقتدر — الذي رافقه في حملة دانية

(انظر الهامش السابق ، وكذلك «Mémoires», 42 n. 30) .

(236) كان أبو بكر يحي بن احمد المعروف بابن الخياط من كبار المنجمين في أواخر ايام الخلافة الأموية بقرطبة ، وفي زمن صاعد بن احمد الطليطلي المتوفّى سنة 462 / 1071 . وكان ابن الخياط قد عمل منجماً للخليفة الأموي سليمان بن الحَكَم وغيره من امراء الأندلس ، وتوفي في طليطلة سنة 447 / 5 - 1056 (طبقات ، 82) .

(237) خلف المؤتمنُ يوسف بن احمد بن هود اباه اميراً لسرقسطة في سنة 475 / 1082 ، وكان مُلْكه قصيرَ الأمد ، اذ توفي بعد ذلك بثلاث سنوات . وقد اشتهر المؤتمن عالماً ورياضياً ، وهو الذي احتمى عنده ابن عمار ، وكان المؤتمن يقصد من وراء ذلك الافادة من صداقة ابن عمار لألفونس السادس . وقد زوّج ابنه احمد المستعين الثاني بابنة أبي بكر بن عبد العزيز الذي استقلّ في بلنسية منذ عام 467 / 1075 ، ولعلّه كان يرمي من وراء هذه المصاهرة إلى تملك بلنسية (قلائد ، 192 . المغرب ، 2 / 437 اعمال ، 172) .

(238) خلافا لرواية المؤلف ، فان ابن الخطيب يقول إن المستعين هو ابن المؤتمن ، ويورد اسمه كاملا على انه المستعين بالله احمد بن محمد بن هود ، وهو اسم مؤسس الأسرة الحاكمة في سرقسطة ، ولذلك فإنه سُمي بالمستعين الثاني .
كان المستعين الوحيد من بين ملوك الطوائف الذين لم يخلعْه المرابطون ، بل إنهم اقاموا علاقاتٍ وديةً معه وأبقَوْه حاجزاً بينهم وبين النصارى بشمال اسبانيا .
وقد استُشهد المستعين محارباً للنصارى في معركة فلتييره Valtierra بالقرب من تُطيلة سنة 503 / 1110 (أو سنة 501 / 1105 ، كما يذكر ابن الخطيب) وخلفه ابنُه عماد الدولة عبد الملك (اعمال ، 172 وما بعدها ، 204 . La Espana del Cid 284 ff) .

(239) ورث عمادُ الدولة منذر بن المقتدر المنطقة الساحلية من مملكة سرقسطة، أي دانية ولاردة وطرطوشة . كان المنذر - ويشار إليه في Historia Roderici باسم Alfagit - في حروب مستمرة مع اخيه المؤتمن ، وكان عدواً لدوداً للكنبيطور . ولما واجه المنذر المؤتمن والكنبيطور ، استعان بكونت برشلونة وبملك نبارة وأرجون ، ولكنه هُزم على يد الكنبيطور ، وعقد معه صلحاً سنة 483 / 1090 ، وكانت وفاته في أواخر هذا العام . La Espana del Cid 118 ff.
(Recherches 2 / 284, 29, 380 - 386)

(240) ترك منذر ابناً صغيراً - سليمان سيد الدولة - تحت وصاية ثلاثة رجال من بني بتير («Benibetir» في Crónier General) ولّوا فيما بينهم دانية وشاطبة وطرطوشة . ولما تقدم المرابطون على الساحل الشرقي ، واستولوا على دانية سنة 485 / 1092 ، فرَّ سليمان إلى طرطوشة ، ولذلك نجد ان اسمه ورد في الدارهم المضروبة في دانية حتى سنة 483 / 1090 ، ثم في الدراهم المضروبة في طرطوشة حتى سنة 492 / 1099 .
(Los Reyes de Taifas, 47f. 211, La España del Cid 284) f, 29, 380, 386 .

(241) كان ابن عمار - في سعيه للاستيلاء على مرسية - قد استعان برامون برنجوير الثاني صاحب برشلونة وبذل له عن ذلك عشرة آلاف مثقال . وضمانا لأداء المبلغ ودون علم المعتمد - ترك ابنُ عمار الرشيدَ عُبَيْد الله ، الابن الأكبر للمعتمد ووليّ عهده ، في يد الكونت . وقام ابن عمار والكونت بمهاجمة مرسية ، إلا انهما اخفقا في الاستيلاء عليها . ولما ابطأ ابن عمار في أداء المبلغ المتفق عليه ، قيَّد الكونت الرشيد ثم افرج عنه بعد ان فداه المعتمد بثلاثين الف مثقال «ضربها زيوفا» (الحُلّة ، 2 / 120 وما بعدها ، 144) .

(242) ان ما يقوله عبد الله من ان ابن عمار كان يسعى في حقيقة الأمر إلى الاستحواذ على إمارة لنفسه في مرسية تؤيده بقيةُ المصادر الأندلسية ، ويؤيده كذلك مسلك ابن عمار في مرسية ، حيث امتدحه الشعراء «وتزيّى بزي ابن عباد في حمل الطويلة على رأسه ، وحكاه في العصير ... وتختَّم في كلتا

يديه» (قلائد ، 94 . الحلة ، 2 / 135 ، 140 وما بعدها . المعجب ، 122 . الذخيرة ، 3 / 1 ، ص 25) .

(243) تُدمير هو الاسم الذي اطلقه المؤرخون المسلمون على كورة مُرسية وأوريولة نسبة إلى اميرها القوطي ثيودمير Théodémir الذي كان قد تنازل عنها – بمقتضى كتاب صلح – لعبد العزيز بن موسى ابن نصير في شهر رجب 94 / أبريل 713 (الضبي ، 259 . الروض ، 63) .

(244) عَهِدَ ابن عمار بالحصون إلى اسافل من صنائعه ، ولم يكن يُصغي إلى النصيحة ، وانهمك في الشراب . كما تخاصم مع ابن عبد العزيز صاحب بلنسية لايوائه ابن طاهر امير مرسية المخلوع . ولما نظم المعتمد قصيدةً عرَّض فيها بالأصل الوضيع لابن عمار ، رد ابنُ عمار بهجاء لاذع ضد المعتمد شخصيا ، وضد زوجته اعتماد وأبنائهما . وتمكّن ابنُ عبد العزيز من الحصول على نسخة من هذا الهجاء بخط ابن عمار طيَّرها إلى المعتمد مما أحنقه على ابن عمار (الحلة ، 2 / 156 وما بعدها . اعمال ، 161) .

(245) عبد الرحمن بن رشيق القشيري مغامر طموح من اصل عربي ، كان عاملا على حصن بلج Vilches بمقاطعة لورقة . ولما اخفق ابن عمار في محاولته الأولى للاستيلاء على مُرسية استعان بابن رشيق الذي نجح – بفضل كثرة اصحابه وأقربائه في مرسية – في الاستيلاء على المدينة (471 / 1079) . ثم انتهز ابن رشيق فرصة نزاع ابن عمار مع المعتمد ، وسوء مسلك ابن عمار في مرسية ، فوطَّد مركزه بتولية اقربائه الحصون المجاورة للمدينة ، وقام بإغلاق ابواب المدينة في وجه ابن عمار الذي كان قد خرج في جولة تفقدية . وحاول ابن عمار – عَبثاً – الحصول على مساعدة الفونس السادس . وقد ظل ابن رشيق مستبداً بإمارة مرسية إلى ان ازاحه المرابطون وسلموه للمعتمد سنة 481 / 1088 (الحُلة ، 2 / 135 ، 140 ، 142 وما بعدها) .

(246) شنتمرية الشرق(Albarracin اليوم) أو السهلة بشرق الأندلس مقر بني رزين من امراء الطوائف الذين استقلُّوا فيها من سنة 403 إلى سنة 497 هـ ، وتعاقب على إمارتها ثلاثة منهم هم هذيل ابن خلف ، وابنه عبد الملك ، وابن هذا يحي الذي خلعه المرابطون في 8 رجب 497 / 6 ابريل 1104 (انظر ابن عذاري ، 3 / 307 – 311) .

(247) حدث ذلك في أوائل عام 473 / 1081 حينما استرد القادرُ طليطلة بمساعدة الفونس (انظر الهامش 230) . ومن الجدير بالذكر ان الفونس – كما يذكر المؤلف – كان يسعى في الواقع إلى تقويض مركز القادر عن طريق النشاطات المعادية من جانب ابن عمار وعناصر اخرى في المدينة لكي يتسنَّى له الاستيلاء عليها ، مع انه في الظاهر كان قد التزم باعادة القادر إلى عرش طليطلة . ولما فقد ابن عمار حظوته لدى المعتمد ، وطُرد من مرسية ، وأخفق في دسائسه في طليطلة ، لم يعد ذا جدوى لألفونس . وذُكر عن الفونس ، لما طلب ابن عمار مساعدته ، بأنه قال له : «يا ابن عمار ، مَثَلُك مَثَلُ السارق ، سرق السرقة فضيَّعها حتى سُرقتْ منه» (الذخيرة ، 4 / 1 ، ص 159 وما بعدها . والحُلة ، 2 / 146) .

(248) لما اخفق ابن عمار في الحصول على مساعدة الفونس ، توجَّه إلى سرقسطة التي كان اميرها المؤتمن ابن هود يأمل – كما يقول عبد الله – في الاستفادة منه كما كان المعتمد قد استفاد منه من قبل . أما المراكشي فيقول إن ابن هود خاف غائلة ابن عمار وبغُضه في عينه ما فعل مع ولي نعمته المعتمد ، الذي يُذكر بانه حذَّر ابن هود منه (المعجب ، 123 وما بعدها) . وشبيه بذلك روايةُ ابن الأبار الذي يقول إن ابن عمار كان يأمل في ان يلي الوزارة للمؤتمن بن هود ، الذي امر له بدارٍ وبمرتَّب «وتجافى عنه مع ذلك ، فأقام على البطالة مُقبلا» . ويقال إن ابن عمار اعان ابن هود على استرداد حصن عن طريق الحيلة (الحُلة ، 2 / 148 وما بعدها . قلائد ، 94 وما بعدها) .

(249) أبو الحسين الرشيد عبيد الله بن محمد بن عباد اكبر ابناء المعتمد ووليُّ عهده . وقد استقضاه المعتمد في اشبيلية جرياً على تقاليد اسرته . والرشيد هو الذي كان ابنُ عمار قد تركه رهينةً مع صاحب

برشلونة اثناء حملة مُرسية (انظر الهامش 241)
وقد عارض الرشيدُ فيما بعد قرار أبيه بالاستعانة بالمرابطين ضد الفونس السادس . ولما استولى المرابطون على إشبيلية (384 / 1091) نَفوْا الرشيد إلى قلعة مهدي بجنوب المغرب ، حيث توفي عن سن متقدمة في حدود سنة 530 / 5 – 1136 (الحلة ، 2 / 68 . اعمال ، 245) .

(250) كما حدث حينما ارسل المعتمدُ ابنَ عمار ليثني الفونس عن الاغارة على اراضي اشبيلية وقد نجح ابن عمار في مسعاه في مقابل اداء ضريبة اضافية عن عامين (انظر المعجب ، 119 وما بعدها) .
كان ذلك بُعيْد سنة 467 / 1075 ، بعد ان تم لألفونس توطيدُ مركزه ملكاً لقشتالة وليون .
ان الأسباب التي حفزت الفونس للاغارة هي : مساعدة المعتمد لغرسية ، اخي الفونس ، واستيلاؤه على جزء من اراضي مملكة طليطلة بعد وفاة المأمون بن ذي النون ، ومماطلته في اداء الضريبة .

(251) كان عليُّ بن مجاهد قد ولّى على معقل شقورة ابنه سراج الدولة ، ولما استولى احمد بن سليمان ابن هود على دانية (468 / 1076) ، انفرد سراج الدولة بشقورة وضبطها حتى وفاته . وبعد وفاته ، تملك المعقل عبداه ، ابرهيم وعبد الجبار ابنا سهيل ، ولما عجزا عن الاحتفاظ به جعلا يساومان به رؤساء الأندلس . وفي تلك الآونة ، حاول ابن عمار ان يخدعهما وان يستولي على المعقل باسم ابن هود ، فكانت نهايته ان وقع اسيرا في ايديهما في 24 ربيع أول 477 / 31 يوليو 1084 . (المعجب ، 123 وما بعدها . الحُلّة ، 2 / 149 وما بعدها) .

(252) لما قُبل عرضُ المعتمد شراء حصن شقورة ، أنفذ ابنه الراضي لاحضار ابن عمار إلى اشبيلية . وقد نظم ابنُ عمار – وهو في سجن اشبيلية – عدداً من القصائد المؤثرة ، اعرب فيها عن ندمه وذكّر المعتمد بخدماته له وناشده الصفح عنه . وفي هذه الاثناء ، لم تنفكَّ اعتماد ، وكذلك الوزير أبو بكر بن زيدون – أكبرُ عدوَّيْن لابن عمار في البلاط – عن تذكير المعتمد بخيانة ابن عمار ، وجحوده وهجائه اللاذع للملك وأسرته . فكان أن قتله المعتمد – في سَوْرة غضب – سنة 477 / 4 – 1085 (قلائد ، 86 ، 102 . المعجب ، 124 وما بعدها . المطرب ، 169 . الحلة ، 2 / 150 وما بعدها) .

(253) لم يَعْنِ رحيل ابن عمار عن مرسية أن المعتمد استرد المدينة ، إذ إن ابن رشيق – كابن عمار – كان يسعى إلى الاستقلال فيها . وتمادى النزاعُ حول مرسية إلى قدوم المرابطين إلى الأندلس ، فشكا المعتمدُ ابنَ رشيق للأمير يوسف بن تاشفين (انظر الهامش 49 الفصل الخامس) . إلا أن من الجدير بالملاحظة أن الدنانير والدارهم التي ضُربت في مرسية خلال الفترة 471 – 483 / 1078 – 1090 تحمل اسم الرشيد ولي عهد المعتمد ، مما يدل على أن ابن عمار وابن رشيق كليهما كانا يعترفان بسيادة بني عباد على مرسية ، بالرغم من استقلالهما الفعلي فيها . والواقع أنه بعد أن قام المعتمد في سنة 479 / 1086 بمحاولة للاستيلاء على مرسية باءت بالفشل ، قبِل بتعهد ابن رشيق بأن يؤدى له ضريبة سنوية ويُمِدُّه بفرقة من الفرسان إذا لزم الأمر (الحلة ، 2 / 175 . ,Los Reyes de Taifas 236 f) .

(254) لما حيل بين الفونس السادس وبين توسعه في غرب الأندلس بعد هزيمته في وقعة الزلاقة (479 / 1086) ، صرف اهتمامَه إلى شرق الأندلس ، فوضع حامية كبيرةً في حصن لييط Aledo – في منتصف الطريق بين مرسية ولورقة – وعهد إليها بمهاجمة وإفساد أراضي المعتمد ، إذ اعتبره المسؤولَ في المقام الأول عن استدعاء المرابطين إلى الأندلس .

(255) يبدي عبد الله الودَّ عند حديثه عن المعتمد بعد زوال ابن عمار ، الذي يحمّله الأمير الزيريُّ تبعة النزاع الذي قام بين الأميرين في بداية مُلْك عبد الله . إلا أن المؤلف ليس دقيقا تماما في قوله إنه عند زوال ابن عمار لم ينشأ خلاف بينه وبين المعتمد ، إذ إن المؤلف نفسه يقول فيما بعد إن المعتمد ساورته الشكوك بعد حملة لييط (482 / 1089) ، حينما قام جنود الفونس بالاغارة على

أراضي اشبيلية – دون غرناطة – وكذلك حينما جرت اتصالات بين عبد الله وبين ابن رشيق وأتباعه في مرسية (انظر التبيان . 142 ، 154) .

(256) كما في حالة جيان التي كان ماكسن قد تنازل عنها للمعتمد (466 / 1074) ، والمعقلين المجاورين لجيان والمهمين استراتيجيا ، وهما معقلا قاشتره ومارتش اللذان اضطُر عبدُ الله إلى التنازل عنهما (التبيان ، 103 ، 117) .

الفصل السادس

(257) بعد ان توصل عبد الله الى اتفاق مع الفونس السادس – وعن طريقة مع المعتمد – بعد نحو سنتين من الحروب ، صرف اهتمامه الى شؤون مملكته الداخلية ، والى تعزيز قبضته على الحكم . وباستثناء خلافه مع اخيه تميم صاحب مالقة ، ونزاعه مع صاحب المرية حول عدد من الحصون ، فان عبد الله كرَّس الفترة (467 – 479 / 1075 – 1086) للقيام باصلاحات داخلية ، والعمل على توطيد مركزه . ومما ساعده على تحقيق ذلك ان المعتمد والفونس السادس شُغلا طوال تلك الفترة – على التوالي – بشؤون مرسية وطليطلة ، فلم يتدخلا في شؤون غرناطة .

(258) يذكر عبد الله صراحة بانه عزل سماجة عن الوزارة لكي يستبد بملكه . وكان قد ذكر من قبل سببين آخرين : اصلاح الادارة ، والرغبة في النَّظر في شكاوى رعيته من العمال (انظر التبيان 110) .

(259) كان زاوي بن زيري قد رحل عن الأندلس الى افريقية من مرسى المنكَّب Almuñecar اقرب المراسي من شمال افريقيا . وقد حصَّن عبد الله المنكب وشحنها بالمؤن بعد حملة لييط (481 / 1088) ، لأنه – كما يقول – كان ينوي اللجوء اليها اذا ساء وضعه في غرناطة والرحيل منها الى شمال افريقيا . ويصف الرازي المنكب بأنها قلعة ، ويقول الحميري انه يحميها حصن منيع (الذخيرة ، 1 / ، ص 459 . الروض ، 186 . 68,"Description") .

(260) مثل (الميداني ، 2 / 32) . وينسب إلى علي بن ابي طالب قوله : انتهزوا هذه الفرص ، فانها تمر مرَّ السحاب (نهاية ، 6 / 47 (نهاية 6 / 47) .

(261) هذه اول اشارة الى قبيلة تلكاتة الصنهاجية (انظر الهامش 81 اعلاه) ، ولذلك فان ابن الخطيب يشير إليه بسماجة الصنهاجي (اعمال ، 234) .

(262) لابد ان عزل سماجة من منصب الوزارة قد تمَّ قبيل سنة 474 / 1081 ، فاضطر إلى الرحيل عن غرناطة بعد تسع سنوات من الخدمة .

وبفضل اخلاص سماجة وحزمه وشجاعته ، حظي الأمير الزيري بولاء صنهاجة بعد وفاة باديس ، ونجت غرناطة من خطر الهجمات التي شنها بنو عباد والقشتاليون بُعيْد ارتقاء الأمير الشاب العرش (انظر الهامش 226) .

(263) كان المعتصم بن صمادح – كغيره من ملوك الطوائف – يسعى الى توسيع رقعة مملكته الصغيرة ، الا أنه كان يفتقر الى القوة العسكرية لتحقيق ذلك ، خصوصًا وانه كان جارًا لملكين اقوى منه ، باديس وابن عباد . ويلاحظ ابن ابسام ان المعتصم كانت بينه وبين ملوك الطوائف "فتون مبيرة غلبوه عليها" . وكعبد الله ، يؤكد ابن الأبار بان المعتصم اتصف بكثرة الجبن (الذخيرة ، 1 / 2 ، ص 733 . الحلة ، 2 / 83) .

كان المعتصم – بالرغم من تحالفه مع باديس – قد تآمر عليه مع يوسف بن النغريلة . وانتهز المعتصم فرصة انشغال عبد الله بالمعتمد ، فاستولى على بسطة ، واضطر الأمير الزيري الى عقد صلح معه . اما الآن وقد تصالح عبد الله مع ابن عباد والفونس السادس ، فانه تفرغ لمواجهة المعتصم .

ولا بد ان ذلك حدث في الفترة 4 - 475 / 1 - 1082 ، حينما شغل المعتمد والفونس — على التوالي — بأمر مرسية وطليطلة (اعمال ، 191) .

(264) يرى ف . هرنانديز خمينيث F. Hernandez Jiménez ان اسم المنتوري بالعربية محرف عن Monte Aurio / Aureo . ويقع الحصن على بعد ستة اميال الى الجنوب الغربي من فنيانة على الحدود بين كورتي غرناطة والمرية . وكان الحصن على جبل Cerro Montaire المشار اليه يشكل الحد بين الكورتين (انظر *Al-Andalus*, 6(1941), 133 f.) .

(265) لا يوجد موضع بهذا الاسم اليوم . ويرى ف . هرناندز خمينيث ان الاسم طرلبش لعله جمع بين Torre و Alba(Abla اليوم) (انظر المرجع المشار اليه في الهامش السابق — ص 134 ، ملاحظة 5) .

(266) بينما انهمك ملوك الطوائف في الدسائس فيما بينهم ، كان الفونس السادس يتقدم حثيثًا نحو نهر تاجه ، متوسعًا على حساب مملكتي طليطلة وبطليوس . ففي سنة 471 / 1079 ، انتزع قورية من يد ملك بطليوس ، واستحوذ على عدد من الحصون في مقابل اعانة القادر على استرداد ملكه في طليطلة . وفي شرق الأندلس ، اصبحت بلنسية في الواقع محمية قشتالية بعد استيلاء الفونس على طليطلة .

وفي هذه الظروف ، وبالرغم من ان مملكة غرناطة لم تكن مهددة بعد تهديدًا مباشرًا ، قرر عبد الله تسوية نزاعه مع ابن صمادح ، ويبدو أنه اخذ يفكر جديًا في الخطر الداهم من الشمال . لقد أصبح الفونس بعد استيلائه على طليطلة جارًا للمعتمد ، ولم يعد بامكان عبد الله القول بان ''ضرر الفونش لا يخشى وغيرنا أمامنا ، نعني بذلك ابن ذي النون'' (التبيان ، 98 . اعمال ، 244 . La Espana del cid, 264) .

(267) يشير المؤلف هنا الى الانتصار الذي احرزه باديس على المعتصم سنة 459 / 1067 ، بعد ان كان المعتصم قد استولى على وادي آش ، وعلى عدد من الحصون التابعة لباديس . وقد استرد باديس وادي آش وصفح عن المعتصم . فرأى عبد الله ان يأتسي بجده ويعقد صلحًا مع المعتصم (انظر التبيان ،88) .

(268) لأبي ليلى النابغة الجعدي (من البحر الطويل) . (العقد 1 / 165 . عيون الأخبار ، 1 / 285 ، 329) .

(269) ان شاط Jete / Xath ، على النهر الأخضر على بعد بضعة اميال شمالي المنكب ، كانت مرسى نهريًا صغيرًا في القرون الوسطى ، لذلك فان ابن عذارى يصفها بمرسى شاط ، كما ان عبد الله يشير الى قيام أخيه تميم بارسال قطائع (مراكب) لمهاجمة شاط . ويذكرها العذرى على انها من اجزاء كورة البيرة (العُذْرى ، 90 . ابن عذارى ، 2 / 184) .

(270) مثل (انظر الامتاع ، 2 / 148) .

(271) بدأ النزاع بين المعتمد والفونس في عام 475 / 1082لتخلف المعتمد عن أداء الضريبة السنوية في موعدها . فوصل ابن شاليب — الرسول اليهودي لألفونس — الى اشبيلية لتسلم الضريبة ، الا أنه ابى تسلم المال بحجة انه نقد مموّه ، وهدد بأنه لن يقبل في المستقبل الا تسليم الأراضي . وعلى الأثر ، قتل المعتمدُ الرسولَ وزجَّ برفاقه في السجن . ولما علم الفونس بما حدث ، هدد بانه سيغزو مملكة المعتمد ، وسيصل الى اقصى جنوب الجزيرة ، وهو تهديد لم يلبث ان نفّذه (الروض ، 84وما بعدها . اعمال ، 244 وما بعدها . La Espana del Cid, 299) .

(272) لعل حصن القصر هو الحصن بكورة ريُّه الذي كان الثائر عمر بن حفصون قد تنازل عنه للناصر سنة 301 / 914 (انظر ابن عذارى ، 2 / 165وما بعدها) .

(273) صالحة Zalia حصن كان يقع بين الحمة وبلش مالقة Vélez Màlaga ، وكان في القرن الثامن مناخا للمسافرين ، وقد اندثر منذ منتصف القرن العاشر (معيار ، 93 . Simonet, 92) .

(274) الحمة Alhama de Granada تقع في منتصف الطريق بين غرناطة ومالقة . ويصفها ابن بطوطة بأنها بلدة صغيرة ، وبها العين الحارة على ضفة واديها (ابن بطوطة ، 655) .

(275) لعل صخرة دومس اسم لقلعة على مقربة من Daymasبإقليم بلش – مالقة (Simonet,298) .

(276) ريه Raiyo / Rayyaهو الاسم القديم لكورة مالقة ، وكانت أرجذونة قاعدتها في القرون الثلاثة الأولى من الحكم الاسلامي . والاسم مشتق من اللاتينية Regio / Malakitana regio ، وهو الاسم القوطي القديم للكورة . وتقع كورة ريه بين كورتي قرطبة والجزيرة الخضراء ، واشتهرت بخصب تربتها وثرائها . ومنذ منتصف القرن الرابع / العاشر ، حلّت مالقة محل أرجذونة قاعدة للكورة ، ومنذ ذلك التاريخ عُرفت مالقة لدى الكتاب العرب بمدينة او قاعدة ريّه (ابن حوقل ، 106 . ابن غالب ، 294 . الادريسي ، 204 . . Recherches 1 / 320 ff) .

(277) تعرف مرية بلش اليوم باسم Torre del Mar de Vélez ، وهي تقع شرقي مالقة ، وكانت تتبع بلش مالقة . ويصفها الادريسي بانها حصن صغير على ساحل البحر ، وكانت مرسى تُقصد منها بلدان شمال افريقيا (الادريسي ، Simonet,95.199) .

(278) تعرف برليانة اليوم باسم Ventas de Bezmiliana ، وكانت ميناء صغيرًا بين بلش مالقة ومالقة ، وعلى بعد ثمانية أميال من مالقة (Simonet, 94) .

(279) كانت ارجذونة / ارشذونة Archidona قاعدة كورة ريه منذ الفتح الاسلامي للأندلس حتى أواخر خلافة الناصر حينما حلت مالقة محلها قاعدة للكورة . ولعل الحروب الطويلة بين الامارة الأموية في قرطبة وبين الثائرين في كورة ريه أدت الى تدني ارجذونة وانتقال قاعدة الكورة الى مالقة (ابن حوقل ، 106 . معيار ، 94) .

(280) لا تبعد انتقيرة كثيرًا عن ارجذونة ، وتقع الى الجنوب الغربي منها ، وهي مدينة ازلية آهلة ، عرفت في زمن الرومان باسم Antikaria . ويصف ابن الخطيب انتقيرة بانها ''محلُّ الحرث والأنعام'' ، بينما يصف أرجذونة بانها ''طلل لم يبق منه غير جدار'' (معيار ، 94) .

(281) تقع منت ماس / منت ماش (Bentomiz اليوم) في السلسلة الجبلية التي تحمل اسمها الى الشمال الشرقي من بلش مالقة (Simonet,95) .

(282) يذكر كلٌ من الحميدي وعبد الوحد المراكشي قلعة ايرش على مقربة من مالقة . ولا يُعرف على وجه التحديد موقع القلعة التي يذكرها سيمونيه Simonetباسم Castillo do los Aires .

وأما صخرة حبيب التي لا يُعرف مكانها بالتحديد فلعلّها كانت قلعةً صغيرة قريبة من ايرش (جذوة ، 33 . المعجب ، 27 . ''Mémoires'', 60, notes 5q, 60)) .

(283) ان رينة – وهي مهجورة الآن – كانت تعرف في الأصل باسم رحانة / ريحانة ، وتقع في مقاطعة بلش مالقة (''Mémoires'', 61 n. 61. Simonet, 95) .

(284) جطرون Jotron / Hothrun مهجورةاليوم . والمؤلف مصيب في وصفه لرينة وجطرون بأنهما قصبتا مالقة (''Mémoires'', 61n. 62. Simonet, 82) .

(285) كان لمالقة ربضان احدهما فُنتنالة ، واليه كان يؤدي باب فُنتنالة (الادريسي ، 200 . الروض ، 178) .

(286) سبق ان ذكر عبد الله بانه انتهز فرصة انشغال المعتمد بالفونس السادس حينما قرر أن يجهز حملة تأديبية ضد اخيه . ولا شك في ان القرار الذي اتخذه الآن بمواصلة الحرب والاغضاء عن تحذير مستشاريه من هجوم قد يشنه المعتمد كان لاعتقاده بان المعتمد لم يكن عندئذ في وضعٍ يمكّنه من التدخل في النزاع (انظر التبيان 115) .

(287) ان جيان التي كان قد تملكها ماكسن وأنصاره عام 459 / 1067عقب وفاة ابن النغريلة لم يلبث ان استردها النابة . ولما استدعي باديس ابنه ماكسن من طليطلة وصفح عنه ، ولاّه جيان ثانية ، الا أنه لم يقع عليه الاختيار خلفًا لأبيه على العرش ، بسبب قسوته وسوء معاملته لأنصاره . ولعل ضغط سماجة حمل ماكسن – فيما يبدو – على التنازل عن جيان للمعتمد سنة466 / 1074 .

(288) يشير المؤلف مرّتين في (التبيان) إلى النصارى في اراضي المسلمين في جنوب الأندلس . ففي جطرون وريينة ، كان سكان الريف كلّهم من النصارى ، وكذلك في جهة لبيط (التبيان ،128) .

كان العرب الشاميون قد أُنزلوا في القرن الثاني / الثامن في كورة إلبيرة ''في غمار من الروم [النصارى] يعالجون فلاحة الأرض وعمران القرى'' (الاحاطة ، 1 / 106 وما بعدها) . وبعد ذلك بقرنين ، يتحدث ابن حوقل عن كثير من القرى في الأندلس فيها الألوف من الناس لم تُمدَّن ''وهم على دين النصرانية روم'' ، ويضيف – ولعلّه كان يشير الى ثورة ابن حفصون – بأنهم ''ربّما عَصَوْا في بعض الأوقات ولجأ بعضهم الى حصنٍ فطال جهادهم لأنهم في غاية العتوّ والتمرد'' (ابن حوقل ، 76) . اما الأمير عبد الله ، فانه يتحدث هنا عن كون النصارى في جهة ريينة وجطرون مسالمين ''لا يقدرون على النفاق مع احد'' . ويصف الحميري اهل فنيانة بانهم ''عجم [اي نصارى] ذوو يسار'' (الروض ، 144) .

ومما يدل على كثرة النصارى في كورتي غرناطة ومالقة في القرن السادس / الثاني عشر انهم – لكثرة اعدادهم وتفرقهم في الكورتين – شكّلوا خطرًا على المرابطين في إمارة علي بن يوسف ابن تاشفين (ابن عذاري ، 4 / 69وما بعدها . **L'Espagne musulmane, 33**) .

(289) تقع قرطمة على مسافة قصيرة غربي مالقة ، ويمتدح ابن الخطيب خصب تربتها ووفرة قمحها وكرومها (معيار ، 93) .

(290) إن حصن ميشش Mijas الى الجنوب الغربي من مالقة كان يقع على جبل يحمل نفس الاسم (Simonet, 81) .

(291) وهو حصن قمارش (Comares اليوم) على مسافة نحو ثمانية عشر ميلا الى الغرب من مالقة . ويصفه ابن الخطيب بانه محطُّ السفر ، وتحيط به الحقول الخصبة والبساتين (معيار ، 79) .

(292) تقع قامرة شمالي مالقة ما بين انتقيرة و Casabermeja ، ويرد ذكرها كأحد الحصون التي هاجم فيها الأمير الأموي منذر الثائرَ عمر بن حفصون . ويشيد ابن الخطيب بوفرة زرع فحص قامرة el Campo de Cámera (ابن عذارى ، 2 / 184 . معيار ، 60) .

والمقصود بالزرع القمح ، كما هو شائع الاستعمال في شمال المغرب (انظر **Marçais, Textes arabes de Tanger, 319**) .

(293) سبق ان ذكر عبد الله انه بعد ان استولى جدُّه باديس على مالقة من أيدي بني حمود سنة 447 / 1055 ، قام بتحصين قصبتها ، وشحنها بالمؤن والذخائر لابنه (انظر التبيان ، 76) .

(294) يعني المؤلف بالعرب والعجم أمراء الأندلس وألفونس السادس على التوالي ، وكانت غرناطة بمثابة درع يحمي مالقة من خطرهم . ومن الجدير بالتنويه قول عبد الله إنه يعطي الجزية عن اخيه ، مما يشير الى ان تميمًا – بخلاف بقية أمراء الأندلس – لم يكن يؤدي ضريبة لألفونس السادس . على انه يمكن ان يُفهم من العبارة كذلك ان الضريبة التي كان يؤديها عبد الله كانت عن مملكة باديس بكاملها .

(295) إن إشارات المؤلف الى والدته في معرض كلامه عن نزاعه مع اخيه واستسلامه للمرابطين تبيِّن مدى ما كان لها من تأثير عليه ، وتعلقه بها ، وحرصه على ارضائها . فقضلاً عن الدوافع السياسية ، فان عبد الله اخذ بعين الاعتبار مشاعر والدته حينما قرر ايقاف العمليات الحربية ضد اخيه (انظر الهامش 36 الفصل الرابع) .

(296) الاشارة هنا الى الصلح الذي عقده عبد الله مع المعتمد – عن طريق الفونس السادس – سنة 467 / 1075 ، حينما شُغل المعتمد بأمر قرطبة .

(297) يبذل عبد الله هنا قصارى جهده للثناء على المعتمد ، والى الاشادة بتعاونهما بعد زوال ابن عمار . فقد طلب الأمير الزيري مساعدة المعتمد ضد كبّاب وحصل عليها ، كما انه من جانبه كان قد ساعد المعتمد ضد الثائرين عليه في بياسة ، بالرغم من ان المعتمد كان في الأصل قد انتزع المدينة من

بني زيري في اواخر فترة حكم باديس .

(298) عن ''صاحب المدينة'' انظر الهامش 128) .

ان نسبة ابن تاقنوت الى أمه تدل على ان نظام الانتساب الى الامهات – وكان شائعًا بين صنهاجة الصحراء – كان ساريًا أيضًا في الفرع الشرقي لصنهاجة .

(299) يقع حصن جريشة في كورة جيان ، وهو غير جريشة **Jerez de los Caballeros** بجهة بطليوس (ابن عذارى ، 2 / 146 . التبيان ، 124) .

(300) ان الاقليم في الأندلس كان وحدةً ادارية صغيرة ، وكانت الكورة تضم عدة أقاليم . يقول المقدسي – نقلاً عن مصدر اندلسي موثوق به – ان الاقليم في الأندلس هو الرستاق في المشرق ، وان لقرطبة ثلاثة عشر اقليما (المقدسي ، 222 . مؤنس ، تاريخ الجغرافية ... ، 88) .
ولا يعرف موقع اقليم نيمش ، الا انه لما كان على مقربة من حصن جريشة ، فانه كان بكورة جيّان .

(301) مع انه لا تتوفر معلومات عن رسول المعتمد ابن الأصبحي ، الذي لا يرد اسمه بالكامل فالمعروف ان الأصبحيّين كانوا من أعيان قرطبة ، وهم من اصل حميري يمني ، وجدُّهم هو ذو اصبح الحارث ابن مالك بن زيد ، ومن ذريته الامام مالك بن انس (جمهرة ، 435 . المقّري ، 1 / 297) .
ويبدو ان المعتمد – بعد استيلائه على قرطبة – ألحق بخدمته عددًا من ابناء أسرها البارزين ، كابن زيدون (الأب والابن) وابن الأصبحي ، توخيًّا لاكتساب محبة اهل عاصمة الأندلس العريقة .

(302) مثل مشهور . والمثل – في صيغة اخرى – ''جلدك'' بدلاً من ''ظهرك'' – يرد صدرًا لبيت شعرٍ يُنسب الى الامام الشافعي :
ما حكَّ جلدَك مثلُ ظفرك   فتولَّ انت جميعَ امرك
وثمة صيغة اخرى للمثل : ما حك ظهرى مثلُ يدي (الميداني ، 2 / 185) .

(303) مثل يقوم على حديث نبوي (الميداني ، 2 / 140 جمهرة ، 212 . الجاحظ ، البيان ، 2 / 15 وما بعدها) .

الفصل السابع

(304) في منتصف القرن الخامس / الحادي عشر ، اخذت تصل الى الأندلس اخبار خروج المرابطين من الصحراء الغربية وبسط سيطرتهم على شمال غرب افريقيا ، من السنغال الى مدينة الجزائر . وكان المرابطون – يدفعهم حماس ديني كبير – ما زالوا يتقدمون شمالاً وشرقا . وفي بادىء الأمر ، كان ملوك الطوائف يخشون القوة الاسلامية الجديدة الى الجنوب منهم خشيتهم القوة النصرانية الى الشمال منهم (انظر المعجب ، 100 . الحلّة ، 2 / 51وما بعدها . اعمال ، 243 ، 245) .

(305) كثيرًا ما يشير الكتّاب العرب الى الأندلس بجزيرة الأندلس . يقول ياقوت الحموي ان ''بعض من لا علم له يعتقد ان الأندلس يحيط بها البحر في جميع اقطارها لكونها تسمى جزيرة ، وليس الأمر كذلك ، وإنما سميت جزيرة بالغلبة ، كما سميت جزيرة العرب'' (معجم البلدان ، 1 / 378) .

(306) يعيد المؤلف هنا ما سبق ان قاله عن سياسة الفونس تجاه ملوك الطوائف حتى سقوط طليطلة (انظر التبيان ، 101) .

ويوضح ابن الخطيب السياسة التي انتهجها فرديناند الأول وابناؤه نحو ملوك الطوائف فيقول انه بالاضافة الى فرض الجزية السنوية ، اعتاد فرديناند الاغارة على اراضيهم في موسم الحصاد ، ونهب المحاصيل . وقام ابنه شانجة بمضاعفة الجزية ، ولما خلف الفونس اخاه في الملك ضاعفها ثانية (اعمال ، 243 وما بعدها) .

(307) افزع المسلمين في الأندلس وخارجها – كما يقول عبد الله – سقوطُ طليطلة ، وهي من كبريات

القواعد الاسلامية ومراكز العلم في الأندلس ، وتحتل موقعا استراتيجيا ، فكان سقوطها نقطة تحول في تاريخ ''حرب الاسترداد'' . ان شعور اليأس الذي انتاب الأندلسيين إثر سقوط طليطلة يعكسه بيتان من الشعر للزاهد الطليطلي عبد الله بن العسال (انظر المغرب ، 2 / 21) .

(308) بسقوط طليطلة ، اصبح الفونس جارًا مباشرًا للمعتمد الذي كان قد استغل المصاعب الداخلية التي واجهها القادر ، فاستولى على رقعة كبيرة من اراضي مملكة طليطلة جنوبي نهر تاجُه ، ولعلَّ صاحب طليطلة الجديد طالب باعادة هذه الأراضي اليه .

الا ان الحميري يعزو فساد الصلح بين الفونس والمعتمد الى تخلُّف المعتمد عن اداء الضريبة السنوية في حينها ، مما اغضب الفونس وجعله يطالب ببعض الحصون زيادة على الضريبة (الروض 84 . الاحاطة ، 2 / 110) .

(309) ان ملاحظة عبد الله حول الباعث على استغاثة المعتمد بالمرابطين ذات دلالة ، اذ تبيِّن – من وجهة نظر احد ملوك الطوائف – بان ما كان يسعى اليه هؤلاء الملوك في المقام الأول هو ردع الفونس والابقاء على الوضع السائد في الأندلس . بل ان المعتمد – كما يقول المؤلف – اراد اضعاف الجانبين كي يتسنَّى له بذلك الحدُّ من تهديدهما لمملكته .

(310) يُنسب البيت (من البحر الطويل) الى علي بن ابي طالب (الأصفهاني ، محاضرات ، 173) .

(311) منذ عام 451 / 1059 ، كان المرابطون بزعامة ابي بكر بن عمر قد اعلنوا ولاءهم للخليفة العباسي ، الذي لم يَمنحْ لقبَ ''امير المسلمين'' لأبي بكر او خلفه يوسف بن تاشفين . وفي كتاب من الخليفة العباسي المستظهر الى علي بن يوسف بن تاشفين (500 / 1106) ، لا يخاطبه الخليفة بلقب ''امير المسلمين'' ، بل بلقب ''مقيم الخلافة العباسية'' . واستناداً الى رواية صاحب (الحلل الموشية) ، والى العُملة والوثائق ، يرى حسين مؤنس بان من المرجح أن يوسف بن تاشفين اتّخذ لقب ''امير المسلمين'' في سنة 466 / 1074 ، وبأن اللقب كان لقبا محليا وبان موافقة الخليفة العباسي لا هي طُلبت ولا مُنحت . ولم يَعْتَرضْ الخليفة العباسي المقتدر على هذا اللقب ، خصوصًا بعد الانتصار الباهر الذي احرزه امير المرابطين في وقعة الزلاقة ، الا انه في مكاتباته الى يوسف بن تاشفين لم يخاطبه بأمير المسلمين (الحلل ، مؤنس ، ''سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين'' ، 64 وما بعدها) .

(312) لما ازداد خطر الفونس على الأندلس ، جازت وفود اندلسية كثيرة الى مراكش وناشدت الأمير المرابطي إغاثة الأندلس . كما ان تميمًا استغاث بالمرابطين ، لا ضد خطر الفونس السادس ، بل ضد اخيه عبد الله الذي كان قد خرج لتوّه ظافرًا عليه . ان ملاحظة المؤلف بان خلافه مع اخيه زاد من ثقة الأمير المرابطي في تملك الأندلس توحي بان الأخير كان قد فكر في ضم الأندلس الى مملكته حتى قبل جوازه الأول .

(313) في عام 467 / 1075 ، استغاث المعتمد بيوسف بن تاشفين الذي ذُكر بانه لن يستطيع تقديم المساعدة قبل اخذ طنجة وسبتة . وبعد ذلك بثماني سنوات ، كتب المعتمد ثانية الى يوسف مستغيثا ، ولعل ذلك كان إثر غارة الفونس المدمرة (انظر الهامش 15) ، الا أن يوسف اجاب بان عليه أن يأخذ سبتة أولا . وبعد استيلاء الفونس السادس على طليطلة ، ذُكر بان المعتمد نفسه زار الأمير المرابطي الذي طلب اليه ان يتأهب لقدومه (القرطاس ، 91 وما بعدها) .

وتقول احدى الروايات ان يوسف كان عاقدًا العزم على الجواز إلى الأندلس لمحاربة النصارى ، ولما أحس المعتمد بعزم يوسف هذا ، قرر – بمشاركة اميرَي غرناطة وبطليوس – الاستعانة به (الحلة ، 2 / 98وما بعدها) .

(314) استُشهد ابو مروان عبد الملك المصمودي – قاضي مراكُش – في وقعة الزلاقة فيما بعد (انظر الروض ، 94 وما بعدها . التكملة ، 2 / 620) . وفي ترجمة ابي محمّد يعلي المصمودي ، يقول المراكشي إنه ''كان فقيها واستقضي ببلاد العدوة ايام يوسف بن تاشفين ، ودخل الأندلس معه

غازيًا صحبة قاضي الجماعة حينئذ ابي مروان المصمودي ، فأكرمهما الله بالشهادة في وقيعة الزلاقة على النصارى (الذيل والتكملة ، 7 / 2 ص 425 ، ترجمة رقم 212) .

(315) ابن الأحسن السجلماسي (انظر الهامش 512) .

(316) انشأ دارَ صناعة السفن في الجزيرة الخضراء الخليفةُ الأموي الناصر . وقد اتُّخذتْ حصنا فيما بعد من قبل البربر والحموديين اثناء الفتنة في بداية القرن الخامس . وكانت توجد دور صناعة آنذاك في المرية ودانية ومالقة والمنكب وطرطوشة واشبيلية وشلب (الروض ، 73 . الادريسي ، 176 . (Torres Balbas, "Atarazanas...," 83 f.

(317) ولِّي يوسف بن تاشفين ابا سليمان داود بن عائشة سجلماسة ووادي درعة سنة 467 / 4 - 1075 . واشتهر ابن عائشة بالشجاعة والصمود في القتال ، وهو الذي قاد جانبًا من جيش المرابطين لتعزيز عساكر الأندلس التي كان يقودها المعتمد في وقعة الزلاقة ، وصمد في وجه هجوم الفونس (الروض ، 92 . القرطاس ، 91 ، 94وما بعدها) .

(318) كان ابو خالد يزيد الراضي واليًا على الجزيرة الخضراء الى ان تخلَّى عنها للمرابطين . وكان الراضي شاعرًا ومن اهل العلم والادب ، كلفا بالمطالعة والدراسة . وقد عيِّن فيما بعد واليًا على مرسية ورندة . وكان مصرعه - غدرًا - على يد القائد المرابطي قرور بعد استيلاء الأخير على رندة في شهر رمضان 483 / اكتوبر - نوفمبر 1091 (قلائد ، 35 وما بعدها . الحلة ، 2 / 70وما بعدها . الحلل ، 59) .

(319) ان اتجاه المعتمد الى استدعاء المرابطين عارضه ابنه الرشيد الذي كان يحبِّذ عقد اتفاق مع الفونس السادس . ان رواية الأمير الزيري مهمة اذ إنها تبين بان المعتمد لم يكن قد قرر بعد استدعاء المرابطين ، ولذلك فانه لجأ الى المماطلة والتسويف في امر تسليم الجزيرة الخضراء اليهم .

ان يوسف بن تاشفين - عملاً بمشورة كاتبه الأندلسي عبد الرحمن بن اسبط - اصر على اتخاذ الجزيرة الخضراء قاعدة لجنده ليضمن بذلك حرية العمل ، مما اكد المخاوف التي كان الرشيد قد اعرب عنها بشأن النوايا الحقيقية لابن تاشفين (الحلل ، 36 وما بعدها) .

(320) بعد استيلاء الأمير المرابطي على سبتة (477 / 1084) ، وما تناهى الى المعتمد بتصميمه على الجواز الى الأندلس لمحاربة النصارى ، طلب المعتمد من عبد الله ومن المتوكل بن الأفطس ايفاد قاضييْهما اللذين أُرسلا - صحبة قاضي قرطبة ، والوزير ابي بكر بن زيدون - في مهمة مشتركة الى يوسف ابن تاشفين . وقد اقترح ابن زيدون اثناء المباحثات بان ينزل جنود المرابطين في جبل طارق ، الا أن يوسف اصرَّ على الجزيرة الخضراء ، دون ان يتم ابرام اي اتفاق بهذا الشأن (الحلة ، 2 / 99 . الروض ، 86) . ويتبين من رواية عبد الله عن احتلال المرابطين المباغت للجزيرة الخضراء ، بانه لم تعقد اتفاقية محددة بشأن المدينة ، مما يفسر القرار الذي اتخذه يوسف من جانبه باحتلالها . ((Huici Miranda,"Los Almoravides...", 29)

(321) بالرغم من ان اتفاقية نهائية لم تُعقَّ بشأن الجزيرة الخضراء ، فان عبد الله يتحدث عن اتفاق عام بين الطرفين . ومع ان الكتاب الأندلسيين يشيرون إشارات غامضة الى الاتفاق ، فان المؤلف يورد فحواه اذ يقول : "وعاقدنا امير المسلمين على ان تتصل الأيدي على غزو الروم بمعونته ، وألا يعرض لأحدنا في بلده ، ولا يقبل عليه رعيته بمن يروم الفساد عليه" (انظر كذلك الاكتفاء ، 90 . (Huici Miranda, "Los Almorivides...," 27 f.

(322) ان الخطر الذي كان يتهدد المرية من جانب الحامية القشتالية في حصن لييط : Aledoهو السبب الذي برَّر به المعتصم عدم حضوره الى إشبيلية ، الا أن ابنه وولي عهده معزّ الدولة احمد قدم على رأس "عدد من الخيل" (الحلل ، 40 . الحلة ، 2 / 100) .

(323) كان في طليعة من استجاب لدعوة يوسف للجهاد من ملوك الطوائف الأمير عبد الله ، الذي وصل على رأس نحو ثلاثمائة فارس ، وأخوه تميم ، الذي وصل في نحو مائتين (الحلة ، 2 / 100 . الحلل ، 39 . المعجب ، 132) .

(324) ينتمي عبد الله ويوسف بن تاشفين – على التوالي – الى اسرتين ملكيَّتين من تلكاتة ولمتونة الصنهاجيتين (انظر الهامش 45 الفصل الثاني) . وفي سنة 483 / 1090 ، قالت لعبد الله أمُّه : ''اخرجْ وسلّم على عمك يوسف'' (الاكتفاء ، 105) . ويشار الى يوسف في مصدر آخر على انه ابن عم عبد الله (انظر المواعيني ، ابن ابراهيم ، **Historia Abbadidarum** ، 2 / 9) .

ولنا ان نصدق المؤلف عن ابتهاجه الحقيقي لقدوم المرابطين الى الأندلس حيث كان امراء الأندلس ينظرون الى بني زيري في غرناطة على انهم غرباء ودخلاء من البربر .

(325) وهي غير حصن جريشة بجهة جيان (التبيان ، 119) . وجريشة بطليوس (ويرسمها الادريسي ''شريشة'') تعرف اليوم باسم **Jerez de Los Caballeros** (انظر الهامش 299) .

(326) دولة بني الأفطس او بني مَسْلمة اسسها عبد الله بن محمد بن مَسْلمة بن الأفطس سنة 413 / 1022 ، وحكمت في بطليوس في الثغر الأدنى الى ان خُلع آخر ملوكها المتوكل عمر وأُعدم من قِبَل المرابطين سنة 487 / 1094 . ومع ان الأسرة كانت تدعي لنفسها نسبًا عربيًا ، الا أنها – كما يقول ابن حيان – من قبيلة بربرية كانت قد قدمت الى الأندلس من جهة مكناس (الحلة ، 2 / 96 وما بعدها ، 102 . **Los Reyes de Taifas**, 223 f.) .

(327) يبالغ معظم المؤرخين المسلمين في حجم جيش الفونس ، وهم يُجمعون على انه كان اكبر حجمًا من عساكر المسلمين . فابن ابي زرع يذكر ان جيش الفونس كان يضم ثمانين الف فارس ومائتي الف راجل ، ويورد صاحب (الحلل) الرقم ثمانين الفا ، ولكن اكثر الأرقام مصداقية تلك التي يوردها ابن الكردبوس (ستون الفا) وابن الأثير خمسون الفا) . اما عدد قوات المسلمين فلا يذكرها غير مصدرين : فهي في (الحلل) ثمانية وأربعون الفا ، وفي (المعجب) عشرون الفا . كما ان ثمة مبالغة في استعدادت الفونس في رواية الحميري وفي رواية **el Cronicón Lusitano** . اما عبد الله – وهو شاهد عيانٍ للأحداث مشارك فيها – فيكتفي بالقول بان الفونس اقبل على رأس جيشه واثقًا من النصر ، لقلة خبرته بقتال المرابطين (الاكتفاء ، 94 . المعجب ، 133 . الكامل ، 10 / 153 . الروض ، 88 . الحلل ، 44 . القرطاس ، 99 . Huici Miranda, ''Los Almoravides...,''35) .

(328) يتضح من رواية عبد الله ان يوسف بن تاشفين ابدى حذرًا شديدًا بل كان يرجو ان يتخلى الفونس عن اللقاء وينسحب . وفي المقابل ، كان الفونس متلهفًا للقاء جيوش المسلمين دون اي تاخير . ولعل ذلك يعود من جهة الى ارتياب الأمير المرابطي في الأندلسيين – ولذلك فانه فصل قواتهم عن قواته – كما يعود من جهة اخرى الى قلة خبرته بقتال النصارى وبطبيعة ارض الأندلس . أما الفونس فكان يستخف بالأندلسيين في ساحة القتال ، ويبدو أنه كان واثقا من النصر (انظر المعجب ، 133 . القرطاس ، 94) . الا أنه على النقيض مما يذكره المؤلف ، فان ابن تاشفين قال في كتاب بعث به الى امير القيروان الزيري : ''برزنا عليه [الفونس] اياما فلم يجبنا'' (Lévi Provençal, ''Novedades'' 119) .

ويُذكر بان الفونس قال لمستشاريه انه يريد ملاقاة المرابطين في بلاد المسلمين ''فإذا كانت عليَّ ، اكتفوا بما نالوه ... فيكون في ذلك صون لبلادي ... وان كانت الدائرة عليهم ، كان مني فيهم وفي بلادهم ما خفتُ انا ان يكون منهم فيَّ وفي بلادي'' (الروض ، 88) .

(329) قبل اللقاء ، وبمقتضى التقاليد الاسلامية ، كتب يوسف الى الفونس يدعوه الى الاسلام او الجزية او الحرب . فردَّ الفونس غاضبا بانه يجبي الجزية من اخوان يوسف في الدين منذ سنوات عديدة ، ومؤكدًا بانه لن يبرح موضعه في البسيط الذي نزل فيه ، وتحدَّى يوسف ان يلاقيه فيه ، واضاف بانه لا يرغب في قتاله على مقربة من مدينة او معقل قد يعتصم الأمير المرابطي به .

وردًا على كتاب آخر من الفونس كلُّه وعيد ، امر يوسف كاتبه بتحرير جواب ، فلما وجده طويلاً امره بان يكتب على ظهر كتاب الفونس ''الذي يكون ستراه'' (الروض ، 60 ، الكامل ،

10 / 152 . الحلل ، 40وما بعدها . القرطاس ، 94) .

(330) وحسب التقاليد المتبعة في القتال آنذاك ، اتفق الطرفان على يوم اللقاء ، الا أن الغريب ان عبد الله لا يذكر ذلك اليوم . وتذكر المصادر الاسلامية المتأخرة ان الفونس اقترح ان يكون اللقاء يوم السبت (او الاثنين) ، ويبدو ان يوسف وافق على ذلك . الا ان المعتمد اشار بالتزام جانب الحذر واليقظة ، اذ لا يُستبعد ان يقوم الفونس بشن هجوم مباغت قبل اليوم المتفق عليه . وكما يتضح من رواية عبد الله ، فان الفونس قام فعلاً بشن هجوم يوم الجمعة (12 رجب 479 / 23 اكتوبر 1086) ، ولذلك عرفت وقعة الزلاقة في ادب ذلك العصر بيوم عَروبة أو يوم العَروبة ، أي الجمعة . (الحلة ، 2 / 101 . القرطاس ، 94 . الروض ، 90 ، 94 . قلائد ، 12

(Huici Miranda, ''Los Almoravides...'', 41,42 n. 2. Lévi-Provinçal, ''Novedades''...,119

(331) جرت وقعة الزلاقة Sagrajas / Sacralias في السهل المعروف بهذا الاسم على بعد خمسة اميال الى الشمال الشرقي من مدينة بطليوس . وتذكر بعض المصادر الاسلامية ان الفونس اصيب بطعنة في ساقه ، ولكنه نجا مع نحو خمسمائة فارس . وكما يقول عبد الله ، فان خسائر المسلمين كانت دون خسائر القشتاليين ، والرقم الوحيد الذي ورد عن خسائرهم هو ثلاثة آلاف رجل (الروض ، 93) .

كان من نتائج انتصار المرابطين ان توقّف ملوك الطوائف عن أداء الجزية لألفونس ، وسَلِمَ غرب الأندلس من غارات صاحب قشتالة ، ورُفع الحصار المضروب على مدينة سرقسطة ، وفقد ملك قشتالة عددًا وافرًا من جنده المدربين ، كما ان الانتصار - قبل كل شيء - انعش آمال اهل الأندلس ، ورفع من معنوياتهم . ومع ذلك ، فان يوسف بن تاشفين لم يحاول استرداد طليطلة ، ولم يَجْنِ من انتصاره كل الفوائد التي كان يتطلع اليها ملوك الطوائف (انظر .La Espana del Cid, 338 f) .

ومن المدهش حقا ان عبد الله ، الذي شارك بنفسه في المعركة ، لا يذكر الا النزر اليسير عنها ، والتفاصيل المتوفرة لدينا وصلتنا في المقام الأول عن طريق مؤرخين مسلمين متأخرين ، كالحميري ، وابن ابي زرع الفاسي ، وصاحب كتاب (الحلل) . بل ان عبد الله لا يورد حتى اسم الوقعة ''الزلاقة'' ، فهو يسميها فقط وقيعة بطليوس . كما انه لايذكر اليوم او التاريخ للمعركة ، ولا يتحدث عن دوره ودور بقية الأندلسيين فيها ، كما أنه لا يذكر نتائجها . وكل ما يخبرنا به هو أن الفونس قام بهجوم مباغت ، وان المسلمين لم يفقدوا الا الأقل ، وان امير المسلمين عاد الى اشبيلية ''على حال سلامة ونصر'' . ولا يشير عبد الله الى ماقيل من ان المعتمد ألحّ على ابن تاشفين بُعيْد المعركة مباشرة بمطاردة فلول العدو ، كما انه لا يذكر شيئا عن وفاة الابن الأكبر ليوسف مما اضطره - على حد قول بعض مؤرخي المسلمين - الى العودة فجأة الى بر العُدوة .

ولعل احد اسباب كون رواية الأمير الزيري عن المعركة رواية مقتضبة جدا وعابرة ، انه وبقية أمراء الأندلس لم يُبلوا في القتال (الروض ، 93 وما بعدها . الحلة ، 2 / 101 . القرطاس ، 96 ، 98 . الحلل ، 49 وما بعدها . (.Lévi Provençal, ''Novedades,''116,141 ff) .

(332) ان استجابة يوسف بن تاشفين لاستغاثات امراء الأندلس المتكررة ، ونصيحته لهم بعد انتصار الزلاقة ''بالاتفاق والائتلاف ، وان تكون الكلمة واحدة'' في وجه النصارى ، وعودته على عجل الى المغرب - ان كل ذلك يمكن اعتباره دليلا على ان مادفع الأمير المرابطي - في باديء الأمر على الأقل - للقدوم إلى الأندلس لم يكن دافعا انانيًا او توسعيا . ولما ادرك يوسف بن تاشفين بعد ذلك بسنتين انقسامات ملوك الطوائف ودسائسهم فيما بينهم ، اتخذ قراره بخلعهم .

(333) كان تميم قد اشتكى ليوسف اخاه عبدَ الله قبيْل الزلاقة ، ''فلم يُجبه الأمير الى شيء'' . ويبدو ان عبد الله كان يطالب بكورة مالقة كلها بحجة انها كانت تشكل جزءاً من مملكة غرناطة في عهد جده باديس ، الذي كان قد ولّى ابنه بلقين - والد عبد الله - مالقة دون ان تصبح إمارة مستقلة (انظر المرقبة ، 92) م

(334) ان محبة العامة في الأندلس ليوسف بن تاشفين ازدادت دون شك بعد انتصاره في وقعة الزلاقة ، اذ ان الاندلس – كما يقول المراكشي – ''كانت قبله بصدد التلاف من استيلاء النصارى عليها ، وأخذهم الاتاوة من ملوكها قاطبة'' (المعجب ، 135) . وتؤكد رواية عبد الله محبة الناس للأمير المرابطي الذي ''لم يتربص في البلاد ألا يوحش سلاطينها مما يتوقعونه من انحياش رعيتهم اليه'' ، بل قرر العودة الى مراكش . ومن الجدير بالذكر ان يوسف استطاع في فترة اقامته القصيرة في الأندلس ان يلمس بنفسه مدى الفرقة بين امرائها .

وتفسر بعض المصادر الاسلامية عودة يوسف السريعة الى المغرب بانها كانت بعد ان علم بوفاة ابنه الأكبر أبي بكر وكان قد تركه متوعكًا في سبتة (الاكتفاء ، 95 . الحلل ، 53 . القرطاس ، 98) . كما ذكر بان عودته كانت بسبب وفاة ابن عمه ابي بكر بن عمر – زعيم المرابطين – وكان يوسف نائبه في المغرب . فلما علم يوسف بوفاة ابي بكر بن عمر ، قرر العودة فورًا الى مراكش لتأمين خلافته له قبل ان يتولى السلطة غيره من افراد الأسرة . ومما يؤيد هذا الرأي الأخير ان المثاقيل المرابطية ظلت تحمل اسم ابي بكر بن عمر من عام 450 / 1058 الى عام 479 / 1086 ، حينما لم تعد تحمل اسمه بل اخذت تحمل اسم يوسف ابتداء من عام 480 / 1087(القرطاس ، 87 . حسن احمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، 287 وما بعدها) . ولعل ذلك يفسر الملاحظة المبهمة للحميري بان يوسف ''تواردت عليه انباء من قِبَل السفن ، فلم يجد معها بدًا من سرعة الكرة'' (الروض ، 94) .

(335) تحوَّل الفونس السادس بعد هزيمته في الزلاقة صوب شرق الأندلس ، فوضع في حصن لييط Aledo حامية كبيرة تحت قيادة غرسية خمينيث Garcia Jiménes ، وأمره بالعيث في المناطق المجاورة (انظر الهامش 58 ،) . وقد احدثت هذه الحامية خرابًا كبيرًا ، وتعرضت الأسفار للمخاطر في جهة لورقة . ان عبد الجليل بن وهبون المُرسي – من كبار الشعراء في بلاط المعتمد بن عباد – لقي حتفه على أيدي عصبة من رجال حامية لييط وهو في طريقه من لورقة الى مُرسية (قلائد 243 وما بعدها . الاكتفاء 101 . **La Espana del Cid, 361 ff.**) .

(336) بينما يذكر المؤرخون المسلمون سببا واحدا فقط لاستغاثة المعتمد من جديد بابن تاشفين ، وهو خطر الحامية القشتالية في حصن لييط ، يذكر عبد الله أن السبب الرئيسي كان رغبة المعتمد في التخلص من ابن رشيق ، المنتزي بمرسية ، وتولية ابنه الراضي مكانه . حتى قبل الزيارة التي قام بها المعتمد إلى ابن تاشفين ، كانت وفود من شرق الأندلس قد تقاطرت على المغرب مستصرخة الأمير المرابطي ضد كلٍ من حامية لييط والكنبيطور الذي كان قد نصب نفسه – بعد الزلاقة – في بلنسية حاميا للقادر بن ذي النون (القرطاس ، 98 . الحلل ، 59 وما بعدها) .

(337) مع ان ابن ابي زرع يقول إنه لم يلتحق بابن تاشفين غير المعتمد والمعتصم بن صمادح في حملة لييط ، فان مشاركة عبد الله تؤكدها كافة المصادر الاسلامية الأخرى (القرطاس ، 99 . الحلل ، 55) .

(338) يورد مصدران مسيحيان معاصران **Historia Roderici** - و **Cartul San Millan** السنة 1079 م على انها تاريخ حصار حصن لييط (**La Espana del Cid, 753f, 755**) اما صاحب (الحلل) فيقول ان يوسف قام بجوازه الثاني الى الأندلس سنة 481 / مارس 1088 – مارس 1089 ، ويضيف بأن الحصار دام شهراً / أشهراً – ولعل ''أشهرًا'' هي الاصح – ، واما التاريخ الوارد في (روض القرطاس) – وهو ربيع اول سنة 481 – فلعله كان في الأصل ربيع اول سنة 482 / مايو – يونيو 1089 . وعلى ذلك ، فان هذين المصدرين الاسلاميين يتفقان مع المصدرين المسيحيين بان حصار لييط كان في سنة 1089 م (الحلل ، 56 . القرطاس ، 99) .

اضف الى ذلك ، انه كان على عبد الله – بعد فشل حملة لييط – ان يدفع لألفونس الضريبة

المستحقة عن ثلاث سنوات ، اي منذ عام الزلاقة (التبيان ، 140) ، مما يدل على ان حصار لييط كان في سنة 482 / 1089 (انظر Menéndez Pidal, ''Leyendo Las ''Memorias'' de Abd Allah'',7

(339) كانت المجانيق تستعمل لاطلاق القذائف من مسافة بعيدة ، واما العرادات / الرعادات ، فكانت اخف من المجانيق وتستعمل لاطلاق قذائف محرقة على حصن محاصَر (الحلل ، 55 . Supplément, 1 / 536) .

(340) عند مهاجمة حصن شنت مرتين (398 / 1007) ، امر عبد الملك بن ابي عامر النَّقابين باحداث نقب في السور وحشوه حطبا مضرَّجا بالقطران اطلقوا فيه النار . وفي الوقت ذاته ، قذف المدافعون بالمجانيق ، وأضر العطش بهم طول مدة الحصار ، فاضطروا الى إسلام الحصن . وقد استرد ابن هود بَرْبشْتُر (457 / 1066) باللجوء الى اساليب مماثلة ، اذ أمر النَّقابة بنقب سور المدينة – وفوقه المدافعون – ''فنقبوا شقة كبيرة ، ودعموا السور ، وأطلقوا النار في الدعائم ، واقتحم المسلمون عليهم البلد'' (ابن عذارى ، 3 / 21 ، وما بعدها ، 227) .

ولا شك في ان المحاصرين لجأوا الى نفس الأساليب في محاولتهم اخذ حصن لييط .

(341) كان من الطبيعي ان تنتهز الرعية فرصة وجود يوسف بن تاشفين بين ظهرانيهم في الأندلس لرفع ظلماتها ضد امرائها ، اذ لم تكن أمامها وسيلة اخرى لانصافها ، كما أن من الطبيعي كذلك ان تلجأُ الرعية الى الفقهاء لعرض ظلاماتها على امير المسلمين الذي كان يجلُّ الفقهاء ويعمل بفتاواهم . ويبدو ان الشكاوى ضد امراء الطوائف تركزت باديء الأمر على فرضهم على الرعية المغارم والضرائب خارج نطاق الشرع (انظر التبيان ، 136 ، 158) .

(342) وُصف الفقيه ابو جعفر احمد بن خلف بن عبد الملك بن غالب الغساني القُلَيْعي – المعروف بابن القُليعْي – بانه كان قاضيًا لغرناطة ووزيرًا لعبد الله ، وكان ضمن الوفد الرسمي الأندلسي الذي كان قد أُرسل للاستغاثة بيوسف بن تاشفين ضد الفونس السادس قبل الجواز الأول ليوسف الى الأندلس . وكان بنو القليعي من اعيان غرناطة ، وكثير منهم كان يقيم في قرية صالحة Zalia على طريق مالقة (المقري ، 1 / 3 – 294) .

اشتهر ابن القُلَيْعي بعلمه واستقامته وورعه ، وقد ذُكر بان باديس كان يتفرس فيه ان دولته تنقرض على يديه ، ولذلك فانه كان دائمًا يبحث عن ذريعة للتخلص منه . ويقول عبد الله ان جده ''كان لا يدعه [ابن القُلَيْعي] في المدينة ويأمره بسكنى ضيعته'' (التبيان ، 134) .

وكان لابن القُلَيْعي منزلة عند الأمير يوسف ، وسعى جاهدًا اثناء حصار لييط لتشويه اسم عبد الله . ولما عاد الى غرناطة أنَّبه عبد الله على ذلك وهمَّ بقتله لولا تطارح والدة الأمير لاستحيائه ، ثم لم يلبث ان اطلق سراحه استجابة لتوسلات والدته . وانطلق ابن القُلَيْعي الى قرطبة ، ومنها خاطب الأمير المرابطي يوضح ان ما حل به انما كان لنصحه وخدمته لأمير المسلمين مما ادى – كما يقول ابن الصيرفي – الى اتخاذ يوسف قرارًا بخلع عبد الله .

وبعد خلع ملوك الطوائف ، ظل ابن القُلَيْعي يحظى بمكانة مرموقة لدى المرابطين وفي غرناطة الى وفاته في ربيع الثاني 498 / ديسمبر 1104 – يناير 1105(الصلة ، 75 . الحلة ، 2 / 99 . الاحاطة ، 1 / 149) .

(343) ترد ''المغارم'' في النصوص الأندلسية بمعنى الضرائب التي لا ينص عليها الشرع (انظر المقتبس ، 7 / 208 . ابن عذارى ، 1 / 149) . وقد شاع فرض المغارم في الأندلس بعد سقوط خلافة قرطبة نتيجة لبذخ ملوك الطوائف وتبذيرهم ، ولحاجتهم للمال لأداء الجزيات السنوية لملوك قشتالة (*HEM*,3 / 38f) .

اما ''الاقطاع'' فيفسّره ليفي بروفنسال بانه ارض كانت تقطع للمستوطنين في مقابل ادائهم ضريبة معينة لخزانة الدولة (HEM,3 / 67,207) . الا انه يبدو ان المقصود بالاقطاع هنا ''القطيع'' ، وهي ضريبة يستنكرها ابن حزم ويعرّفها ''بقطيع مضروب على جماجمهم كجزية اليهود والنصارى'' (انظر رسائل ابن حزم ، 3 / 175) .

(344) يعرِّف ابن هشام اللخمي ''المثلق'' بانه اداة تُستعمل لاختبار جودة الذهب والفضة ، ويقول ان الكلمة في الأندلسية الدارجة تُلفظ ''ميلق'' والصحيح ''ميذق'' (انظر الأهواني ، ''الفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي في لحن العامة'' ، ص 318) . وفي احد الأمثال الأندلسية : ساع بميلق (الزجالي ، 2 / 423 ، رقم 1844) . والميلق عند العرب في بادية تونس حجر أملس كالمِسَن مستطيل الشكل تُسنُّ عليه الموسى (انظر محمد المرزوقي : مع البدو في حلهم وترحالهم ، الدار العربية للكتاب ، 1980 ، ص 253) .

(345) سير بن ابي بكر بن تاشفين هو ابن عم يوسف بن تاشفين (او ابن أخيه) ، وزوجته حواء ابنة اخت الأمير يوسف . كان سير من كبار قادة لمتونة ، وقد قام بدور بارز في المعارك التي خاضها المرابطون في المغرب والأندلس .

وقد عهد امير المسلمين الى الأمير سير بخلع المعتمد بن عباد (484 / 1091) ثم المتوكل ابن الأفطس امير بطليوس (487 / 1094) ، وولاّه اشبيلية وغرب الأندلس في رجب 484 / سبتمبر 1091 ، واحتفظ بالمنصب الى وفاته قرب اشبيلية في جمادى الاولى 507 / اكتوبر – نوفمبر 1113 . وكان الأمير سير يجمع الى ولاية اشبيلية قيادة قوات المرابطين في غرب الأندلس ، واليه يعود الفضل الأكبر في الحيلولة دون إحراز ملك قشتالة اي تقدم هناك (المعجب ، 141 . ابن عذارى ، 4 / 56 وما بعدها . القرطاس ، 100 وما بعدها ، 105 . الحلل ، 59) .

(346) يبدو ان قرور / جرور اللمتوني او الحشمي كان في البداية – على الأقل – وثيق الصلة بيوسف ابن تاشفين . وكل معلوماتنا تقريبًا عن هذا القائد المرابطي مستمدة من (التبيان) . فقرور استولى على رندة سنة 484 / 1091 ، وقتل واليها الراضي بن المعتمد غدرًا . وبعد ان استسلم عبد الله للأمير المرابطي سُلِّم لقرور الذي عامله معاملة قاسية ، كما يفصِّل ذلك الأمير الزيري فيما بعد . ويتبيَّن من الصورة التي رسمها عبد الله لقرور انه كان رجلا فاسدا ماديا وخلقيا ، وان مسلكه أساء لسمعة المرابطين (التبيان ، 133 . الحلة ، 2 / 62 . الحلل ، 59) .

(347) من المستبعد ان يكون ابن رشيق – كما يذكر المؤلف – قد زوَّد الحامية المحاصَرة في لييط بالمؤن اثناء حصار المسلمين لها . فالمؤلف نفسه يقول بعد قليل إن أميرالمسلمين – بعد ان سلمَّ ابن رشيق للمعتمد – قرر الانسحاب من لييط لأسباب منها خشيته من ان يقوم اهل مرسية بتزويد الحامية بالمؤن . الا ان من الممكن ان يكون ابن رشيق – قبل بداية الحصار – قد قدَّم المساعدة للحامية القشتالية لابعاد المعتمد عن مرسية (انظر الحلة ، 2 / 175) .

(348) ان احالة ابن تاشفين النزاع بين المعتمد وابن رشيق الى الفقهاء يتفق مع شخصيته وصلاحه ، كما وصفها المؤرخون الذين يؤكدون التزامه بفتاوى الفقهاء . فقد كان يستفتي الفقهاء قبل الاقدام على عمل ، كما فعل حينما قرر خلع ملوك الطوائف (التبيان ، 172 . الاكتفاء ، 106 . الحلل ، 66 . القرطاس ، 88) .

(349) ان مساندة مُرسية للمسلمين المحاصرين لحصن لييط كانت ذات اهمية كبيرة ، اذ إن مرسية كانت اقرب وأهم مصدر للمؤن والصنّاع الذين احتيج اليهم لمهاجمة الحصن . وقد نتج عن اعتقال ابن رشيق ان غضب اهل مرسية ، فقرروا سحب جندهم ومنعوا الميرة عن المحلة . وهذا دليل آخر على ما كان يحظى به ابن رشيق من محبة لدى اهل مرسية الذين بقوا على مؤازرتهم له (انظر الهامش 57 الفصل الخامس) . ويصف ابن الآبار اقرباء ابن رشيق في مرسية بانهم كانوا ''جماعة'' (الحلة ،

2 / 142 . القرطاس ، 99 . الحلل ، 56 اعمال ، 257) .

(350) من بين الأسباب الأخرى التي ذُكرت لفشل حصار لييط الذي دام اربعة شهور مناعةُ الحصن ، وحلولُ فصل الشتاء . ويقول ابن ابي زرع ان الفونس كان في طريقه لنجدة الحامية المحاصَرة ''في أمم لا تُحصى'' (القرطاس ، 99 . الحلل ، 56 . **La Espana del Cid,364f.**) .

(351) لما علم الفونس باستياء اهل مرسية ، واستجابةً منه لاستصراخ الحامية التي اشتد الضغط عليها ، قدم الى لييط على رأس جيش ''نيّف على ثمانية عشر الفًا بين خيل ورجل . فوقع الانزعاج واسترابِ ابن تاشفين وتحيّز الى لورقة واقام هناك أيّاما'' (الحلة ، 2 / 175) . اما صاحب (الحلل) فيقول ان يوسف قرر الانسحاب الى تريابسة Sierra de Tierza ''وظهر له ان الأذفنش اذا وصل فغايته تخليص قومه واخلاء الحصن'' (الحلل ، 56وما بعدها) . ولدى وصول الفونس الى لييط ، قام بدكٍّ الحصن وباخلاء من بقي على قيد الحياة من رجال الحامية ، ثم عاد الى طليطلة (القرطاس ، 99) .

اما المصادر المسيحية المعاصرة فتذكر ان الفونس عاد الى طليطلة بعد ان انقذ الحامية وزوّدها بالمؤن ، كما تذكر بان قائد الحامية غرسية خمينيث Garcia Jiménez هاجم ساقة جيش المسلمين المنسحب . ان سكوت عبد الله عن ذكر ذلك ، وعن الحديث عن مصير حصن لييط ، فضلا عن استمرار الغارات من لييط على اراضي المسلمين المجاورة – كل ذلك يؤكد – كما يبدو – ما جاء في الروايات المسيحية عن الحصن (**La Espana del Cid, 755f.**) .

ونتيجة للجواز الثاني ليوسف حقّق المعتمد احد اهدافه الرئيسية ، فتخلّص من ابن رشيق المنتزي عليه في مرسية .

(352) يبدو ان المعتصم بن صمادح كان يحسد المعتمد بن عباد قبل قدوم المرابطين الى الأندلس ، ولا شك في ان من دوافع ذلك الحسد ان المعتمد كان ملكًا لمملكة اقوى واكثر اتساعًا من مملكته ، وان صيته ذاع شاعرًا وراعيًا سخيًا للشعراء . وكان الأميران قد تصالحا – ظاهريًا – قبل قدوم المرابطين . ولما قدم الأمير المرابطي أغدق عليه المعتصم الهدايا ، ولازمه ، وسعى في تغيير قلبه على المعتمد . من ذلك ما قيل من ان ابن صمادح ذكر ليوسف بان المعتمد كان قد أسرَّ له بانه يكرم المرابطين إحسانًا منه ، وانه قال : ''لو عوَّجتُ له [الأمير المرابطي] اصبعي ما اقام بها [الأندلس] ليلة واحدة هو ولا اصحابه'' ولا شك في ان هذه الدسائس عملتْ في نفس يوسف الذي كان في وقت ما يقول لأصحابه : ''هذان رجلا هذه الجزيرة'' .

وأثناء حملة لييط وبعدها ، سعى ابن صمادح على المعتمد عند يوسف بن تاشفين ، فكتب اليه المعتمد – شعرًا – بالكف عن ذلك (نظر المعجب ، وما بعدها . قلائد ، 14 . الحلة ، 2 / 85وما بعدها) .

(353) تقع شربة Sorbasعلى مسافة نحو 25ميلا – في خط مستقيم – الى الشمال الشرقي من المرية .

الفصل الثامن

(354) عُرف المُشاوَر والفقيهُ المشاورَ (بفتح الواو) بهذا الاسم لأن القاضيَ كان يستشيره ، فكان في الواقع مساعداً للقاضي . يقول ابن عبدون : «ولا يكون الفقهاء المشاوَرون [في اشبيلية] اكثر من أربعة ، اثنان في مجلس القضاء ، واثنان في المسجد الجامع» (ابن عبدون ، 9) .

(355) ذكر عبدُ الله قبل ذلك «المثاقيل» ، وهذه أول مرة يذكر فيها الدينار المرابطيّ (المثقال) ، الذي يبدو أنه بحلول عام 482 / 1089 اصبح متداولاً في الأندلس . ويذكر المؤلف فيما بعد على لسان أخيه تميم بأن الأمير المرابطيّ قال تميم إنه أول من ضرب في الأندلس الدراهم المرابطيّة معلناً بذلك ولاءه

للمرابطين .
كان من الشائع في عهد ملوك الطوائف تمويه العُملة وتزييفها ، إلا أن الوضع تبدّل في عهد المرابطين ، الذين عُرفتْ دنانيرهم بالجودة وكانت من الذهب الخالص . وكان الدينار المرابطي – بمقتضى الشرع – يساوي عشرة دراهم . وقد ضرب القشتاليون أول عملةٍ لهم على غرار المثقال المرابطي عُرفت باسم maravedi أو morabeti . ومن امثال العوام بالأندلس «لس فالمثقال ما يقال »الزجالي ، 2 / 274 ، رقم 1182 . (Vicens Vives, An Economic History of Spain, 116, 278 .

(356) يتهم عبدُ الله قرورا اكثر من مرة بأخذ الرشاوى ، ولكنه لم يجرؤ آنئذٍ على الافصاح عن ذلك لأمير المسلمين خشية أن يقتصّ منه قرور . إلا أنه لما فرغ عبد الله من إعداد كتابه سنة 487 / 1094 ، كان قرور – فيما يبدو – إما أنه توفي وإما أنه فَقَدَ حُظوته ، وإلا لما تجرّأ المؤلف على ذكر تفاصيل المبالغ التي كان قد دفعها له اثناء حملة ليبط وبعدها . ومع ذلك ، فإن عبد الله يحرص كل الحرص على أن لا يسيء لأمير المسلمين لما حدث ، بمبادرته إلى القول – بلباقة – إن تصرف قرور لم يكن بعلم أمير المسلمين أو موافقته ، وإن امثال قرور يُفسدون على الرئيس ويُبغّضون إليه جماعة .

(357) أبو الأصبغ عيسى بن سهل بن عبد الله الأسدي من كورة جيان من أبرز فقهاء المذهب المالكي بالأندلس في القرن الخامس الهجري . وكان قد استكتبه قاضيا طليطلة وقرطبة ، ثم ولي القضاء في المغرب وفي غرناطة .
وقد حاول تميم أميرُ مالقة أن يستميلَ ابن سهل إلى جانبه فأرسل إليه خمسين مثقالا ، ولكن ابن سهل ردَّها إليه . وقبيل الجواز الثالث ليوسف إلى الأندلس ، أُوفد ابن سهل – مع رسول آخر – إلى الأمير المرابطي لتطمينه بولاء عبد الله واستعداده للمشاركة في أية حملة قادمة ضد النصارى ، إلا أن ابن سهل تخلّى عن عبد الله وانحاز إلى المرابطين ، مما جعل أمير المسلمين – على حد قول عبد الله – يرتاب فيه ، فصُرف عن منصب القضاء في غرناطة . إلا أن إعفاء ابن سهل من هذا المنصب يُعزى إلى صرامة أحكامه . وكانت وفاةُ ابن سهل في غرناطة في 4 محرم سنة 486 / 4 فبراير 1093 .
ويشتهر ابنُ سهل بين فقهاء المالكية بمصنّفه (ديوان الأحكام الكبرى) ، وهو ديوان جمع فيه الفتاوى التي صدرت إبان خلافة قرطبة ، وتُعتبر هذه الفتاوى نماذج استرشد بها فقهاءُ الأندلس والمغرب (الصلة ، 415 . المرقبة ، 5 ، 50 ، 96 وما بعدها ، 184 . الونشريسي ، كتاب الولايات ، 11 ، 37 وما بعدها ، والهامش رقم 135 . .L'Espagne musulmane.., 80 f) .

(358) مع أنه لا تتوفر معلومات عن ابن سلمون المشار إليه بصاحب الأحباس (الأوقاف) ، فإنه يبدو أن بعض افراد اسرة ابن سلمون شغلوا مناصب قضائية أو شبه قضائية في غرناطة خلال فترة حكم المسلمين للمدينة . وفي القرن الثامن الهجري ، ولي الفقيه أبو القاسم سلمون بن علي بن سلمون قضاء الجماعة بغرناطة ، وبعد وفاته ، خلفه أحد ابنائه في هذا المنصب (المرقبة ، 167 وما بعدها . الاحاطة ، 1 / 403) .

(359) هذا البيت (من البحر الطويل) يُنسب إلى علي بن أبي طالب (انظر الأهواني ، كتاب (إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين) ، 282 وما بعدها) .

(360) يوصف أبو الحسن علي بن عبد الله بن الحسن القيسي من غرناطة – المعروف بالسُنيْدي – بأنه كان شيخا جليلا كثير الثروة فاعلا للخير ، ونظر في احباس غرناطة في دولة باديس . ولعلّ المسجدَ بغرناطة المعروف بمسجد السنيْدى كان من وقفه . ولما كانت وفاة السنيدى في سنة 480 / 1087 ، أو بعدها بقليل ، فإن إشارة المؤلف هي إلى ابناء الشيخ ، ويبدو انهم حذَوْا حَذْو والدهم في خدمة دولة بني زيرى بغرناطة (انظر ابن الزبير ، 79 ، 183) .

(361) لعلّ المقصود هنا بالضيعة – ومنها جاءت aldea بالاسبانية – المزرعة ، ومازالت الكلمةُ مستعملةً

بهذا المعنى في شمال افريقيا ، أو القرية الصغيرة كما في بلاد الشام . والضيعةُ المشار إليها هي صالحة ، وكانت قرية صغيرة على الطريق من غرناطة إلى مالقة سكنها كثيرون من بني القليعي (المقّرى ، (Supplément, 2 / 16 . 294 – 3 / 1 .

(362) كان مؤمَّل مولى لباديس ومستشاراً لعبد الله ، ويصفه المؤرخون بأنه كان ذا دهاء وبصيرة . أما عبد الله فإنه يقول عنه فيما بعد بأنه تآمر عليه بتحريضه زناتة في غرناطة ضده ، وبأنه اتهمه – كذباً – بمداخلة النصارى .
ويُذكر بأن مؤملا حثَّ عبد الله على الخضوع للمرابطين ، مما جعل الأمير الزيريّ يرتاب فيه . وتمكن مؤمل آخر الأمر من الفرار والانتزاء في لوشة حيث اعلن ولاءه لأمير المسلمين (482 / 1089) . ثم استرد عبد الله لوشة وأسر مؤملاً ، إلا أنه اضطرَّ إلى الافراج عنه بأمر من الأمير المرابطي .
ولما استولى يوسف بن تاشفين على غرناطة ، عهد إلى مؤمل بادارة الممتلكات (المستخلَص) والقصور الملكية في غرناطة . وكان عبد الله قد أوفد مؤملاً رسولاً عنه إلى ابن تاشفين الذي أُعجب بحكمته وسلوكه . ومع أن مؤملاً كان أُميّاً فإنه حظي بتقدير الأمير المرابطي إلى وفاته في ربيع الأول 492 / فبراير 1099 .
ويُنسَب إلى مؤمل عدد من المنشآت العامة في غرناطة ، كالنافورة بباب الفخارين ، والمتنزه الشهير على ضفة نهر شنيل الذي عُرف نسبةً له بحَوْر مؤمل ، وبقي بعد وفاته بثلاثة قرون إلى زمن ابن الخطيب (التبيان ، 124 ، 125 المغرب ، 2 / 103 . الاحاطة ، 3 / 333) .

(363) يذكر المؤلفُ فيما بعد أن أبا بكر بن مسكِّن كان من بني زيري ، وأنه نشط بتدبير المكائد ضده املاً في أن يخصّه الأميرُ المرابطيُّ بنصيب من مملكة عبد الله . ولما قرَّعه عبدُ الله على ذلك ، فرَّ من غرناطة والتحق بالمرابطين وحرَّضهم ضد اميره .
ولعلَّ أبا بكر بن مسكِّن كان ابناً لمسكِّن بن حبوس المغرالي الذي كان قد ولاّه يوسف بن النغريلة جيان .

(364) عن مدلول «انزالات» ، انظر الهامش 104 .

(365) رابطة (وتُجمع على روابط) بمعنى زاوية يعتكف فيها الزهادُ والصلحاء ، وهي غير الرباط (والجمع رباطات وربط) ، انظر الهامش 15 الفصل الحادي عشر) . فالرابطة مكان خاص بالعبادة ، أما الرباط فهو مكان يُجمَع فيه بين العبادة والجهاد . ويذكر الادريسي وابنُ الزبير ثلاثاً من الروابط ، اثنتين بالقرب من ألمرية ، وواحدة في اشبيلية (الادريسي ، 197 . ابن الزبير ، 24 ، 39 . (L'Espagne musulmane..., 138 f .

(366) يورد ابنُ الخطيب روايةً مختلفة بعض الشيء عن الظروف التي اكتنفت فرار ابن القليعي ، وهو لا يذكر شيئا عن دَوْر الجند في القضية (انظر الهامش 342) .

(367) لم يَجْبِ يوسفُ بن تاشفين سوى الضرائب المنصوص عليها شرعاً ، وهي الزكاة ، والعُشر ، والجزية على اهل الذمة ، وخمسُ الغنائم من غير المسلمين (انظر القرطاس ، 88 . الاستقصا ، 2 / 54) . أما في عهد ملوك الطوائف ، فإنه كان على الأندلسيين أن يؤدوا – فضلا عن ذلك – العديد من المغارم كالقَبالات والفَرضات واللوازم والألقاب . ولذلك يقول المؤلف «وانما وجستُ نفسي من الرعية ، لطمعهم في حطِّ المغارم» .

(368) سبق ان استعمل المؤلف «العرادات» (التبيان 128) ، وهو يستعمل هنا «الرعادات» ، وهي بنفس المعنى ، وترد كذلك في (الحلل) ، ص 55 . (انظر الهامش 339) .

(369) ان الاستعدادت الدفاعية الحثيثة التي اتخذها عبد الله احفظت المرابطين ورعيته . وفي ذلك يقول الأديب خلف بن فرج الالبيري المعروفُ بالسُّمَيْسِر ، وقد رأى عَبد الله يحصِّن على نفسه :

يبني على نفسه سفاهاً	كأنه دودةُ الحرير
دعوه يبني فسوف يدري	اذا اتت قدرةُ القدير

وكان السميسرُ من قبل قد هجا باديس لاتخاذه وزراء من أهل الذمة.(الذخيرة ، 1 / 2 ، ص 372 . السِلفي ، 83 وما بعدها) .

(370) هذا مثل آخر من الأمثال التصويرية التي يستشهد بها المؤلف من آنٍ لآخر لدعم حجته وتنميق اسلوبه . وما زالت كلمةُ «زِق» مستعملةً في جنوب المغرب الأقصى بمعنى قِرْبة الماء . ولعلّ عبد الله – اثناء وجوده أسيراً في اغمات – قد عرف المثل في الجهة ، حيث كانت الدواب – وما زالت – تُستعمل لحمل قِرَب الماء .

(371) ان عبد الله ، على النقيض من ذلك ، لا بد وأنه أُعجِب بمناعة حصن لييط ، ولما اخذ يرتاب في نوايا المرابطين تجاهه ، سعى جاهداً لتشييد الحصون وشحنها بالمؤن ، تمكينه من المقاومة – إذا اقتضى الأمر – كما فعلتْ حامية لييط . وعند قول عبد الله بان «البنيان من المرابط لا ينفع» فإنه يريد القول بان تحصيناته كانت بغرض صد هجمات النصارى . ولما رأى الأمير الزيريُّ معاقله ومعاقل غيره من ملوك الطوائف تستسلم للمرابطين دون ادنى مقاومة اضطرّ إلى القول بان المعاقل لا تُجدى في وجه المرابطين .

(372) كان باديس قد فعل الشيء نفسه في قصَبة مالقة ، وحذا عبد الله الآن حذوه في المنكّب ، اذ لم تعُدْ مالقة تابعةً لمملكته .

(273) هذا دليل واضح على ازدياد ارتياب الأمير الزيري في نوايا المرابطين تجاهه منذ حملة لييط الفاشلة . فبعد ان استعد بسرعة للدفاع ، يقول إنه لن يخرج بنفسه لمقابلة الأمير المرابطي إذا دعاه لذلك ، ولكنه على استعداد لتقديم المال والرجال للجهاد ، إذ إن رفضه لذلك سيؤخذ على أنه دليل على تواطئه مع النصارى .

(374) ان قول المؤلف هنا يناقض – فيما يبدو – ما سبق أن قاله قبل قليل بأن «البنيان من المرابط لا ينفع» .

(375) يورد ابنُ الخطيب حكايةً مماثلةً عن تجنّي الذئب على المعزى ليوضح الطريقة التي عامل بها الأميرُ المرابطيُّ – وهو الأقوى – الأمير عبد الله ، وهو الأضعف .(انظر اعمال ، 235) .

(376) ويُذكر بأن يوسف بن تاشفين – بموافقة المعتمد وابن الأفطس صاحب بطليوس – كان قد ترك بعد الزلاقة جماعةً من الصلحاء في بعض الحصون المصاقبة للروم في الأندلس رغبوا في مجاهدة العدو ، «وإنما أراد يوسفُ وأصحابه بذلك أن يكون قوم من شيعتهم مبثوثين بالجزيرة ... فإذا كان أمر من قيامٍ بدعوتهم أو إظهارٍ لمملكتهم ، وجدوا في كل بلد لهم اعوانا» ، كالطابور الخامس في مصطلح اليوم . وبالفعل ، فإنه ما إن قرر المرابطون خلع المعتمد ، حتى زحف هؤلاء القومُ في الحصون إلى قرطبة فحاصروها ودخلوها .(المُعجب ، 138 وما بعدها) .

(377) كان صاحب سرقسطة المستعين الثاني ، وكان جارُه إلى الشرق منه عمُّه المنذِر الذي كان قد ورث الجانب الشرقي من مملكة سرقسطة .

ومن الواضح أن عبد الله يحاول تبرير عمله بقوله إن الأميرين من بني هود دفعا لألفونس الجزية المستحقّة عليهما عن السنوات السابقة . ومن الغريب أن المصادر الاسلاميةَ لا تُلصِقُ هذه التهمةَ بالمستعين الثاني ، الذي يبدو أنه كان – حتى استشهاده محارباً للأرغونيين سنة 503 / 1110 – على صلات ودية بالمرابطين (انظر الهامش 238) .

(378) اشارة إلى قول ابن المقفّع : «مَثَلُ صاحب السلطان مَثَلُ راكب الأسد ، يهابه الناس ، وهو لمركبه أهيب» (أنظر عيون الأخبار ، 1 / 21) .

(379) كان البر هانش Alvar Hánez – ابنُ أخي الكنبيطور ومن كبار قادة الفونس – قائداً للحامية القشتالية المتمركزة في بلنسية لمساندة القادر بن ذي النون ، وقد استُدعى منها ، و شارك في وقعة

الزلاقة . وكان البر هانش قد أُوفد – قبل سقوط طليطلة – رسولاً إلى المعتمد من قبل الفونس الذي اثنى في كتابه إلى المعتمد على سداده وحكمته . وفيما بعد ، وبطلبٍ من المعتمد ، أرسل الفونس البر هانش على رأس جيش كبير لنجدة إشبيلية من هجمات المرابطين ، إلا أن المرابطين اعترضوا سبيل هذا الجيش ، وأوقعوا به بالقرب من المدور Almodovar del Rio سنة 484 / 1091 .

وبعد هزيمة القشتاليين في معركة أُقليش سنة 501 / 1108 – وفيها شارك البر هانش – عيِّن البر هانش والياً على طليطلة ، ودافع عنها ضد هجمات المرابطين في العام التالي . وقد قُتل البر هانش سنة 1114 م أثناء حملةٍ ضد انصار صاحب ارجون الفونس المحارب .

إن المعلومات الطريفة والجديدة التي يوردها عبد الله تبيِّن بان الفونس كان قد عهد إلى البر هانش بجباية الجزية من صاحبيْ غرناطة وألمريَّة بعد حملة لييط ، وهي تلقي ضوءاً على الأساليب التي اتبعها في سبيل ذلك . ويلفتُ عبد الله الانتباه بعد قليل إلى أن ولاء البر هانش كان قبل كل شيء لملكه (ابن القطان ، 6 وما بعدها . القرطاس ، 94 . الحلل ، 25 .

. (**La Espana del Cid, 212 n. 1, 320, 331 f. 47of, 586**

(380) يدل ذلك على أنه بعد سنةٍ فقط من فشل حصار لييط كان الفونس يزحف من جديد ضد ممالك الطوائف ، وقد قدم هذه المرة لجباية الضريبة المستحقة له منذ وقعة الزلاقة ، بعد أن عاد المرابطون إلى المغرب ، وساد ملوكَ الطوائف الوهنُ بسبب الدسائس والضغائن . وللمرء أن يتساءل عن السبب الذي جعل الفونس يبدأ بعبد الله متجاوزاً امرء الطوائف الآخرين الذين كانت أراضيهم أقرب إلى أراضيه من غرناطة . فهل كان السبب – كما زعم اعداءُ عبد الله – هو أن عبد الله كان قد قام بزمام المبادرة ، فاتصل بالفونس للحصول على مساعدته ضد المرابطين الذين كان عبد الله – فيما يبدو – يتوقع هجومهم ؟

كان عبدُ الله منذ سنة 467 / 1075 قد تعهَّد بأن يدفع لألفونس ضريبةً سنويةً مقدارها عشرة آلاف دينار (انظر التبيان ، 103) .

(381) سمَّى المرابطون عاصمتهم الجديدة في المغرب مراكُش (بضم الكاف) ، ومنها جاءت التسمية بالاسبانية Marruecos ، ومنها انتقلتْ إلى اللغات الأوروبية الأخرى . ويلاحظ ابن هشام اللخمي (القرن السادس / الثاني عشر) بأن العامة تلفظ الاسم «مرُّكُش» بينما اللفظ الصحيح هو «مراكش» (بألف بعد الراء) – انظر الأهواني ، «الفاظ مغربية ...» ، ص 312 .

اختطَّ يوسف بن تاشفين مدينة مراكش في صدر سنة 462 / 1070 (ويُذكر تاريخان آخران لاختطاطها : 454 / 2 – 1063 و 470 / 7 – 1078) في «غيضة لا عمران فيها «بأرض المصامدة ، فحلَّت محلَّ أغمات وريكة عاصمةً للمرابطين . وكانت مراكُش في بادىء الأمر مدينة خيام دون سور ، وبها مسجد وقصبة صغيرة لخزن المال والسلاح (مفاخر ، 53 . ابن عذاري ، 4 / 19 وما بعدها . الادريسي ، 67 وما بعدها . المعجب ، 100 وما بعدها) .

(382) حديث نبوي (المعجم المفهرس ، 1 / 443) .

(383) مثل (انظر الميداني ، 1 / 29) .

(384) يوضح المؤلف بجلاء هنا السياسة التي انتهجها الفونس تجاه ملوك الطوائف : فكان يستهدف جباية الضريبة منهم ، والايقاع بينهم ، كما كان يستهدف فرض دفعات اضافية عليهم في مقابل مساعدتهم للاستحواذ على أراضي جيرانهم المسلمين ، وهذا الهدف الأخير لا يختلف عن دور تابعه الكنبيطور في شرق الأندلس .

(385) انظر نصَّ الحديث النبوي : كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيته (المعجم المفهرس ، 2 / 273) .

(386) بالرغم من تحذير عبد الله المعتمد من هجوم مرتقبٍ لألفونس على اراضيه ، فإن المعتمد حَسَبَ أن ثمة تواطؤاً بينهما ، وذكر ذلك لأمير المسلمين .

(387) حديث نبوي (انظر رسائل ابن حزم ، 1 / 395 ، 438 . المعجم المفهرس ، 7 / 55) .

(388) النيبل Nivar قرية تقع على بعد ستة اميال شمالي غرناطة . وقد شُنّت عليها غارة مفاجئة من قِبَل قوة قشتالية (صفّر 478 / 1085) يبدو أنها صُدَّتْ . وقد حضر المعركة مع الأمير عبد الله الفارس الزناتي الشهير مقاتل بن عطية البرزالي المعروف بالرُّيُهْ el Royo على رأس 300 فارس من البرزاليين ، الا أن من الغريب ان عبد الله لا يذكر مقاتلاً الذي أبلى في المعركة ، وامتدحت المصادرُ الاسلاميةُ حسنَ بلائه فيها (انظر الهامش 157) . الاحاطة ، 3 / 299 وما بعدها) .

الفصل التاسع

(389) مع أنه كانت توجد طوائف يهودية في كافة مدن الأندلس ، فإن غرناطة وطركونة واليسّانة Lucena كان بها من اليهود ما جعل كلا منها تُعرف بمدينة اليهود في المصنَّفات الأندلسية . ويصف الادريسي اليسّانة بمدينة اليهود ، ويقول إنها متحصنة بسور حصين ويحيط بها حفير عميق ، والربض خارج سور المدينة يسكنه المسلمون وبعضُ اليهود ، وأما المدينة المسورة فقد انفرد بسكناها اليهود ، وهم «اغنياء مياسير اكثر غنى من اليهود الذين بسائر بلاد المسلمين» (الادريسي ، 205 . الروض ، 23 . المُغرب ، 1 / 105) .

(390) سبق أن ذكر عبد الله حصن الحمراء الذي رمَّمه يوسف بن النغريلة في فترة مداخلته لصاحب المرية (التبيان ، 86) . وكان هذا الحصنُ يقوم عند الطرف الغربي من السبيكة التي عُرفت كذلك بالحمراء لكون حجارتها حمراء اللون . ويشير المؤلف هنا إلى الفترة التي تلت مباشرة عودة المرابطين من حملة لييط ، حينما نشط في تشييد الحصون وتحصين القائم منها (انظر الهامش 167) .

(391) لا يمكن قبول الاقتراح المبدئيّ لليفي بروفنسال – ومن بعده هـ . ادريس – بأن المثقال الجعفريّ ضربه أميرُ سرقسطة أبو جعفر احمد بن سليمان بن هود ، فعُرف باسمه ، إذ إن المثاقيل الجعفرية يشار إليها في خلافتي الحكم المستنصر وابنه هشام المؤيد . كما يُذكر بأن أحمد بن عباس ، كاتب زهير العامرى ، صاحب المرية – وكانت وفاته قبل عشر سنوات من ارتقاء ابن هود العرش – بلغ مالهُ خمسمائة ألف مثقال جعفرية .

إن المثقال الجعفريُّ – ويرد ذكره لأول مرة في خلافة الحكم المستنصر المتوفى سنة 366 / 976 – لابد وإنه عُرف بالجعفري إما نسبةً لحاجب الحكم وهو جعفر بن عثمان المصحفي ، وإما نسبةً – وهو أقل احتمالاً – إلى أول حاجب للحكم ، وهو جعفر الصقلبي . هذا ، وقد اقرَّ ليفي بروفنسال فيما بعد بخطئه (انظر HEM, 3 / 259 n.1) .

وغنيٌّ عن البيان بأن الدنانير التي عثر عليها عبد الله كانت دنانير فائقة الجودة ، لأنها تعود إلى عصر الخلافة ، حينما كانت الدنانيرُ تُضرب من خالص الذهب إذا ما قورنت بالعملات المموَّهة التي كانت متداولةً في فترة ملوك الطوائف (المقتبس ، 7 / 87 ، 92 . الذخيرة ، 1 / 2 ، ص 665 ، 4 / 1 ، ص 73 . ابن عذاري ، 2 / 198 ، 16235 «Zirides, 115 n. 62. «Mémoires», 113n.) .

(392) هو أبو الربيع بن الماطوني (انظر الهامش 158) .

(393) ابن ميمون هو الموظف اليهودي الرابع الذي يذكره المؤلف بدولة بني زيرى في غرناطة ، وكان قد ذكر من قبل ابنَيْ النغريلة الكاتبين والوزيرين ، وأبا الربيع بن الماطوني خازن الأموال . كان ابنُ ميمون قد عُيِّن أميناً ليهود اليسانة من قِبَل عبد الله ، الذي يشير إليه فيما بعد بزعيم اليسانة .

(394) استُعملت لفظة «الأمين» في الأندلس – كما هو الحال في المغرب اليوم – بمعنى المدير أو الرئيس لطائفة مِهْنية . والأمين في المغرب الاسلامي يُعرف احيانا بالمشرف ، ويقابله الشيخ أو العريف في المشرق .

لابد أن ابن ميمون ، وقد عُيِّن اميناً ليهود اليسانة ، عُهد إليه بالتأكد من جباية مختلف الضرائب والمكوس وإرسالها إلى عبد الله الذي كانت حاجته إلى الأموال في ازدياد منذ قدوم المرابطين إلى الأندلس (L'Espagne musulmane, 18 4,. Supplément, 1/38f. (Marçais Textes arabes de Tanger, 223. Brunot, Textes arabes de Rabat, 2/5, 436 f.

(395) ترد «التقوية» في النصوص الأندلسية بمعنى ضريبة خاصة كانت تفرضها السلطاتُ في ظروف طارئة لتغطية نفقات استثنائية ، كما في أوقات الحرب أو غيرها من حالات الطوارىء . كان من بين الاجراءات التي اتخذها القاسمُ بن حمود حينما ولي الخلافة بقرطبة إسقاط «التقوية» تودداً لأهل قرطبة (ابن عذاري ، 3 / 130 . Supplément, 2 / 436 f) .

(396) يُقصد بالمستخلَص ممتلكات السلطان الخاصةُ من مُنْيات وبساتين وقصور ، ويؤول ريعها إلى خزانة السلطان الخاصة . وكان يفلح المنيات مزارعون في مقابل نصيب من غلاتها ، ويتولى ادارتها عاملُ المستخلَص . وكان مؤمِّل وابن زُهْر من بين من عَهد إليهم المرابطون بهذا المنصب في غرناطة . ويُذكر بأن مستخلَص سلطان غرناطة النصري في القرن الثامن الهجري كان يشتمل على نحو مائة جنةٍ في فحص المدينة خارج اسوارها (ابن عذاري ، 4 / 65 ، 73 . الاحاطة ، 1 / 116 ، 133) .

(397) لعلَّ ثورة يهود اليسَّانة حدثت في أوائل سنة 483 / 1090 ، وهي السنة التي سقطت فيها غرناطة في أيدي المرابطين . وكما يفعل المؤلِّف مراراً عند ذكر المعتمد بعد زوال ابن عمار ، فإنه يدافع عن المعتمد ، ويبدو صادقا في اعتقاده بأنه لن يلحق به اذى من جانب المعتمد . ومع ذلك ، فإن ابن الخطيب يقول إن عبد الله ولَّى مقاتل بن عطية البرزالي اليسَّانة ، وإن المعتمد هاجم المدينة وكاد أن يستولي عليها (الاحاطة ، 3 / 299) .

ويقول الأمير الزيريُّ فيما بعد بأن اليسَّانة كانت أول مدينة استسلمت للمرابطين وهم في طريقهم إلى غرناطة (التبيان ، 157) .

(398) الفَرْضة أو الفريضة احدى ضرائب المغارم ، ويُذكر بأن يوسف بن تاشفين فرضها على اليهود في المغرب سنة 464 / 1 – 1072 . وقد انتقلت الكلمة إلى الاسبانية alfarda, alfardón بمعنى ضريبة مياه سقي البساتين (ابن عذاري ، 4 / 23 . الحلل ، 14 . هوبكنز : النظُم الاسلامية في المغرب ، 101 . Supplément, 2/255) .

والألقاب – كالوظائف واللوازم – أنواع مختلفة من المغارم (Supplément, 2/550) .

(399) «هدنة على دخَن» أي هدنة على فساد باطن ، وهو مَثل معروف (الميداني ، 2 / 283) . وفي حديث نبوي : صُلحٌ على دخَن (المعجم المفهرس ، 2 / 116) .

(400) يتفق ذلك مع السياسة التي انتهجها عبد الله منذ أن تخلَّص من سماجة وصرح بأنه لن يستوزر أحداً ، وهو يردد نفس العبارة إذ يقرر بأن يهود اليُسَّانة لن يرأسهم زعيم . وهكذا فإنه يبدو أن الأمير الزيري واصل سياسته الرامية إلى التخلص من الموظفين المحليين الذين تبدو منهم أية نزعة للاستبداد بالسلطة .

(401) الوُصفان (والمفرد : وصيف) ما زالت مستعملةً في شمال افريقيا بمعنى السودان . وفي الأندلس ، كان العبيد يشملون الرقيق من السودان والبيضان أو الموالي من أصل أوروبي (الصقالبة) ، بينما «الوصفان» كانت تقتصر على الرقيق السودان (Brunot, Textes arabes de Rabat, 1/193 f. Marçais, Textes arabes de Tanger, 3) .

(402) مازالت كلمة «براني» مستعملةً في المغرب بمعنى الغريب عن مدينة أو جماعة ، وهي في الأزمنة الحديثة تعني الأوروبيين ، وهي بهذا المعنى مرادفة لكلمة «رومي» . والكلمة «براني» من أصل أندلسي بمعنى غريب عن الأسرة أو خارجها ، وبهذا المدلول يستعمل المؤلف الكلمة ويعني كافة العناصر – بما فيها زناتة – خارج صنهاجة (انظر Brunot, Textes arabes de Rabat, 2 / 22) .
ومن أمثال العوام بالأندلس «براني ، ويطلب معاني» (الزجالي ، 2 / 129 ، رقم 567) .

(403) عن «انزالات» ، انظر الهامش 104) .

(404) اعتمد عبد الله ، في السنوات العشر الأولى من حكمه ، على صنهاجة ، ويبدو أنه بعد عزل سماجة أخذ ينحاز إلى زناتة ونفرٍ من العبيد الصقالبة ، كمؤمَّل ولبيب . ويُذكر بأن مقاتل بن عطية قاد فرقة فرسان زناتة في معركة النييل ضد القشتاليين .
أما الآن، فإن عبد الله يُشيد بصنهاجة . ولا شك في أنه كان يسعى لتوطيد مركزه بتأييد فريق تارة وفريق آخر تارة أخرى . ولعلَّ السبب في هذا التحول المفاجيء إلى صنهاجة في هذا الوقت بالذات يكمن في سعيه لمداراة المرابطين الصنهاجيين . وفضلا عن ذلك ، فإن عبد الله – وهو يُعِدُّ كتابه أثناء فترة أسره في اعمات – كانت تدفعه أسباب أقوى لتأكيد ميوله إلى صنهاجة وإعجابه بها اثناء فترة حكمه ، وليبيِّن بأن ما كانت صنهاجة قد لقيته من سوء معاملة كان بسبب العناصر البرانية كابن النغريلة والناية .

(405) يُنسب هذا البيت (من بحر الطويل) إلى علي بن أبي طالب (انظر الهامش 7 الفصل السابع) .

(406) يبدو أن عبد الله قد عيَّن الخصيَّ الصقلبي لبيباً في منصب صاحب المدينة بعد تخلصه من ابن تاقنوت . فبعد أن عزل سماجة وغيره من كبار زعماء صنهاجة من مناصبهم ، يبدو أنه سار على سياسة تعيين صنائعه أملاً في توطيد مركزه في المملكة ، إلا أنه حتى هؤلاء الصنائع كانوا من بين أول من أنشق عنه وانحاز إلى المرابطين (عن صاحب المدينة ، انظر الهامش 36 الفصل الثالث) .

(407) كان باديس قد اتخذ موقفا مماثلا تجاه صنهاجة حينما تخلَّوْا عنه بسبب اعتماده على الناية (انظر التبيان ، 90) ، فرأى عبد الله أن من الحكمة أن يقتدي بجده .

(408) البُريح بمعنى النداء للاعلام بشيء ما أو الاعلان عنه ، والبرَّاح هو المنادى ، أو الدلاَّل في المشرق . وما زالت هذه الكلمةُ الأندلسية متداولةً بنفس المعنى في كافة اقطار المغرب (انظر ابن عذاري ، 4 / 52 . أعمال ، 164 .
. (Brunot, Textes árabes de Rabat, 2/23. Supplément, 1/66

(409) الزِمام (وتجمع على أزمَّة) السجل يشتمل على أسماء الجند . ويقتبس ابن حيان عن المنصور بن أبي عامر قوله قُبيل وفاته «إن زمامي يشتمل على عشرين ألف مرتزق ، ما فيهم اسوأ حالاً مني» (الذخيرة ، 4 / 1 ، ص 74 . Supplément, 1 / 601) .

(410) انظر الهامش . 359 .

(411) يُفهم أن المقصود بالانزال هنا أرضُ أُقطعها – أو أُنزل فيها – شخص يأخذ نصيباً من محصولها . فمؤمل يقول في الواقع إن زعماء زناتة الساخطين لم يعودوا إلا لتحصيل نصيبهم من فوائد انزالاتهم ، ثم يتخلون عن عبد الله نهائيا . فلو حدث ذلك – كما يقول الأمير الزيري – لما بقي فائدُ انزالات يمكن تخصيصه لآخرين قد يحلُّون محل زناتة الخارجين (أنظر الهامش 104) .

(412) «نُعاس» بمعنى نوم ، والكلمة متداولة إلى اليوم في المغرب بهذا المعنى (Marçais, Textes arabes de Tanger, 4. Supplément, 2 / 698) .

(413) اتُّهم عبد الله باستئنافه دفع الضريبة لألفونس ، وبتشييده الحصون وذلك – فيما يبدو – لمقاومة المرابطين . وقد وجَّه إليه مؤمَّل اتهاماً آخر الآن ، وهو ادخاله النصارى بالفعل إلى غرناطة .

(414) مع أن المؤلف لا يذكر عن بني مالك إلا أنهم كانوا عمال لَوْشة ، وعلى تواطؤ سري مع مؤمل ضده ، فإن ابن الصيرفي يقول إن مؤملاً وأصحابه «فروا إلى لوشة وبها من أبناء عبيد باديس قائدها ، فملكوها وثاروا فيها ، بدعوة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين» . وقد يكون القائدُ المشار إليه هنا واحداً من بني مالك (انظر الاحاطة ، 3 / 332) .

(415) قاد يوسف بن حجاج الجند الذين استردوا لَوْشة وأسروا مؤملا . ويُسهب عبد الله فيما بعد في الحديث عن موافقته على زواج أخته من يوسف بن حجاج . ويبدو أن ابن حجاج بعد زواجه تطلَّع إلى أن يكون وزيرا ، وهو المنصب الذي كان عبد الله قد ابطله منذ عزله سماجة عنه . وآخر

ذكر لابن حجاج هو ايفاده – مع رسول آخر – من قِبَل عبد الله للتوسل إلى الأمير المرابطي الذي كان في طريقه لأخذ غرناطة (التبيان ، 156) .

(416) «العفو عند المقدرة» حديث نبوي عند التوحيدي ، ومثل عند الحُصْري (الامتاع ، 2 / 94 زَهرُ الآداب ، 3 / 8) .

(417) يقول ابن الصيرفي إن عبد الله استشاط غضباً على مؤمل ، وهمَّ بقتله حينما أشار عليه بالخروج إلى أمير المسلمين ، ففر إلى لَوْشة ومَلَكها باسم أمير المسلمين . ويُذكر بأن استغاثة مؤمل بالأمير المرابطي كانت من العوامل الرئيسية التي أدت إلى تحرك ابن تاشفين لأخذ غرناطة (أنظر الهامش 9 الفصل الثامن) .

(418) يصرح عبد الله هنا بأن التغير المفاجيء في موقف الأمير المرابطي تجاهه كان نتيجة للدسائس والتهم الباطلة من جانب أعدائه ، ومعظمهم من الفقهاء ورجال الدولة الذين انشقوا عنه وانضموا لابن تاشفين ، ولكنه لأول مرة يذكر تهمةً جديدة ، ألا وهي الأموال الطائلة التي قيل بأنه امتلكها ، ثم يبادر إلى القول بأن كل أمواله كانت ستُنفق في الجهاد إلى جانب المرابطين .
ومع أن الأمير الزيري يدَّعي بأن ما قيل عن ثروته غير صحيح ، فإن المصادر الأخرى تتحدث عن وفرة الأموال التي وجدها المرابطيُّ في القصر الملكي بغرناطة ، وكان جانب كبير منها قد جمعه جدُّه باديس (الكامل ، 10 / 155 . الاحاطة ، 3 / 381) .

(419) يرد المثل : لأيجمع السيفان في غمد (الميداني ، 2 / 152) .
ومن أمثال العوام بالأندلس : لن يسع فالقلب نفسين ، ولا فلغمد سيفين (الزجالي ، 2 / 277 ، 1195) .

(420) في حين أن باديس لم يكن يتردد في قتل اعدائه شبهةً ، فإنه لا يُعرف عن عبد الله بأنه لجأ إلى القتل للتخلص من أعدائه ، كابن القليعي وكبَّاب ومؤمَّل . كان الأمير الزيري يلجأ أحياناً إلى السَجْن أو النفي ، وهو لم يأمر بقتل ابنَي تاقتوت إلا بعد أن افتى الفقهاء بذلك .

(421) إشارة إلى الحديث النبوي : «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم» (المعجم المفهرس ، 3 / 129) .

(422) عجُزُ بيتٍ (من بحر الطويل) وصدره : تأنَّ ولا تعجلْ بلومك صاحباً (الميداني ، 2 / 119) . إلا أن النويري يورده على أنه صدر بيت للشاعر العباسي منصور النميري (انظر نهاية ، 3 / 86) .

(423) عجزُ بيتٍ (من بحر الطويل) يُنسب إلى خارجي انشده لما أنَّبه الخليفةُ العباسيُّ أبو جعفر المنصور .
وصدر البيت : أتروض عِرْسَك بعدما كبرتْ (انظر الميداني ، 2 / 214 . العقد ، 1 / 196 ، 247) .

(424) ينظر عبد الله بإمعان في أوجه الحل أمامه كلما واجهه وضع صعب . فقد كان حريصا دون شك على أن يكون زواجُ اخته زواجا مناسبا ، ولكنه في الوقت ذاته لم يُرد أن يكون الزواج من شخص قد يهدد ملكه .
لقد قامت مصاهرات عديدة بين ملوك الطوائف آنذاك ، إلا أن الأمير الزيري كان لديه من الأسباب ما يجعله يحُجم عن زواج اخته من أحدهم ، إذ إن مصاهرةً كهذه كثيرا ما كانت تسبب المشاكل ، كما حدث مثلا بين معن بن صمادح وصهره عبد العزيز ابن أبي عامر ، وكذلك بين المستعين ابن هود وصهره علي بن مجاهد (انظر اعمال ، 190 ، 222) .

(425) لا يذكر أيُّ مصدرٍ آخر مسألة زواج الأمير المرابطي من احدى اختَي عبد الله . إلا أنه يُذكر بأن والدة الأمير الزيري «وقع في نفسها أن يوسف بن تاشفين يتزوجها» ، ولذلك فإنها قالت لابنها : «اخرجْ وسلِّم على عملك يوسف» انظر ابن ابراهيم المواعيني ، **Historia Abbadidarum, 2 / 9** . الاكتفاء ، 105) .

(426) يبدو أن ابن رشيق لم يتردد – طوال حياته – في اتخاذ كل ما من شأنه أن يعينه على الاحتفاظ بمنصبه في مرسية . فقد بدأ بالتعاون مع ابن عمار ، ثم لما اخرج ابن عمار من مرسية سعى إلى التودد لألفونس . وأثناء حصار ليبط ، انضم ابنُ رشيق إلى المرابطين بعض الوقت ، إلى أن قرر سلطان المرابطين تسليمه للمعتمد بعد أن استفتى الفقهاء ، فقام للمعتمد بزجّه في السجن . إلا أن ابن رشيق – حتى وهو في السجن – لم يكفّ عن حبك الدسائس لاسترداد منصبه في مرسية . ونكايةً بالمعتمد ، أعلن ابن رشيق في وقت ما ولاءه لأمير المسلمين ، وأما الآن فإنه – ومن بعده نائبه في مرسية – حاول الاستعانة بالأمير الزيري الذي يؤكد بأنه لم يكن جاداً في تدخله في قضية مرسية ، وإنما كان يريد إحراج المعتمد بسبب مساندة المعتمد للثائرين على الأمير في اليسّانة .

(427) يشير المؤلف إلى أن ابن سهل كان قد استُقضي في الأصل باقتراح من ابن القليعي حينما قرر عبدُ الله تعيين الرجلين قاضيين معا (التبيان ، 133) .

إن اختيار الأمير الزيري رسله إلى أمير المسلمين من بين القضاة كان لعلمه بأن بوسعهم اكثر من غيرهم التأثير على مسلم ورع ومتمسكٍ بالشرع كيوسف بن تاشفين ، الذي يبدو أن قراراته كانت دائما برأي الفقهاء (أنظر الحلل ، 59 . القرطاس ، 88) .

(428) هذه الفقرة عن ابن سهل يقتبسها النُباهي (المرقبة ، 97) الذي يضيف بأنه بالنظر إلى تخلي ابن سهل عن أميره ، فإن أمير المسلمين لم يثق به ، وعلى اثر ذلك صرفه عن منصب قاضي غرناطة (انظر الهامش 357) .

ان ملاحظة ملكٍ من ملوك الطوائف كعبد الله عن اسباب تخلي ابن سهل عنه وانحيازه للمرابطين تبيّن بأنه كان ثمة تعاطف عام مع المرابطين ، لا بين الجند فحسب ، بل أيضا بين الأهالي . ويردد المؤلف هذه النقطة فيما بعد عند حديثه عن استسلام معاقله ومعاقل المعتمد والمعتصم للمرابطين دون مقاومة ، وعند قوله بأن كافة الطبقات في غرناطة – بما في ذلك الجند والعبيد – رحّبت بمَقدمهم (انظر التبيان ، 158 ، 159 ، 170 ، 172) .

(429) كان الجواز الثالث ليوسف بن تاشفين إلى الأندلس في سنة 483 / 1090 ، ولعلّه كان في شهر ربيع الثاني / يونيو من تلك السنة . وكان سقوط غرناطة في أيدي المرابطين في 10 رجب 483 / 8 سبتمبر 1090 . ولا يشير عبدُ الله أو غيره من المصادر إلى قول ابن أبي زرع بأن المدينة استسلمتْ بعد حصار دام شهرين (القرطاس ، 99) . ولا بد أن ابن أبي زرع يشير إلى فترة توتر العلاقات بين أمير المسلمين وبين عبد الله قبل سقوط غرناطة . ويقول عبد الله نفسه فيما بعد بأن المعتمد كان يأمل في أن يتمادى حصارُ غرناطة فيُضطر يوسُف إلى الانسحاب قبل حلول فصل الشتاء ، كما فعل من قبل عند حصار حصن ليبط . وعلى ذلك ، يمكن القولُ بأن الجواز الثالث لابن تاشفين كان في صيف سنة 483 / 1090 .

الفصل العاشر

(430) بُعيد حملة ليبط (482 / 1089) اضطربت الأحوال في مدينة اليسّانة لان سكانها – ومعظمهم من اليهود – استاءوا للضرائب الاستثنائية التي فرضها عليهم عبد الله ، ومما زاد من استيائهم اعتقال عبد الله زعيمهم ابن ميمون بعد ان كان أمّنه . كما ان مما زاد من وضع عبد الله في اليسانة سوءًا عزله لعاملها مقاتل بن عطية البرزالي ، الذي كان قد احبط خطط المعتمد ضد المدينة . فلا عجب لذلك ان لاتكون اليسانة قد ابدتْ مقاومة للمرابطين الذين بدأوا بها لقربها من قرطبة ، ولموقعها في طريقهم الى غرناطة (الاحاطة ، 3 / 380) .

(431) ان استسلام حصون عبد الله دون مقاومة حفز عبد الله الى القول قبل ذلك بان "البنيان من المرابط لا ينفع" (التبيان ، 137) . ويبدو ان عبد الله لما شرع في تشييد الحصون بعد حملة ليبط لم يأخذ

في الحسبان موقف رعيته وحامياته من المرابطين .

(432) انظر الهامش 169) .

(433) ان عبد الله إما انه يتحدث بصورة عامة عن سكان غرناطة قائلا بانهم كأهل الحصون في ميولهم نحو المرابطين ، وإما انه يشير – وهو اكثر احتمالا – الى ان الحاميات في كل من غرناطة والمعاقل كانت من صنهاجة الذين اخذ يرتاب كثيرًا في ولائهم له .

(434) هذا مثل آخر من الأمثال التصويرية العديدة التي استشهد بها المؤلف لتأكيد حجته وتنميق عبارته . والمثل – كالأمثال السابقة – مستمد من بيئة بدوية كالتي في جنوب المغرب الأقصى حيث نفي عبد الله فيما بعد ، وفيها صنّف كتابه .

(435) تبدو هذه الكلمة في المخطوط وكأنها ''البُتر'' (السيوف) . الا أن معنى العبارة ''ما دام البتر بيننا وبينهم'' مبهم . فهل يعني المؤلف بالبتر زناتة ، ومنهم كانت حامية الحضرة ؟ (عن انقسام البربر الى مجموعتين كبيرتين هما البتر والبرانس ، انظر العبر ، 6 / 89 وما بعدها . Gautier, 229) .

(436) هذا هو الوفد الرابع الذي ارسله عبد الله الى امير المسلمين ، ويلاحظ بانه يصرح بان الوفد كان من الفقهاء . ولا شك في ان اختيارهم كان يُقصد به التأثير على امير امسلمين ومحاولة ازالة ما تركه ابن القليعي وابن سهل من اثر مُعادٍ له .

كما يلاحظ بان عبد الله زوّد رسله بمبلغ من مال لم يعينه لتقديمه لابن تاشفين أملاً في اكتساب رضاه ، كما كان يفعل مع الفونس السادس لاتقاء شره . ويؤكد عبد الله اكثر من مرة على حب المرابطين للمال (انظر التبيان ، 128 ، 161 ، 162 ،) . وكان عبد الله قد استاء كثيرا لما رفض رعاياه دفع الضرائب في وقت كان عليه فيه – حسب قوله – ان يحتفي بالمرابطين ، ويغدق عليهم الهدايا .

ومع ان المرابطين – وقد جاءوا اصلاً من مجتمع فقير – بهروا بالثراء الطائل الذي شاهدوه في الاندلس ، الا ان يوسف بن تاشفين نفسه عاش حياة بساطة وزهد . وقد ذُكر بانه لما دخل غرناطة وزّع كنوز القصر الزيري على قواده (ابن عذارى ، 4 / 23 وما بعدها ، 26 . الاحاطة ، 3 / 381) .

(437) يورد المؤلف في هذا القسم الممتع من كتابه رواية مباشرة عن الطبقات المختلفة لسكان غرناطة ومواقفها من المرابطين . وهو يصنّفها كما يلي : الجند من البربر ، التجار ، العامة ، الرقّاصة من المغاربة ، والعبيد والخدم .

إما البربر ، بمن فيهم صنهاجة الذين كان الأمير الزيري قد رفع من منزلتهم قبْل قدوم المرابطين ، فكانوا مغتبطين بهم ''طامعين في الزيادة على ايديهم للجنسية'' .

(438) من الواضح ان المؤلف يعنى بالرعية العامة . ان تطلّع العامة في غرناطة الى عصر جديد من الحرية والى إسقاط المغارم غير الشرعية دليل واضح على ان هذه الشريحة من المجتمع الغرناطي – وكانت تشكل اكثرية السكان – كانت غير راضية عن حكم عبد الله ، لما فرضه من قيود على حريتها ، وللضرائب الباهظة التي اثقل بها كاهلها . وفضلا عن ذلك ، فان المرابطين كانوا يحظون بتقدير كبير من جانب العامة في الأندلس لورعهم وانتصارهم في الزلاقة .

(439) لعلّ المقصود بالرقّاصة (ومفردها : رقاص) فريقُ جمع المعلومات الذي يبدو ان عبد الله كان يعوّل عليه لجمع المعلومات ونقل التعليمات على وجه السرعة الى مختلف الحاميات . ويرى ليفي بروفنسال ان الكلمة تعني ''العبيد السودان'' ، ولكن هذا المعنى لا يناسب القرينة في هذه الفقرة .

ويقول المقّري إن ''الرقّاص عند المغاربة هو الساعي عند المشارقة''(المقّري ، 2 / 146) . وما زالت الكلمة مستعملة في المغرب – وخصوصًا في البادية – بمعنى الرسول ، او ساعي البريد .

وفي الأندلس في القرن الرابع / العاشر ، كان نظام البريد يقوم على السعاة والرقاصة المغاربة ، وكان للنظام شبكة من الوكلاء لتزويد المعلومات (EI², 1 / 1046) . وكان السودان الرقاصة

يحملون سرير المنصور بن ابي عامر اثناء غزواته (الذخيرة ، 4 / 1 ، 74 ، 241 . ابن عذاري ، 3 / 29 . نفاضة 338 والهامش 5 . Supplément, 1 / 547) .

(440) عن العبيد ، انظر الهامش 401 .

(441) عن الصقالبة ، انظر الهامش 115 .

(442) يقتبس النباهي هذه العبارة لتشمل – فضلا عن العبيد والصقالبة – الأجناد والقاضي ابن سهل (المرقبة ، 97) .

(443) يصف ابن الصيرفي جعفرًا بانه كان – كمؤمَّل – اصيل الرأي جزل الكلمة (انظر الاحاطة ، 3 / 332) .

(444) كان لبيب قد عُزل عن منصب صاحب المدينة (غرناطة) وسجن لتورطه في الخلاف بين الأمير الزيري وزعماء زناتة . وكان عبد الله قبل ذلك يثق بلبيب لكونه من تربيته . ويتبيَّن من ذلك ان لبيبًا – كبقية الفتيان في بلاطات امراء الطوائف – كان قد اقتناه الأمير الزيري صغيرًا ، ولذلك فانه اعتبره من صنائعه .

(445) مثل عربي معروف ما زال شائع الاقتباس ، وهو يعني ان الشخص المعني لا يمتلك ما يخشى فقدانه . والتلد (بفتح اللام او تسكينها) هو المال الموروث . ويقابله الطريف أو الطارف . ولما كان جعفر ولبيب فتيين امتُلكا حديثًا ، فان بامكانهما – كما في المثل – القول بانه ليس لهما أبناء او اموال موروثة يخشى عليهم اذا ما تبدَّل نظام الحكم في غرناطة .
ومن امثال العوام في الأندلس : لا ولد ولا تلد ، ولا من يدور فلبلد (الزجالي) 2 / 458 ، رقم 1991) .

(446) في المرات الأربع التي وردت فيها كلمة ''فيء'' في (التبيان) يستعملها المؤلف بمعناها العام منذ ما قبل الاسلام ، اي غنائم الحرب ، وعلى ذلك فهي مرادفة للغنيمة . كان الفيء في الجاهلية يُطلق على المتاع الذي يغنمه المنتصرون ويقتسمونه فيما بينهم ، وبقي هذا العُرف في الاسلام ، كما حدث بعد انتصار المسلمين في وقعة بدر ، اذ اعتُبرت الغنائم بانها من حق جماعة المسلمين . ويقول المؤلف فيما بعد بانه بعد استسلامه للمرابطين ''صار الكل فيًئا من خادم وغلام ، ما خلاني وأمي'' (التبيان ، 163) . ولما استولى الأمير سير على اشبيلية ''فيأ خدم المعتمد وعبيده حاشى امهات الأولاد'' (التبيان ، 173) .

(447) عن انزالات ، انظر الهامش 104 .

(448) ''البادية'' لا بمعنى الصحراء بل بمعنى الريف ، كما في كافة النصوص الأندلسية والمغربية (انظر الذخيرة ، 1 / 1 ، ص 168 . ابن عبدون ، 12 . القرطاس ، 88) .

(449) لم يَخرجْ عبدُ الله للاستسلام للأمير المرابطي الا بعد ان ادرك بان مركزه في غرناطة اصبح مضعضعًا . فمعظم معاقله كانت قد استسلمت للمرابطين ، والعناصر المختلفة من رعيته كانت تميل اليهم . كان عبد الله قد ابى الاصغاء لنصيحة مؤمل له بالاستسلام ، وظل حتى اللحظة الأخيرة – كما يقول ابن الصيرفي – يحاول جاهدًا تجنيد جيش مختلط من السوقة والسفَلة ، وألحَّ بالكتُب على الفونس مستغيثًا به . ولما تقدَّمتْ أرْبع محلات (كتائب) مرابطية الى غرناطة ، قرر الأمير الزيري عندئذ فقط الاصغاء لمستشاريه والخروج – صحبة والدته – للقاء امير المسلمين في مكان يبعد عن العاصمة بنحو ستة اميال (الاحاطة ، 3 / 380 . اعمال ، 235) .

(450) ان الحَيْرة التي واجهها عبد الله والقرار الذي اتخذه آخر الأمر شبيهان بالوضع الذي واجهه المعتمد حينما فكر في الاستغاثة بالمرابطين بادىء الأمر ضد الفونس . فقد عارض رأي بعض امراء الطوائف الآخرين ، وقرر الاستغاثة بيوسف بن تاشفين قائلا ان الاستناد الى مسلم يُرضي الله ، بينما الاستناد الى نصراني يُسخط الله . وقد وصل عبد الله الآن الى الاستنتاج نفسه حينما قال ان من الافضل والأكثر اجرًا ان يأخذ المسلمون – لا النصارى – غرناطة (الروض 86 . اعمال ، 245) .

(451) ''نُشبة'' (ومنها الفعل : تنشّب) بمعنى شَرَك او وَرْطة .

يصف ابن بسام كيف ان الشاعر ابن شرف القيرواني تحاشي القدوم الى بلاط المعتضد لأنه خشي أن ''يتعرض للنُشبة في حبائل نَشَبه'' (الذخيرة ، 4 / 1 ، ص 182) .

(452) تورد المصادر الأخرى مزيدًا من التفاصيل عن هذا اللقاء الحاسم الذي تم في 10 رجب 483 / 8 سبتمبر 1090 . وقد ذُكر بان عبد الله ادخل في خباء ثم غُدر به وجُعل كبل ثقيل في رجله (الاكتفاء ، 105) . اما ابن الصيرفي فيقول إن عبد الله سأل امير المسلمين العفو ، فعفا عنه ، ثم امر مؤملاً بثقافة في القصر (الاحاطة ، 3 / 380) .

(453) يستند المثل الى حديث نبوي (المعجم المفهرس ، 3 / 308 ، 5 / 244 . جمهرة ، 217) . والصرف : التوبة . والعدل : الفدية .

(454) يدل ذلك على مدى تعلق عبد الله بأمه ومحبته لها . فقد كانت الوحيدة التي اصطحبها معه من اسرته عند خروجه من غرناطة للقاء امير المسلمين . وفيما بعد ، حينما أُمرت والدته بالطلوع الى القصر لاستخراج الأموال وتسليمها لقرور ، تكدَّر لذلك ايامًا .

ويُذكر بان عبد الله خرج بمفرده للقاء يوسف الذى بعث الى ام عبد الله في غرناطة ''ان كان لك بابنك حاجة فمكّنينا من البلد ونمكّنك من ابنك'' (ابن المواعيني ، **Hictoria Abbadidarum,** 2 / 9) . الا ان هذه الرواية لا يمكن قبولها ازاء رواية عبد الله نفسه ، وهي رواية ليس ثمة من سبب للشك في صحتها ، ويؤيّدها ابن الصيرفي مؤرخ دولة المرابطين (انظر الاحاطة ، 3 / 380 . اعمال ، 235) .

(455) عجز بيت (من بحر الطويل) يُنسب الى ابي خراش الهذلي ، والبيت هو :

حمدتُ الهي بعد عروةَ اذ نجا خراشٌ وبعض الشر اهونُ من بعض

(ابو تمام : ديوان الحماسة ، 2 / 782) . ويُنسب ايضًا الى طرفة ابن العبد (نهاية ، 3 / 63) ، وقد ذهب مثلا (انظر التوحيدي : البصائر ، 38) .

(456) ''حصل بمعنى تنشّب او تورط ، وبهذا المعنى ما زال الفعل مستعملا في اقطار المغرب على صورة ''حْصَل'' (بتسكين الحاء وفتح الصاد) .

(457) يتحدث المؤرخون عن الأموال والكنوز الطائلة التي خلّفها الأمير الزيري في القصر الملكي بغرناطة وفي المنكّب ، وكان قد جمع معظمها جدُّه باديس . ومن بين هذه الكنوز الجواهرُ والأحجارُ الثمينةُ وآنية الذهب والفضة وأطباق البلور والثياب الرفيعة وأوطية الديباج (انظر مفاخر ، 44 . الاحاطة ، 3 / 381) .

(458) ''الخادم'' في استعمال الأندلس بمعنى الخادمة السوداء البشرة ، وما زالت الكلمة مستعملة بهذا المعنى في شمال افريقيا ، ويقابلها ''عَبْدة'' في المشرق . وفي تلمسان حتى مطلع هذا القرن كان يُعهد الى الخادم بتربية الأطفال . الا أن الكلمة في العربية الفصحى تُستعمل للمذكر والمؤنث (الذخيرة ، 1 / 2 ، ص 181 . الجاحظ ، البيان 1 / 173 ، 3 / 115 . الأهواني : ''الفاظ مغربية من كتاب ابن هشام في لحن العامة'' ، ص 155 . (**Marcais, Dialecte arabe de Tlemcen 222**) .

(459) هذه اول مرة يشير فيها المؤلف الى يوسف بن تاشفين بلقب ''السلطان'' ، وهو اللقب الذي يطلقه عادة على ملوك الطوائف . لقد اعتبر ملوكُ الطوائف الآن الأميرَ المرابطيَّ سلطانًا آخر في الأندلس .

(460) ترد ''اصاب'' هنا بمعناها بالعربية الفصحى وهو ''وجَد'' . وما زال الفعل مستعملا في المغرب الأقصى بلفظ ''صاب'' (**Lévi - Provençal, Textes arabes de l'Ouargha,48,225**) .

(461) أزمّة والمفرد زمام هو السجل او القائمة (انظر الهامش رقم 409) .

(462) الصيغة المعروفة لهذه العبارة هي ''عنان'' لا ''اعنان'' السماء . والعنان السحُب البيضاء ، وهي اعلى السحب (البصائر ، 37) .

(463) ومن الأمثلة الأخرى بنفس المعنى : القبر ولا الفقر ، والموت ولا معيشة الذل (عيون الأخبار ، 1 / 245 . 2 / 297) .

ومن امثال العوام بالأندلس : القلة ذلة (الزجالى ، 2 / 108 ، رقم 480) .

(464) وُصف ابن ابي خيثمة كاتب عبد الله بانه احد ثلاثة رجال اسْدَوا للأمير الزيري النصح والمشورة ، والاثنان الآخران هما مؤمل وجعفر الخصي (الاحاطة ، 3 / 332) .

(465) لعل ابن الزيتوني القروي تربطه صلة بابنيْ القروي علي وعبد الله اللذين عملا وزيريْن لباديس ، وكانا زميليْن في المكتب لوالد عبد الله . ولما اكتشف باديس تلاعب عبد الله بن القروي بالأموال في حملة فنيانة نفاه ، مما ادى الى تخلي ''اكابر صنهاجة اجمع'' عن باديس . ومن المرجَّح ان عبد الله – وقد انتهج سياسة موالية لصنهاجة – تصالح مع افراد اسرة القروى كابن الزيتوني .

(466) اما ابن الصيرفي فيقول ان والدة الأمير الزيري عادت الى القصر ''لاستخراج ما أُودِع بطنَ الأرض ، حتى لم يَبْقَ الا الخرثي والثقل والسقط . وزع ذلك الأمير على قواده ، ولم يستأثر منه بشيء'' (الاحاطة ، 43 / 381) .

(467) ذكر عبد الله من قبل انه بعد حملة لبيط كان قد حصَّن المنكَّب وشحنه بالأقوات وببعض ذخائره ، فان تغلَّب الرومي على المرابطين تحصَّن هو في المنكَّب ''نِدافع منه جهدنا ، الى ان نضطر الى الجواز [الى افريقية] بحشاشة انفسنا ونتف من اموالنا'' (التبيان ، 137) .

(468) لا بد انه كان طالع الأمير الزيري الذي يتحدث عنه في الفصل الأخير من الكتاب ويعوس ان واضعيه ألفوه في طفولته ''وكتمه عني سماجة مدَّةً ... خوفًا على من العُجْب بما كان فيه منصوصًا من السعادة'' . كما ان الطالع المرصود تنبأ بان عبد الله سيبلغ من العمر سبعا وخمسين سنة ، وان التسع عشر سنة الأخيرة من عمره ستكون سنوات سعيدة (التبيان ، 179) .

(469) المنزل فندق ينزل فيه المسافرون للمبيت ، وكانت مثل هذه المنازل تقوم عادة على الطرق الرئيسية (الروض ، 185) .

(470) الموضع بمعنى مكان او قرية كما هو مدلول الكلمة في جنوب المغرب الأقصى حيث تلفظ الكلمة ''موطع'' (انظر Brunot, Textes arabes de Rabat, 2 / 761) .

(471) كان ثمة ما يبرِّر ظن عبد الله بانه سيقيم نهائيًا في مكناس ، اذ أمضى فيها اكثر من عام ، واجتمع فيها بالمعتمد الذي خُلع بعده بعام واحد . ومن مكناس نُقل عبد الله والمعتمد الى اغمات .

(472) سبق ان ذكر عبد الله بانه دفع لقرور عدة مبالغ اثناء حملتي بطليوس ولبيط وبعدهما . ومع ذلك . فانه عندما سُئل وهو بمكناس من قِبَل امير المسلمين عما حصل عليه قرور لم يجرؤ على ذكر شيء من تلك الدفعات ، خشية ان يعترض قرور كتابه ، او خشية ان يعاقَبَ قرور ثم يعاد الى منصبه . الا ان كون ابن تاشفين قد كتب الى عبد الله مستفسرًا عن الموضوع يدل على ان الأمير المرابطي – فيما يبدو – تلقَّى بعض المعلومات عن سوء تصرف قرور ، إما عن طريق بعض افراد حاشيته ، وإما من عبد الله نفسه بطريقة غير مباشرة .

ومع ان عبد الله يُسهب في الحديث عن فساد قرور ، الا انه يُبدي كل الحرص على ان لايُشتمّ من كلامه ما قد يسيء ، الى الأمير المرابطي ، ولذلك فهو يؤكد بان ''السلطان – أيده الله – غافل عن ذلك'' .

(473) كان عبد الله – بُعيْد وصوله الى مكناس – قد تسلَّم مائة دينار من الأمير سير بن ابي بكر . وفي اثناء أسره في اغمات يتحدث الأمير الزيري عن المعاملة الحسنة التي لقيها من امير المسلمين ، الذي يبدو انه خصَّص له مرتبًا مناسبًا . يقول ابن الصيرفي ان عبد الله نُقل الى مراكش حيث استقر هو وأخوه تميم ''وحُلَّ اعتقالهما ، ورُفِّه عنهما ، وأجري المرتب والمساهمة عليهما . واحسن عبد الله الطاعة ، مع لين الكلمة ، فقُضيت مآربه ... فلما توفي ترك [لأبنائه] مالاً جمًّا'' (الاحاطة ، 3 / 381)

(474) ان قيام تميم بزيارة اخيه في خبائه خارج غرناطة دليل على ان خلع عبد الله سبق خلع اخيه ، خلافًا لما يذكرُ صاحب (الحلل الموشية) (انظر الحلل ، 58) .

(475) يبدو من ذلك ان قرورًا قام بدور كبيرٍ في حمل امير المسلمين على السخط على تميم ، كما كان قد فعل مع عبد الله . والمعروف ان ابن تاشفين كان يتأثر في قراراته بما يشير به عليه مستشاروه والفقهاء من حوله .

(476) من الواضح ان سياسة ابن تاشفين استهدفت معالجة امراء الطوائف كلٍ على انفراد مما سهَّل خلعَهم . فلكي لا يثير شكوك تميم ، اثنى على ولائه ووعده – حسب قول تميم – بالأراضي التي كان عبد الله قد استحوذ عليها ، والتي كان قد شكا امرَها الى امير المسلمين . وعلى هذا النحو ، يبدو ان امير المسلمين أوهم المعتمد بانه سيترك له غرناطة فور اخذها من عبد الله (التبيان ، 168 . ابن المواعيني ، **Historia Abbadidarum 2 / 10**) .

(477) ذُكر بان تميمًا أُرسل الى نول التي ذكرها الادريسي باسم نول لمطة . ويصفها البكرى بانها آخر مدن الاسلام ، وهي في أول الصحراء (الادريسي ، 59 . البكري ، 86) .

والسوس الأقصى يقع بجنوب المغرب الأقصى ، ويروي اراضيَه وادي سوس وروافدُه ، ومركزه الاداري حاليًا اجادير . وقد اشتهر اقليم السوس آنذاك بوفرة محاصيله وتنوعها وجودتها ، وبخاصة قصب السكر (ابن حوقل ، 90) .

(478) ذُكر بان قاضي مالقة ابا المطرف الشعبي وغيره من اعيان المدينة رفعوا الى امير المسلمين وهو في غرناطة شكاياتهم عن طغيان تميم وظلمه لرعيته ، فعزله واكبله (أعمال ، 236) . وسبق ان ذكر عبد الله بان اخاه كان حاد الطبع ، مرتكبا للقتل والظلم في مالقة (التبيان ، 118) .

(479) من الملاحظ ان ابن تاشفين كان لا يُقدِم على اجراءٍ ضد امراء الطوائف الا بعد توفر بيِّنة ضدهم . فاشبيلية لم تهاجَم الاَّ بعد ان ثَبت تواطؤ المعتمد مع الفونس وبعد استفتاء الفقهاء . وكذلك فان صاحب بطليوس لم يُخلع عن عرشه الا بعد ثبوت مداخلته لألفونس . وهاهو تميم يُخلع عن إمارة مالقة بسبب ظلمه وبطشه بأهلها .

ان فتاوى الفقهاء جعلت امير المسلمين في حِلٍ من العهد الذي كان قد قطعه لأمراء الطوائف بان لا يتدخل في شؤونهم الداخلية أو يساند رعاياهم ضدهم (انظر التبيان ، 124) . الاكتفاء ، 106) .

(480) بعد ان قضى تميم بعضَ الوقت في السوس صفح عنه امير المسلمين ، وذُكر انه استوطن مراكُش حيث توفي سنة 488 / 1095 .

يبدو ان تميمًا وعبد الله لقيا معاملة افضل مما لقيها المعتمد ، ولعل السبب في ذلك – فضلا عن انتمائهما كالمرابطين الى صنهاجة – استسلامهما للمرابطين دون مقاومة ، وضعفهما النسبي ، وافتقارهما الى مساندة شعبية . اما المعتمد ، فقد قاوم المرابطين ، واستعان عليهم بالفونس السادس ، وحظي بتاييد ومحبة كبيرَين في اشبيلية ، فخُشي لذلك ان يصبح المعتمد بؤرة لمقاومة الأندلسيين للمرابطين (انظر التبيان ، 171 ، 172 . اعمال ، 236 . الاحاطة ، 3 / 381) .

الفصل الحادي عشر

(481) في حين ان عبد الله يَنسب الى يوسف بنِ تاشفين المبادرة بشأن تسليم غرناطة للمعتمد ، فان ابن الصيرفي يورد الخبر على انه أمنية كانت تجول في خاطر المعتمد اذ قدم الى غرناطة ''وقد تحكَّمت في نفسه الطماعية في اسلام غرناطة الى ابنه [الراضي] بعد استصفاء نعمة صاحبها عوضا عن الجزيرة

الخضراء ، وكان قد أشخصه معه'' ، الا ان امير المسلمين أعرض عن ذلك (انظر الاحاطة ، 2 / 118) .

(482) هذا التحليل من جانب عبد الله لما كان يجول في خاطر المعتمد تحليل ممتع لما يُفصح فيه عن المشاعر الداخلية لأمراء الطوائف عامة . ولعل المؤلف مصيب في قوله إن المعتمد كان بوده ان تقاوم غرناطة ابن تاشفين فيضطر – مع حلول فصل الشتاء – الى العودة الى المغرب تاركًا كافة المعاقل التي استسلمت في يد المعتمد . فغرناطة اكثر مناعة من حصن لييط ، واذا كان هذا الحصن صمد اربعة شهور في وجه المرابطين ، فان غرناطة ستصمد مدة اطول او الى مالا نهاية . وعندئذ يكون عبد الله – وقد فقد معظم معاقله – جارًا افضل للمعتمد من سلطان اقوى وأكثر طموحًا ، ويحظى بمحبة اهل الأندلس .

يتضح من قول المؤلف ان كل امير اندلسي كان في الواقع حريصا على الاحتفاظ باستقلاله ، بل وعلى توسيع رقعة أراضيه ان امكن . ويبدو ان المعتمد والمتوكل بن الأفطس كليهما كانا يتمنيان – دون أن يفصحا بذلك – ان يصمد عبد الله في وجه المرابطين ، فيحملهم ذلك على التفكير بجد في العودة نهائيًا الى المغرب .

(483) ''الكانون'' اصغر وحدة اجتماعية في المغرب ، وما زال الاصطلاح شائع الاستعمال في جنوب المغرب الأقصى بمعنى الأسرة او اهل البيت . ويورد الحسن الوزان تقديرًا لعدد السكان في عشر من مدن المغرب الأوسط على اساس الكانون ، وهو اصطلاح مغربي اندلسي يقابل البيت في المشرق . ولعل عبد الله يشير بحرب الكانون الى نزاعه مع اخيه تميم ، والى تخلي صنهاجة في غرناطة وحاميات المعاقل عنه .

(484) قد يكون استعمال عبد الله لعبارة ''قيام اهل البيت''بمدلول عام لوصف ثورة رعيته ، ولكن الأكثر احتمالاً هو انه يشير الى قيام مختلف الفئات في بيته من عبيد وصقالبة وخدم بما في ذلك الفتيان . وما زالت عبارة ''اهل البيت'' مستعملة في المغرب بمعنى اهل الدار .

(485) كان الجيش المرابطي الذي هاجم ألمرية بقيادة ابي زكريا يحيى بن واسنو . واثناء حصار المدينة توفي اميرها المعتصم محمد بن معن بن صمادح ، بعد حكم دام اربعين عاما ، في شهر ربيع الثاني 484 / مايو – يونيو 1091 . ويُذكر بان مما عجّل في موته تفجّعه لما حلّ بإمارته وأسرته . كما يُذكر بانه وهو على فراش الموت قال : ''نُغِّصَ علينا كلُّ شيءٍ حتى الموت !'' . ولما اتصل موته بالمعتمد ابن عباد قال : ''رجل استصحب حال سعده من قصره الى قبره'' (الذخيرة ، 1 / 2 ، ص 734قلائد ، 49 . الحلّة ، 2 / 74 . الحلل ، 59 . اعمال ، 191) .

(486) الابن الآخر للمعتصم المشار اليه هو ابو مروان عبيد الله عز الدولة ، وقد خلط دوزي بينه وبين معز الدولة احمد ولي عهد المعتصم والمرشح لمكانه من بعده (انظر HME, 716) .

بعد أن استولى المرابطون على المرية ، التجأ عز الدولة الى صديق قديم له من بين المرابطين ، وشارك فيما بعد في غزوة ضد طليطلة (504 / 1 – 1110) . وعلى النقيض من الصورة التي يرسمها عبد الله لمعز الدولة ، فانه ذُكر بانه قضّى بقية حياته عاكفًا على الشراب وطلب الملذات ، ولعل ذلك كان ردَّ فعل للتغيير المفاجيء الذي حلّ بمصيره ، او للتبدل الذي حدث في نمط حياة ولاة المرابطين في الأندلس عقب وفاة يوسف بن تاشفين .

(487) ان انشغال المرابطين بالمعتمد لا بد وانه خفف من ضغطهم على ألمرية التي استولى عليها آخر الأمر محمد بن عائشة في شهر شعبان 484 / سبتمبر – اكتوبر 1091 ، اي بعد نحو اربعة شهور من وفاة المعتصم ، وقبيْل سقوط اشبيلية في ايديهم . (الحلة ، 2 / 90 . القرطاس ، 101 . اعمال ، 191) .

(488) القلعة (قلعة حماد / قلعة بني حماد) شيَّدها الى الشمال الشرقي من المسيلة بالمغرب الأوسط سنة 398 / 7 – 1008 حمادُ بن بلقين بن زيري الذي اعلن استقلاله عن ابن اخيه باديس بن المنصور الأمير الزيري بالقيروان ، وقطع علاقته بالخليفة الفاطمي في القاهرة . وقد احتفظ بنو حماد باستقلالهم

قرابة قرن ونصف القرن الى ان انهى حكمَهم الموحِّدون سنة 547 / 1152 (انظر العبر ، 6 / 171وما بعدها) .

(489) يقول ابن الخطيب إن معز الدولة – ترافقه اسرته – ركب قطعة وحمل المال والمتاع في قطعتين ، وأحرق باقي الأجفان في دار الصناعة خشية الأتباع (اعمال ، 192) .

كان رحيل معز الدولة الى شمال افريقيا في شعبان 484 / سبتمبر – اكتوبر 1091 ، وبعد رحيله بيوم ، استولى المرابطون على ألمرية (الحلة ، 2 / 90) .

(490) اسس مدينةَ الجزائر في القرن الرابع / العاشر بلقين بن زيري ، وسمّاها جزائر بني مزغنى / مزغنا نسبة الى قبيلة صنهاجية كانت تنزل في المكان آنذاك . ويتحدث البكري عن مرسى الجزائر المأمون الذي كان يقصده اهل السفن من افريقية والأندلس وغيرهما من الأقطار (انظر ابن حوقل ، 88 وما بعدها . البكرى ، 66) .

(491) كان امير القلعة منصور بن الناصر بن عَلنّاس الذي توتَّرتْ علاقاته بالمرابطين الى ان عُقد الصلح بينهما سنة 497 / 1103 .

وكان المعتصم بن صمادح قبل وفاته قد سعى الى اكتساب مودة امير القلعة أملاً في اللجوء اليه مع اسرته ، اذا ما اضطُرَّ الى الرحيل عن المرية (اعمال ، 191 .

(492) في روايةٍ ان معز الدولة نزل بالجزائر وهلك بها ، وفي رواية اخرى انه وصل الى بجاية واستقر فيها . اما ابن الآبار فيقول ان المنصور بن عَلنّاس انزل معز الدولة بتنس من اعماله الغربية (اعمال ، 192 . الحلة ، 2 / 90) . مدينة تدلُّس / دلس التي يذكرها المؤلف ميناء يقع على نحو سبعين ميلاً شرقي مدينة الجزائر ، ويصفها الادريسي بانها ''ديار متنزهات ، وبها من رخص الفواكه والأسعار والمطاعم والمشارب ماليس يوجد بغيرها مثله'' (الادريسي ، 90) .

(493) تذكر مصادر اخرى متأخرة روايات مماثلة لرواية المؤلف عن مخاوف المعتمد وابن الأفطس ورحيلهما عن غرناطة على وجه السرعة .

ويقول صاحب (الحلل) ان المعتمد ندم على استدعاء يوسف بن تاشفين الى الأندلس وقال المتوكل ابن الأفطس : ''والله لابد له ان يسقينا من الكأس التي سقى بها عبد الله بن بلقين'' (الحلل ، 58) .

(494) الرباط (وتجمع على رباطات وربُط) حصن كان يقام عادة في نقطة ضعف عند الحدود او الثغور ، والمرابطون فيه يَجْمعون بين الدفاع عن ارض المسلمين (الجهاد) وبين العبادة والزهد . ان هذا النظام الاسلامي ذا الطابع الحربي والديني معا (كما في اقليم الثغور ببلاد الشام) ظهر الى حيِّز الوجود في افريقية منذ الفتح الاسلامي ، وانتشر في المغرب والأندلس في اواخر القرن الخامس / الحادي عشر ، على اثر ظهور المرابطين الذين نشأت حركتهم في رباطٍ من هذا القبيل ذُكر بان زعيمهم الروحي عبد الله بن ياسين كان قد اقامه في جزيرة قرب مصب نهر السنغال ، ولذلك عُرفوا بالمرابطين .

إن أمير المسلمين – في طلبه الى المعتمد بان يلتزم الرباط – اراد منه التفرغ للجهاد ضد النصارى بشمال اسبانيا (العبر 6 / 183 . حسن احمد محمود : قيام دولة المرابطين ، ص 125 ، 128وما بعدها . Torres Balbás, ''Rabitas hispano-musulmanas'', 475 ff. Marçais, ''Note sur les ribats en Berbérie'',395 ff.)

(495) قَبالات (والمفرد قبالة) ترد هنا بمدلولها العام : مغارم ، أو ضرائب غير شرعية (انظر الهامش 39الفصل السابع) . ويعرِّف ابن حزم القرطبي القَبالات بانها ضرائب كانت تؤدى في زمنه على كل ما يباع في الأسواق ، وهو يستنكرها بشدةلمخالفتها للشريعة (رسائل ابن حزم ، 3 / 176) . ويحمل الفقيه الاشبيلي ابن عبدون في مطلع القرن السادس الهجري على نظام القبالات وجباتها (وهم

المتقبِّلون) ويصفهم بانهم شر خلق الله ، ويطلب الى القاضي تحديد مقادير الجبايات ومراقبة المتقبلين(ابن عبدون ، 30) .

يقول الادريسي انه كان بمراكش في أيام المرابطين قَبالة على معظم السلع ، وقد أبطل الموحدون القَبالات وأجازوا الحكم باعدام المتقبلين (الادريسي ، 69) .

كما ترد القَبالات في المغرب على عهد المرابطين مرادفةً لنظام الالتزام او التضمين في جباية الضرائب (هوبكنز ، 95 ، 115) .

وقد انتقلت كلمة القَبالة – بمعنى الضريبة على المبيعات – الى قشتالة وشمال اسبانيا ، ومنها جاءت الكلمة الاسبانية **alcabala** والكلمة الفرنسية **gabelle** (انظر **L'Espagne musulmane...74.** **(Supplément, 2 / 313f.** .

(496) الا ان المصادر الأخرى تذكر بان الفونس استجاب لاستصراخ المعتمد ''فبعث اليه جيشًا اوقع بالمرابطين المحاصرين لأهل جيان وقيعة استأصلتهم ، ولأجلها ذهبوا الى الاقطار بلمه عند خلعه ... ثم وصل النصارى الى بلمة من احواز اشبيلية ، فكانت بينهم وبين جيوش المرابطين وقعة تناصف [انتصر] فيها المسلمون '' (اعمال ، 163) .

وبعد استيلاء المرابطين على قرطبة وقرمونة ، ذُكر بان المعتمد جدَّد استغاثته بالفونس ، الذي بعث بقوة كبيرة على رأسها البرهانش **Alvar Hanez** لنجدة اشبيلية ، الا ان المرابطين اعترضوا سبيلها وأوقعوا بها – بالقرب من حصن المدور**Almodóvar del Rio** - هزيمة تكبَّد فيها الجانبان خسائر فادحة (انظر القرطاس 101 . العبر ، 6 / 187 **La Espana del Cid, 407 f.**) .

(497) بعد الاستيلاء على غرناطة ومالقة ، عاد يوسف بن تاشفين الى المغرب (رمضان 483 / 28 اكتوبر – 26 نوفمبر1090) . ويبدو انه اقام بعض الوقت في سبتة ، ومنها أرسل الأمير سير ابن ابي بكر الى الأندلس ، وعَهد اليه بخلع المعتمد بن عباد (انظر القرطاس ، 100 . الاحاطة ، 2 / 112) .

ان رواية ابن ابي زرع بان يوسف عاد الى مراكُش رواية مُستبعَدة ، اذ إن عبد الله – وكان ما يزال في مكناس – طُلب اليه ان ينتظر فيها الى حين عودة امير المسلمين الى مراكُش ثم يلتحق به (التبيان ، 166) .

(498) كان على رأس الجيش المرابطي الذي استولى على قرطبة ابو عبد الله محمد بن الحاج (او بطي ، حسب رواية ابن ابي زرع) . وكان سقوط قرطبة في 3 صفر 484 / 28 مارس 1091 (القرطاس ، 100) أو في جمادى الثانية 484 / 21 يوليو – 18 اغسطس 1091 (الاحاطة ، 2 / 116) . ولعل التاريخ الأخير هو الأصحّ ، اذ يُفهم ضمنًا من رواية عبد الله بانه لما سقطت قرطبة اصبح وضع المعتمد في اشبيلية وضعًا لا يُحتمل .

(499) كان من سياسة المعتمد تولية ابنائه في المدن الكبرى بمملكته ، وكان المأمون ابو نصر الفتح آنذاك واليًا بقرطبة . وكعبد الله ، يتحدث ابن خاقان عن مداخلةٍ بين اهل قرطبة والمرابطين المحاصرين للمدينة ، مضيفًا بان المأمون قُتل خارج القصر . كما قتل الوزير ابو بكر بن زيدون – ابن الوزير والشاعر القرطبي الشهير ابي الوليد بن زيدون – ووزير آخر اسمه ابو بكر لا نعرف عنه شيئا .

وفي اثناء الحصار ، كان المأمون قد أخرج اسرته وأمواله الى المدوَّر التي كان قد حصَّنها وشحنها بالمؤن . وزوجته – التي يشار اليها في المصادر المسيحية باسم **Mora Zaida** ،وتوصف خطأً بانها ابنة المعتمد – هي التي ارتدَّت عن الاسلام بعد مقتل زوجها ، وأصبحت زوجةً غير شرعية لألفونس السادس ، وحملت منه ابنه الوحيد شانجه **Sancho**الذي لقي مصرعه في ما بعد على ايدي المرابطين في وقعة اقليش سنة 501 / 1108 (القلائد ، 19وما بعدها . ابن عذارى ، 4 / 50 . ليفي

برفنسال : الاسلام في المغرب والأندلس ، 152ومابعدها) .

(500) يلاحظ ان اهل قرطبة – واهل اشبيلية الى حد اقل – انحازوا الى المرابطين كما كانت قد فعلت رعية عبد الله من قبل .

ومع ان عبد الله يتحدث عن المقاومة العنيفة التي أبداها اهل اشبيلية والتي يعزوها الى كثرة اقارب المعتمد في المدينة ، فانه لايذكر شيئًا عن دور المعتمد نفسه في الدفاع عن عاصمة ملكه ، وهو دور أشاد به المؤرخون والأدباء المعاصرون والمتأخرون (قلائد ، 21وما بعدها . المعجب ، 140 وما بعدها) .

(501) سقطت اشبيلية في ايدي المرابطين في يوم الأحد 20 رجب 484 / 7 سبتمبر 1091 ، اي بعد سنة واحدة من سقوط غرناطة .

(502) استولى سير بن ابي بكر على قرمونة في 17 ربيع الأول 484 / 9 مايو 1091 (القرطاس ، 100) .

(503) الراضي ابو خالد يزيد ابن محمد ، الأديب الشاعر ابن المعتمد ، كان قد ولاّه والده رُندة بعد تنازله عن الجزيرة الخضراء للمرابطين (انظر الهامش 318) .

لما استسلم المُعتد في اشبيلية ، أمره الأمير سير بان يكتب الى ولديه الراضي والمعتد في رندة ومارتلة بالاستسلام ، ففعل المُعتد ذلك ، ومع انه لم يُقتل الا انه فقد كل امواله . اما الراضي ، فانه لم ينزعج لقدوم المرابطين ، نظرًا لمناعة رندة ، وكان قبوله الاستسلام امتثالاً لطلب والديه . ومع ان الراضي أُمِّن على حياته ، فانه ما إن استسلم حتى قتله قرور غدرًا وصادر امواله . ومن الجدير بالملاحظة ان عبد الله يبادر الى القول بان ما قام به قرور لم يكن عن رأي امير المسلمين .

ويخلط ليفي بروفنسال بين الراضي وبين اخيه الرشيد ابي الحسين عبيد الله ، ولي عهد المعتمد . وفي العديد من القصائد التي نظمها المعتمد اثناء أسره في اغمات رثى ابناءه الثلاثة الذين فقَدهم في الصراع مع المرابطين : المأمون في قرطبة ، والراضي في رندة ، ومالك في اشبيلية (الذخيرة ، 2 / 1 ، ص 69 – 71 . "Mémoires",53 n. 17) .

(504) عن الفيء ، انظر الهامش 446 .

(505) أم الولد (وتُجمع على : امهات الأولاد) جارية حملتْ طفلا لمولاها ، وتقابلها ام البنين ، وهي امرأة حرة .

(506) بعد ان اقام المعتمد اياما في طنجة نُقل الى مكناس ، فاقام بها اشهرًا قبل انتقاله الى اغمات (المعجب ، 146) . فعبد الله ليس – كما يحسب ليفي بروفنسال – المؤلف الوحيد الذي اورد خبر وصول المعتمد الى مكناس وإقامته فيها بعض الوقت ("Mémoires", 54 n. 20) .

(507) تقع اغمات على مسافة خمسة وعشرين ميلاً الى الجنوب الغربي من مدينة مراكُش ، وكانت المدينةَ الرئيسيةَ في جنوب المغرب إلى ان اختطّ المرابطون عاصمتهم الجديدة مراكُش (462 / 1070) . ويصف الجغرافيون العرب اغمات في القرن الخامس الهجري بانها مدينة مزدهرة وحولها بساتين ونخل كثير . وكانت اغمات ، إلى أن حلّتْ محلّها مراكُش تدريجيًا ، مركزا ثقافيًا نشطا تجمَّع فيه الكثيرون من الأدباء والعلماء النازحين عن قرطبة والقيروان بسبب الفتن فيهما (ابن حوقل ، 90 . الكبرى ، 153 . الادريسي ، 65 وما بعدها) .

ولعل من بين الاسباب التي جعلت الأمير المرابطي يختار اغمات منفى لعبد الله والمعتمد ان المدينة لا تبعد كثيرًا عن عاصمة المرابطين ، وانه يتعذر عليهما الفرار منها او إثارة اعمال الشغَب في مملكتيْهما السابقتين .

(508) كثيرًا ما يشير المؤرخون الى المرابطين باسم الصحراويين ، نسبة لصحراء موريتانيا التي نشأت فيها حركة المرابطين بين قبيلتي لمتونة وجدالة الصنهاجيتين . وترد في (الحلل) إشارتان من جانب المعتمد وابنه الرشيد الى يوسف بن تاشفين على انه "الصحراوي ملك العُدوة" (انظر الحلل ، 31 ، 58 .

الروض ، 85 ، 90) .

(509) لا يمكن ان يكون عبد الله قد عنى بالصحراوي ابنَ عم يوسف ابا بكر بن عمر ، اذ إن الأخير كان قد توفي قبل اربع سنوات من خلع المعتمد . ان الاشارة على الأرجح هي الى ابراهيم بن ابي بكر ابن عمر ، الذي كان آنذاك امير سجلماسة ، ولا بد انه خلف اباه اميرا على منطقة الصحراء . الا أنه لا يمكن على وجه الدقة وصف اي منهما بانه كان عمّا ليوسف ، فلا بد ان الناسخ اسقط – سهوا – كلمة ''ابن''.

(510) وُضع المعتمد في قلعة اغمات ، وكُبِّل بعض الوقت . وصُرف له مرتب سخي ، ولو ان ابن الخطيب يقول انه مرتب متواضع . اما عبد الله ، فانه يُثني على الأمير المرابطي لجميله وإحسانه اليه (الذخيرة ، 2 / 1 ص 57 . قلائد ، 26 . الاحاطة ، 2 / 118) .

(511) يبدو ان المتوكل عمر بن الأفطس – آخر امراء بني الأفطس في بَطَلْيُوسْ – حاول جاهدًا بان تكون علاقاته بالمرابطين علاقات ودية بعد خلع عبد الله والمعتمد . ولما كانت بطليوس قاعدة الثغر الأدنى المصاقب لقشتالة ، فان ابن الأفطس كان يأمل في ان يُبقي المرابطون عليه ، كما كانوا قد ابقوْا على ابن هود في سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى (اعمال ، 185 . انظر الهامش 326) .

(512) كان الفقيه ابن الأحسن السجلماسي وقاضي الجماعة ابو مروان عبدّ الملك المصمودي ضمن الوفد الذي كان يوسف بن تاشفين قد وجّهه لمباحثة المعتمد في امر تسليم الجزيرة الخضراء للمرابطين قبيل الجواز الأول ليوسف الى الأندلس .

ان مداخلات ابن الاحسن في بطليوس ضد ابن الأفطس شبيهة بأعمال تلك الجماعة من صلحاء المرابطين التي استقرّت بعد انتصار الزلاقة ، بموافقة ابن الأفطس ، في بعض الحصون المصاقبة للروم للجهاد في الظاهر ''وانما اراد يوسف واصحابه بذلك ان يكون قوم من شيعتهم مبثوثين بالجزيرة في بلادها ، فاذا كان امر من قيامٍ بدعوتهم او اظهارٍ لملكتهم ، وجدوا في كل بلد لهم اعوانًا'' (المعجب ، 139 . الحلة ، 2 / 174 وما بعدها) .

(513) لما شهد المتوكل بن الأفطس خلع المرابطين لعدد من امراء الأندلس ، ازداد ارتيابه بهم بعد ان ادرك نواياهم الحقيقية تجاهه ، فاستعان بالفونس السادس ، وتنازل له في المقابل عن شنترين ولشبونة وشنترة بغرب الأندلس (486 / 1093) ، مما اغضب اهل بطليوس وجعلهم يداخلون المرابطين لتسليم المدينة لهم . ان تنازل المتوكل لألفونس عن هذه المدن ، واستغاثته به هيأ للمرابطين الذريعة المطلوبة لمهاجمته علنا ، كما كانوا قد فعلوا مع المعتمد قبل ذلك بثلاث سنوات (الحلة ، 2 / 101وما بعدها . المراكشي : الذيل والتكملة ، 5 / 2 ، ص 502) .

ومن سخريات القدر ان ابن الأفطس كان اولَ من استغاث من بين ملوك الطوائف بالمرابطين ضد الفونس السادس قبل ذلك بخمس عشرة سنة ، حينما كان الفونس يضيِّق الخناق على طليطلة ويتوسع في غرب الأندلس .

(514) اشارة الى حكاية الصياد والسمكات الثلاث : الأكيس والكيِّسة والعاجزة . ''واما العاجزة فلم تزل في اقبال وادبار حتى صيدت'' . والمغزى منها ما يترتب من مخاطر على تردد في اتخاذ القرار (ابن المقفع : كتاب كليلة ودمنة ، 125 وما بعدها) .

(515) ان ارتياب المنصور بالمرابطين شبيه بارتياب الرشيد بن المعتمد الذي كان قد حذّر اباه من الاستغاثة بهم ، مؤثرًا إبرام صلح مع الفونس السادس (انظر الحلل ، 28 ، 31 ، 58) .

ويقول ابن الخطيب ان المتوكل نفسه كان قد اشخص ولدَه الملقب بالمنصور الى حصن شانجش Montánchez (بمديرية قصرش Cáceres) ليتحصن به ، وجعل عنده ذخيرته .

(516) انظر الهامش 345 .

وُلِّيَ الأمير سير ابن ابي بكر اشبيلية في رجب سنة 484 / سبتمبر 1090 ، واحتفظ بمنصبه الى

وفاته قرب اشبيلية في جمادى الأولى 507 / اكتوبر - نوفمبر 1113 .

ولما قرر الأمير سير الاستيلاء على بطليوس ، لم يكن قد مضى عليه اكثر من عامين في الولاية ، ولذلك يشير عبد الله الى حدوث ولايته وقلة خبرته بشؤون الأندلس . كما ان قرار الأمير سير بان يعهد إلى ابن رشيق بمهمة اخذ بطليوس بمداخلة اهلها لا بد وانه اتُّخذ في ضوء خبرة الأمير عند اخذ اشبيلية التي صمدت في وجه المرابطين اكثر من ستة شهور (انظر ابن عذارى ، 4 / 56) .

(517) وُفِّق الأمير سير في اختيار ابنْ رشيق ، اذ إن ابن رشيق كان خبيرًا في اخذ المعاقل عن طريق المداخلة . فابن رشيق كان قد استولى على مرسية وخلع اميرها ابن طاهر سنة 471 / 1079بمداخلته المدينة وحراسها .

وفي اثناء حصار حصن لييط ، كان ابن رشيق قد سعى جاهدًا للتقرب من الأمير أملاً في الحصول على مساندته ضد المعتمد بشأن مرسية . الا أن الفقهاء آخر الأمر افْتَوا لصالح المعتمد ، الذي امر بسجن ابن رشيق في لورقة ، ومنها نُقل بعد ذلك الى سجن باشبيلية حيث بقى الى ان استولى المرابطون على المدينة بعد ذلك بسنتين ، فأخلَوْا سبيله (الحلة ، 2 / 116 ، 124 . اعمال ، 257) .

(518) كان سقوط بطليوس في ايدي المرابطين في سنة 487 / 1094 ، ولعل ذلك كان في شهر محرم - صفر / فبراير من تلك السنة (الحلة ، 2 / 102) .

ويؤكد روايةَ عبد الله ابنُ الأبار الذي يقول إن المتوكل قُبض عليه ''فقيد وأُهين بالضرب في استخراج ما عنده '' (الحلة ، 2 / 102) .

وعن نهاية المتوكل ، يقول ابن خافان : ''اخبرني احد قاتليه إنه رغب في تقديم ولدَيْه بين يديه ليحتسبهما عند ربه ...وقام المتوكل عند صرعتهما مختبلاً من لوعتهما ليصلي وقد افرط في كلامه ...فبادروه بأسنَّتهم في الصلاة'' (قلائد ، 38) .

ويتفق ابن الأبار وعبد الواحد المراكشي مع الأمير عبد الله في ان ولدَيْ المتوكل هما الفضل والعباس ، بينما يورد ليفي بروفنسال اسميهما - استنادًا الى ابن الخطيب - على انهما الفضل وسعد . وقد كان للمتوكل بالفعل ابن اصغر هو نجم الدولة سعد ، سجَنه المرابطون و لم يقتلوه (انظر الحلة ، 2 / 102 وما بعدها . المعجب . 76 اعمال ، 186) .

وقد رثى عبد المجيد بن عبدون - كاتب المتوكل - آخرَ امراء بني الأفطس ببطليوس في رائيته الشهيرة من 75 بيتا ومطلعها :

الدهر يَفجعُ بعد العين بالأثر ... فما البكاءُ على الأشباح والصور

وفيها يذكر الفضل والعباس اذ يقول :

سقتْ ثرى الفضل والعباس هاميةٌ ... تُعزى اليهم سماحاً لا الى المطَر

(519) لا يذكر عبد الله بان المنصور ارتد عن الاسلام واعتنق المسيحية ، وهو ما اورده ابن الخطيب اذ قال : ''وَجَّه الى اذفونش بأهله وماله ، ودخل - زعموا - في دينه وصدر معه الى بلاده'' (اعمال ، 186) .

الا انه يصعب التوفيق بين هذه الرواية عن تنصُّر المنصور وبين ما اورده ابن عذارى بان المنصور ابن الأفطس قام في شهر صفر سنة 504 / اغسطس - سبتمبر 1110 ''من ارض النصرانية الى مدينة اشبيلية ، فصممَّ منها الى حضرة امير المسلمين [على بن يوسف] فكانت له منزلة لطيفة ومكانة رفيعة'' (ابن عذارى ، 4 / 56) . ويُذكر بان المنصور التحق بعبد الله بن فاطمة ''فقابلا أروامًا في بلاد الروم ، ثم وردا الى اشبيلية ، واستاقا غنيمةً عظيمةً وأسرى كثيرة'' (ابن عذارى ، 4 / 64) .

ولما كان جزاء المسلم الذي يرتد عن الاسلام طوعًا هو القتل ، فانه يبدو بان عودةالمنصور الى

الاسلام ، والظروف المخففة لما زُعم من تنصره – فضلا عن نشاطه في ميدان الجهاد – ساعدت على جبر حاله .

(520) ابدى المرابطون بعد ضمهم الأندلس حماسًا عظيما في محاربة النصارى ، وفي الدفاع عن ثغور المسلمين "فزاد حبُّ اهل الأندلس لهم ، واشتد خوف ملوك الروم منهم" (المعجب ، 162) . واستمرت هذه السياسة النشطة في السنوات الباقية من حكم يوسف بن تاشفين (ت 500 / 1106) ، وفي العقد الأول من حكم ابنه علي . "وكان يوسف يقول في كل مجلس من مجالسه : انما كان غرضنا في ملك هذه الجزيرة ان نستنقذها من ايدي الروم ، لما رأينا استيلاءهم على اكثرها ، وغفلة ملوكهم واهمالهم للغزو ، وتواكلهم وتخاذلهم وإيثارهم الراحة ... ولئن عشت لأعيدَنَّ جميع البلاد التي تملّكها الروم في طول هذه الفتنة الى المسلمين" (المعجب ، 162وما بعدها) .

وقد نجح يوسف – قبل وفاته – في ان يضم الى امبراطوريته كافة الأندلس باستثناء مملكة سرقسطة ، التي ذُكر بانه اشار على ابنه عليّ بالابقاء عليها حاجزا بينه وبين النصارى في شمال اسبانيا (انظر المعجب ، 170 .احلل ، 59 ، 61 . اعمال 173) .

(521) بيت (من بحر الطويل) من معلّقة زهير ابن ابي سُلمى .

(522) نُصِّب القادر بن ذي النون اميرًا على بلنسية (478 / 1085) بمساعدة الفونس السادس ، الا انه لما شُغل الفونس بالمرابطين ، سعى القادر الى الاستغاثة بالكنبيطور (El Cid el Campeador) وقد كان ابتهاج اهل بلنسية عظيما للانتصارات التي حققها المرابطون ، ولخلعهم امراء الطوائف ، فاستغاثوا – وعلى راسهم القاضي جعفر بن جحاف – بالمرابطين لوضع حد للوجود النصراني في بلدهم .

وقد عاد الكنبيطور من جديد الى بلنسية في 30 جمادى الأولى 487 / 17 يونيو 1094 ، وابقى ابن جحاف قاضيًا للمدينة لمدة تقرب من العام ، ثم امر بحرقه بحجة تخلُّف القاضي عن تسليمه ذخائر القادر بن ذي النون .

ان عبد الله – في اشارته الى امر بلنسية وملاحظته بان الصراع حولها كان ما زال دائراً – لابد انه يشير الى عودة الكنبيطور من جديد الى بلنسية ، والى الجهود التي كان يبذلها المرابطون – وقد فرغوا للتوّ من اخذ بطليوس – لاسترداد المدينة . ومن الجدير بالذكر هنا ان المؤلف لا يذكر الكنبيطور بالاسم عند حديثه عن قضية بلنسية . (الحلة ، 2 / 126 . اعمال ، 172 ، 203 وما بعدها) .

. (La Espana del Cid, 249 f., 434, 446, 450, 460 f, 484 f., 518)

(523) يقول المؤلف انه ترك كتابه مخرومًا على امل ان يكمله بعد ان يكون نصر المسلمين قد تحقق في بلنسية ، إلا أن بلنسية بقيت في يد الكنبيطور حتى وفاته سنة 492 / 1099 ، وبقيت من بعده ارملته خيمينة Jimena تسيطر على المدينة الى ان دخلها المرابطون سنة 395 / 1102 .

ولما كان عبد الله قد اخبر بوفاة المتوكل (اوائل487 / 1094) ، وبعودة بلنسية الى سيطرة النصارى (منتصف 487 / 1094) ، فان ذلك يدلّ على انه فرغ من إعداد الكتاب بعد هذين الحدثين . الا اننا نعلم من مصادر اخرى بان اخاه تميمًا توفي في سنة 488 / 1095 ،وبان المعتمد ابن عباد توفي في اغمات في السنة ذاتها – ولعل وفاته كانت في شهر ذي الحجة من عام 488 / ديسمبر 1095 – كما نعلم بأن القاضي ابن جحاف أُحرق بأمر من الكنبيطور في شهر جمادى الأولى من سنة 488 / مايو 1095 . ولما كان من المستبعد جدًا ان يكون عبد الله قد اغفل ذكر هذه الأحداث الثلاثة ، فانه لا بد ان يكون قد فرغ من إعداد كتابه إما في النصف الأخير من سنة 487 / 1094 واما في اوائل سنة 488 / 1095 (انظر الحلة ، 2 / 102 ، 126 . اعمال ، 164 ،

236 . المطرب ، 14 . (La Espana del Cid, 485,518) .
(524) عجز بيت (من بحر الطويل) من قصيدة للنابغة الذبياني . والبيت هو :
واليأسُ عما فات يُعقب راحة ولرب مطعمةٍ تعود ذُباحا
(ديوان النابغة الذبياني ، 228 . لسان العرب ، 3 / 265 . عيون الأخبار ، 3 / 193) .
(525) قارن ذلك بالنص الوارد في عيون الأخبار ، 2 / 328 .

الفصل الثاني عشر

(526) أما الغافقي فيقول إن عبد الله كان شاعراً جيد الشعر ، مطبوعَه . ويقول ابنُ الخطيب إن عبدَ الله «يكتب ويشعر ويتحدث فيما تتحدث فيه الطلبة» (انظر الإحاطة ، 3 / 379 وما بعدها . اعمال ، 235) .
(527) ينسب بعضُهم الاجابة الى دغفل النسَّابة (عيون الأخبار ، 2 / 118) ، وينسبها آخرون الى عبد الله بن عباس (الجاحظ : رسائل الجاحظ ، 1 / 300 ، البيان ، 1/ 99) .
(528) في الفقرات الثلاث التالية عن التنجيم وقراءة الطالع – ويكتنفها الغموض – كان اعتمادُنا في المقام الأول على الأعمال المتخصصة التالية :

1 – مفاتيح العلوم للخوارزمي .
2 – كتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم للبيروني .
3 – شهار مقالة للسمرقندي ، الترجمة الانجليزية (انظر قائمة المصادر والمراجع تحت Browne)
4 – قابوس نامة لقاي قاوس بن اسكندر ، الترجمة الانجليزية (انظر قائمة المصادر والمراجع تحت Levy) .
5 – علم الفلك : تاريخه عند العرب في القرون الوسطى (3 اجزاء) تأليف نلّينو ، وكذلك مادة «astrology» لنلّينو في الطبعة الأولى من دائرة المعارف الاسلامية ، 1 / 494 وما بعدها
6 – رسائل اخوان الصفا .

(529) عن الطالع ، انظر تفهيم ، 324 وما بعدها .
(530) عن بيوت الكواكب ، انظر مفاتيح ، 225 . تفهيم ، 250 .
(531) الكدخداه هو الكوكب المنير على الهيلاج ، وهو الذي يدل على كمية العمر بسنين موضوعة لكل كوكب ، كبرى ووسطى وصغرى . وكدخداه معناه رب البيت (مفاتيح ، 231) .
(532) يذكر ابنُ الصيرفي أن عبدَ الله بعد خلعه رُزق ابنين وبنتا . وكانت سنه يوم خلعه خمسا وثلاثين سنة وسبعة اشهر (انظر الاحاطة ، 3 / 381 . التبيان ، 193) .
(533) جاء في رسائل اخوان الصفا (2 / 22) «أن السموات هي الأفلاك ، وإنما سُمِّيتْ السماءُ سماءً لسموِّها ، والفلك لاستدراته» .
(534) يبدو ان هذه الفقرة في غير موضِعَها ، ولعل موضعَها الصحيح بعد الفقرة الأولى ، ص 186 . والعبارة الأخيرة في الفقرة غامضة جدا بسسبب كلمة «وهَيْنمتُها» .
(535) نص الحديث : اذا نشأتْ بحريةً ثم تشاءمتْ فتلك عَيْنٌ غُدَيْقة (انظر المعجم المفهرس ، 4 / 461 . لسان العرب ، 2 /947) .
(536) وسط السماء هو البرج الذي يتوسط السماء ، ووتد الأرض نظيرُه وهو الذي تحت وسط الأرض . والطالع والغارب ووسط السماء ووتد الأرض تسمَّى الأوتاد الأربعة (مفاتيح 227) .

(537) عن العمر الطبيعي للأشخاص والأسر الحاكمة (الدول) ، أنظر مقدمة ابن خلدون ، 170 .

(538) الطبائع الأربع هي البرودة والحرارة والرطوبة واليبوسة (اخوان الصفا ، 3 / 364) .

(539) عن الأمزجة والاخلاط ، انظر مفاتيح ، 181 . اخوان الصفا ، 1 / 81 و 3 /364 وما بعدها . العقد ، 3 / 305 . عيون الأنباء ، 1 / 92 ، 111) .

(540) الهيلاج احد الهياليج الخمسة ، وهي الشمس والقمر والطالع وسهم السعادة وجزء الاجتماع او الاستقبال ، وهي ادلّة العمر ، وذلك انها تسيِّر الى السعود والنحوس (مفاتيح ، 230) .

(541) يُقصد بالقطع قران الأفلاك الذي يُتوقع منه خطر على الشخص (مقدمة ابن خلدون ، 522 . (Supplément, 2/378) .

(542) الجان بختان معناه قاسم الروح ، وذلك ان درجة الطالع تسيِّر الى السعود والنحوس ، فصاحب الحد الذي يبلغه التسيير يسمى قاسم الحياة والجان بختان (مفاتيح ، 231) .

(543) القول ينسبه بعضُهم الى ابقراط (انظر عيون الأنباء ، 1 / 28 . العقد ، 3 / 299) ، وينسبه آخرون الى جالينوس (عيون الأخبار ، 3 / 282) .

(544) انظر العقد ، 3 / 298 وما بعدها . عيون الأنباء ، 1 / 110 .

(545) صدر البيت الأول من قصيدة المتنبي في مدح راعيه سيف الدولة الحمداني امير حلب . والبيت (من بحر الطويل) هو :

لكل امرىءٍ من دهره ما تعوَّدا   وعادة سيف الدولة الطعنُ في العدا

(ديوان المتنبي ، 279) .

(546) يُنسب كذلك الى الطبيب العربي الحارث بن كَلَدة (ت 13 / 234) (عيون الأنباء ، 1 / 112) .

(547) مثَل معروف (عيون الأخبار ، 3 / 219 . ابن شَنَب ، 2 / 152) .

(548) ابيات (من بحر الهزج) لأبي نواس ، الا ان البيتَ الأولَ يختلف عما يورده ابن ابي اصيبعة ، وهو :

سألتُ اخي ابا عيسى   وجبريلُ له عقلُ

والاشارة الى جبريل بن بختيشوع الطبيب النصراني الشهير في البلاط العباسي في زمن ابي نواس (القرن الثاني / الثامن) .

والصحيح في صدر البيت الرابع : فقلتُ له فقدِّرْ لي . والصحيح كذلك في صدر البيت الخامس : وجدتُ طبيعةَ الانسان (ديوان ابي نواس ، 60 . عيون الأنباء ، 1 / 137) .

والطبائع الأربع او الاسطقسات الأربعة هي النار والهواء والأرض والماء ، وتسمى العناصر (رسائل اخوان الصفا ، 3 / 364 . مفاتيح ، 137) .

(549) انظر الهامش 455 .

(550) انظر عيون الأنباء ، 1 / 28 ، 89 .

(551) انظر العقد ، 3 / 300 ، 325 . عيون الأنباء ، 1 / 110 .

(552) انظر الجاحظ : البيان ، 1 / 135 ، 3 / 127 .

(553) قول يُنسب الى الزبرقان بن بدر (لسان العرب ، 13 / 482) .

(554) البيتان (من بحر الوافر) يُنسبان الى محرز علقمة (انظر الجاحظ : البيان ، 2 / 270) .

(555) والقران اجتماع زحل والمشترى خاصة اذا أُطلق ، فاذا عنى كوكبين آخرين قيِّد بذكرهما (مفاتيح ، 232) . والمقصود في النص قران كوكبَي الزهرة والمشتري .

(556) انظر رسائل اخوان الصفا 4 / 375 .

(557) انظر تفهيم ، 275 . رسائل اخوان الصفاء 4 /384 وما بعدها .

(558) يُلحُّ الفقيهُ ابو الوليد الباجي في وصية لولديْه عليهما بتجنب تكهنات المنجّمين ، لأن من يؤمن بها زندبق ومارق عن الدين (صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد ، 3 (1955) ، ص 39 . انظر كذلك رسائل ابن حزم ، 3 / 133) .

(559) علم الهيئة هو معرفة تركيب الأفلاك وهيئتها وهيئة الأرض (مفاتيح ، 210 . رسائل ابن حزم ، 3 / 132 وما بعدها) .

(560) انظر الهامش 2 .

(561) انظر الميداني ، 1 / 183 .

(562) المأمون هو الابن الثاني للخليفة هارون الرشيد ، وسابع الخلفاء العباسيين (حَكَم 198 – 813 / 218 – 833) .

(563) رُسمتْ «اليل» كما في بعض النصوص العربية من القرون الوسطى (انظر «Calendario anónimo granadino» ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد ، 9 – 10 (1 – 1962) ، ص 28 ، 31 ، 33 ، 35 وما بعدها) .

(564) بيت (من بحر الطويل) من قصيدة للنابغة الذبياني في مدح راعيه النعمان بن المنذر ، آخر ملوك المناذرة في الحيرة ، المتوفى سنة 602 م (انظر ديوان النابغة الذبياني ، 75) .

(565) الحجاج بن يوسف الثقفي الوالي الأموي في الحجاز اولا ، ثم في العراق ، اشتهر بولائه الشديد للبيت الأموي ، وكان يمثّل القسوةَ والشدةَ في الحكم بالنسبة لخصوم بني امية .

(566) جالينوس هو الطبيب اليوناني الشهير من القرن الثاني الميلادي (129 – 199) ، ولم يعشْ – كما يذكر المؤلف – في زمان السيد المسيح .

(567) عَجُزُ بيتٍ (من بحر الطويل) من قصيدة للمتنبي في مدح ابي الفوارس دلير بن لشكروز الذي كان قدم الى الكوفة لاخماد ثورة للخوارج . والبيت هو :

تريدين لقيانَ المعالي رخيصةً ولابد دون الشهد من إبَرِ النحل

(568) الميداني ، 2 / 158 . عيون الأخبار . 2 / 2 .

(569) انظر المعجم المفهرس ، 1 / 106 ، 4 / 268 . نهاية ، 8 / 184 .

(570) الميداني ، 1 / 241 . عيون الأخبار ، 2 / 328 .

(571) حديث نبوي (انظر المعجم المفهرس ، 1 / 108 . الطرطوشي ، 80) .

(572) يُلاحظ بان المؤلف بتأثير العربية الدارجة يرسم الكلمةَ «حظاً» بدلا من «حضاً» .

(573) هذه اشارة دالة على عمر الأمير الزيري عند خلعه ومدة حكمه ، فهو يقول إنه حَكَم نحو عشرين عاما ، وإنه كان في نحو العشرين من عمره حينما وَلِيَ الملك .

وتؤيد قولَه المصادرُ الأخرى التي تذكر انه وُلد في سنة 447 / 1056 ، وولي الملكَ في شوال 465 / يونيو 1073 وخُلع عن العرش في رجب 483 / سبتمبر 1090 . ويقول المؤرخُ الغرناطيُّ ابنُ الصيرفي إن سنَّ عبد الله يوم خُلع خمس وثلاثون سنة وسبعة اشهر ، وتدل هذه التواريخُ على ان عَبد الله كان في نحو الثامنةَ عشرةَ من عمره حينما ولي إمارةَ غرناطةَ وأن حكمه دام نحو ثماني عشرة سنة (انظر التبيان 194 ، الاحاطة ، 3 / 381 ، 2 / 118 . اعمال ، 236) .

(574) حديث نبوي (انظر المعجم المفهرس ، 5 / 459) .

(575) انظر العقد ، 3 / 215 ، 264 .

(576) انظر الجاحظ : كتاب الحيوان ، 1 / 136 وما بعدها . رسائل الجاحظ ، 2 / 124 . عيون الأخبار ، 2 / 63 .

ان الاشاراتِ العديدةَ الى مؤلفات الجاحظ وابن قتيبة والاقتباسات منها تدل على ان هذه المؤلفاتِ كانت متداولةً في الأندلس ونماذجَ ادبيةً حذا حذوَها ادباءُ الأندلس . وفي الترجمة التي عقدها ابنُ الفرضي (ت 403 / 1013) لأحمد بن محمد بن هارون البغدادي يذكر بان البغدادي قدم من المشرق

وأدخل معه الى الأندلس بعضَ كتب ابن قتيبة والجاحظ (ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، 1 / 61) . ويقول صاعدُ بن احمد عن ابي الحكم عمرو الكرماني بانه عالمٌ متحقّق في الهندسة والطب ، رحل الى حران وعاد الى الأندلس «وجلب معه الرسائلَ المعروفةَ برسائل اخوان الصفا ، لا نعلم احداً أدخلها الأندلس قبله» (طبقات الأمم ، 94) .

(577) يذكر المؤلف ان بكر ابناء والده سيف الدولة بلقين كان صبياً ، مما يدلُّ على ان تميماً كان الابن الأكبر لبلقين .

(578) اشارة الى حديث نبوي (انظر المعجم المفهرس ، 5 / 40 . لسان العرب ، 6 / 184) .

(579) اشارة الى حديث نبوي (المعجم المفهرس ، 3 / 17) .
ويورد ابنُ قتيبة الحديثَ النبويَّ على النحو التالي : انا سيد ولد آدم ولا فخر (عيون الأخبار ، 1 / 275) .

(580) انظر الهامش 582 .

(581) انظر طوق الحمامة ، 2 . نهاية الأرب ، 4 / 1 .

(582) لم يُتَّهم عبدُ الله – بخلاف الكثيرين من امراء الطوائف – بانه أراق دماءَ الأبرياء ، او اغتصب اموال الناس (انظر التبيان ، انظر كذلك الهامش 420 ،) .
الا ان ابنَ الصيرفي وصفَ عبد الله بالجبن والقلق والافراط في الجزع ، وبالخلود الى الراحات ، واستوزار الأغمار (انظر الاحاطة ، 3 / 385 . اعمال ، 235) .

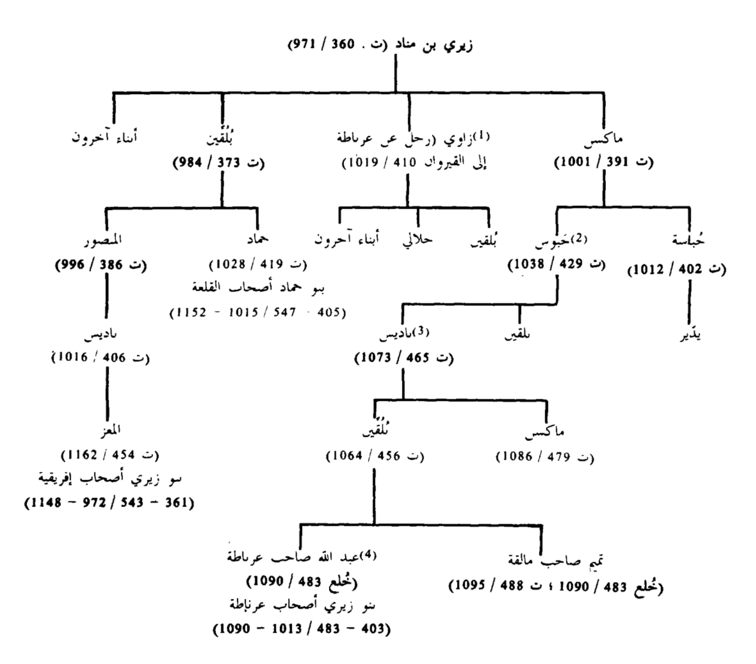
(583) مع ان الرجالَ الذين خدموا عبدَ الله – كسماجة ومؤمل وابن القليعي وابن سهل – عُرفوا بالكفاءة وسداد الرأي ، فان الكثيرين منهم آخر الأمر إما انشقُّوا عنه وانحازوا للمرابطين ، وإما أُعفوا من مناصبهم واستُبدلوا بأشخاص يأمن الأميرُ الزيريُّ جانبَهم . ولعلَ ذلك كان من اسباب اتهامه باستوزار الأغمار ، ومع ذلك ، فان ابن الصيرفي الموالي للمرابطين – وهو المصدرُ الرئيسيُّ لمعلوماتنا عن سيرة عبد الله – يَستثني بعضَ رجال دولة الأمير ، ويخص في ثنائه كاتبَه ابنَ ابي خيثمة ، ومؤملاً من عبيد جده باديس ، وجعفراً من فتيانه (انظر الاحاطة ، 3 / 331 وما بعدها . اعمال ، 234 وما بعدها) .

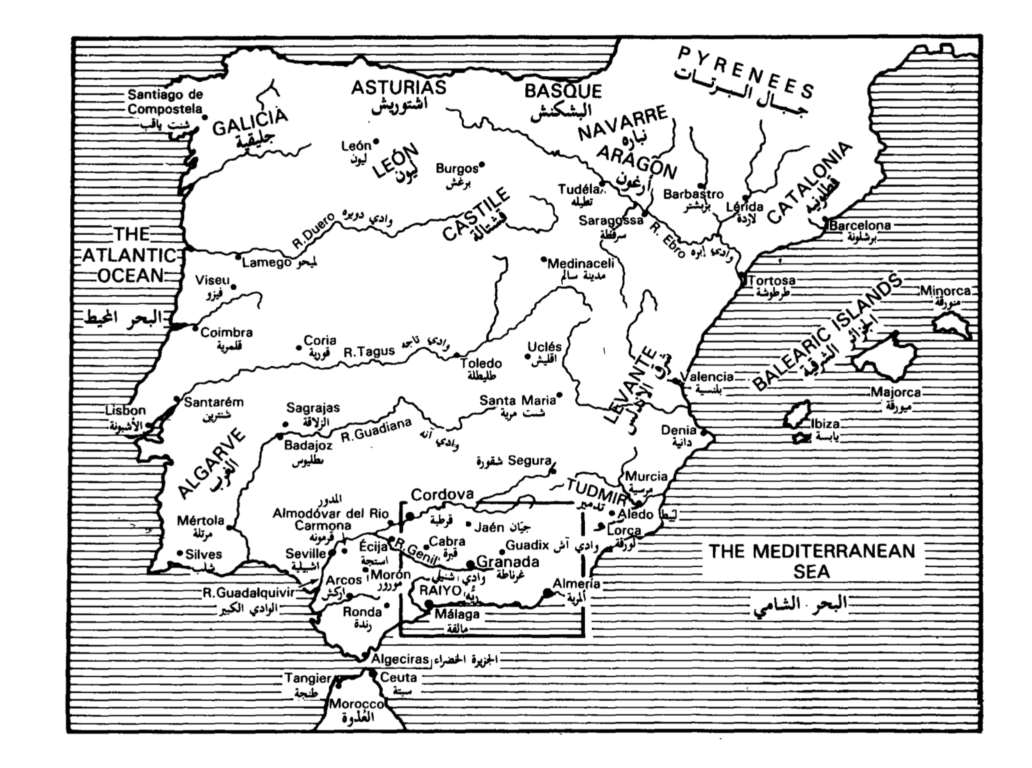
(584) من امثال العوام في الأندلس : الخديم لا يكون نديم (الزجالي ، 2 / 29 ، رقم 159) .

(585) المثل في المغرب الأقصى : خاك هو من واتاك ، وفي نصِّي المثلين تردُ «واتاك» بدلا من «واساك» بالعربية الفصحى (انظر الميداني ، 1 / 63 . العسكري ، جمهرة ، 48 . **Lévi - Proveçal, Textes arabes de l'Ouargha**, 116.

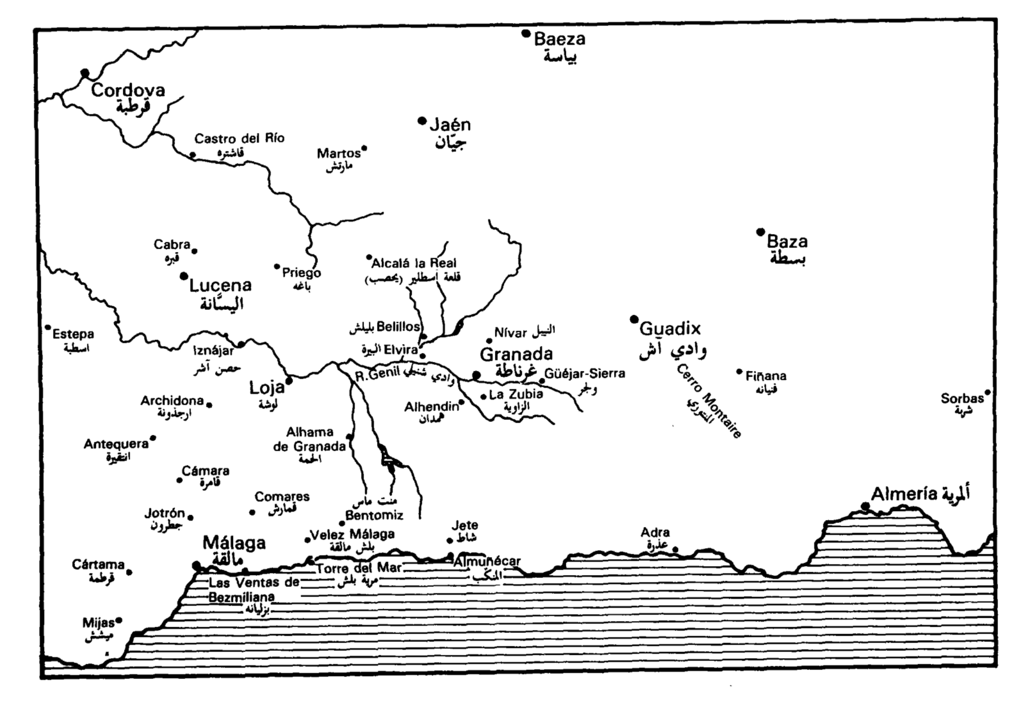
(586) النص شديد الاضطراب في الأسطر القليلة التالية الباقية من المخطوط بسبب تآكل اسفل الورقة الأخيرة منه ، ولكثرة الخروم بفعل الأرضة والزمن ، ولذلك ارتأينا اسقاطَها ، ولم نحتفظ الا بالسطرين الأخيرين .

شجرة نسب بني زيري في غرناطة
وصلتهم بأبناء عمومتهم في افريقية والمغرب الأوسط





PYRENEES
جبال البرتات
ASTURIAS
اشتوريش
BASQUE
البشكنش
NAVARRE
نباره
ARAGÓN
أرغون
CATALONIA
قطلونية
GALICIA
جليقية
Santiago de Compostela
شنت ياقب
León
ليون
LEÓN
ليون
Burgos
برغش
CASTILE
قشتالة
Tudéla
تطيلة
Saragossa
سرقسطة
Barbastro
بربشتر
Lérida
لاردة
Barcelona
برشلونة
R. Ebro
وادي إبره
R.Duero
وادي دويره
THE ATLANTIC OCEAN
البحر المحيط
Lamego
لميحو
Medinaceli
مدينة سالم
Tortosa
طرطوشة
Minorca
منورقة
BALEARIC ISLANDS
الجزائر الشرقية
Viseu
فيزو
Coimbra
قلمرية
Coria
قورية
R.Tagus
وادي تاجه
Toledo
طليطلة
Uclés
اقليش
LEVANTE
شرق الأندلس
Valencia
بلنسية
Majorca
ميورقة
Lisbon
الأشبونة
Santarém
شنترين
Sagrajas
الزلاقة
Santa Maria
شنت مرية
Ibiza
يابسة
Badajoz
بطليوس
R.Guadiana
وادي آنه
Denia
دانية
ALGARVE
الغرب
Segura
شقورة
Murcia
مرسية
TUDMIR
تدمير
Cordova
قرطبة
Almodóvar del Rio
المدور
Carmona
قرمونة
Jaén
جيّان
Aledo
ليط
Mértola
مرتلة
Lorca
لورقة
Seville
اشبيلية
Écija
استجة
R.Genil
وادي شنيل
Cabra
قبرة
Guadix
وادي آش
Granada
غرناطة
THE MEDITERRANEAN SEA
البحر الشامي
Silves
شلب
Morón
مورور
Arcos
اركش
RAIYO
رية
Almería
المرية
R.Guadalquivir
الوادي الكبير
Ronda
رندة
Málaga
مالقة
Algeciras
الجزيرة الخضراء
Tangier
طنجة
Ceuta
سبتة
Morocco
العُدوة


Baeza
بياسة
Cordova
قرطبة
Jaén
جيّان
Castro del Río
قاشتره
Martos
مارتش
Baza
بسطة
Cabra
قبره
Lucena
اليسّانة
Priego
باغه
Alcalá la Real
قلعة أسطلير (يحصب)
Estepa
اسطبة
Belillos
بليلش
Elvira
البيرة
Nívar
النيل
Granada
غرناطة
Guadix
وادي آش
Iznájar
حصن آشر
Loja
لوشة
R. Genil
وادي شنيل
Güéjar-Sierra
وجر
La Zubia
الزاوية
Alhendín
همدان
Cerro Montaire
Fiñana
فنيانه
Sorbas
شربة
Archidona
ارجذونة
Antequera
انتقيرة
Alhama de Granada
الحمة
Cámara
قامرة
Comares
قمارش
Jotrón
جطرون
Bentomiz
منت ماس
Velez Málaga
بلش مالقة
Jete
شاط
Adra
عذرة
Almería
ألمرية
Málaga
مالقة
Cártama
قرطمة
Torre del Mar
مرية بلش
Almuñécar
المنكّب
Las Ventas de Bezmiliana
بزليانه
Mijas
ميشش

ثبت المصادر والمراجع

أ - المصادر والمراجع العربية والمعرّبة

ابن الأبار ، محمد : التكملة لكتاب الصلة ، جزءان ، مدريد ، 1886 .
الحلّة السيراء ، جزءان ، القاهرة ، 1963 .

ابن ابي أصيبعة ، أحمد : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، جزءان ، القاهرة ، 1882 .

ابن ابي زرع الفاسي ، احمد : الأنيس المطرب بروض القرطاس ، أوبسالة ، 1846 .

ابن ابي سُلمى ، زهير : شرح ديوان زهير بن ابي سُلمى ، القاهرة ، 1944 .

ابن عبد ربه ، أحمد : العقد الفريد ، 3 اجزاء ، القاهرة ، 6 - 1317 هـ .

ابن عبدون ، محمد : رسالة في القضاء والحسبة ، ضمن ثلاث رسائل اندلسية في الحسبة ، القاهرة ، 1955 .

ابن الأثير ، علي : الكامل في التاريخ ، 10 اجزاء ، بيروت ، 5 - 1966 .

ابن بسام الشنتريني ، علي : الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، اربعة اقسام ، ثمانية مجلدات ، الدار العربية للكتاب ، 5 - 1979 .

ابن بشكوال ، خلف : الصلة في تارخ علماء الأندلس ، جزءان ، القاهرة ، 1955 .

ابن بطُوطة ، محمد : رحلة ابن بطوطة ، بيروت ، 1968 .

ابن جبير ، محمد : رحلة ابن جبير ، بيروت ، 1968 .

ابن جلجل ، سليمان : طبقات الأطباء والحكماء ، القاهرة ، 1955 .

ابن حزم القرطبي ، على : جمهرة انساب العرب ، القاهرة ، 1962 .
وسائل ابن حزم ، 3 اجزاء ، تحقيق احسان عباس ، بيروت 1980 - 1981 .
طوق الحمامة ، القاهرة ، 1959 .
الفِصَل في الملل والأهواء والنِحَل ، 5 اقسام ، القاهرة ، 1903 .
نَقط العروس ، مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، 13 / 2 ، (1951) .

ابن حوقل ، محمد : صورة الأرض ، بيروت ، (دون تاريخ) .

ابن حيان ، ابو مروان حيان بن خلف : المقبس ، الجزء الثالث ، باريس ، 1937 .
المقتبس ، الجزء السابع ، بيروت ، 1965 .
المقتبس ، السفر الثاني ، القاهرة ، 1971 .
المقتبس ، الجزء الخامس ، مدريد ، 1979 .

ابن خاقان ، الفتح : قلائد العقيان ، القاهرة ، 1320هـ .
: مطمح الأنفس ، القاهرة ، 1325هـ .

ابن الخطيب ، لسان الدين : الاحاطة في تاريخ غرناطة ، 4 اجزاء ، القاهرة ، 3 – 1977 .
اعمال الأعلام ، بيروت ، 1956 .
اللمحة البداية ، القاهرة ، 1928 .
معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار ، مجموعة رسائل ابن الخطيب ، نشر وتحقيق احمد مختار العبادي ، الاسكندرية 1983 .
نُفاضة الجراب ، القاهرة ، 1966 .

ابن خلدون ، عبد الرحمن : كتاب العِبر ، 7 اجزاء ، ط . بولاق ، 1867 .
المقدمة ، ط . بولاق (دون تاريخ) .
التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا ، القاهرة ، 1951 .

ابن خلكان ، احمد : وفيات الأعيان ، ط . جوتنجن ، 35 – 1850 .

ابن دحية ، عمر :المُطرب من اشعار اهل المغرب ، القاهرة ، 1955 .

ابن الزبير ، احمد : صلة الصلة (القسم الأخير فقط) ، الرباط ، 1938 .

ابن سعيد المغربي ، علي : المُغرب في حُلى المغرب ، جزءان ، القاهرة ، 3 – 1955 .

ابن شنب ، محمد : الأمثال العربية في الجزائر والمغرب ، 3 اجزاء ، باريس 4 – 1907 .

ابن صاحب الصلاة ، عبد الملك : المنُّ بالامامة ... ، السفر الثاني ، بيروت ، 1964 .

ابن عبود ، امحمد : التاريخ السياسي والاجتماعي لاشبيلية في عهد دول الطوائف ، تطوان ، 1983 .
جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري ، تطوان ، 1987 .

ابن عذاري ، ابو العباس احمد : البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب ، 4 اجزاء ، بيروت ، 1980 .
قطعتان من مخطوط (البيان المغرب) نشرهما ليفي بروفنسال ذيلاً لكتاب (مذكرات الأمير عبد الله) ، القاهرة ، 1955 .

ابن غالب الغرناطي ، محمد : تعليق منتقى من كتاب (فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس) ، مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، 1 / 2 (1955) .

ابن الفرضي ، عبد الله : تاريخ علماء الأندلس ، جزءان ، مدريد ، 1890 – 1892 .

ابن قُتيبة ، عبد الله : عيون الأخبار ، 4 اجزاء ، القاهرة ، 25 – 1930 .

ابن قزمان ، ابو بكر محمد : صورة من مخطوط الديوان ببطرسبرج ، نشرها د . دي جونزبرج ، برلين ، 1896 . ديوان ابن قزمان ، مدريد . 1980 .

ابن القطان : نظم الجمان ، الجزء السادس ، تطوان ، 1964 .

ابن القوطية ، أبو بكر : تاريخ افتتاح الاندلس ، مدريد ، 1868 .

ابن الكردبوس التوزري ، عبد الملك : قطعة من كتاب الاكتفاء في اخبار الخلفاء ، مدريد ، 1971 .

ابن المقفع ، عبد الله : كتاب *كليلة ودمنة* ، بيروت ، 1884 .

ابن منظور ، محمد : *لسان العرب* ، 20 جزءا ، ط . بولاق ، 2 – 1889 .

ابن المواعيني ، محمد بن ابراهيم : *ريحان الألباب* .. ، قطعة ضمن نصوص دوزي عن تاريخ بني عباد Historia Abbadidarum ، الجزء الثاني ، ليدن ، 1852 .

أبو تمام ، حبيب بن أوس : *ديوان أبي تمام* ، القاهرة بيروت 1889 .

الاحاطة – انظر ابن الخطيب .

أخبار مجموعة لمؤلف مجهول الاسم ، مدريد ، 1867

الادريسي ، محمد : *صفة المغرب ... الأندلس ، مأخوذة من كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)* ، ليدن ، *1866*. .

ازهار الرياض – انظر المقّري .

الاستقصا – انظر السلاوي .

الاصفهاني ، الراغب : *محاضرات الأدباء* ، جزءان ، *1970* .

الاصفهاني ، العماد : الفتح القُسّي ، ليدن ، 1888 .

أعمال – انظر ابن الخطيب .

الاكتفاء – انظر ابن الكردبوس التوزري .

الامتاع – انظر التوحيدي .

الأهواني ، عبد العزيز : ''أمثال العامة في الأندلس'' ، في كتاب (الى طه حسين في عيد ميلاده السبعين) ، القاهرة ، 1962 .
''الفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي في لحن العامة'' ، مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، 3 / 1 (1957)

الباجي ، ابو الوليد سليمان : ''وصية لولديه'' ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد ، 3 (1955) .

البادسي ، عبد الحق : *المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف* ، الرباط ، 1982 .

البصائر – انظر التوحيدي .

البكري ، ابو عبيد عبد الله : *المُغرب في ذكر بلاد المغرب* ، من كتاب (المسالك والممالك) ، باريس ، 1965 .

البيذق ، *أبو بكر بن علي الصنهاجي* : *كتاب أخبار المهدي بن تومرت* ، باريس ، 1928 .

البيروني ، ابو الريحان محمد : *كتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم* ، لندن ، *1934* .
انظر تحت Wright

التفهيم انظر البيروني .

التكملة – انظر ابن الآبار .

التوحيدي ابو حيان : *الامتاع والمؤانسة* ، القاهرة ، 1953 .
البصائر والذخائر ، القاهرة ، 1953 .

الجاحظ ، ابو عثمان : *البيان والتبيين* ، 3 اجزاء ، القاهرة ، 1947 .
كتاب الحيوان ، 6 أجزاء ، القاهرة ، 38 - 1945 .
رسائل الجاحظ ، جزءان ، القاهرة 1964 .

جذوة - انظر الحُمَيدي .
الجزائري ، طاهر : ، *اشهر الأمثال* ، القاهرة ، 1919 .
جنثالث بالنثيا ، آنخل : *تاريخ الفكر الأندلسي* ، نقله عن الاسبانية حسين مؤنس ، القاهرة ، 1955 .
الحُصْري ، ابراهيم : *زهر الآداب* ، 4 اجزاء ، القاهرة ، 1925 .
الحلل الموشية لمؤلف مجهول الاسم ، الرباط ، 1936 .
الحلة - انظر ابن الأبار .
الحميدي محمد : *جذوة المقتبس* ، القاهرة 1953 .
الحميري ، محمد بن عبد المنعم : *الروض المعطار* ، القاهرة ، 1937 .
الخشني ، محمد : *كتاب القضاة بقرطبة* ، مدريد ، 1914 .
الخوارزمي ، محمد : *مفاتيح العلوم* ، ليدن ، *1895* .

الذبياني ، النابغة : *ديوان النابغة الذبياني* ، بيروت ،1968
الذخيرة - انظر ابن بسام الشنتريني .
الذيل والتكملة - انظر المراكشي .
رسائل إخوان الصفاء ، 4 اجزاء ، القاهرة 1928 .
الروض - انظر الحميري .
الزجالي ، أبو يحي : *أمثال العوام في الأندلس* ، قسمان ، تحقيق وشرح محمد بن شريفة ، فاس ، 1 - 1975 .

زهر الآداب - انظر الحصري
السقطي ، محمد : في آداب الحسبة ، باريس 1931
السلاوي ، احمد الناصري : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، *10 اجزاء* ، *الدار البيضاء 4 - 1956* .
السِلَفي ، احمد : *تراجم وأخبار أندلسية* (مستخرجة من معجم السفر للسِلَفي) ، بيروت ، 1963

الصلة - انظر ابن بشكوال .
الضَبّي ، احمد : بغية *الملتمس* ، مدريد 1885 .
طبقات الأمم - انظر الطليطُلي .
الطرطوشي ، أبو بكر محمد : سراج *الملوك* ، القاهرة ، 1289 هـ .
الطليطلي ، صاعد بن احمد : *طبقات الأمم* ، بيروت ، 1912.

طوق الحمامة - انظر ابن حزم القرطبي .
العبادي ، احمد مختار : ''سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس'' ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد ، 5 (1957) .

عبد العال ، عبد المنعم : *لهجة شمال المغرب* ، القاهرة ، 1968 .
العِبر - انظر ابن خلدون .
العُذري ، احمد بن عمر : *ترصيع الأخبار* .... ، مدريد 1965 .
العسكري ، ابو هلال الحسن : *جمهرة الأمثال* ، ، بمبي ، 1890 .

العقد – انظر ابن عبد ربه .
عيون الأخبار – انظر ابن قتيبة .
الفِصَل – انظر ابن حزم القرطبي .
القرطاس – انظر ابن ابي زرع الفاسي .
قلائد – انظر ابن خاقان .
الكامل – انظر ابن الأثير .
لسان العرب – انظر ابن منظور .
اللمحة – انظر ابن الخطيب .
لي تورنو ، ر . : *حركة الموحدين في المغرب* ، نقله عن الانجليزية امين الطيبي ، الدار العربية للكتاب 1982 .
ليفي بروفسال ، إ . : *الاسلام في المغرب والأندلس* ، ترجمة السيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي ، القاهرة ، 1956 .
المتنبي ، احمد الحسين : *ديوان المتنبي* ، القاهرة ، 1898 .
محمود ، حسن أحمد : قيام دولة المرابطين ، *القاهرة ، 1957* .
المراكشي ، عبد الواحد : *المُعجب في تلخيص اخبار المغرب ، القاهرة ، 1949* .
المراكشي ، محمد : *الذيل والتكملة* ، 5 / 2 ، بيروت 1965 .
المرقبة – انظر النباهي .
المعجب – انظر المراكشي ، عبد الواحد .
المعجم المفهرس = *المعجم المفهرس لألفاظ الحديث* (فنسنك ، ا . ج .) ، 7 اجزاء ، ليدن ، 36 – 1969 .
معيار – انظر ابن الخطيب .
مفاتيح – انظر الخوارزمي .
مفاخر = *مفاخر البربر لمؤلف مجهول الاسم* ، الرباط ، 1934 .
المقدسي – انظر ابن حيان القرطبي .
المقدسي ، محمد : *أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم* ، ليدن ، 1906 .
المقّري ، أحمد : *أزهار الرياض ، 3 اجزاء ، القاهرة ، 1939* .
نفح الطيب ... ، 8 مجلدات بيروت ، 1968 .
مكي ، محمود علي : ''التشيع في الأندلس'' ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الأسلامية بمدريد ، 2 (1954) .
''وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين'' ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد ، 7 – 8 (59 – 1960) .
مؤنس ، حسين : *تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس* ، مدريد ، *1967* .
''سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس'' ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد ، 2 (1954)
الميداني ، أحمد : *مَجْمع الأمثال* ، جزءان القاهرة ، 1967 .
النباهي ، علي : *المرقبة العليا ... (تاريخ قضاة الأندلس) ، القاهرة ، 1948* .
نفاضة – انظر ابن الخطيب .
نلّينو ، كرلو : علم الفلك *وتاريخه عند العرب في القرون الوسطى* ، 3 أجزاء روما ، 1911 .

نهاية – انظر النويري .

النويري ، احمد : نهاية الأرب ... ، 18جزءًا ، القاهرة 23 – 1955 .

هوبكنز ، ج .ف .ب . : النظم الاسلامية في المغرب في القرون الوسطى ، تعريب امين الطيبي ، الدار العربية للكتاب ، 1980 ،

الونشريسي ، ابو العباس احمد : كتاب الولايات ، الرباط ، 1937 .
قطعة من (أسنى المتاجر) ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد ، 5 (1957) .

ياقوت الحموي : معجم البلدان ، 6 أجزاء ليبزيك ، 66 – 1873 .

ب – المراجع بغير العربية

Ashtor, E.,	*The Jews of Moslem Spain*, 2 vols., Philadelphia 1973, 1979.
Al-Bádisí, Abd al-Haq,	***al, -Maqsad...***, in **Archives marocaines**. 26 (1955).
Bargebuhr, F. F. ,	«The Alhambra Palace of the Eleventh Century», *Journal of the Warburg and Courtauld Institute, 19 (1956).*
Benaboud, M'hommad,	*«Historiography in Al-Andalus during the Period of the Taifa states», Hespéris-Tamuda,* (1987) «The Socio-Political Role of the Andalusian «Ulamâ» during the *5th century, A.H / 11th A.D.»* ***Islamic Studies,*** 33 1984 .
Bosch Vila, Jacintho,	*Los Almoravides,* Tetuan 1956.
Browne, E.G. ,	Revised translation of the ***Chahàr Maqâla*** of Nizâmï-i-'Arúdí of Nizámí-i-Arúdi of Samarqand, London 1921.
Brunot, L. ,	***Textes arabes de Rabat,*** 2 vols. , Paris 1932, 1952.
Brunot, L. and Malka, E. ,	***Textes judeo-arabes de Fès,*** Rabat 1939.
Brunschvig, R. ,	***La Berbérie orientale sous les Hafsids,*** 2 vols. , Paris 1940-47.
Cagigas, I. , de las,	*Los Mozarábes,* 2 vols. , Madrid 1947-8.
«Description», see s. v. Lévi-Provençal.	
Dozy, R.P.A. ,	*Histoire des musulmans d'Espagne,* 4 vols. , Leiden 1861, English translation : *A History of the Moslems of Spain,* London 1913.
	Historia Abdadidarum, 3 vols. , Leiden 1846-63.
	Recherches sur l'histoire de l'Espagne pendant le moyen-âge, 2 vols. , Leiden 1860.
	Supplément aux dictionnaires arabes, 2 vols. , Leiden 1881.
EI =	*The Encyclopaedia of Islam,* 4 vols. , Leiden 1913-34.
EI² =	*The Encyclopaedia of Islam,* (New Eidtion), Leiden-London 1960-in process (A to m so far published).
Esp, mus. ,	see s. v. Lévi-Provençal.
La Espana del Cid.	see s.v. Menéndes-Pidal.
Garcia Gómez, E. ,	*Un alfaqui espanol Abü ishäq de Elvira,* Madrid-Granada 1944.
Gautier, E. F. ,	*Le passé de l'Afrique du Nord,* Paris 1937.
Glick, Thomas F. ,	*Islamic and Christian Spain in the Early Middle Ages,* Princeton U.P. 1979.

Golvin, L. ,	*Le Maghrib central à l'époque des Ziïdes*, Paris 1957.
Handler, A. ,	*The Zirids of Granada*, Miami U.P. 1974.
HEM =	*Histoire de l'Espagne musulmane*. Ses s.v. Lévi-Provençal.
Historia Abdadidarum,	see s.v. Dozy.
HME =	*Histoire des musulmans d'Espagne* (English translation). see s.v. Dozy.
Huici Miranda, Ambrosio	«La salida de los Almoravides del desierto y el reinado de Yûsuf b, Tâshufîn...», *Hespéris*, 46 (1959).
	«Los Almoravides y la batalla de Zallaca», *Hespéris* 40 (1953).
Idris, H.R. ,	*La Berbérie orientale sous les Zîrîdes*, 2 vols. , Paris 1959.
	«Les Zîrîdes d'Espagne», *Al Andalus*,29 (1964).
Julien, Ch. -A. ,	*History of North Africa*, London 1970.
Lévi-Provençal, E. ,	«La Description de l'Espagne de Ahmad al-Râzî», *Al-Andalus*, 18 (1953).
	L'Espagne musulmane au Xeme siècle..., Paris 1946.
	«La fondation de Marrakesh 462/1070», *Mélanges d'histoire et d'arecheologie de l'Occident*, vol. 2 (1957), Algiers.
	Histoire de l'Espagne musulmane, 3 vols. , Paris-Leiden 1950-53.
	«Les 'Mémoires' de 'Abd Allâh, dernier roi Zîride de Grenade», *Al-Andalus*, 3 (1935), 4 (1936-9), 6 (1941).
	«Novedades des sobre la batalle llamada de al-Zallaqa (1086)», *Al-Andalus*, 15 (1950). In collaboration with E. Garcia Gómez and J. Oliver Asîn.
	Textes arabes de l'Ouargha, Paris 1922.
Levy, R. ,	*A Mirror for Princes*, being the translation of *the Qâbûs Nâma* of Kai Ka'uŝ Ibn Iskandar, London 1951.
Livermore, H. V.,	**A New History of Protugal**, Cambridge U.P. 1969.
Lomax, D. ,	*The Reconquest of Spain*, London 1978.
Marçais, G. ,	«Note sur les ribats en Berbérie», *Melanges René* Basset, 2 (1925), Paris.
Marçais, W. ,	*Le Dialecte arabe parlé à Tlemcen*, Paris 1911.
Marçais, W. and Guiga, A. ,	*Textes arabes de Takroûna*, Paris, 1925.
«Mémoires»,	see s.v. Lévi-Provençal.
Menéndez Pidal, R. ,	«El conde mazarabe Sisnando Davidiz y la politica de Alfonso VI con los Taifas», *Al-Andalus*, 12 (1947). In collaboration with E. Garcia Gómez.
	La Espana del Cid, 2 vols. , Madrid 1969.
	«Leyendo las 'Memorias' de rey Zîrî 'Abd Allâh», *Al-Andalus*, 9 (1944).
Miles, George C.,	*Coins of the Spanish Mulûk al-Tawâ'if*. New Yrok 1954.
Monés, Hussain,	«Les Almoravides», »*Revista del Instituto Egipcio de Estudios islamicos*, Madrid, 14 (1967-8).
	«Consideraciones sobre la éposa de los Reyes de Taifas», *Al-Andalus*, 13 (1966).
Nykl, A.R. ,	*Hispano-Arabic Poetry*, Baltimore 1946.
O'Callaghan, J.F. ,	*A History of Medieval Spain*, Cornell U.P. 1975.
Pellat, Ch. ,	«Note sur l'Espagne musulmane et al-Jâbiz», *Al-Andalus*, 21 (1956).
Pérès, H. ,	*La Poésie andalouse en arabe classique...* , Paris 1937.
Perlmann, M. ,	«Eleventh-century Andalusian Authors on the Jews of Granada», *American Academy for Jewish Research*, 18 (1949), New York.

Poesie, see s.v. Pérès.

Prieto y Vives, Antonio, *Los Reyes de Taifas*, Madrid 1926.

Recherches, see s.v. Dozy.

Reilly, B.F. , *The Kingdom of Leon-Gastilla Under Queen Urraca (1109-1126)*, Princeton U.P. 1982.

Reyes de Taifas, see s.v. Prieto y Vives.

Schirmann, H. , «Samuel Hannagid,...», ***Jewish Social Studies***, 13 (1951).

Seco de Lucena Parades, Luis, «Sobre algunos toponimos granadinos de la *Ihâta*», ***Al-Andalus***, 17 (1952).

«Toponimia arabe de la vega y los montes de Granda», **Al-Andalus**, 29 (1964).

Simonet, Francisco Javier, *Descripction del reino de Granada*, Madrid 1860.

Supplément, see s.v. Dozy.

Terrasse, Henri, *History of Morocco*, Casablanca 1952.

Islam d'Espagne, Paris, 1958.

Torres Balbás, Leopoldo, «Atarzanas Hispanomusulmanas», *Al-Andalus*, 11 (1946).

Ciudades hispano-musulmanas, 2 vols. , Madrid 1972.

«Rabitas hispano-musulmanas», *Al-Andalus*, 13 (1948).

Vicens Vives, Jaime, *An Economic History of Spain*, Princeton U.P. 1969.

Wasserstein, D. , *The Rise and Fall of the Party-Kings*, Princeton U.P. 1985.

Watt, W. Montgomery, *A History of Islamic Spain*, Edinburgh U.P. 1965.

Wright, R. , *Elements of Astrology*, being a translation of al-Birùnì's al-Tafhîm, London 1934.

«Zîrîdes», see s.v. Idris.

BIBLIOGRAPHY

Al-Abbadi Ahmad Mukhtar, Siyasat al-Fatimiyyin nahwa l-Maghrib wal-Andalus, in RIEIM, V (1957), pp. 193-226.
Abd al-Al, Abd al-Munim, Lahjat shamal al-Maghrib, Cairo 1968.
Abu Nuwas, al-Hassan b. Hani Diwan ed. A. al-Ghazali, Cairo 1953.
Abu Tammam, Habib b. Awas, Diwan Beirut 1889.
al-Ahwani, Abd al Aziz, Aminat al-amma fi l-Andalus, In Mélanges Taha Husain, Cairo 1962, pp.235-364.
--, "Alfaz Maghribiyya min Kitab Ibn Hisham fi lahn-amma," in RIMA, III (1957), pp.127-157,285-321.
Akhbar majmua (anonymous), ed and tr.E. Lafuente y Alcantara, Madrid 1867
Amal, see s.v. Ibn al-khtib.
Arberry, A. J.,An Anthology of Moorish Poetry, Cambridge U.P. 1953. See s.v. Ibn Said: Rayat.
--, Poems of al-Mutanabbi, Gambridge 1967.
--, The Ring of the Dove, London 1953. See s.v. Ibn Hazm: Tawq al-hamama.
--, The Seven Odes, Edinburgh 1957.
Ashtor, E., The Jews of Moslem Spain 2 vols., Philadelphia 1973, 1979.
Askari, al-Hasan b. Abd Allah Jawharat al-amthal, Bombay 1890.
Azhar, See s.v. Maqqari.
al-Badisi, Abd al-Haqq, al-Maqsad ed. and tr G.S. Colin, in Archives marocaines, vol. XXVI (1926).
al-Baji, Abu l-Walid Sulayman, Wasiyya li-waladayhi,"ed. J. Abd al-Rahman Hilal, in RIEIM, *III(1955) pp. 30-46.*
al-Bakri, Abu Ubayd Abd Allah, K al-masalik wa l-mamalik Extract, ed A. al- Hajji, entitled: Jaghrafiyyat al-Andalus, Beirut 1968.
--,Extract, ed. de Slane, entitled: K. akhbar al-mughrib fi dhikr bilad al-Maghrib; tr. as Description de l'Afrique Septentrionnale, 2nd ed. Paris 1965.
Bargebuhr, F. P., "The Alhambra Palace of the Elventh Century,"Journal of the warburg and Courtauld Institute, Vol. XIX 61956), pp.192-258. Bayan, See s.v. Ibn Idhari.
al-Baydhaq, Abu Bakr b.Ali Al-Sanhaji, K.akhbar al-Mahdi Ibn Tumart, ed and tr. E. Lévi-Provençal, Paris 1928
Ben Cheneb, Mohammed, Proverbes arabes de l'Algérie et du Maghreb, 3 vol Paris 1904-7.
Bidpai, K Kalila wa-Dimna, tr Ibn al-moqaffa, BEirut 1884. See s.v.Ibn al-Muqaffa
al-Biruni, Abu l'-Rayhan Muhammad, K. al-Tafhim li-awa il sina at al-tanjim, ed and tr. R. Wright, London 1934. See s.v. Wright.
Blachère, R., Les Gatégories des nations, paris 1935. See s.v. Said.
Bosch Vilà, Jacinto, Los Almoravides Tetuan 1956.
Browne, E. G., Revised tr. of the Chahar Maqala of Nizami-i-Arudi of Samarqand, London 1921.
Brunot, L., Textes arabes de Rabat, 2 vols., Paris 1932, 1952.
Brunot, L and Malka, E., Textes Judéo-arabes de Fès, Rabat 1939.
Brunschvig, R La Berbérie Orientale sous les Hafsides, 2 vols., Paris 1940-47.
Cagigas, I Los mozarabes, 2 vols., Madrid 1947-8
Calendario "Un Calendario anonimo Granadino del siglo XV," ed. José Vazque RIEIM, IX-X (1961-2), pp.23-64.
Le Calendry (anonymous). Ed. Dozy, New ed. with Fr. tr Ch. Pellat, Leiden 1961.
Concordane Wensinck.
Cronica and cronica anonima At-Abd al-Rahman III al-Nasir, ed. E. Lévi- Provençal and Gomez, Madrid Granada 1950.

فهرس عام بأسماء الأعلام والأماكن والقبائل والجماعات والمصطلحات
الواردة في كتاب (التبيان)

(ت)

(ث)

(ج)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

1 - ابن رشيق
2 - ابن عمار
3 - الأندلس
4 - باديس بن حبوس
5 - الفونش
6 - لييط
7 - تميم بن بلقين
8 - أمير المسلمين (يوسف بن تاشفين)
9 - رعية
10 - الروم (النصارى)
11 - صنهاجة
12 - غرناطة
13 - مالقة
14 - المعتمد بن عباد
15 - المعتصم بن صمادح
16 - معقل
17 - وادي آش
18 - ولد أبي إبراهيم
19 - تميم بن بلقين

مطابع منشورات عكاظ
4 شارع الحسن الثاني
الحي الصناعي فيتا - الرباط
رقم الايداع القانوني : 1995/1155

سلسلة المعتمد بن عباد

تعتبر سلسلة المعتد بن عباد للتاريخ الأندلسي ومصادره أول سلسلة تعنى بالتاريخ الأندلسي بصدرها ناشر مغربي . تشمل أساسا مجموعة من الدراسات الجامعية المتخصصة والجادة حول التاريخ الأندلسي ومصادره ، وضعها متخصصون في التاريخ الأندلسي في الجامعات المغربية وفي دول إسلامية وأوروبية كليبيا والعراق وإسبانيا.

تضم هذه السلسلة

- الدكتور امحمد بن عبود،
  مباحث في التاريخ الأندلسي ومصادره
- أحمد الطاهري،
  عامة قرطبة في عصر الخلافة
- الدكتور عبد الواحد ذنون طه ،
  الفتح والاستقرار في شمال إفريقيا والأندلس
- الدكتور حسن الوراكلي،
  لسان الدين بن الخطيب : دراسة وببليوغرافية
- الدكتور أمين توفيق الطيبي،
  كتاب التبيان ، أو مذكرات عبد الله بن بلقين آخر أمراء بني [illegible] بغرناطة
- إبراهيم القادري بوتشيش،
  أثر الاقطاع في تاريخ الأندلس السياسي



الثمن